

أحمد زكي

حياته.. وفكره.. وأدبه

د. محمد محمد الجوادى



اعـــلام العـــرب

(١٠٥)



حياته وفكره وأدبه

د. محمد محمد الجوادى



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٤



إهـــــداء

إلى والدىّ الجليلين : ـ

الدكتور عبد الستار مصطفى

والأستاذ على محمود البطراوى

تحية إعزاز وإجلال وتقدير .



تقديم

بقلم الأستاذ الدكتور

محمد عبد اللطيف ابراهيم

بقدرما أسعدنى أن يطلب منى الدكتور محمد الجوادى أن أكتب مقدمة هذا الكتاب بقدر ما تملكتنى رهبة لا أدرى كنهها ، ربما لأنى بعيد بحكم تخصصى عن الكتابة والأدب ، وان كنت فى مقتبل عمرى من عشاقهما ، وربما لأنى أحسست أنى أحاول الغوص فى أعماق بحر حدوده بعيدة ، وأعماقه ساحقة ، يحتاج الى ملاح ماهر يستطيع بخبرته وسعة أفقه أن يلتمس من دره وصدفاته ما شاء وما شاءت له الظروف ، وربما لأن اسم أحمد زكى مرتبط فى ذهنى منذ أمد بعيد بقيمة علمية وأدبية كبيرة لا يستطيع الانسان أن يقيمها وهو راض بما قدر ـ وربما لأن هذه الأسباب كلها مجتمعة ـ جعلتنى أرهب الكتابة عن هذا العالم الجليل الذى عرفته الأجيال السابقة والأجيال الحاضرة كأحد العمالقة الذين أثروا الحياة العلمية والأدبية فى مصر والوطن العربى على مدى نصف قرن أو يقارب ذلك ٠

وأعتقد أن ليس من الضرورى أن يكون الانسان معروفا لك معرفة شخصية حتى تتمكن من الارتواء من أفكاره والاستمتاع بتجاربه ٠٠ وقد عرفت الدكتور أحمد زكى على صفحات المجلات والكتب ـ وأظن أن معظم محبيه وعشاقه عرفوه عن هذا الطريق فآمنوا به وأخذوا بكتاباته وعشقوا أسلوبه ، واشهد انه على مدى

سنوات عديدة كان العدد الشهرى لمجلة العربى أمل كل قارىء ينتظره فى لهفة ويحرص على اقتنائه فور صدوره ، وكان مقال الدكتور أحمد زكى هو بيت القصيد فى كل عدد ، ففيه كنت تجد من الفكر والمعرفة وسلاسة العرض ورقة الأسلوب ما يجعلك تحرص على اقتناء هذه المجلة فى كل شهر حرصك على زادك من طعام وشراب ·

وأشهد أننى سعدت بمطالعة كتاب الدكتور محمد الجوادى الذى أتاح لى هذه الفرصة القيمة لأقرأ حياة انسان أحبه وأقدره ، وأضعه مثلا أعلى أحتذى به فى مشوار حياته الطويل ، ولا شك فى أن هذا الجيل الذى كان منه أحمد زكى ، ذلك الجيل الذى ولد فى أواخر القرن الماضى ، ومارس الحياة فى أوائل القرن الحالى وحتى أواسطه ، هو الجيل الذى حمل مشعل العلم والثقافة الى معاصريه والى الأجيال اللاحقة به حتى عصرنا هذا ، ولا يستطيع أحد أن ينكر فضل هؤلاء الرواد الذين أخذوا على عاتقهم مسئولية نقل هذه الأمة الى عالم النور والحضارة والمعرفة ·

تخرج الدكتور أحمد زكى فى مدرسة المعلمين العليا فى دفعة ضمت عددا من أبرز العلماء ورجال التعليم فى مصر ، وكان من أوائل المبعوثين الى الخارج ، وكان أول مصرى يحصل على دكتوراه العلوم فى الكيمياء ، وعاد ليكون أول أستاذ مصرى فى الكيمياء فى كلية العلوم ، وقد تخرج على يديه رعيل من أساتذة العلوم والكيمياء فى الجامعات المصرية والعربية أصبحوا روادا فى كل مكان يذهبون اليه ، وما زال هؤلاء جميعا يكنون له التقدير والاعزاز ويفخرون بالتلمذة على يديه ·

وعلى الرغم من أستاذيته الفذة ، وفوزه دائما بحب زملائه فى كلية العلوم وأحقيته فى العمادة الا انه وجه جهوده الى تمصير

مصلحة الكيمياء ومصلحة الصناعة ، وفى هذا الزمان كم كان ذلك صعبا فى وجود الاستعمار وهيمنته على مصالح الدولة جميعا ٠

ولعل أبرز انجازات الدكتور أحمد زكى فى المجال العلمى هو ذلك الصرح الضخم الذى هو المركز القومى للبحوث الذى كان بمثابة ابراز هام لفاعلية الجانب التطبيقى من العلوم فى حياتنا المعاصرة ، ولا شك أن المركز القومى للبحوث هو الدعامة القومية التى بنيت عليها لبنات الفكر لدى الباحث المصرى وهو أيضا التربة الخصبة التى نمت فيها هذه الأفكار فأثمرت وازدهرت ، ووضعت الباحث المصرى فى الموضع الذى يليق به على مستوى الوطن العربى والعالم الدولى ، وان من يحج الى هذا الصرح الشامخ دارســـا او باحثا أو زائرا لابد أن تحدثه نفسه بأن من فكر فيه وسعى لاقامته ورعاه حتى خرج الى الوجود ، هو بلا أدنى شك ابن بار من أبناء مصر ، خرج من أرضها ، وأظلته سماؤها ، ورواه نيلها ، فأراد أن يرد اليها بعضا من عطائها ، وكم كان عطاؤه أهلا بعطائها ٠

على أن هذا العطاء المتدفق لم يقتصر على وطنه المصرى بل امتد ليعم أمته العربية ، ولعل أبرز انجازاته فى هذا المجال : مجلة العربى ، التى يعرفها ملايين القراء العرب من المحيط الى الخليج ، وأشهد أننى عرفت الدكتور أحمد زكى على صفحات هذه المجلة التى أعتبرها عملا من أعمال الريادة والسيادة فى الثقافة والأدب ، وقد خرجت هذه المجلة الى النور فى وقت تدفق فيه البترول فى صحراء العرب ، فانتقلت الأمة العربية فى طفرة الى عالم غير الذى كانت تعيشه ، فضاعت أو كادت تضيع معالمها ـ وأخشى أن أقول انها عرفت فى العالم الخارجى بأمة اللهو والترف واللامبالاة ـ حتى ان شاعرا عربيا كبيرا نادى أعماق هذه الأمة فى وقت من أوقاتها الحالكة ، أن تحاول أن تؤلف كتابا ، أن تقرأ كتابا ، أن يحاول

افرادها أن يذهبوا الى بلاد الثلج والضباب لكى يتعرف عليهم الناس هناك ، ولا يحسبونهم نوعا من الذباب ·· أقول : فى هذا الوقت المظلم كانت مجلة العربى كالشمعة المضيئة لا يستطيع الظلام مهما كان كثيفا وثقيلا أن يحجب ضوءها · ولقد كنت دائما ولازلت أقول انه يكفى دولة الكويت أن تتبنى هذا العمل المجيد الذى قدر له أن يستحوذ على قلوب العرب جميعا وكان بداية طيبة لظهور العديد من أمثال هذه المجلة فى أنحاء شتى من الوطن العربى ·· لكم كان أحمد زكى عظيماً عندما قام باصدار هذه المجلة ، وتفرغ لها سنوات عدة أعطى فيها من فكره وعلمه وأدبه ما ثبت أقدامها ، وما كان كفيلا بأن يدفعها دائما الى الأمام حتى وقتنا هذا ، وحتى بعد رحيله ، فما زالت روحه الفياضة تستشف فى صفحاتها ، ومازال فكره يقرأ فى حروفها ، وما زالت ـ وأدعو الله أن تظل ـ باذن الله رسول محبة فى أنحاء الوطن العربى ·

لا أريد أن أطيل على القارىء ، فسوف يجد بيان انجازات هذا العالم الجليل على صفحات هذا الكتاب ، من مؤلفات تتجلى فيها قدرة العالم الأديب الذى وهب من القدرة على التعبير وفهم القدرة الالهية ما جعل كتاباته فى هذا المجال فى الدرجة الأولى بين الآثار الأدبية والعلمية معا ، ويتجلى هذا بصفة خاصة فى مؤلفيه : « مع الله فى السماء » ، « مع الله فى الأرض » ناهيك عن مئات المقالات فى المجلات المختلفة وفى المجالات المتعددة من أدب وعلوم وسياسة وطب وغير ذلك ·

قد لا أعرف الكثير عن حياة الدكتور أحمد زكى الوظيفية والسياسية ، وقد لا يهمنى كثيرا أن أمس هذا الجانب ، ولكنى أود أن أشير أنه عندما كان فى مقعد مدير الجامعة كانت له قدرته الخارقة على المواءمة بين حرية الجامعة وسلطة الدولة ، وبين ارادة العقل ،

وارادات الطلبة ، وهذه ميزات لا يتمتع بها الا القليل من رجال ذلك الزمان وكل زمان ٠

واذ أقترب من نهاية هذه المقدمة تخالجنى مشاعر متعددة ، يخالجنى شعور بأننى قد حاولت أن أجوب آفاقا لست ربانها ، وان كنت اشعر أن هذه المحاولة قد أرهقتنى الا أننى سعيد بها ، فالعائد منها أكبر من المبذول فيها ٠٠ يخالجنى شعور بالغبطة يقودنى الى شعور بالرغبة فى اتخاذ الرواد الأوائل قدوة نحتذى بها ، وهدفا نسعى اليه ٠٠ وأخيرا يخالجنى شعور بالسعادة أن أرى هذا المؤلف الطبيب الشاب يقدم هذا العمل الرائع عن حياة الدكتور أحمد زكى كما قدم من قبل أعمالا ناجحة فى سلسلة متواصلة عن أعلام علماء مصر المعاصرين ، وان كان الدكتور محمد الجوادى قد وفق كل التوفيق فى الكتابة عن هؤلاء الأعلام فانى أشهد أنه قد وفق كل التوفيق فى دراسته الطبية ، وهو الآن يشترك معى فى تقديم دروس ناجحة فى الجراحة باللغة العربية ٠٠ فأرجو له دوام التوفيق وأقدر جهده الرائع وحرصه المستمر على احياء حياة البارزين من العلماء المصريين ٠

دكتور محمد عبد اللطيف ابراهيم
رئيس جامعة الزقازيق



مقدمة المؤلف

ليس فى وسع المؤلف حين يباهى بكتابه وهو يقدمه الا أن يعترف فى ذات الوقت بأن كتابه كتاب بين دفتين عن كتاب مفتوح عاش تقرأه الناس ، وتقرأ له ، ثم مضى والناس لا تزال تقرأه وتقرأ له ، ويأتى هذا الكتاب فيضيف معطوفا جديدا حين يقال وتقرأ عنه !

بل ما بال المؤلف تأخذه نفسه الى جانب الزهو ، فيقول ما معناه ان الناس سوف يقرأون هذا الكتاب ، وبهذا يقرأون عن أحمد زكى ، وانى له ذلك القبول الذى لم يصبح بعد محل بحث ! ولما يخرج كتابه الى الناس ؟ ··· أهو التفـاؤل ، أم هو الأمـل ؟ ·· أم هو التمنى ؟ أم هو الرجاء ؟ ·· كل ذلك قد يكون ، ولكن الحق الذى لا مرية فيه أنالناس تحب أن تعرف من هو أحمد زكى ·· ووددت لو زاد علمهـا بهذا الرجل العظيـم ·· فاذا كانت حياتنا الثقافية والفكرية فى عقديها الأخيرين كانت تعانى مع كل العظماء أو الرواد أو العمالقة أو أدعياء بعض ذلك حالا قد يستساغ التعبير عنه بقول القائل « اننا نعرف عن حياة أولئك البارزين الشخصية أضعاف ما نعرف عن آثارهم وقدرها » ·· اذا كان الأمر كذلك فالحال مع أحمد زكى هو خلاف ذلك على خط مستقيم !

ولعل فى هذا ماكان باعثا حقيقيا ودافعا حثيثا للمؤلف حين يلقاه أهل الفضل من الناس ، وقد عرفوا من أمر اهتمامه بتاريخ أعلام علمائنا المعاصرين ماشرف به،فيسألونه عن كتابه عن الدكتور زكى ، وعن اليوم الذى يلقون فيه الكتاب ، فكان صاحبنا طيلة الف يوم

مضت يسعد بأن ينهى اليهم أنه انتهى من الكتاب ، وأنه قد دفع به الى دار النشر الأولى فى هذا الوطن !

أما ذلك الجيل الجديد من الشباب الذين هم فى الجامعة اليوم أو دونها ، فانهم يدهشون حين يرون الناس يسخرون من جهلهم بالدكتور احمد زكى صاحب العربى وبأحمد زكى باشا شيخ العروبة ، فى الوقت الذى تتراءى فى مخيلتهم صورتان لرجلين من أهل الفن فى القريب الحاضر فى التليفزيون والمسرح ! فاذا قدر لهذا الجيل الجديد أن يعرف بعض قدر الدكتور أحمد زكى أو شيخ العروبة ، فسوف يسخر من معلوماته أضعاف ماسخر منه سابقوه فى قرارة أنفسهم ·· هذا اذا نجح هذا الكتاب فى أن يصور للناس بعضا من أحمد زكى حياته وفكره وأدبه ·

قد يكتشف الناس بعد أربعين عاما ، أو نحو ذلك ، أن أستاذ الجيل الذى نحن منه (اذا كان لابد أن يكون له من أستاذ ، أو اذا قدر لهذا الجيل أن يكون له من الشأن ما يغرى بالبحث عن أستاذه ، أو اذا بحثوا فى شأن أفراد القلة النابهة من هذا الجيل لو أتيح لها أن تتقدم الصفوف فى العقود الأولى من القرن الحادى والعشرين) هو الدكتور أحمد زكى ، ولعل الرجل نفسه كان يعى هذه الحقيقة ، حين بذل – لا نقول من جهده ولكن نقول من نفسه – ما بذل طيلة مائتى عدد من مجلة العربى التى كانت بلا شك الرحيق الأوسع انتشارا بين طائفة محبى الثقافة الرفيعة على امتداد الوطن العربى ، بل اللسان العربى ، ولعله ، بل انه كان يعى تماما أن الأستذة مع عصره لم تعد كأستذة لطفى السيد فحسب ، فى جريدته أو فى جامعة المصريين الوحيدة ، أو نادى محمد على ·· وانما صارت أستذة الجيل مع الديمقراطية التى سودتها وسائل الاتصال (حتى ولو قيل ان الديمقراطية كانت غائبة) ، صارت هذه الأستذة الى

تلك الوسائل نفسها ، وأصبح هناك فى نفس كل طموح الى هذه الأستاذية تنازع قوى ، قد يكون خفيا ، وقد يكون ظاهرا بين الذيوع والخلود ، بين أستذة المواقف وأستذة العقليات ٠٠ ولهذا أدرك أحمد زكى ، وظهر أثر أدراكه واضحا ، ان أستاذية أجيال عصر الفضاء لابد لها من الملم واسع وعميق بثقافة رحبة عريضة ، تلزم لها التنمية المتواصلة ، ولهذا كان أحمد زكى فى كل أسبوع من أسابيعه ، بل فى كل يوم ، تلميذا على دقيقة من الدقائق الجديدة ، وبهذا أصبحت معلوماته ، وأصـــدق وصف لها القول الانجليزى «up to minute» « حتى الدقيقة » ٠

ولم يكن أحمد زكى فى حملاته الفكرية ولا فى انجازاته الانشائية فى المعاهد والمصـــــالح التى أنشأها أو أدارها ، من أولى الحنكة الحكومية الذين يحرصون على جسورهم من ورائهم ، بل انه كان من مذهب الذين يخاطرون فيقولون انه يستوى عندهم أن يحرقوا تلك الجسور أو لا يحرقوها ٠٠ لأنهم لا يتقهقرون أبدا ٠٠ وهكذا كان أحمد زكى لم يتقهقر أبدا ، وانما كان يترك المجال الى المجال الآخر لينشأ (أو فينشأ) ويبدع وينجز ويتفوق ويخلد ، ولعله لو نظر وراءه فى غضب لذهبت نظرته ببعض الآفاق التى حققها فى أى من مواقفه السبعة التى كان له فى كل منها اليد العليا ٠ وقد كان الرجل : المعلم الناجح فى التعليم الحر ، وكان بعد ذلك طالب البعثة النابغ ، ثم كان الاستاذ المحبوب صاحب المدرسة المرموقة ، ثم قاد تمصير مصلحة الكيمياء ، وتطويرها على خير ما يكون ، ثم انشأ المركز القومى للبحوث وشب به على نحو لم يكن لولاه ، ثم ولى الوزارة ، ثم تولى أمر الجامعة فحفظ عليها ثوبها ، ثم ذهب لينشىء للعرب من الكويت (ولا نقول فى الكويت) مجلة فيها اللسان وفيها الذاكرة وفيها العقل وفيها الروح التى هى من وراء كل ذلك ، ولو أن الشيطان كان قد تملك من نفس أحمد زكى القدر الأيسر الذى

يهيء لها أن ترى الخير فى نظرتها الى الوراء (فى غضب أو فى حسرة) ، أو الى المضى مع الماضى فى تخيل أو فى خطة ، لخسرنا من أحمد زكى الكثير ، ولكن ذلك لم يكن لأن الرجل لم يخسر من نفسه شيئا ، مع أنه كذلك لم يخسر من دنياه الكثير (ولا حتى القليل) ٠

وقد يكون الفرق بين أحمد زكى وبين كثير من أنداده الذين حظوا فى حياتهم العامة بكثير من هناءة البال ، هو ذلك الفرق الذى عبرت عنه قصة الراهبين أحدهما من الدومنيكان ، والثانى من الجزويت ، كانا فى الدير ، وأرادا التدخين فى أثناء نزهة ، فكان عليهما أن يسألا الرئيس الاذن بذلك ، وذهبا اليه كل بمفرده وعادا ، فوجد راهب الدومنيكان زميله يدخن ، فدهش وسأله السر الذى جعل الرئيس يأذن له ، بينما رفض طلبه ، فسأل الجزويتى زميله : ماذا طلبت من الرئيس ؟ فقال الدومنيكانى : طلبت أن يؤذن لى أن أدخن وأنا أذكر الله ! هنا افتر فم الجزويتى عن ابتسامة وهو ينفخ الدخان ، وقال : أما أنا فقد طلبت أن يؤذن لى أن أذكر الله وأنا أدخن !! ٠٠ وقد كان الدكتور أحمد زكى يسأل ويسأل ولا يقحم الادعاء بذكر الله ، لأنه كان فيه نزوع الحرية القوى ٠٠ ومع هذا كان فى قرارة نفسه القوية ، ومنذ مرحلة مبكرة ، من أشد الناس تحمسا للنظام ، ولو قدر له أن يلخص فلسفته فى هذا الصدد لقال قول القائل : أنه كان يهتم فى شبابه المبكر بالحرية ٠٠ ثم أصبح بعد حين يهتم بالنظام ، وقد توصل الى أعظم فلسفة ، وهى أن الحرية من منتجات النظام !

كل أولئك من خلق الرجل ، ومن فضله ، ومن قدره ، سوف يتناوله الجزء الأول من هذا الكتاب فى شىء من التفصيل الجميل تتوالى فيه الفقرات على نحو لا يمل منه القارىء ، أو هكذا يود

المؤلف لو كان كذلك شعور قارئه ، فان كان الأمر كذلك ، فهلا انتقل المؤلف وقارؤه الى الجزء الثانى من هذا الكتاب !

وقد ظل الدكتور أحمد زكى رحمه الله حتى أواخر أيامه عقلا حاضرا ، وذهنا صافيا ، ونظرا ثاقبا ، وقلبا شابا ، وصدرا رحبا ، ونفسا وثابة ، لم يضعف منه من كل ذلك شىء ، الا القوة التى تحمل كل ذلك ، كل هاتيك السنوات ، قوة العضل ، فمات الرجل بضعف العضلات ، قوى الايمان والفكر ، والشعور ، وبقى من بعده تراث عريض ، وانتاج غزير ، وفكر واسع المدى ، وكان على المؤلف أن يبحث عن كل ذلك ، وكان عليه أن يتطرق وأن يتشعب وأن يتفرع وكان عليه بعد ذلك أن يعود الى قارئه فلا يضطره الى التطرق أو التشعب أو التفرع ، وانما يضع بين يديه ، فكر الرجل ، مرتبا ومبوبا ، على نحو يتأتى منه تكوين الفكر عن الفكر ، وتزويد المفكر بالفكر ، وتصحيح الفكر بالفكر ، واعمال الفكر بالفكر ٠٠ واذا نجح المؤلف بالجزء الثانى من هذا الكتاب فى أن يحقق أيا من هذه الأمور الأربعة فقد يكفيه ذلك جزاء ما بذل من جهد ٠

جمع الدكتور أحمد زكى من مقومات الألمعية ما جمع ، ولكن أعظم ما فى شخصيته كان ذلك التوازن الظاهر ، والتعادل الكامن فى تلك المقومات التى يعرفها الناس فى عظمائهم يطغى بعضها على بعض ، كان فى الدكتور أحمد زكى ذلك التوازن الظاهر والتعادل الكامن بين ارهاف حاسة الفن ، ودقة نظرة العلم ٠ بين الحرص على المنصب الرفيع والتمسك بالخلق الأرفع ، بين حب الناس وتقدير النفس ، بين سهر الليالى وصحة البدن ، بين قوة العزيمة وشكيمة الزهد ، بين الحضور الجماهيرى ، والوحدة المؤنسة ، بين المعارف الواسعة ، والصداقات القوية ، بين عمل الأشياء الصغيرة باتقان ، وعمل الأشياء الصعبة بسهولة ٠٠ ولم يكن هذا شأن أحمد زكى فى نفسه فحسب ، وانما كان كذلك فى قلمه وأدبه : الفاظ

من قبل الميلاد ومن قبل الهجرة ، ومعان من بعد الفضاء وبعد الذرة، وشى عثمانى وحشو عصرى ، بديع أنيق فى بيان دقيق ، معان أوربية فى صياغة عربية ، ومعان عربية فى صياغة أوربية ، قصص فى مقال ، ومقال من القصص ، حبكة تنفك فتنشأ عقدة ·· وكل أولئك كان من وراء نتاج أدبى ضخم سوف يحاول الجزء الثالث من هذا الكتاب عرض بعض معانيه بأكثر مما يعرض الفن فيه ·

وسواء كان القارىء الكريم من الذين يقرأون مقدمة الكتاب بعد الكتاب نفسه ، أو كان من الذين يقرأونها من حيث هى ف الكتاب، فانى أود أن أعتذر اليه أن ليس فى امكان هذا الكتاب أن يضع أحمد زكى بين يديه ، وقد يشفع للمؤلف أن يوافقه القارىء على أن المثل العليا نجوم لن تستطيع أن تلمسها بيديك ، ولكنك ، تستطيع أن تكون كالبحارة الماهرين ، تتخذها مرشدا لك وتتبعها فتبلغ غايتك ·

ها وقد بلغنا غايتنا ، فهل للمؤلف بعد ذلك أن يفخر بأن كتابه هذا قد جاء ثمرة من ثمرات وقت انقطع فيه بعض الشىء عن القاهرة ، هل يريد بذلك أن يعتذر عن بعض ما قد يلحظ قارئه الكريم من عيوب ، يخشاها دائما المؤلف أن تقف به دون المكانة التى تحتلها القاهرة من الوطن !! ومع هذا فلو كان لهذا الكتاب أن يتميز على كتبى السابقة بشىء فقد يكون ذلك فى خفة حركة الأفكار فى سطوره ، وبصفاء الصوت فى الكتاب للمترجم عنه ، وبخلو فصوله الى حد كبير من تلك التقاطعات ، واستعاضته عن ذلك بشىء من التطويل فى شىء من الدوران قد يفهم على أنه تكرار ·· ومع هذا يطمح المؤلف أن تكون تلك الخصال الثلاث مما ينال رضا القارىء ، وتقديره للزقازيق (لا للمؤلف) فهى سر كل تلك الانعكاسات ·

أما ما ينبغى للكتاب من تزيين بشكر أصحاب الفضل وراءه ، فينصرف اليوم الى شقيق عالمنا الكبير ، اللواء حسن عاكف ، وانى لأرجو الله أن يأتى اليوم الذى يجد فيه من تقدير وطنه ، ما هو أهل بهذا الوطن ، وسمائه ، وينصرف كذلك الى أساتذتنا الأجلاء الدكاترة كامل منصور ومصطفى أمين ومحمود حافظ وعبد المنعم أبو العزم وحامد جوهر وحسين فوزى وصلاح جلال ومحمد طنطاوى ومنير نصيف واميل سمعان وزميلى الدكتور سامح خميس ، فلهم جميعا الثناء الجميل ٠

دكتور محمد الجوادى



الجـــزء الأول

حيــاة احمد زكى



ولد الدكتور أحمد زكى بن محمد حســـين عاكف فى اليوم الخامس من شهر ابريل سنة أربع وتسعين وثمانمائة وألف (١٨٩٤) فى مدينة السويس ، وكان والده رحمه الله رجلا مثقفا جمع مكتبة كبيرة ووعاها ، وتعلم فى صغره فى مدرسة فرنسية ، وكان كعادة أغلب أهل العلم والشهادات فى ذلك الوقت من موظفى الحكومة ، وهذا هو ما ذهب بالأسرة الى السويس حيث ولد عالمنا الجليل ، ثم عادوا الى القاهرة عام (١٩٠٠) حيث ترعرع ٠

وكان والد أحمد زكى على صلة بالشيخ محمد عبده ، يتصل به ، ويستمع اليه ويأخذ بآرائه ، وهى ظاهرة مدهشة على الأقل فيما يتعلق بى ، فقد كان والد محمد كامل حسين كذلك ، وكان والد على مصطفى مشرفة كذلك ! وكانت لوالده ميول الى الكتابة ، وكثيرا ما كان يعلق على ما يقرأ بعبارات وجدها أبناؤه على هوامش كتبه تنم عن سعة أفق ، وسلامة عقيدة ، وقد امتد به العمر حتى رأى ابنه الدكتور أحمد زكى عالما كبيرا وأستاذا جامعيا ، ومديرا لمصلحة الكيميـــاء ، ثم توفى سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة وألف (١٩٤٣) أما والدته فقد توفيت وهو يدرس فى انجلترا ٠

كان أحمد زكى أكبر أشقائه ، وكان له شقيقان ، وثلاث شقيقات ، فاما الشقيقان فهما المرحوم الأستاذ محمد أمين عاكف ، وكان من كبار رجال التعليم المصرى ، واللواء حسن عاكف ، أطال الله بقاءه • عضو جمعية المهندسين الجويين بلندن ، والطيار المصرى اللامع ، وأما الشقيقات الثلاث فقد توفيت وسطاهن « حنيفة » بعد عودتها بشهادة عليا من انجلترا ، وعملها أستاذة فى معهد البنات ، وكانت من أوليات المصريات اللاتى ابتعثن للخارج فى سبيل العلم ، وأما الشقيقتان الأخريان فهما زوجتا الأستاذين عبد الرحمن خضير وكيل وزارة الشئون القروية السابق ، والأستاذ جنيد رئيس تحرير البلاغ عليهم رحمة الله جميعا •

ولما شب الدكتور أحمد زكى عن الطوق بعث به الى الكتاب ، فلم يطقه ، وتركه بعد أيام معدودات الى المدارس الحكومية ، وقد تحدث عالمنا عن تجربته فى الكتاب فى أكثر من موضع ، ودرس الدكتور أحمد زكى سنوات من المرحلة الابتدائية فى السويس ثم فى القاهرة فى مدرسة عباس الابتدائية فالتوفيقية الثانوية وعرف رحمه الله بالجد فى التحصيل وبروز الشخصية فى هاتين المرحلتين ، وبالاضافة الى هذا كان أحمد زكى الجناح الأيسر لفريق كرة القدم فى التوفيقية الثانوية ، وحصل عالمنا الجليل على البكالوريا سنة ١٩١١ ، وكان ترتيبه الثالث عشر على القطر المصرى •

آثر أحمد زكى أن يلتحق بمدرسة المعلمين العليا ، فالتحق بها ، وزامل فيها مجموعة من العظماء ، قلما اجتمع عدد كبير منهم فى نفس الدفعة ، قاد هؤلاء حركة الثقافة وهم طلبة وهم شباب ، ثم تسلموا مقاليد التعليم المصرى لفترة طويلة من الزمان فارتقوا به وحافظوا له على مستوى دولى مرموق •

زامل الدكتور أحمد زكى الأستاذ محمد فريد أبو حديد الأديب

والكاتب وعضو مجمع اللغة العربية وأحد كبار رجال وزارة المعارف ، والدكتور محمد عوض محمد الجغرافى والأديب والوزير النابه وعضو مجمع اللغة العربية وأحد رواد الاصلاح ، والدكتور احمد عبد السلام الكردانى ـ أطال الله بقاءه ـ أمين جامعة القاهرة ووكيل وزارة المعارف وأول من درس الطيران وهندسته ، وعبد الحميد العبادى المؤرخ والأستاذ الجامعى الكبير وعضو مجمع اللغة العربية ، والأستاذ محمد بدران شيخ المترجمين العرب فى العصر الحديث ، وأحد كبار رجال التعليم والثقافة ، والأستاذ محمد شفيق غربال الأستاذ الجامعى ، والمؤرخ الكبير ، والمشرف على اصدار الموسوعة العربية الميسرة ، وعضو مجمع اللغة العربية والأستاذ محمد أحمد الغمراوى أحد رجال التعليم والعلم البارزين ، والأستاذان محمد عبد المنعم أبو زهرة ومحمد عبد الوهاب خلاف من كبار رجال وزارة المعارف والجامعة ، والأستاذ محمد كامل سليم الذى اختاره سعد زغلول سكرتيرا خاصا له ، ثم تدرج فى مناصب الحكومة حتى كان سكرتيرا عاما لمجلس الوزراء المصرى ، وغير هؤلاء من الدفعات السابقة واللاحقة ٠

كانت مجموعة متميزة باتساع الأفق ، وعلو الهمة ، وسمو الغاية ، انظر اليها وقد ألفت من بينها وهى على وشك التخرج من مدرسة المعلمين « لجنة التأليف والترجمة والنشر » أعظم مؤسسة وطنية قامت للنشر فى مصر ، واختارت اللجنة ضمانا للنجاح أن تبدأ بالكتب المدرسية ، فعهدت بكتاب « مبادىء الكيمياء » الى أحمد زكى وأحمد الكردانى ليترجماه ، ثم أخرجت اللجنة الكتاب بالعربية ، ليكون المرجع الأول لطلابها ، وبقى هذا الكتاب كذلك لفترة طويلة ٠

وتخرج أحمد زكى وزملاؤه ، فلم يجدوا أبواب الرزق مغلقة ، ولكنهم وجدوها لا تتسع لهم ، كانت الحرب العالمية الأولى قد دقت

الأبواب ، وانتشروا فى الأرض يبحثون عن عمل يكفل لهم لقمة العيش ، وترددوا فى وظائف التدريس بين القاهرة والأقاليم ، وعمل أحمد زكى بالتدريس فى بعض المدارس ثم ناظرا لمدرسة وادى النيل الثانوية بباب اللوق بالقاهرة ، وكانت على مقربة من الجامعة المصرية القديمة ، وكان صاحبها هو والد الفنان يوسف وهبى . وتقوم مكانها اليوم المدرسة الألمانية بباب اللوق .

وقد وصف احمد زكى حاله وهو ناظر ، وتلاميذه يكبرونه فى السن ، وطولهم أكبر فقال فى طرافة : « ولكن شاربى يفوق شواربهم لأنه يبرم الى أعلى ، وكانت مودة العصر » فاتخذ احمد زكى منها ضرورة أدبية .

وكانت النفوس فى نهايات الحرب العالمية الأولى مشتعلة بالغضب على الانجليز ، تبغى الخلاص منهم ، وقد اتخذ هذا الغضب بعد مرحلة قصيرة صفة الثورة العامة ، فكانت ثورة ١٩١٩ ، ولكن بدايات هذا العنف كانت عند الشباب من أمثال احمد زكى وانداده وطلبته ، ويعبر احمد زكى عن ذلك بقوله انه كان هو ومصطفى عبد الرازق ، ومنصور فهمى واحمد أمين زملاء فى مدرسة الثورة ، وكانت مهمة الناظر وقتها تنظيم الاضرابات ، وقد خرج طلبة احمد زكى ذات يوم فى مظاهرة تحدت الانجليز الذين اصطفوا فى انتظار مقدم السلطان فؤاد لافتتاح الهلال الأحمر ، وخرجوا فى يوم آخر ثم عادوا الى المدرسة وجاء الانجليز يلاحقونهم ليلحقوا بهم الأذى ، فلم يجدوا فى الفصول الا الطلبة الصغار وضعاف البنية ، وكان احمد زكى الناظر قد أخفى الطلبة فى البدروم وهكذا .

وشارك أحمد زكى فى حركة المعلمين لتكوين نقابتهم ، وانتخب سكرتيرا عاما لنقابتهم الأولى .

كانت نفس احمد زكى مشتعلة بالثورة ، ولكنها كانت تواقة كذلك الى العلم ، وقد رشح احمد زكى بحكم أوليته لبعثة الى انجلترا ، ولكنه حرم منها بسبب رسوبه فى الكشف الطبى ، ولكن نفسه ظلت تواقة الى العلم ، وذهب يدبر أمر السفر على نفقته الخاصة ، حتى اذا توفر له من ماله ذلك القدر الذى يمكنه من البداية قرر السفر ، وأخذ طريقه الى انجلترا ، والتحق بجامعة ليفربول فى كلية العلوم ، واختار التخصص فى الكيمياء ، هكذا دون أن يخطط له أحد أو يوجهه ٠

وقد قال فى ذلك : « ولم يكن للمصريين فى نهضتهم الحديثة ، الى ذلك اليوم علم بهذه الكيمياء ٠٠ كانت الكيمياء شيئا مجهولا ، أقسامها وحروفها ، وسألت فما شفانى مجيب » وليس فى هذا مبالغة اذا ما تذكرنا قصة ترجمة كتاب « مبادىء الكيمياء » التى قام بها عالماهو والكردانى ٠

سافر الدكتور احمد زكى فالتحق بجامعة نوتنجهام ، والسر فى هذا أن جامعة نوتنجهام كانت الجامعة الوحيدة التى استجابت لطلبه بعدما كتب الى الجامعات البريطانية يبتغى الالتحاق بها ، وحين ذهب الدكتور احمد زكى الى نوتنجهام ، لم يكن فيها من المصريين الا اثنان : على مصطفى مشرفة ، ومحمد احمد الغمراوى ٠ ولم يكن سبقهم الى الدراســـة فيها على ما يرجح الدكتور زكى الا النقراشى باشا رحمهم الله جميعا ٠

ويصف الدكتور احمد زكى أيامه الأولى فى الجامعـــة وبين الانجليز فيقول : « كنت فى أول أمرى بادى الحس مرهفه ، ثم تعلمت من القوم انثلامه ، وتعودت أن أسير فى طرقات الحياة هادئا باردا لا أبالى ، وان تأججت فى قلبى مما ألقى وممن ألقى جمرات ،

والأدب شاع فى القوم فلكل عطاء شكر ، ولكل أخذ اســـتئذان ، والصف ، والطابور ، ولم نكن تعودناه فى مصر طمأنا أنفسنا على الوقوف فيه ·· ان القادم الأول له الخدمة الأولى واذن لابد من ترتيب » ·

ثم حانت للدكتور فرصة للانتقال الى جامعة ليفربول « وهى جامعة أكبر ، والمدينة مدينة أفسح ، والمصريون كانوا فيها كثرة وكان فيهم انبساط ، وعندى انطواء فقل بهم لقائى ، وتنقلت بين الأسر أنزل بها ، فتارة أحمد ، وتارة أذم » ·

« وألفت رجال هذه الجامعة ، وألفونى ، وحمدت لهم ، وحمدوا لى ، وكان أساتذتى بها فى العلم أساطين ، رأيت الأستاذ الكبير بالى مرة يســـير من معمل فى الجامعة الى معمل ، وبين الاثنين شارع ، وفى يمناه أجهزة ، وفى يسراه ، وهو مثقل بها ، فأسرعت اليه أحمل عنه ، فدفعنى فى لطف ، فلما ألححت قال لى : « ان كنت مغرما بحمل الهموم فاحمل هذه عنى ، وكان ذاعين واحدة ، والأخرى من زجاج ، فقد كان ذهب بها فى شبابه فرقعة جاءته فى تجربة كيماوية لم يحسب لها حسابا » ·

« ورأيت ضحى يوم رجلا طويلا مهيبا على رأسه شعر طويل منتفش ، وهو يسير فى رحاب الجامعة فى هالة من الناس ، فسرت نحوهم ، فوجدت بينهم أساتذة عرفت ، وأساتذة لم أعرف ، وهم يدورون فى الجامعة بصاحبهم ، وسألت من الزائر قيل أينشتين فتبعت مع التابعين ، ولم يرتفع من حوله صراخ ، كان الوقار السائد ، وكان السكون فكأنما كنا نسير معه فى مأتم » ·

قضى احمد زكى عاما وعامين يحاول أن تلحقــه الحكومة المصرية ببعثتها حتى أفلح فى النهاية أن يضم الى البعثة الرسمية ،

ومن ملف الدكتور احمد زكى فى وزارة المعارف ننقل نص هذا الخطاب المؤرخ ١٩٢٢/٢/٩ :

« حضرة صاحب السعادة وكيل وزارة المعارف

السلام على سعادتكم ورحمة الله

قدمت العام الفائت طلبا الى صـــاحب المعالى وزير المعارف السابق أطلب فيه الى الوزارة أن تدمجنى ضمن طلبة ارساليتها بانجلترا ، وقد تسلمت الوزارة طلبى هذا فى يونيو الفائت ، وقد وعدتنى بلسان الوزير عن طريق قلم الارسالية على اثر ذلك بالنظر فى طلبى هذا العام لأن وقت النظر فى ارسالية العام الفائت كان قد تم .

وليس لدى الآن من جديد أزيده على ماطلبته فى العام الفائت سوى لفت نظر سعادتكم الى تقرير قرأه على منذ أسبوعين المستر اليوت رئيس قسم الارسالية بلندن ، وهو تقرير عنى كتبه رئيس مدرســة الكيميــاء بجامعة ليفربول البروفسور بالى الى وزارة المعارف ، وفيه انه لا شك فى نيلى درجة الشرف فى الكيمياء ومن المصنف الأول فى يونيو القادم ، وانه ينصـــح لى بالبقاء عامين آخرين فى الجامعة لنيل الدكتوراه D. Sc فرجائى من سعادتكم عند النظر فى طلبى أن تلحقوا هذا التقرير به ولكم منى الشكر المضاعف .... » .

وألحق الدكتور احمد زكى بالبعثة المصرية ، وحصل على بكالوريوس العلــوم من ليفربول عام (١٩٢٣) وعلى دكتــوراه الفلسفة (Ph. D.) عام (١٩٢٤) ثم واصل دراسته فى جامعة مانشستر حيث القطن ، وعمل مع الأستاذ الكبير روبرت روبنسون ،

وجد الدكتور زكى فى عمله ، حتى ان الجامعة أعطته مفتاحا من مفاتيح أبوابها الرئيسية ، ليخرج ويدخل وقتما شاء ·

ويحدثنا الدكتور زكى عن موقف الطلبة والجامعات البريطانية من السياسة ، وهو موقف نال اعجابه : « وأحسست انه كان فى الجامعة ، من طلبة وأساتذة ، للسياسة والساسة احتقار ، وعنها وعنهم ترفع ، والسياسة عندهم عمل فردى ، وهى واجب ، ولكنها واجب شخصى كبعض الواجبات والضرورات التى يقوم به الشخص منا فى خلواته » ·

لهذا لم يكن عجبا ألا يجد الدكتور زكى فى يوم من الأيام فى تلك الجامعة مظاهرة أو اضرابا أو تجمعا أو مناقشات سياسية ·· الخ ·

وبعثت به جامعة (مانشستر) الى النمسا ، الى جامعة جراتس حيث الأستاذ بريجل مبتدع التحليل المكروئى للمواد ، وقضى الدكتور زكى أياما ممتعة فى صحبة العالم الكبير ، وتلاميذه الأفذاذ ، وطلبة الجامعة الذين يشتغلون بالسياسة على خلاف الانجليز ·

ويعود الدكتور زكى الى انجلترا ، والى جامعة لندن فى عاصمة الانجليز ، ويتقدم لنيل درجة الدكتوراه فى العلوم ، أعلى الدرجات العلمية «D.Sc» فيحصل عليها سنة (١٩٢٨) ويصف نقاشهم له عند نيل الدرجة فيقول : « كان نقاشا طويلا ، ذكرنى بنقاش الأزهر عند العالمية ، وخلصت منهم خلوص الشعرة والسر أنى كنت أعلم بالذى أنا فيه » ·

ويحتفظ الدكتور زكى للندن فى ذاكرته بالذكرى الطيبة ، وقد

كان سعيدا أن يدرس فيها ، وأن يقضى وقتا فى العاصمة ، « كنا فى محاضرة ، وبعد الفراغ منها علمنا أن الملكة كانت بيننا تستمع ، جاءت من الباب الخلفى الأعلى للمدرج ، وخرجت السيدة الشيخة الوقور تتوكأ على عكازها ، والكل وقوف فى احترام شديد ، ولم ينبس أحد منهم • كان حتما أبلغ من الكلام » •

وبحصول الدكتور زكى على درجة الدكتوراه فى العلوم ، أصبح ثالث ثلاثة يحصلون على هذه الدرجة فى مصر بعد المغفور لهما على مصطفى مشرفة وعبد العزيز احمد •

وعاد أحمد زكى الى وطنه عام (١٩٢٨) ليجد فيه جامعة ناشئة ترحب به أستاذا مساعدا للكيمياء العضوية فى كلية العلوم ، وليكون من أوائل المصريين الذين يحظون بهذا الشرف العظيم ، وسرعان ما يحصل احمد زكى على الأستاذية عام (١٩٣٠) ليكون أول أستاذ مصرى فى الكيمياء •

وسوف نتحدث عن احمد زكى الأستاذ ، ورائد الطلبة ، والباحث ، عندما نفرغ من سرد تاريخ حياته الى التأمل فى نواحى شخصيته بعد حوالى ساعة أو أكثر من الآن •

ثم تجىء انتخابات العمادة عام (١٩٣٦) لانتخاب أول عميد مصرى فيفوز الدكتور أحمد زكى بأغلبية الأصوات يليه الأستاذ أفلاطون ويليهما الدكتور مشرفة ، ولكن حكومة الوفد الحاكمة فى ذلك الوقت تعين مشرفة عميدا ، والاثنان بل الثلاثة خيار من خيار ، ولكن احمد زكى يغضب ، ويتكلم نائب فى البرلمان ، ويرد الوزير الكبير فى البرلمان ليقول ان القانون يعطينا هذا الحق (حق اختيار العميد من بين اكثر ثلاثة أصواتا) ، وهو قانون العمادة الذى كان ولا يزال ، ويتكلم طه حسين مع مكرم عبيد على نحو ما روى

محمود عوض على لسان الدكتور زكى ، وتخلو مصلحة الكيمياء من مديرها الأجنبى ، فيذهب اليها احمد زكى مديرا لا بحكم الترضية فحسب ، ولكن لأن منصب مدير مصلحة الكيمياء لا يجد بين المصريين من هو اصلح له ولا اجدر به منه ·

ويبقى احمد زكى على صلة بالجامعة ، وتتكرر مسالة العمادة فى عام (١٩٣٩) ، ويلحون على احمد زكى فى البقاء بالجامعة ، ولكنه يصمم على التحول من الجامعة ، ويقول انه جاز له الا يتحول عند الفشل الأول ، اما عند الثانى فقد وجب التحول « ومنونى ، فقلت لا اقيم بأرض تزرع الفشل » ·

ويبقى احمد زكى مديرا لمصلحة الكيمياء أحد عشر عاما ينهض فيها بالمصلحة الى المصاف الأول من معاهد الكيمياء فى العالم ، ويجعلها قادرة على الوفاء بحاجة المجتمع المصرى وصناعاته ، وما الى ذلك من المهام العلمية والتحكيمية التى تقوم بها مصلحة الكيمياء ·

ويأخذ الدكتور احمد زكى يلعب دوره المرموق فى المجتمع المصرى ، فيكتب فى الاصلاح الاجتماعى ، ويكتب اكثر فى الثقافة العلمية ، وتفسح له المجلات الكبرى المجال ، فكان من اعمدة مجلتى الرسالة والثقافة ، ومن محررى الصفحات العلمية الكبرى فى الصحف اليومية واسعة الانتشار ·

ولا يفتأ احمد زكى يكتب مطالبا بانشاء معهد قومى للبحوث العلمية ، يتولى أمرها فى مصر ، فى سبيل العمل من اجل قيام النهضة المصرية على الأسس العلمية الثابتة ، وتتجاوب دعوة د· زكى مع دعوات زملائه من العلماء والمفكرين ، حتى تنتهى الحرب العالمية

الثانية بالانفجار المروع للقنبلتين الذريتين ، اللتين أبانتا عن خطورة دور العلم ·· وينشر الدكتور احمد زكى على ما يروى أستاذنا الدكتور أبو العزم « كلمة فى اطار أسود ينفى فيها مشروع المجلس الأهلى للبحوث الذى لم ير النور بعد » ، وكانت كلمة لها صداها ، ولم تمض الا فترة وجيزة حتى خرج قانون مجلس فؤاد الأول الأهلى للبحوث الى حيز التنفيذ عام (١٩٤٥) ويختار الدكتور زكى سكرتيرا عاما للمجلس بالاضافة الى منصبه مديرا لمصلحة الكيمياء ·

وفى العام التالى (١٩٤٦) تضاف الى الدكتور احمد زكى أعباء ادارة « **مصلحة الصناعة** » فتجتمع فى يد الرجل مفاتيح ادارة العلم التطبيقى فى مصر ·

وفى سنة ١٩٤٧ يبلغ مجلس فؤاد الأول الأهلى للبحوث مرحلة متقدمة من التنظيم ، وينشأ له جهاز تنفيذى ، ويختار الدكتور زكى ليكون أول مدير للمجلس (بدرجة وكيل وزارة تتبع رئاسة الوزراء مباشرة) ويبقى عالمنا على هذا الوضع خمس سنوات (١٩٤٧ ـ ١٩٥٢) ليؤسس المركز القومى للبحوث على خير وجه ، على نحو ما يرويه لنا أستاذنا الدكتور حامد جوهر فيقول : « كما أن له الفضل الأكبر فى نفخ الروح فيه ، فقد دأب على حفز أولى الأمر فى ذلك الوقت على الاهتمام به ، واخراج مراكز البحوث الى الوجود ، وقد شاعت له دقته العلمية وسمو همته أن تكون هذه المراكز على أحدث ما وصلت اليه العلوم والفنون ، فرأى بثاقب فكره وقوة ارادته وحسن ادارته أن يبدأ من حيث انتهى من سبقونا ، ولهذا الغرض كانت رحلاته فى أنحاء الدنيا القديمة والحديثة يزور كل المعاهد والمؤسسات العلمية والصناعية والجامعات وكل مكان يكون للبحث العلمى والتطبيقى فيه شأن حتى جاء مجمع المراكز

القومية للبحوث آية فى الابداع والكمال ، وظل دليلا عمليا ساطعا على ما اتصف به فى جميع أعماله من دقة علمية متناهية فلم يدع صغيرة ولا كبيرة الا أولاها ما تستحقه من العناية والاهتمام » .

« وانى لأستعمل هنا اسم مجمع مراكز البحوث لأنه فى الواقع عدد من مراكز البحوث اجتمعت فى موقع واحد ، وهكذا قصد فقيدنا الكبير عندما فكر فى انشائها » .

« ولقدتوخى قبل أن يتموضع برنامج المجمع ورسومه ومواصفاته أن يتم ذلك عن طريق مسابقة دولية عالمية ، اشتركت فيها البيوتات الدولية المشهود لها بالخبرة والكفاءة والامتياز ، ثم جاء دور الاختيار من بينها فوكل أمر ذلك الى هيئة عالمية ممتازة من العلماء اختارها لهذا الغرض بخاصة ، فاذا جاء دور التنفيذ كان سبيله الى ذلك مناقصات دولية عالمية اختيرت من بينها الهيئة الأصلح والأقدر على ذلك وأشرفت على التنفيذ هيئات خاصة أيضا لم يكن اختيارها يتم بدون الدقة نفسها التى نالتها عمليات أخرى . وعلى الوتيرة نفسها تم تجهيز هذه المراكز » .

« وكان هو فى هذه الأعمال العقل المفكر المدبر المنسق المؤقت ، وقد راعى فى كل ذلك حركة التطور السريع التى يشهدها العلم فى هذا العصر ، وأهمية نماء العلم والبحوث العلمية والتكنولوجية للجيل الذى كان يعيش فيه والأجيال التى تليه » .

ولا غرو اذن اذا جاء (مجمع البحوث) اية فى الاعجاز ومثلا أعلى لما تكون عليه المشروعات العلمية فى عصر الفضاء قبل أن يأتى هذا العصر » .

وكان احمد زكى ابان رئاسته لمجلس البحوث وتعامله المباشر

مع رئيس الوزراء والوزراء يعانى أشد المعاناة من عقليات الساسة الذين يتعامل معهم فى الوازارات المتعاقبة · فقد كان هؤلاء مشغولين بل مأخوذين بالأمور العاجلة من مســـائل السياســة والجـــلاء والمفاوضات وأزمة فلسطين وما بعد الحرب العالمية الثانية ، ومن مســائل الانتخابات وتقسيم الدوائر ، وتوزيع الكراسى ، ويذكر عالمنا أنه جاءه ذات مرة مهندس يونانى قدير يعرض عليه فكـرة انشاء السد العالى وأقنعه بها ، وذهب به الدكتور زكى الى الوزير المختص فرد عليه هذا الوزير مستنكرا : « احنا فى ايه ولا فى ايه ؟ » لهذا يجد قارئنا فى فلسفة الدكتور زكى حملة شديدة على مثل هذه السياسة قصيرة النظر ، ولقد كان احمد زكى لهذا يعارض فى شدة وفى استمرار الشعار الذى رفعناه بعد ٥ يونيو قائلين « لا صوت يعلو على صوت المعركة » ·

ويشكل حسين سرى باشا وزارته الخامسة والأخيرة فى الثانى من يوليو عام (١٩٥٢) فيختـــار احمد زكى وزيرا للشــئون الاجتماعية ، وكان بين الرجلين صداقة وتقدير ، واذ تم تشكيل الوزارة على عجل ، فقد كلف البوليس باحضار أحمد زكى ، فذهبوا اليه كأنهم يقبضون عليه ، ويستحثونه الاسراع ، لمقابلة الملك ، فى الريدنجوت الأسود ، ولم يكن لديه هذا الريدنجوت الاســـود ، فاستعاره من صديقه الدكتور السنهورى ، وجاء مناســـبا الا فى الأكمام التى أظهرت – لقصرها – من تحتها ياقات القميص الابيض ناصعة جميلة · وقد صورت الصحافة ذلك الموقف يومها فى صورة طريفة حيث قالت انهم قبضوا عليه « بالبيجامة » ليكون وزيرا ·

ودخل احمد زكى الوزارة ، فحلف اليمين ، ومضى بعد لقاء الوزراء ، فاجتمع بوكلائها وبالمديرين فلما انفض الاجتماع أسرع اليه الصحفيون يسألونه ماذا هو فاعل ؟ وقد كان لسؤالهم معنى

فقد كان احمد زكى من أقطاب المنادين بالاصلاح الاجتماعى ، وها هو قد ولى الأمور ، وقال لهم احمد زكى انه اقتنع الآن أن هذه هى وزارة الانتاج فعلا ٠٠ يقصد انتاج المادة الانسانية وعبر لهم عن انه شعر بأنه ليس غريبا عن أهل هذه الصناعة لاتصالها بكل ذى فكر ٠٠ وانتقل الى الخطوات التنفيذية التى يزمع القيام بها فقال « انه لا اعتراض فى الاحسان الى العاجز المطلق ٠٠ أما أنصاف العجزة والأرامل فيمكن ابتداع وسائل لتحويلهم من رجال ونساء يحسن اليهم الى رجال ونساء يستطيعون بمال الضمان أن يقفوا على أرجلهم فينتجوا » أما كيف الوسيلة الى ذلك ؟ فقد قال احمد زكى انه يرى أن يعطى الراتب الذى يصرفه الضمان لهؤلاء أول السنة دفعة واحدة (بدلا من أن يعطى شهريا على ١٢ دفعة) وعندئذ يستطيع الواحد من هؤلاء أن يبدأ به مشروعا نافعا ترتفع به نفسه من مذلة الاحسان الى عزة الاستقلال فهذه فائدة ، ثم الفائدة الأخرى باخلاء مكانه لآخر من المستحقين الذين يقفون فى طابور الانتظار ، هنا قال له الصحفيون : ولكنك يا سيدى الوزير بهذا لا تعتبر الاحسان الى الفقراء حقا على الدولة ، كما ينص القانون ، فأجابهم احمد زكى فى بديهة حاضرة قائلا انه حق لا شك فى ذلك ولكن الكرامة الانسانية فوق الحقوق القانونية ٠

وقد أثار الدكتور احمد زكى أثناء توليه الوزارة مسألة تحديد النسل وكان يدعو الى التفكير فى الموضوع بجدية وموضوعية ، وكان يقول انها مشكلة عالمية ولا يكون حلها الا بزيادة الانتاج ، وزيادة الأرض ، والتركيز ، واتباع الطرق العلمية التى تضمن وفرة الانتاج ، واصلاح الصناعة والنهوض بها حتى تشكل مصدرا من مصادر الدخل التى ينبغى لها ان تسد حاجة الناس ٠

وكان أحمد زكى يدعو الى الهجرة ٠٠ وكان يحدد أماكنها

فيجعل على رأسها السودان الذى هو أحوج ما يكون الى الخبرة المصرية ·· ثم البلاد العربية التى تعانى من قلة السكان حتى انها مهددة بالغزو لهذه القلة ، ومضت الأيام وأثبتت الظروف عملية أفكار احمد زكى ·

وكان الدكتور أحمد زكى يؤكد أن برامج تحديد النسل يدعو اليها الوعى ، ولا تحكمها القوانين ، ولهذا فانه لا يريد تحديد النسل عند الأغنياء والقادرين ولكنه يريده عند أولئك الذين يعانون الفقر والتعاسة ولعمرى انه أصوب الآراء التى ينبغى أن تبنى عليهـا البرامج الاعلامية والدعائية لمشروعات تنظيم الأسرة

ولم تتح الأيام العشرون التى قضاها الدكتور زكى فى الوزارة أن يزج ثمرات برامجه الاصلاحية ، واستقالت وزارة سرى باشا فى الثانى والعشرين من يوليو سنة ١٩٥٢ لتعقبها وزارة نجيب الهلالى باشا التى لم تمكث أكثر من أربع وعشرين ساعة قامت فيها ثورة يوليو ١٩٥٢ ·

ولم يكن أحمد زكى سعيدا بالفترة التى قضاها وزيرا ، وقد عبر ــ عرضا ــ بصراحة عن مشاعره تجـاه هذه الفترة فقال : « وكانت تجربتى فى الوزارة تجربة مرة ، عرفت منها أن للحكم ظاهرا يعرفه الناس ، وأن للحكم باطنا لا يعرفونه ، وليس هذا كذلك » رجل مثلى تعود أن يقيس الأطوال بالمتر ، فاذا وجد شيئا طوله عشرة سنتيمترات لم يستطع أن يقول انها عشر بوصات ، ولو قرأها عشرون رجـلا من حوله من أهـل الحكـم وقالوا انها البوصات لا السنتيمترات ·

« انها عادة لأهل العلم يضيق بها أهل السياسة » ·

وخـرج الدكتور احمد زكى من الوزارة فعـاد الى مجلس البحوث فى نفس موقعه ، موقع الرأس من المركز ، واستمر فى تنفيذ برنامجه الانشـــائى والتنظيمى حتى قيام الثورة حتى زاره أحد كبار رجال الحكم ، فلم يبد الفهم أو الاحترام اللائق بالمركز ، فرد الدكتور زكى عليه مباشرة ـ على ما يروى أستاذنا الدكتور أبو العزم ـ فى كتاب عنوانه المجلس الأعلى للبحوث ماضيه القصير، وحاضره ، ومستقبله » ٠

ويبدو أن الأمر فى مجلس البحوث لم يعد يلقى القبول فى نفس عالمنا ، فذهب الرجل فقدم استقالته الى اللواء نجيب ونشرت الصحف اليومية ذلك يوم الثانى عشر من أغسطس عام ١٩٥٣ ٠

بعدها بخمسة أيام خرجت الصحف تعلن للناس نبأ اختيـار الدكتور احمد زكى مديرا للجامعة الأولى فى البلاد ، جامعة القاهرة ، وهكذا أتيح للجامعة الاولى أن يكون مديرها فى فترة الاضطرابات هو ذلك الرجل الذى جمع العلم والمنطق والخلق والشخصية وكأنما أراد الله للجامعـة الحفظ من العاصفة السياسـية التى كانت فى مارس (١٩٥٤) وقد تولى احمد زكى منصبه فى السابع عشر من أغسطس (١٩٥٣) ، والبلد بعد الثورة على شفا جرف هار من أزمات سياسية ، يتصيد لها أصحاب الهوى ، الفرصة بين كل حين وآخر ، وضباط الثورة منقسمون على أنفسهم أو على خلاف فى بعض الأحيان مع محمد نجيب أو مع بعض المدنيين الذين قبلوا معاونتهم فى تولى أمور الحكم ٠

وأشيع أن الجامعة ستبدأ سنتها متأخرة ، فخرج احمد زكى ليطمئن الناس انها ستبدأ فى موعدها ، ثم بدأت القـلاقل داخل الجامعة فلم يتوان احمد زكى عن أن ينشر رأيه يوما بعد يوم على

الناس من خلال الصحافة ـ أكثر وسائل الاعلام فعالية يومها ـ اما بقلمه ، واما على صورة الاستجابة لسؤال الصحفيين الذين يتوافدون عليه ، ولابد من الاشارة الى أنهم كانوا يحبون الرجل ويقدرونه ٠٠ وكان منطق احمد زكى فى كل ذلك هادئا حريصا ، حريصا على العلم وعلى كعبة العلم وعلى طلاب العلم من أبنائه ٠

ثم حدث ما لم يكن من حدوثه بد ، ودخلت قوات البوليس الجامعة فى أزمة مارس على الرغم من ممانعة احمد زكى لوزير الداخلية فِي ذلك ، واعتدى على بعض الطلاب فى الحرم ، وذهبوا بهم الى مستشفى قصر العينى للعلاج ، وذهب احمد زكى من فوره فزارهم ، فلما كان على باب القصر قابله الطلاب وصاح به أحدهم أن يستقيل ، وصاح به آخر أن يبقى ويدافع عما يطالب به الطلاب ، وزادت حيرة أحمد زكى بين الرأيين أو الموقفين اللذين تنازعاه قبل مجيئه من الجامعة الى قصر العينى ، وفكر المفكر ثم استقر على الرأى الذى صرح به بعد ذلك لسامى جوهر ونشـــره فى الجيل الجـديد : « ان مدير الجامعة يجب ألا تستخفه الحوادث هكـذا سريعا ، وانه قبل أن يستقيل هكذا غضبا لابد أن يتصل بالمسئولين ليعرف الحقيقة فيما جرى ويطلب القصاص ممن أذنب ، وعلى كل حال يزن الموقف الذى كان ويقدر الى أى شىء هو سائر ثم هو من بعد ذلك يستقيل نزولا على رأى الطلاب » ٠

وقال الدكتور احمد زكى انه اختار هذا الموقف بعد أن عرف « أن نجيبا (الرئيس محمد نجيب) وصاحبه زارا الجرحى مواسين آسفين » ، « وأخبرته بعد أن اتصلت بوزير المعارف وهو الصلة بين الجامعة والمسئولين » ، « وأخبرته بعد أن وافق وزير المعارف وهو الرئيس الأعلى على ألا يكون اعتقال الا أن يعقبه اتهام صريح على الناس أو أمر افراج ٠٠٠ » ٠

« وفرحت عندما برت الحكومة بوعدها وأردت أن أعلن ما صنع الوزير فنشرت كتابا أرسلته اليه شكرا للذى صنع وطلبا للمزيد وتشجيعا لأهـل الخير وتقوية لهم » ·· هكذا كان عالمنـا يفهـم الديمقراطية فى ذلك الوقت ولو فهمها المسئولون يومها كما فهمها ما انساقت البلاد الى ما انساقت اليه ·

واستطرد احمد زكى يقول لمجلة الجيل الجديد : اليوم اننا ومسئولية الحكم على عاتقنا لابد أن نقدرها ، ولو استقلت فى مثل هذه الظروف فان « الاسـتقالة عندئذ تكون من تلك الاسـتقالات الرخيصة التى تهدف الى كسب هتاف صارخ عاجل ·· وحسبت أن عهد المحبة الزائفة الرخيصة قد ذهب الى غير رجعة ·· وحسبت أن مصر اليوم فى دور يجب أن تتحمل فيه المسئوليات ولو مرة كالعلقم » ثم شرح كيف أن المسئولية عن الجامعة بطلابها الثلاثة وعشرين الفا وأساتذتها ومدرسيها وفيهـا ما فيهـا من التيارات المتلاطمة مرة كالعلقم · وقال : ان أشد الأمور ايلاما هو ما يجرح الضمير ، وختم كلمته فى تحذير ذكى واع ، وفطنة زائدة ، ولباقة شديدة فقال : « وقد يأتى وقت يثقـل الضمير حتى ينوء فيقـدم استقالته » ، ولكن احمد زكى لم يقدم استقالته ، وانما حفظ له الذين لا يريدون استقلال الجامعة ما حفظوا فى صدورهم حتى أتيح لهم أن يتخلصوا منه فتخلصوا ، وترك أحمد زكى منصبه يوم الثامن من سبتمبر سنة (١٩٥٤) فكانت مدة رئاسته أقصر مدة قضاها رئيس لجامعة القاهرة منذ لطفى السيد باشا وحتى اليوم ·

وخرج احمد زكى من الجامعة بعدما حافظ على استقلالها بكل ما وسعته طاقته ، وطاقة مدير الجامعـة ، وعلى ذكر اسـتقلال الجامعة فان احمد زكى كان يصرح فى فترة مبكرة من رئاسته للصحافة قائلا : « ان هناك زعماء كانوا اذا ما جاءوا الحكم أصدروا

القرارات بفصل كل طالب يشترك فى أى اضراب أو مظاهرة بالهتاف أو بالاشارة أو حتى بالايماءة حتى اذا ما أصبحوا فى المعارضـــة أنفقوا الأموال ، وأشـــرفوا بأنفسهم على تنظيم الاضـــرابات فى الجامعة !! » .

وتعود الصحافة لتسأل احمد زكى فى مسألة « الطلبة والسياسة » بعد أن ترك الجامعة بفترة طويلة فيقول لهم : ان جراثيم هذا الداء لا تزال الى اليوم فى الدماء ، وهى لا يقتلها الا الجرعة القوية تدفع فى « الشرايين » دفعا ولكنها جرعة قاتلة فلابد من الاستعاضة عنها بجرعات خفاف توزع على الأيام » .

وكان يسأل كثيرا عن اســـتقلال الجامعة فيلخص الرأى فى قوله ، أنه قرأ تاريخ الجامعات من القرن الرابع عشر حتى الآن « فدلتنى قراءتى وتجاربى أن الاستقلال لا يصنع بالقوانين ولا باللوائح ولا بالبوليس ولكنه يكتسب ويغتصب » ، « والذى أعلمه أن هذا العهد ـ يقصد عهد الثورة ـ هو أقمن العهود بأن يعطى الجامعة كل استقلالها على شرط أن تعطى الجامعة أغراض الجامعة وأهدافها كل جد .. وهذا ثمن هذا » .

وكان يدافع عن الطلاب فيقول : « اختلطت بالطلاب حتى فى الهياج فوجدت الطلاب فرادى من خير ما يمكن أن نجد عليه الطلاب أدبا وذكاء وصفاء قلب ولكنى لم أجدهم كذلك فى مجموعة » ولهذا كانت دعوته الدائبة الى تربية الروح الأسرية بين الطلبة وأساتذتهم « بهذا يثمر النصح ويجدى التوجيه » .

وكان اذا سمع آراء القائلين بمنع الطلبة من الاشتغال بالسياسة قال بالبنط العريض انه لا يمكن منع الطلبة من الاشتغال بالسياسة

لأن السياسة الآن ممتزجة بالحياة فلم تعد سياسة ملوك ولا سياسة أباطرة ولكنها سياسة شعوب ، والسياسة تؤثر فى حياة الكبير كما تؤثر فى حياة الصغير وتؤثر فى الافطار والغداء والعشاء ، والسياسة بمعنى الحكم دخلت فى كل مرافق الدولة وبدون تحرر لا يمكن أن تعيش أمة ، والطلبة هم رجال المستقبل فلابد أن يفكروا فى كل شىء وفى السياسة هذا فى التفكير .. ويستطرد احمد زكى ليقرر قرارا غير واضح الهوية : « اما فى العمل ، اما فيما يصنعون من بعد تفكير وكيف يصنعون فأمر لا شك فيه خلاف كبير ! » ولعل الظروف الصعبة التى كان الوطن يجتازها لم تكن تتيح له أن يجهر بأكثر من هذا فرأى أن حسبه أن يتقدم بالفكر فى هذه النقطة الى هذه المرحلة . على أن الباب الثانى من هذا الكتاب سيذكر لك عزيزى القارىء رأى الرجل فى هذا الموضوع بالتفصيل وهو الرأى الذى أبداه فيما بعد فى أحاديثه الشهرية .

وكانت الجامعة على عهد أحمد زكى ، قد بدأت تشهد التحولات التى لابد لها مع العهد الجديد ، عهد الثورة ، ولعل أبرز هذه التحولات هو الاتجاه الى زيادة أعداد الطلاب الأمر الذى حدا بالدكتور زكى ورئيسى جامعتى عين شمس والاسكندرية الى الاجتماع بالمسئولين ليقرروا وضع حد أدنى لدرجات القبول فى الجامعة ، وهى أولى الخطوات التى خطتها الجامعة نحو ما يعرف اليوم بمكتب التنسيق من أجل تحقيق مبدأ تكافؤ الفرص ، وخرج الدكتور زكى بعد الاجتماع وقبل بداية العام الدراسى ١٩٥٣/١٩٥٤ ليعلن أن الجامعة قد حددت القبول بنسبة خاصة فقبلت ثمانية آلاف وأربعة آلاف على سبيل الانتساب ، وعقب مصرحا لمحرر مجلة الجيل فى ١٩٥٣/١١/٢٣ « بأن الذين تركوا التعليم الجامعى مفتوحا على مصراعيه للآلاف الجارفة كانوا يقومون فى نفس الوقت بخدعة غير نظيفة لا يرضاها ضمير أى انسان » .

وعلى الرغم من هذا الموقف القوى الذى اتخذه احمد زكى لتحديد أعداد المقبولين فى الجامعة الا أنه كان يدفع الرأى القائل يومها بانحدار أخلاق الطلبة ، وكانت وجهة نظره فى هذا « ان الزيادة فى الكم تكون على حساب الكيف ، والكم دائما يخرج منه كيف أكبر ولا شك عندنا الآن كفايات أكبر وأقدر ولسنا فى حاجة الا الى جو اطمئنان » ويردف موضحا أهمية هذا الاطمئنان فى تحقيق الروح المطلوبة للجامعة والبحث العلمى فيقول انه قبل لذة البحث لابد من تأمين العيش وتأمين العدالة » (الجيل الجديد : ١٩٥٣/٩/٢١) ٠

ومن التحولات الاجتماعية الهامة التى بدأت الجامعة تواجهها فى عهد احمد زكى مسألة الاتجـاه الى المجانية ، وقد أخـذ هذا الاتجـاه خطواته تدريجيا الى الوجود ، فى ظل قواعد متدرجة صاغها الجامعيون وشارك الدكتور احمد زكى فى وضع خطوطها العامة ولمساتها الأخيرة ، وكان يرى أن الغرض من المجانية هو محاربة الحرمان من مواصلة الدراسة ٠ ولهذا فانه كان ينادى من ربع قرن بألا تعطى المجانية للطالب الذى يتكرر رسوبه « فرحمة بالطالب الذى يتكـرر رسـوبه أن نخلى الطريق لغيره من الذين عندهم الاستعداد » ٠

وفيما يتعلق بالزى الجامعى ، فقد فرض زى جامعى فى عهد أحمد زكى ، ولكنه كان على سبيل الاختيار ، ومع ذلك لقى الدكتور زكى بعض الهجوم ، فقال انه لا يعتقد أنه يمكن أن نجبر طلبة الجامعة على ارتداء زى واحد لأن طلبة الجامعة غير طلبة المدارس ٠ وفسر ذلك بأن طلبة الجامعة هم فى حكم المواطنين المسئولين لهم رأيهم وظروفهم وأمزجتهم ٠٠ ولا ينبغى أن يفرض عليهم زى معين ، وانما كان الزى الذى تقرر تعبيرا عن ارادته

فى أن « يلفت نظر الشباب الى أن هذا الكرنفال المتناقض من الأزياء لا يجب أن يظل معروضا فى كعبة عالية » ٠

ثم تحدث مستعينا بأفقه الواسع ، وعقله الكبير ، فقال انه لو قرر الزى اجباريا فانه يخشى أن تكون استجابة البنات أسبق لاستجابة الأولاد ، ومرجع ذلك عنده الى شىء هام هو أن المرأة تفوق الرجل فى احساسها بشىء هام هو الأناقة ٠٠ والأناقة أوضح ما تكون فى الزى الواحد ٠

وتصادف أن جاءت نهاية العام الدراسى (١٩٥٤/٥٣) مع شهر رمضان ، واختلفت الآراء فى مسألة توقيت الامتحانات ٠ هنا ظهـرت الروح الجامعية عند أحمد زكى فترك الأمـر فى جداول الامتحانات للكليات ، وقال : انها أعرف بظروفها ، وبما أتمت من مقررات ٠٠ فلما حاول البعض الاصطياد فى الماء العكر والاشارة الى أن الحوادث التى وقعت فى الجامعة هى التى أدت الى هذا ، قال احمد زكى انه لا يظن أن فى هذا مشكلة ، فانه يعرف تاريخ الجامعة منذ نشأت ، وقد جاءت عليها بعض السنوات التى لم تستقم فيها الدراسة أكثر من ثلاثة شهور أو أربعة ٠٠ وعن مشكلة مجىء رمضان مع موسـم الامتحانات استفتى الطلبـة مفتى الديار فى الافطار وجوازه ، فأفتاهم بجوازه ، وعقب احمد زكى ـ عندما سئل عن رأيه ـ فقال ان كثيرا من المسلمين يتحرجون بضميرهم من الأخذ بهذا الرأى ٠

ومع ظهور النتائج بانت فى الأفق مشكلة تعطل الخريجين الذين زادت أعدادهم عن كل حاجة ٠٠ وسئل احمد زكى عن رأيه فقال : « ان التعطل أصبح مشكلة مزمنة ، وانه يوجد عند غيرنا من الأمم ، وانه لا يزول الا بالحروب » ٠٠ ولكنه لا ينادى بمثل هذا فى مصر ولا يعلل الأمور بوجوده فى الخارج ، وانما يدعو الى انشاء « مراكز

للتوظيف » لأن العمل فى مصر موجود والقادرين عليه موجودون ولكن المسألة فى ايجاد الصلة المنظمة بين الاثنين ·· وهى الفكرة التى اتخذت بعد ذلك اسم « القوى العاملة » ·

ولكن احمد زكى كان ينبه بشدة الى خطورة التعطل ويقولها فى صورة حكمة « **ليس أخطر من عامل متعطل** » ·

ورغم كل هذه الأمواج العاتية ، والظروف المتعاقبة ، والأمور التى تستنفد الجهد والوقت ، كان أحمد زكى حريصا على توجيه طلابه ، واسداء النصح اليهم ، فى كل مناسبة يتحينها للحديث اليهم ، وكان يدعوهم الى التمسك بالأخلاق وتقوية الشخصية ، وكان يقول لهم : « ان الرجل لا يكون بكثرة معارفه ، ولكن بصحة اخلاقه وصلابة نفسه » وكان يحثهم على استقلال الرأى : « من أكبر مميزات العقل الناضج الاستقلال ، ومن أسوأ صفاته التعبد لكل مستعبد فالتبعية عبودية ، وشر ما ينال الناس العبودية لا سيما عبودية الرأى » ·

لا شك كان أحمد زكى يقصد بعبودية الرأى انسياق الطلاب الى تأييد القوى العاملة خارج الجامعة من دون تمحيص لآرائهم التى لن تحتمل أمام عقل الطالب النبيه دقائق حتى يتبين زيفها ·

وكان احمد زكى يمتد بنصائحه لطلابه الى فترات الاجازة فيقول لهم انها جعلت للاستجمام والاستجمام يكون بتغيير المناشط لا بالنوم ·

وكان يدعوهم الى القيام بواجبهم نحو ذويهم فى قراهم بتثقيف الريف وكان يرى أن خير وسيلة لتحقيق هذا الهدف هى المصاطب !! (١٩٥٤/٥/١) ·

وكان احمد زكى قبل هذا كله وبعد هذا كله حريصا على توفير احتياجات الجامعة من المعامل والكتب والأدوات ، ولم يكن يتوانى عن اعداد مطالبه وترتيبها ، والذهاب بها فى قوة وفى مرحلة مبكرة الى أولى الأمر يطالبهم بها · وقد نشرت صحف الصباح فى ١٩٥٣/٩/٦ انه « توجه بالأمس لرياسة مجلس الوزراء وتقدم بطلبات الجامعة للرئيس محمد نجيب حتى تبدأ الجامعة عامها بالعمل فلا ينساق الطلبة وراء فورات الغضب أو التسرب الى العمل فى الميادين المتطرفة ··· » ، وسئل عن المبالغ التى طلبها والتى يحتاجها فقال انه يتعشم ألا يقل المبلغ المعتمد عن ٦٠ ألف جنيه !!

ولعلنا بعد هذا العرض الطويل لمواقف احمد زكى مدير الجامعة نستطيع أن نتبين العوامل التى ساعدته على اتخاذ هذه المواقف المشرفة، وليس من شك أن على رأس هذه العوامل ، علمه ، وخلقه وايمانه بالجامعة ، وخروجه من بين صفوف طلابها وأساتذتها، وفكره النير ، وشخصيته القوية ، وتاريخه الطويل ، ودراسته لماضيها وماضى الجامعات ·· على ان هناك عاملا هو عندى أهم من هذه العوامل الثمانية آنفة الذكر ـ رغم انها هى التى كونته ـ هذا العامل هو الذى جعل لآراء أحمد زكى قيمة ، ولصوته مدى يسمع ، ولتحركاته أثرا عند الناس ، أثر العلم بها عند العامة ، وأثر الاستجابة لها أو تقديرها عند أولى الأمر ، ولم يكن هذا العامل الا أن احمد زكى كان« شخصية عامة » بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معان ، فلم يكن أحمد زكى عالما يعيش فى برج عال ، ولا أستاذا تحده الجامعة ، ولا صاحب خلق ينأى عن المشاركة لينأى عن الخطأ ، ولا مؤمنا بالجامعة فى الجانب النظرى حائرا فى البحث عن أى الطرق يؤدى به الى تطبيق فهمه لها ، ولم يكن احمد زكى غريبا عن الجامعة ، ولا كان فكره غريبا عن فكر الجامعة والفكر

الجامع ، ولا كانت شخصيته بالتى تلين أمام الباطل القوى أو التى تبعد عن الحق الضعيف ، ولا كان جاهلا بماضى جامعة القاهرة ولا الجامعات فى الدنيا القديمة والحديثة ٠٠ كل أولئك ساعد على تكوين « شخصية عامة » اسمها احمد زكى وهو رجل عنده ــ بما آتاه الله من موهبة ــ الاستعداد لأن يكون « شخصية عامة » لها وزنها الذى يظهر أثره فى مثل هذه الأحداث ٠

كان احمد زكى يتمنى أن يكون عميدا لكلية العلوم يسوس أمرها ويربى أجيالها ٠٠ ولكن الله لم يشأ له هذا لأنه شاءه لمشرفة ، ولأنه شاء لاحمد زكى أن يدخر طاقاته الجامعية جميعا ربع قرن من الزمان لتظهر فى أحرج الأوقات التى مرت بها الجامعة حين جاءتها تيارات التحول السياسى والاجتماعى دفعة واحدة ، وهى الجامعة الهادئة القائمة على الثبات والاستقرار منذ تولاها لطفى السيد ولخمسة عشر عاما رسم فيها سياستها الثابتة ، ثم تلاه على باشا ابراهيم لينهض بها النهوض المحسوب والمطلوب ٠٠ رزقها الله فى مرحلة التحول باحمد زكى وهو الذى وسع العلم والفكر والأدب والصحافة وأجاد التعبير والتحليل والفهم والتأويل ليوجه دفتها وسط هذه الأمواج العاصفة ٠ ولهذا فلست مبالغا اذا قلت انها ارادة الله أن تحفظ الجامعة المصرية فى هذا الوقت بهؤلاء الثلاثة الذين رأسوا الجامعات الثلاث : أحمد زكى وكامل حسين ومحمد عوض محمد ٠ على أن اكثرهم بلاء وابتلاء كان احمد زكى ، وقد كان اكثرهم قدرة على التصدى لهذا الابتلاء الذى أصاب أكثر ما أصاب الجامعة الأولى التى ولى أحمد زكى أمرها ٠

خرج الدكتور احمد زكى من الجامعة الى مكتبة بيته يقضى وقته فيها ، يقرأ ويدرس ويراجع ما يكتب وكان قد بلغ الستين قبل خروجه من الجامعة بقليل ، وكان احمد زكى مشتاقا الى الهدوء

وراحة النفس والبال ، فجاءه ما اشتهى ، فسعد به ، ولكنه مع ذلك كان يشارك برأيه وفكره فى كثير من الأمور ، وبخاصة أن الصحافة كانت تذهب اليه كثيرا تطلب منه الرأى ، وتنشره على الناس ٠

ثم فكرت الكويت فى اصدار مجلة العربى لتكون للعرب أجمعين ، وكان صاحب الفكرة هو المغفور له الأمير صباح الاحمد الصباح وكان وقتها رئيسا لدائرة الاعلام ، ووقع الاختيار على الدكتور احمد زكى ، وذهب الدكتور زكى الى الكويت ، واختار فريق عمل يساعده على اصدار مجلة العربى ، وصدر عددها الأول فى ديسمبر عام ١٩٥٨ ، وجهد احمد زكى فى كل صفحة بل فى كل ركن من المجلة واضح ، أثره وفكره وقلمه ونظام عقله ٠

ونجحت العربى نجاحا كبيرا بدأت بأربعين ألف نسخة وسرعان ما أصبحت تطبع أكثر من مائة ألف نسخة ، فلا تغطى السوق ، ولكنها لا تستطيع ، لأن طاقة المطابع المخصصة لها لا تسمح لها بذلك الا مرة واحدة فى العام حين تصدر العدد الممتاز مع مطلع العام والذى بلغ توزيعه ربع مليون نسخة ٠

وتمضى مجلة العربى من نجاح الى نجاح ، ومن تطوير الى تطوير ، وتهتم بأمر البلاد العربية والمدن العربية ، والأحوال العربية ، والتاريخ العربى ، وتسجل كل ذلك فى استطلاعات مصورة شاملة مستقصية ، أرادها الدكتور زكى على نمط المجلة الجغرافية الأمريكية فجاءت لا تقل عنها دقة وروعة وجمالا ٠

وتهتم مجلة العربى بالقضايا الفكرية فتناقشها على مستوى عال رفيع وتتيح الفرصة للرأى والرأى الآخر دون سلطة ولا بيزنطية ، وتفتح بابها لرسائل قرائها وتقديماتهم وتعليقاتهم

وتصويباتهم ، وتطلب رأيهم فى كل مرحلة تقدم فيها على تطوير نفسها •

وتولى مجلة العربى قضية الأسرة والمرأة اهتماما متزايدا فتبسط المسائل الطبية ، وتكرر النصائح لربة البيت ولرب البيت لا فيما يتعلق بنظم التغذية والصحة فحسب ، ولكن فى طرق التربية والتوجيه ورعاية الأبناء فى جميع مراحلهم •

وتستكتب مجلة العربى أعلام القلم العربى فى كل المجالات ، كل فى مجاله الذى برز فيه ، وتكثر فيها نسبة أساتذة الجامعة والتكنوقراطيين لأن احمد زكى كان حريصا على المستوى الرفيع للمادة التى تقدمها المجلة •

ويستطيع احمد زكى بحكمته أن يبتعد بالمجلة عن النزاعات والمعارك العربية الجانبية ، فيجنب مجلته الخوض فى هذه المجالات على ما نحو ما فصل القول فيه فى افتتاحية العدد الممتاز (يناير ١٩٦٦) •

ولم يكن على العربى رقيب واحد ، وانما كان عليها عدد كبير من الرقباء بقدر ما تدخل من بلاد ، ولكن أحمد زكى كان قادرا على أن يحافظ لمجلته على حرية القول وحرية الدخول الى كل هذه البلدان ، ويكفى للتدليل على ذلك ان مجلة العربى لم تمنع من دخول مصر فى عهد الرئيس جمال عبد الناصر الا مرة واحدة •

وكان احمد زكى ينأى بالعربى عن أن تكون موضعا لأحقاد أو تصفية حسابات ، كانت العربى للعروبة تعبر عن انتصاراتها وانتكاساتها ، وواقعها والأمل الذى تؤمله لها ، وقد خرج عدد مجلة العربى التالى لنكسة ٥ يونيو (يوليو ١٩٦٧) أسود الغلاف

ضاما بين دفتيه تحقيقا مؤثرا عن الحرب وقد سماها احمد زكى بالنكسة لا بالنكبة (ليكون منها شفاء) ·

وحين انتقل عبد الناصر الى رحمة الله ، وضعت العربى صورته فى افتتاحيتها ووضع احمد زكى تحت صورة عبد الناصر قول الشاعر :

« ولقد نظرتك والردى بك محدق والداء ملء معالم الجثمان »

على الرغم من أن احمد زكى لم يكن رجل عبد الناصر ، بل وقد عانى منه ، ولكنها العروبة والوطنية والتعبير الصادق ·

وحين كان الرئيس السادات يعانى فى أول عهده ـ فى كثير من الأحيان ـ من الصحافة العربية غير الناضجة ـ كانت العربى فى حديث الشهر لرئيس تحريرها تزن الأمور بالميزان العلمى الدقيق محكمة العقل والمنطق ، منطلقة من عقلية تقدمية راقية ·

وحين استرد العرب كرامتهم فى حرب أكتوبر خصصت العربى أعدادا ثلاثة متوالية واكبت بها بالصورة والقلم أعظم نصر حققه العرب ونتائجه وآثاره ورؤية العالم له ·

وأفسحت مجلة العربى مع ذلك مساحات كبيرة للمشكلة الفلسطينية ، والأوضاع المترتبة عليها ·

وأتاحت المجلة لقارئها العربى أن يتابع التطورات العالمية والمتغيرات الدولية والمسائل التى أثارت العالم لفترات طويلة كحرب فيتنام فى متابعة دقيقة ، ومعالجة وافية مع العناية باستخلاص العبرة بطريقة فنية تبعد عن الأسلوب المباشر الفج ·

ومن خلال باب أنباء الطب والعلم والاختراع استطاع الدكتور احمد زكى أن يجعل القارىء العربى قادرا على متابعة وملاحقة التطورات العلمية فى العالم كله شهرا بشهر فى هذه المجالات الثلاثة من الطب استكشافا وعلاجا وعقاقير جديدة، والعلم ونظرياته وحلول مسائله ، ٠٠ والاختراعات العلمية الجديدة فى الصناعة والزراعة والحياة اليومية وشتى النواحى التى غزتها التكنولوجيا ٠

وأراد الدكتور احمد زكى أن يجعل فى متناول كل أسرة موسوعة طبية شاملة تسد حاجتهم فى الاسعافات والتصرفات الأولى تجاه المرض ، فكان الباب الرائع الذى يجيب فيه الدكتور زكى بنفسه ثم (نخبة من الأطباء بعد ذلك) على أسئلة القراء ٠

ولم يكتف الدكتور زكى بذلك وانما وضع خطة يستطيع من خلالها تعريف القراء بالأمراض الشائعة جميعا ، مرضا مرضا فى كل عدد من أعداد المجلة ، واستكتب الدكتور زكى مجموعة من الأطباء الكبار للحديث عن هذه الأمراض على نحو منهجى معين وكتب الدكتور أحمد زكى نفسه بعض هذه الفصول ٠

وكانت مجلة العربى تحرص على أن تكون مجلة جامعة تتيح للمستويات الثقافية العالمية أن تقرأ فى غير تخصصها ، وكانت نظرية احمد زكى فى ذلك ــ كما عبر فى يناير ١٩٦٨ ــ ان « أستاذ الطب تلميذ غالبا عندما يتصفح مقالا فى فلسفة الأديان ، وأستاذ الفقه الاسلامى تلميذ غالبا عندما يتصفح مقالا فى نفسية المراهقين والمراهقات ، وأستاذ التاريخ تلميذ غالبا عندما يقرأ مقالا فى انتاج الكهرباء من الذرة ٠٠ وهكذا » ٠

وفى عبارة أخرى عبر الدكتور احمد زكى عن هذا المعنى فى العدد التاسع (أغسطس ١٩٥٩) فقال ان العربى « للطائفة المثقفة

هى للطبيب فى غير طب ، وللعالم فى غير علم ، وللنفسانى فى غير نفس ، وللجغرافى فى غير جغرافيا ، وللاديب فى غير أدب » ٠

ومع هذا فالرجل المتخصص قد يقرأ فى علمه أو أدبه فيلذ له طريقة عرضه ٠

ومع هذا أيضا فقد استطاعت المجلة أن تتجنب « الأكاديمية المغرقة » ، جاء ذلك من ايمان أحمد زكى بأن المجلة العامة لها مستوى تقف عنده لا تتعداه ، فاذا هى تعدته ، وطرقت مواضيعها تخصصا ، وبلغة التخصص ، وبولوع فى التخصص ، لم يفهمها الا المتخصص ، واذن تنقلب المجلة الى مجموعة مقـــالات عالية التخصص ، لا يفهم منها القارىء المتخصص الا موضوعا واحدا ، ولن نجد فى الدنيا هذا الحال ٠

وكان احمد زكى يعطى عناية خاصة للناحية الفنية فى المجلة ، وكانت هذه الناحية بالذات فى مجلة العربى من المزايا الظاهرة والواضحة التى تمتاز بها المجلة (لأول نظرة) على المجلات العربية المعاصرة ٠

وبالاضافة الى التنسيق والتبويب الرائعين اللذين كانت المجلة تمتاز بهما ، فقد كانت صورها معبرة ، واضحة التعبير ، وان كل صورة من هاتيك تصلح للحصـــول على جائزة صـــحفية بالمعنى المقصود ، وبالاضافة الى الصور كانت هناك الرسوم البيانية عند الحاجة اليها تنطق بالمعنى المقصود ، وكانت هناك أيضا الرسوم التوضيحية التى كان الدكتور زكى يكلف بها الفنان حاكم لتحتل أماكن معينة من حديث الشهر ٠

وكانت مجلة العربى على عهد الدكتور احمد زكى تولى غلافها

أهمية خاصة ، وكثيرا ماكانت تضع عليه ، على حد تعبير الدكتور احمد زكى « زهرات من بناتنا حية ، ناطقة ، محتشمة » ولكن هذا لم يرق للبعض فكتبوا يطلبون أن تختار المجلة لغلافها صورا من الحجر الأصم تخرج بها من المتاحف « أثرا من الآثار المحفوظة لترى النور » ، ونشرت المجلة رأى المعترضين ، وردت عليهم بوجهة نظرها ، وسارت على نهجها الذى سارت عليه وبخاصة أنها كانت تختار هذه الصورة من واقع المادة التى يحتويها العدد ٠

أما الصور الفنية التاريخية ، فقد أفسحت لها العربى الغلاف الداخلى (ص ٢) حيث كانت تعرض أبرز اللوحات العالمية وما اليها من الآثار والتحف الفنية من شتى العصور ، كانت المجلة تعنى بالتثقيف الفنى من خلال هذه القناة فكانت تفرد من صفحاتها مواضع للحديث عن النواحى الفنية والجمالية والتاريخية للاثر الفنى الذى صورته فى صفحة من صفحاتها ٠

وكان الدكتور احمد زكى يحرص على تحقيق النسب العادلة بين البلاد العربية فى اهتمام العربى ، سواء فى الاستطلاعات المصورة أو الموضوعات الصحفية الأخرى ٠

وكانت العربى على صلة دائمة بقرائها فى أكثر من بريد ، فهناك بريد القراء التقليدى يحمل الرغبات والآراء ، والتعقيبات ، وما يعتقد انه التصويبات ، والتعليقات ٠ وبالاضافة الى ذلك هناك باب « أنت تسال ونحن نجيب » فيه الاجابات الشافية الوافية على أسئلة القراء فى المعلومات العامة ٠ أما أسئلتهم فى الطب فكان لها بابها الذى تحدثنا عنه ٠

وحتى مقال رئيس التحرير نفسه كان يتفاعل فى أحيان كثيرة مع رغبات وتعليقات قرائه ، وأشهر مثل لذلك هو مقال الدكتور زكى

عن الجدل وآدابه (فبراير ١٩٧٣) الذى كان صدى لما وقع فى نفسه من استياء أو دهشة لمواقف وقفها بعض القراء من مقال للاستاذ الشيخ احمد حسن الباقورى ٠

ومن الطريف أن نذكر أن أعلام الفكر الاسلامى فى شئون الدين الذين كتبوا للعربى قد تولوا وزارة الأوقاف المصرية على التعاقب سواء قبل نشأة العربى أو بعد كتابتهم فى العربى ٠

وقد كان كتاب العربى - كقرائها - منتشرين فى بلاد العروبة جميعا ٠

وقد كسبت العربى كثيرا - لا كسبا ماديا - وانما قراء جيل بأكمله ، ولم تكسب المجلة رواجها هذا باثارة الغرائز الجنسية ، ولا باستغلال بسائط المفاهيم الشعبية ، ولا العواطف الجماهيرية ٠٠ كسبت العربى بالحقيقة ، وبطرح اللغو جانبا ، وبالجواب بعد الدرس لا بالخطف ٠

ولابد من أن نشير هنا بالتقدير لفريق العمل الذى عاون الدكتور زكى فى المجلة : الأستاذ يوسف زعبلاوى والأستاذ منير نصيف والأستاذ محمد طنطاوى والأستاذ اوسكار مترى والاستاذ سليم زبال ٠

وقد كان ثلثا العربى تقريبا يكتب فى دار الدكتور زكى ، على حين كان الثلث الثالث بأقلام الكتاب غير المتفرغين ، وهنا لابد أن نذكر أن عالمنا الجليل لم يكن يشترط لنشر المقال اسم صاحبه ، وانما كان يهمه فى المقال المقال نفسه موضوعا ، وطريقة معالجة ٠

بذل الدكتور احمد زكى طيلة سبعة عشر عاما قضاها مع

« العربى » فى الكويت جهدا ضخما حتى أخرج هذا العدد الضخم من أعدادها « قرابة مائتين » وكان أحمد زكى يعتبر أنه يعد كتابا شهريا لا مجلة ·· ولم يكن مدده فى هذه الجهود (كما عبر الفريق الذى عمل معه فيها) قوة بدن ، اذ كان يمعن فى الشيخوخة ومتاعبها ، وانما كان مدده من حماسة نفسه ، وشعوره العميق بالمسئولية والأمانة ، وغيرته على عمله كأشد ما تكون غيرة الكريم على عرضه ، وقد أعانه على ذلك تيقظ ذهنه ، كأنه فى معركة حاسمة يتعرض فيها المحارب لأوخم العواقب عند أدنى هفوة ·

« وكم من كلمة واحدة ، وقف عندها طويلا ليفتح المعاجم والمراجع ، أو يسأل الخبيرين بها ، حتى يستوثق من صوابها ودقتها ومعناها المقصود ، واذا كانت أعجمية حرص على أن تكتب بحروف لاتينية ، واذا كانت مشكلة النطق ضبط منها ما يزيل اشكالها ، حتى يسهل النطق بها صحيحة ، وقد بذل هذا الجهد شهرا فشهرا ، بل يوما فيوما ، وساعة بعد ساعة » ·

بقيت نقطة جديرة بالبحث ، هل كان الدكتور زكى صحفيا ؟ الأمر فى هذا ليس بحثا عن اضافة تضاف الى شخصية العالم ذى الأفق الواسع ، ولكننا اذا قلنا أن الدكتور زكى كان صحفيا فانما نهدف فى المقام الأول الى تقدير الصحافة ، والبعد عنها عن مظنة أن يبرع فيها من هو غريب عليها والى هذا الحد ·

كتب الدكتور زكى فى البلاغ والثقافة والرسالة والهلال وفى غيرها من الصحف ، وليس فى الكتابة للصحف ما يجعل المرء صحفيا ، انما هو مهما كان ولو كان صحفيا فهو من هذه الناحية كاتب ، ورأس الدكتور زكى تحرير الهلال وتحرير العربى ، والصحافة العربية تعرف أن رئاسة التحرير لا تعنى بالضرورة أن يكون المرء

صحفيا ، ولكننا اذا وجدنا رجلنا وقد أسس مجلة على النحو الذى فصلنا القول فيه عن قرب لم يكن فى وسعنا الا أن نضعه ـ بعدما وضع نفسه ـ بين أعلام الصحافة وأعمدتها ٠

لا أريد أن أحدثك عن حس الدكتور زكى الصحفى فى عبارات نظرية ، فقد أوردنا أمثلة تطبيقية رائعة على دقة هذا الحس ورقيه فى فقرات سابقة ، نضيف اليها هنا أن نطلب من قارئنا أن يرجع الى عدد مجلة الاثنين (١٨/١٠/١٩٥٤) لينظر فى صفحتين جعلتهما المجلة كمجلة مستقلة وتركت للدكتور زكى مهمة تحريرها ٠٠ هنالك تظهر لك كفاءة صحفية على نطاق ضيق ـ كما ظهرت على النطاق الواسع ـ وتجد الدكتور زكى وقد جعل فى مجلة ذات صفحتين ثمانية أبواب متكاملة وشاملة : كلمة العدد ، رسالة الى الشباب ، حكمة العدد ، نكتة الأسبوع ، تعاريف ، قصة ، الصيدلانى الذى قال بانتهاء العالم ، من ألبوم الطفولة ٠

وطوال المدة التى قضاها الدكتور احمد زكى فى الكويت كان يحظى بالاحترام والتقدير الزائد من أهل الكويت حكومة وشعبا ، لا لعلمه وقلمه ومكانته فحسب ، ولكن لأن الرجل كان قادرا على أن يبقى دائما كتوما للسر ، محترما لأهل البلد وتصرفاتهم فى بلدهم ، ولسياستهم ، لا يتدخل فى شىء من ذلك كله ، وهو الذى يعيشه كل يوم ٠ كان احمد زكى يعرف ويدرك تمام الادراك الخطوط الفاصلة بين الأخلاق المتشابهة ، حين تتعدى الخط فتخرج من خلق يحمد الى خلق يذم ٠

أعطت الكويت للدكتور احمد زكى الحرية الكاملة فى المجلة ، وسجلت المجلة ذلك على غلافها الداخلى « تصدرها وزارة الاعلام ٠٠ ووزارة الاعلام غير مسئولة عما ينشر فيها من آراء » ومع هذا أعطى الدكتور احمد زكى المثل الأعلى فى الحرية المسئولة وتقدير شرف الكلمة ٠

وكان احمد زكى طوال هذه المدة يبقى فى الكويت معظم وقته ، ويزور القاهرة على فترات متقطعة طوال العام ، يحضر جلسات مجمع اللغة العربية فى مؤتمره السنوى ، ويزور أصدقاءه وتلامذته فى الجامعة ومراكز البحوث ٠

ونعود الآن لنتتبع نشاط احمد زكى فى شتى الميادين بعدما تتبعنـاه فى الوظائف الرئيسية التى شـغلها فى مراحـل حياته المختلفة ٠

وأول هذه المناشط كان فى لجنة التأليف والترجمة والنشر ، كان أحمد زكى من أعضائها البارزين ، وقد طبع كتابه الذى ترجمه بالاشتراك مع الدكتور الكردانى أربع مرات ، اثنتان منهما وأحمد زكى فى لندن ٠

وكان احمد زكى بلا شك من العلماء الرواد الأوائل الذين بنوا نهضة مصر العلمية فى عصرها الحديث ، وقد ساهم احمد زكى مع نخبة من اعلام الفكر والثقافة فى تأسيس المجمع المصرى للثقافة العلمية سنة (١٩٢٩) ليكون منارة لنشر الثقافة العلمية بين طوائف الشعب المختلفة ، وكان الدكتور زكى من أبرز أعضاء هذا المجمع ، وقد تولى رئاسته فى أوائل الاربعينيات ، وألقى فى مواسمه الثقافية عددا من المحاضرات يطالع القارىء بيانها فى الببليوجرافيا ٠

واذ بدأت فى مصر سنة انشاء الجمعيات العلمية فى الفروع المتخصصة من العلم على غرار الجمعيات البريطانية المتخصصة ، كان للدكتور زكى الفضـل الأكبر فى تأسيس الجمعية الكيميائية المصرية سنة (١٩٣٨) ، وقد انتخب رئيسا للجمعية وظل رئيسا ربع قرن من الزمان حتى شغلته الحياة فآثر الاستقالة من الرئاسة ٠

وساهم الدكتور احمد زكى بجهد وافر فى تشجيع انشاء جمعية خريجى كليات العلوم ، وكان لابد للشباب الداعين الى الفكـرة ـ كاجراء رسمى ـ من أحد الأساتذة يرود حركتهم هذه فاختاروا الأستاذ الحبيب الى قلوبهم احمد زكى ، فكان يوجههم ولا يفرض عليهم رأيه فى مجلتهم « رسالة العلم » التى أصدروها مسجلين فيها شكرهم له وتقديرهم لموقفه منهم ٠

وانتهز الدكتور أحمد زكى الفرصة ليستقل أبناؤه بأنفسهم ، فلما حانت صمم على أن يقوموا بأمر جمعيتهم ومجلتها التى لا تزال تصدر الى اليوم ٠

وكان الدكتور زكى بك واحدا من علمائنا العشرة الذين أسسوا الأكاديمية المصرية للعلـوم فى أكتوبر سنة (١٩٤٤) والتسـعة الآخرون هم الأساتذة والدكاترة : على مصطفى مشرفة ومحمد خليل عبد الخالق وحسن صادق وابراهيم رجب فهمى وكامل منصور وعلى حسن ومحمد رضا مدور ويونس سالم ثابت وسعد الله مدور ٠ وقد تولى الدكتور احمد زكى رئاسة هذه الأكاديمية حين كان أكبر الأعضاء سنا حسب ما يقضى به نظام الأكاديمية ٠

والحق أن هذه الأكاديمية قد استطاعت ـ على الرغم من بقائها أهلية الى الآن ـ أن تنهض بالواجب الذى تنهض به الأكاديميات العلمية الوطنية ، وقد مضت فى سبيل تحقيق أهدافها بخطوات كبيرة ، وواظبت على اصدار مجلتها العلمية رفيعة المستوى بأبحاثها العلمية الدقيقة ٠٠ وقد تطورت الأكاديمية مع الزمن بحيث صارت تضم اليوم أربعين عالما فى أربع شعب ٠

كذلك هيأت شخصية احمد زكى الفذة للدولة أن تستعين به فى كثير من المواقع ، فكان رحمه الله عضوا فى المجلس الأعلى

لدار الكتب المصرية ، وعضوا فى مجلس ادارة البنك الصناعى ، وعضوا فى مجلس معهد فؤاد الأول للصحراء ٠٠ ولا شك استفادت كل هذه المواقع من وجود احمد زكى فيها يشارك فى توجيه دفة الأمور نحو ما يراه صوابا وملائما بفكره وثقافته وخبرته فى الحياة ممارسة وقراءة ٠

ودخل الدكتور احمد زكى مجمع الخالدين ، كان واحدا من العشرة الذين ضمهم الفوج الثالث من أعضاء مجمع اللغة العربية سنة (١٩٤٦) ، وقد دخل معه كل من الأساتذة والدكاترة : عبد الرزاق السنهورى وابراهيم بيومى مدكور وعبد الوهاب عزام وزكى المهندس ومحمود شلتوت و د٠ محمد شرف ومصطفى نظيف ومحمد فريد أبو حديد وعبد الوهاب خلاف ، واستقبلهم الدكتور أحمد أمين مجموعة ، وقال فى شـأن الدكتور أحمد زكى : « انه كيميائى عظيم ، وأديب كبير مزج العلم والأدب ، كما يمزج بين السكر والماء ، فبينما نراه فى معمله بين الأنابيب والمحاليل ، نراه فى مكتبه يحلل الكلمات ويستخرج المعانى ويصوغ الأفكار » ٠

وقد علق أستاذنا الدكتور ابراهيم بيومى مدكور على هذا القول حين رواه فى تأبين الدكتور زكى قائلا : « وقد دلت الأيام على صدق هذه الصورة ودقتها ، فقد رأيناه نحن فى مجمع الخالدين يحلل الكلمة العلمية تحليلا امينا ، كما يحلل الكلمة الأدبية تحليلا بليغا » ٠

وبقى الدكتور احمد زكى عضوا فى مجمع اللغة العربية حتى وفاته ، ولم يكن يتاح له حضور جلسات مجلس المجمع الأسبوعية فى القاهرة حين كان يقيم فى الكويت ، كما ذكرنا ، فكان يحرص على حضور المؤتمرات السنوية والقاء بحوث قيمة فيها ، وكانت

له تعليقات كثيرة على بحوث زملائه الخالدين تنم عن سعة الثقافة ودقة الفهم ، كما كانت له كثير من الآراء فى مجال اللغة واللغة العلمية سنعرض لها بشىء من التفصيل فى باب خاص ٠

وقد اشترك الدكتور احمد زكى فى كثير من لجان المجمع ، كما يقول أستاذنا الدكتور مهدى علام،ولاسيمالجان المصطلحات العلمية كلجنة الكيمياء والطبيعة ولجنة الجيولوجيا ولجنة علوم الأحياء والزراعة ٠ كما أسهم فى اللجان الادارية فشارك فى أكثر من دورة فى لجنة تحديد موعد انعقاد المؤتمر وتعيين أعماله ، وكان عضوا فى اللجنة التى تكونت فى الدورة الرابعة عشرة لاختيار زى وشارة لأعضاء المجمع ٠ كما اختير الدكتور احمد زكى عضوا بمجلس ادارة المجمع فى دورته الثانية والعشرين وليمثل المجمع فى عدة مؤتمرات منها المؤتمر الصيدلى الثالث (فى الدورة الثالثة) والمؤتمر الصيدلى السابع (فى الدورة السادسة والعشرين) ، وفى الاحتفال بمرور ٧٥ عاما على المجمع البولونى للعلوم والآداب (فى الدورة الرابعة عشرة) ٠ وكان دائما يحث المجمع على اصدار توصياته من أجل الالتزام بالفصحى فى وسائل الاعلام (الدورة الثالثة والعشرين) ٠

وفى سنة (١٩٤٧) وهى السنة التى كثرت فيها أعباء الدكتور احمد زكى الحكومية (مصلحة الكيمياء ، ومصلحة الصناعة ، ومجلس البحوث) عهد اليه آل زيدان ، أصحاب دار الهلال ، برئاسة تحرير الهلال فى عهدها الجديد ، وقد دام هذا العهد أربع سنوات (١٩٤٧ ـ ١٩٥٠) استطاع الدكتور زكى خلالها أن ينهض بمجلة الهلال نهوضا وثابا ، وأضاف اليها كثيرا من الملامح البارزة فى تاريخ حياتها الطويل (أقدم المجلات العربية) ٠

واذا أراد القارىء أن يدرك أنباء التجديدات والاضافات التى قدمها الدكتور زكى ابان رئاسته لتحرير الهلال ، فليعلم انها كانت

ارهاصات ومبادىء ما فعله احمد زكى بعد ذلك من خلال مجلة العربى ·· اهتمام بالعلم والطب وصحة الأسرة والمجتمع وفئاته المختلفـة ، وتنويـع فى الأسلوب الصحفى ، وتوظيف للصـورة والكاريكاتير ، وتخصيص أعداد لموضوعات معينـة تحيط بها من جوانبها المختلفة ، وتنويع الفنون الأدبية الابداعية فى المجلة ، واتاحة الفرصة للاقلام الجديدة ، وفتح الصدر لتعليقات القراء وأسئلتهم وآرائهم فى المجلة وتطويرها والاهتمام بتطوير بنط المجلة وحجمها ، وتنسيقها وتبويبها ·

وفى عهد احمد زكى كانت مجموعة كتاب الهلال تضم من فحول الكتاب : طه حسين والعقاد وتوفيق دياب والمازنى وفكرى أباظة وأمينة السعيد وبنت الشاطىء ومى زيادة وعلى محمود طه ، ومن كبـار رجـال الحكم : عبد الرحمن الرافعى ومحمـد على علوبة · هذا بالاضافة الى كبار الأطباء من أمثال : الدكتور سليمان عزمى وكامل يعقوب ، وكبار علماء التربية وعلم النفس والاجتماع وكانت الهلال مع ذلك لا تخلو من الورافة والابداع ومواكبة الأحداث فى صورة صحفية بارعة ·

وقد عبر احمد زكى فى عدد يونيو (١٩٤٧) عن ايمانه بأن الهلال يجب ألا يقتصر على ما يكتبه أصحاب المكانة المعروفة والصيت الواسع بل يجب أن يساعد على ابراز النبوغ الكـامن وتشجيع الكفاءات الجديدة ، ولذلك قال : « سنبذل عناية خاصة بفحص ما يرد الينا من الكتاب الناشئين · ولعلنا بذلك نخدم مصادر هؤلاء الأدباء وجمهور القراء » ·

ودعا احمد زكى كتاب الأقطار العربية الشقيقة للكتابة فى الهلال من خلال الخطة العامة للمجلة ·

وكانت الهلال تقدم كثيرا من المواد المترجمة ، وكان مذهب احمد زكى تجنب الترجمة الحرفية ، اذ آن ما ينشـــر فى الخارج قد كتب لجمهور غير جمهورنا ، فلابد من التصرف والاقتباس والسبك من جديد، « ونحن ننقل عن صحف العالم اجمع ومجلاته وكتبه دون تفضيل جهة على جهة » ٠

وكان الدكتور احمد زكى كثير السفر والتجوال فى بلاد العالم ، وقد مثل مصر فى معظم المؤتمرات العلمية التى شاركنا فيها فى الأربعينات ، وزار الباكستان والهند ووثق الصلات العلمية بينها وبين مصر ، كما زار البلاد العربية وحرص على وضع برامج للتبادل العلمى معها ٠

وقام الدكتور احمد زكى بزيارة طويلة للولايات المتحدة الامريكية سنة ١٩٤٦ م تفقد خلالها كثيرا من مراكز البحوث العلمية المنتشرة فى ولاياتها وجامعاتها ، وكان فى سبيله الى انشاء مركز البحوث (المركز القومى للبحوث الآن) ورافقه فى هذه الزيارة عدد كبير من علمائنا ومبعوثينا الذين كانوا يدرسون وقتها فى الولايات المتحدة ، وكان احمد زكى حريصا فى هذه الزيارة وفى غيرها من زيارته للبلاد المتقدمة على ادراك المسائل الكفيلة بربط العلم النظرى بالجوانب التطبيقية بالحياة من خلال مراكز البحوث ٠٠ وقد استوعب احمد زكى بلا شــــك تجارب العالم المتقدم وقارن بينها واستخلص المنهج العظيم الذى وضعه للمركز القومى للبحوث فى مصر ٠

وزار الدكتور زكى الكويت فى ربيع عام ١٩٥٥ مدعوا للمشاركة فى الموسم الثقافى ، وكان ذلك عقب تركه رئاسة جامعة القاهرة ، فكان لهذه الدعوة أثر طيب فى نفسه ، كما زار بيت الله فى مكة المكرمة غير مرة ، وكتب لنا عن كل هذه الزيارات فى مواضع متفرقة من المجلات التى كان ينشر فيها ٠

وزار الدكتور احمد زكى المغرب العربى فى أوائل الستينات وأوائل السبعينات وكتب لنا فى العربى عن هذه الزيارات ٠

وكان الدكتور احمد زكى كثير الزيارات لانجلترا بحكم دراسته السابقة فيها ، وبحكم النسب ، وكان من عادته زيارة انجلترا كل صيف ٠

هذا وقد حظى الدكتور احمد زكى بكثير من التكريم فى حياته ، وكان أكثره من طلابه الذين كانوا يحتفلون به عند كل خطوة كبيرة يخطوها ، ولم يكن هذا الا تعبيرا عن متانة الروابط التى ربطت احمد زكى بكل من عرفوه ، واتصلوا به ٠٠ وكان العلماء المصريون طوال الخمسينات والستينات والسبعينات يعتبرون احمد زكى « أبا العلماء » وقد كان كذلك بحق ٠

وعلى الصعيد الرسمى منح عالمنا الجليل البكوية من الدرجة الأولى عام (١٩٣٧) ونيشان اسماعيل من الدرجة الثالثة عام (١٩٤٦) ٠

وقد عاش الدكتور احمد زكى حياته متمتعا بصحة جيدة ، وعلى الرغم من أنه توفى عن واحد وثمانين عاما الا أنه كان يتمتع الى ما قبل وفاته بأربعة شهور بصحة كاملة ، وعلى حد تعبير مجلة العربى ، وظنى انه تعبيره شخصيا « قوى البنية ، مشحوذ الرأى ، يجد الراحة أطيب الراحة بين القلة القليلة من الأصدقاء ، والكثرة الكاثرة من الكتب » ، وكان يبدو وهو فى الستين أقرب منه الى الشباب ٠٠ وقد سئل غير مرة عن سر احتفاظه بشبابه فقال : « ان ذلك راجع الى الأرومة التى أنا منها ٠٠ أعنى الشجرة التى أنجبتنى، فأنا من أرومة عمرت طويلا ٠٠ فوالدى مات بعد الثمانين وكذلك أمى ، فالعنصر السليم والدم النقى له فضل كبير فيما أتمتع به من

شباب وصحة » وأما السبب الثانى فهو « الرياضة » وكانت رياضة احمد زكى فى سنواته المتأخرة هى المشى ، وروى عن نفسه أنه كان يمشى أحيانا ٨ ساعات فى باريس ، أما فى شبابه فقد فاز بجائزة « القط السعيد » وهو فى السادسة عشرة من عمره ، وكانت الجائزة آلة تصوير أهداها بعدها بنصف قرن من الزمان الى حفيده رشاد ، هذا بالاضافة الى ما ذكرنا من أنه كان الجناح الأيسر لفريق كرة القدم فى مدرسة التوفيقية الثانوية ٠

وفيما يتعلق بالأرومة التى كان الدكتور احمد زكى منها ، روى عالمنا الجليل أنه فى احدى جلسات مجلس جامعة القاهرة عام (١٩٣٣) كان يجلس الى جوار الأستاذ درى أستاذ علم التشريح فى طب قصر العينى ، فلاحظ عالمنا أن الدكتور درى يطيل التأمل فى رأس احمد زكى ٠٠ ويطيل حتى لم يعد بد أمام احمد زكى من أن يسأل ٠٠ فقال له الأستاذ درى : هل أنت مصرى ؟ قال الدكتور زكى : « ورحت الى أبى رحمه الله أستفتى فعلمت أمرا لم أكن أعرفه ٠٠ أن جده التقى بمكة ـ على الحج ـ بامرأة من القوقاز من أصل شركسى فتزوجها وعادا الى مصر ٠٠ فكان منها جدى ٠٠ ثم أبى وأخيرا أنا » ٠

وكان أحمد زكى يردف لمن يسأله عن سر احتفاظه بالصحة والعافية بقوله : « انه أراد أن يثبت اهتمام العلماء بأجسامهم » ٠

وكان رحمه الله من أنصار الزواج ، وكان يقول « انه لا تطيب له صورة عالم بلا زوج يسكن اليه ، فالعالم يشبع بعلمه جانبا من جوانب الانسان ، وهو ذلك العقل ، ويبقى القلب وسائر الجوانب ، وكل هذه لا يشبعها الا أن يكون الانسان انسانا يجرى على أساليب الناس فى العيش » ٠

ويروى انه كان يفكر قبل سفره الى انجلترا فى واحد من أمرين : الزواج أو مواصلة الدراسة ، ثم قال لنفسه : ان الزواج استقرار حاضر يعقبه قلق مستمر ، وفضل السـفر على نفقتـه لاستكمال دراسته ، ثم تزوج فى ليفربول سنة (١٩٢٣) وعاشا معا فى بريطانيا ومصر والكويت سنوات طويلة ينعمان بالحب والتفاهم والاستقرار ، ويتشاركان البأساء والضراء ، وتوفى أحمد زكى عن زوجته التى لحقت به بعد عامين ·

وفى تحقيق صحفى أجرته آخر ساعة (١٩٥٥/٨/١٠) تحت عنوان : « الرجال الذين لم تعجبهم المصريات وتزوجوا أجنبيات والتقت فيه بالدكتور طه حسين (وزوجته فرنسية) والدكتور أحمد فخرى عالم الآثار (وزوجته المانية) والدكتور احمد زكى (وزوجته انجليزية) سئل الدكتور زكى عن وجهة نظره فى زواجه ، فسرح بفكره بعيدا ·· وهو يتذكر ذلك الماضى البعيد ثم قال : « ان الزواج حظ ·· لا يرتبط كثيرا بوطن الزوج أو وطن الزوجة ·· والمسألة هى مسألة مزاج وأخلاق ·· ولم أجد فيما سمعت من الزوجات صبرا ولا كرما ولا تضحية ولا فهما ، كتلك التى اخترتها من تحت تلك السماء القاتمة الماطرة ، والتى لا تكاد تكف عن المطر صيفا أو شتاء ، وقد حضرت هى الى حيث لا مطر ولا سـحاب وانما الشمس الساطعة المحرقة ، فاحتملتها ، وصبرت عليها حتى أصبحت لا تطيق مطرا أو سحابا » ، واستطرد يقول : « حقا ان بين المصريات من يمتزن بالصبر الطويل المرير ·· ولكن الصبر ونقيضه النزق موزعان فى الأمم توزيعا عادلا ·· فالى جانب الصابرة نجد المتهورة، والى جانب الحليمة نجد سريعة الغضب » ·

وقد رزق الدكتور احمد زكى وزوجته بابنتهما السيدة (لبيبة) ، ورزقت هذه بابن كان الدكتور أحمد زكى يسعد به كثيرا ولا يفتأ

يداعبه ويهتـم به ، وهو الدكتور رشـاد مصطفى المهندس فى كاليفورنيا ٠

وقد سئل الدكتور احمد زكى عن سر اكتفائه هو وزوجته بابنة واحدة فقال : « انها ترى ان الحياة مقامرة ، وان انجاب الأطفال أقسى المغامرات ، فنحن ننجب الأطفال للشقاء أحيانا وللسـعادة أحيانا ، وان يكن هذا أو هذه فنحن على كل حال ننجبهم للجهـاد العنيف ، والحياة الحديثة جهاد عنيف ٠٠ وقد رأيت ما رأت » ، وأضاف عالمنا قائلا : « ان الناس تنجب ان لم يكن للشقاء فهم ينجبون للموت ٠٠ وكلانا ـ يقصد هو وزوجته ـ من رأى أبى العلاء :

هـذا جنـاه أبى على   وما جنيت على احـد

ومع هذا فلنا ثمرة ، وثمرة واحدة ، وكان لنا منها صبى » ٠

وكانت للدكتور احمد زكى فيلا بالقاهرة هى الدار رقم ١٦ بشارع ٤ بالمعادى ، وكانت من دورين ابتناها بعد عودته واحتفظ بها حتى توفى ، وقد جعل مكتبه فى الدور الثانى منها مع حجرات النوم ، وكان بين مكتبه وحجرة نومه باب صغير ، فاذا أرق بعد ثلثى الليل ، وكثيرا ما كان يأرق ، دلف من حجرة نومه الى حجرة مكتبه وأضاء النور وأخذ يقرأ ويقرأ ، وقد يكتب ويكتب ، ومن هنا جاء اسم واحد من كتبه « ساعات السحر » وهى فصول متفرقة الموضوعات لا يجمعها الا انها كتبت فى ساعات السحر ، ولهذا رأى أن يسميها بالوقت الذى كتبت فيه جميعا بعدما تعذر أن يجد لها موضوعا يضمها جميعا ٠

ومن هذا المعنى كان الكاريكاتير الذى نشرته مجلة الهلال (مارس ١٩٥١) للدكتور احمد زكى مصورة له على انه « ديك » ،

وذلك فى الحلقة الأولى من باب جديد اسمه « حديقة الأدباء » اتخذته « الهلال » موضعا لابداء الرأى فى الكتاب ، وأردف كاتبها طاهر الطناحى على ذلك الكاريكاتير بأبيات من الشعر تقول .

متــــــوج بعقيــــــق ... مفــــــرط بلجــــــين
عليــــه قرطـــق وشــــى ... مشــــــمر الكمــــين
قــد زيـــن النحـــر منــه ... ثنتـــــان كالوردتـــين
حتى اذا الصـــبح يبدو ... مطـــــرز الطرتـــــين
دعـــا فأســــمع منـــا ... مـــن كـــان ذا أذنـــين

ثم علق على ذلك بقوله : « ذلك هو الديك أو ذلك هو مؤلف (ساعات السحر) » · وقد أحسن الرسام فى اختيار الديك له · فمن ذا الذى يستيقظ فى هذه الساعات أو قبيل هذه الساعات الا أن يكون ديكا، أو يكون الدكتور أحمد زكى ، غير أن الديك يستيقظ ويوقظ النائمين بصياحه ، وزكى يستيقظ ويصيح بصرير قلمه ، ولا يقلق النائمين بهذا الصرير الموسيقى الجميل » ، ومعنى طاهر الطناحى مركب من العبارات وأسماء كتب احمد زكى جملا طريفة المعنى والأسلوب ·

كان الدكتور احمد زكى من العلماء المؤمنين ، وكان ايمانه بالله وقدرته عميقا الى أبعد الحدود ، بل لعله أبعد علمائنا المعاصرين فى هذا شأوا ، ان كان فى الايمان مفاضلة ·

وكانت عقليته الدينية على شىء كبير من التفتح والتحرر ، وكان يجاهر بلا خوف أن حديثا فى البخـــارى لا يمكن أن يكون

صحيحا اذا خالف العقل والدين ، والنبى صلى الله عليه وسلم لا يمكن أن يقول ما هو مخالف للوحى والدين ٠

وخاض الدكتور احمد زكى سنة ١٩٥٢ معركة اجتماعية مع فضيلة الشيخ حسنين مخلوف ، على صفحات الجرائد ، وكان وقتها مفتى الديار المصرية ، حول المرأة وعمل المرأة ، وطبيعة عمل المرأة ، وانتصر الدكتور زكى فى النهاية ٠

وقد انتدب الدكتور احمد زكى لتدريس التاريخ الطبيعى فى الأزهر فى أول عمله بالتدريس بعد تخرجه من مدرسة المعلمين ، فدرس عامى (١٩٢٨ ، ١٩٢٩) وذكر ذات درس لطلبته أن ضلوع الانسان متساوية العدد فى اليمين واليسار ، فهاج عليه الطلبة يريدونه أن يوافقهم على اعتقادهم أن الضلوع فى الجانب الأيسر تنقص واحدا ، هو الذى خلقت منه حواء ، فأخذهم عالمنا باللين والمنطق والعلم حتى أقنعهم بصواب ما قال ، واقتنع الطلاب ، وأحبوا أستاذهم ، وأخذوا يستمعون الى نصحه ويأخذون بآرائه ، ومضى يعمل على توجيههم فى تكوين شخصياتهم ، ونصحهم بممارسة الرياضة البدنية لفوائدها الجمة ، وذهب الطلبة يلعبون كرة القدم ، ولبسوا الشورت ، وجمعوا بينه وبين « العمة » فوق رءوسهم ، وهاج ولاة الأمر فى الأزهر ، وكان الشيخ مصطفى عبد الرازق ـ وهو صديق احمد زكى ـ سكرتيرا للمجلس الأعلى للأزهر ، وذهب الشيخ مصطفى (الذى تولى مشيخة الأزهر فيما بعد) الى احمد زكى فرجاه أن يجعل الأزهريين الشبان يقلعون عن هذه الرياضة التى نصحهم بها ، واستجاب عالمنا لرجاء شيخنا ، واستجاب الطلبة لرجاء أستاذهم ٠

وكان الدكتور احمد زكى يؤمن بأن العلم وتقدمه سواء فى

مجال البحوث أو المجال التطبيقى عامل مؤثر فى الرقى بالانسان وأخلاقه ، ولم يكن من أنصار الرأى القائل بغلبة الماديات على هذا العصر ، وعنده أن الشر لا يكون الا والعقول مظلمة ولا يمكن أن ينتج عن تقدم العقول الا الخير (الأثنين ١٩٥٥/٢/٢١) · وهو يلفت النظر الى أن الناس لم تأمن على سلامتها وأموالها وأرزاقها وبيوتها ورءوسها كما أمنت هذه الأيام ، وأبعد من هذا يتنبأ الدكتور زكى بأن نواحى التقدم العلمى والتكنولوجى سوف تكون أكبر العون على تماسك العقائد عند الناس ·

وأصل المسألة عنده أن العلم والتكنولوجيا ، كلاهما ليس فيه خير أصلا ، وليس فيه الشر . انما هو كمشرط الجراح يستطيع أن يفتك به ، أو أن يجرح ليشفى ، أو هما كالماء ، تستطيع أن تبل به الظمأ ، وتستطيع أن تسد به الأنفاس وتغرق (من حديثه لمحمود عوض فى آخر ساعة ٧١/٤) ·

ويلخص أستاذنا الدكتور زكى الرأى فى الرد على من يقولون ان المجتمع العلمى هو مجتمع مادى ، فيقول : « هؤلاء القوم من أهل المشرق ·· قوم من بيننا يفكرون مثل الثعلب الذى نظر الى العنب ، فوجده عاليا لا ينال ، فقال انه الحصرم المر ، وذهب راغبا عنه · **انهم اذن يقولون ذلك عجزا وقصر ذيل . فلنصبح أولا مجتمعا علميا قبل أن نلعن غيرنا** » ·

وسوف نولى هذه النقطة كثيرا من التفصيل فى الباب الخاص بالفكر الفلسفى عند احمد زكى ·

عاش الدكتور زكى حياته وقد سيطرت على عقله فكرة وحدة الخلق والخالق ، وان وحدة هذا الخالق تتراءى فى وحدة خلقه ،

وكان يعبر عن هذا فى الخمسينات وهو فى مواقع السلطة فيقول : ان أمنيته أن يخلص من المناصب ليتفرغ لكتابة كتاب بعنوان « وحدة الكون » ، وفى موضع آخر يقول احمد زكى ملخصا هذه الفكرة « وخرجت على ما أحسب انه حقيقة الحياة الكبرى : تلك وحدة شاملة تجرى فى هذه الخلائق جميعا ، على اختلاف صور واختلاف أخلاق ، وهى تجرى فى أرض وسماء أومن بها كايمانى بوجودى وايمانى بوجودكوالايمان بالوجود أولالايمان ‥ وتسألنى عن هذه الوحدة ما اسمها ، وأقول : سم ما بدا لك ٠ أما هى عندى : فوحدة من وحدة الله » ، قال الدكتور احمد زكى هذا فى مقدمة كتابه « مع الله فى السماء » ، ثم قال : « وهذا الكتاب ليس بكتاب فى الفلك ولا فى علم الأرض ، ولا فى الفيزياء ، ولا فى الكيمياء ‥ وما كان له أن يكون ، انه كتاب ايمان وأرجو أن أتبعه بالكتاب الثانى « مع الله فى الأرض » اكمالا لمعنى الوحدة ، وعلى الله أن أنجزه ، وعلى الله أن أوفق فيه ٠

ومضت الأيام ونشر الدكتور احمد زكى سلسلة مقالات ممتعة فى مجلة العربى وجعل عنوانها « وحدة الله تتراءى فى وحدة خلقه ‥ وقدرة الله تتجلى فى بديع صنعه » ، وكان يعتزم أن يجمع بين هذه المقالات التى نشرها فيما بين يناير ١٩٧٠ وديسمبر ١٩٧٤ فى كتاب ، وقد جهز هذا الكتاب بالفعل قبل وفاته وأضاف الى المقالات عددا آخر من الموضوعات استقام بها نظام الكتاب كموسوعة علمية فى فلسفة وحدة الكون ، وجعل عنوانها « مع الله فى الأرض » وقد نشرتها الهيئة المصرية العامة للكتاب بعد وفاة عالمنا الجليل ٠

ولم تكن هذه او تلك هى الموسوعة الوحيدة لاحمد زكى فى المجال العلمى ، وانما كانت هناك موسوعة اخرى نشرها الدكتور احمد زكى بداية على صفحات العربى فى المواضيع العلمية الرئيسية

ثم جمعت تحت اشرافه وأخرجت اخراجا رائعا وصدرت عن دار الشروق ، تحمل نفس الاسم الذى كان احمد زكى يكتبها تحت عنوانه وهو « فى سبيل موسوعة علمية » وتعد موسوعة الدكتور احمد زكى هذه خير ما صدر فى العربية فى هذا المجال ٠

وقبل هذين الكتابين « مع الله فى الأرض » ، « مع الله فى السماء » أخرج الدكتور احمد زكى فى سنة (١٩٣٨) كتابه « قصة الميكروب ، كيف كشفه رجاله » وهذا الكتاب فى الأصل من تأليف الدكتور بول دى كريف «Dr. Paul de Kruif» وقد نشر الدكتور زكى ترجمة لهذا الكتاب فى مجلة الرسالة ، التى كان الاستاذ أحمد حسن الزيات يصدرها ، وبدأ عالمنا فى نشر الفصول المترجمة منذ فبراير (١٩٣٥) وعلى مدى ثلاث سنوات ٠ وما أن انتهى نشر فصول الكتاب حتى نشرته مجلة الرسالة سنة (١٩٣٨) ٠

كذلك ترجم الدكتور زكى كتاب «Lady with a spear» الذى ألفته أوجينى كلارك «Eugenie, Clark»وهى باحثةشابة حكت فى كتابها عن تجربتها العلمية فى عالم البحار ، وقد اختار الدكتور زكى أن يترجمه تحت عنوان « فى أعماق المحيطات » وقد نشرته دار الهلال ٠

وفى الستينيات عاون الدكتور احمد زكى مؤسسة فرانكلين على نشر اثنين من أبرز الكتب العالمية التى أخرجتها المؤسسة فى مصر . وأول هذين الكتابين هو كتاب ألفه الدكتور جيمس كونانت James B. Conant رئيس جامعة هارفارد الأسبق ، وقد ترجمه الدكتور احمد زكى تحت عنوان « مواقف حاسمة فى تاريخ العلم » ونشرت دار المعارف الكتاب سنة (١٩٦٣) ٠

وأما الكتاب الثانى الذى يحمل اسم « بواتق وأنابيب ٠٠ قصة الكيمياء » فهو ترجمة الدكتور زكى لكتاب العلامة برنارد جافى

«Crucibles the stroy of الذى ألفه باسم «Bernard Jaffe» chemistry» وهو كتاب كبير الحجم والقيمة كسابقه . هذا بالاضافة الى جهده فى كتب دراسية أخرى .

وكان الدكتور زكى يذهب فى ترجمته للكتب العلمية مذهب الدقة الزائدة ، ولكنه كان يجمع اليه مذهب التحرر ، وهو يقول فى هذا المعنى فى تقديمه لكتاب مواقف حاسمة فى تاريخ العلم « وجنحت فى الترجمة الى النفع اذا هو عارض التقليد ، وكان لابد فى كاتب يحكى عن العلم كهذا من ابتداع كلمات فابتدعتها ، فوجدت من الفائدة ان أذكر الى جانبها لفظها الانجليزى لفائدة من عـــرف وألف اللفظ الانجليزى . كذلك اسماء الاعلام وضعت الى جانبها نافع لمن يريد الرجوع الى المراجع الأعجمية ليزداد منها علما » هذه لمحة من أسلوب أحمد زكى فى الترجمة ، الذى سنتحدث عنه بالتفصيل فى باب خاص .

ويلاحظ القارىء من طبيعة هذه الكتب أنها تعنى عناية خاصة بتاريخ العلم ، أو بعبارة أخرى تعرض العلم من خلال تاريخه ، وقد جاء هذا نتيجة ايمان أحمد زكى بفعالية هذا الاسلوب فى توصيل حقائق العلم وروحه الى الجمهور المثقف ، وقد عبر رحمه الله عن هذا المعنى فى تقديمه لكتاب قصة الكيمياء فقال أنه « ليس الذ فى أحاديث الناس من قصة ، وليس أمتع فيما يقرأ الناس من قصـــة والعقول قد تخمد من تعب ، ويكاد يغلبها النوم ، حتى اذا قلت قصة ذهب النوم واستيقظت العقول ، وارهفت الآذان » ، « وتسأل عن سبب ذلك فتعلم ان العقل الواعى من بعض أعماله التعقل ، ومن بعض أعماله التخيل ، والتعقل يطول فيجهد ، والخيال مركب وطىء ، يركبه الانسان بايسر جهد ، ويطير فيحلق به فى أجواء أكثر انعاشا من جو هو فيه ، وليس أحب للنفس وليس أشهى لها ، من فرس ذى جناحين فى السماء رامح » .

وكان أحمد زكى فى كل مابذل من جهد فى هذه الناحية ، يعبر عن ايمانه بأن من مســـئولية رجل العلم أن يعرف الناس بالقيم العلمية ·· ويحيى فيهم ســـعيهم نحو القيم العلمية ، وهكذا عبر للأستاذ محمود عوض فى لقائه معه الذى نشر فى مجلة آخر ساعة (٧١/٤) وقال : ان الناس دائما تهاب العلم ، لأن هناك اشــاعة منتشرة تقول ان العلم صعب ، وان للعلم موهبة توجد عند بعض الناس ولا توجد عند البعض الآخر ، هذا غير صحيح ، اننا جميعا نبدأ حياتنا من نقطة متساوية ولكن اتجاهاتنا تتحدد على الطريق وليس من نقطة البداية نفسها ، ولأن الناس تتصور ان العلم صعب ، فانك تجد ان الذين يقبلون على كتابة الشعر أو القصة مثلا هم أضعاف من يقبلون على التخصص العلمى · ان الطريقة المثلى لتقريب العلم للجمهور هى ان يتحدث الناس علميا فى الأمور التى تتصل بحياتنا اليومية · فكلما قرأ الشخص العادى عن الدور الذى يؤديه له العلم داخل منزله ، وفى مكتبه ، وفى حياته عموما ، فان اهتمامه بالعلم وقراءاته سوف تتزايد قطعا ·

على أن هناك مجموعات أخرى من مقالات استاذنا الدكتور زكى فى مجلة العربى تصلح لأن تقوم كتبا مستقلة بذاتها على غرار هذه الكتب ، ومن أمثلة هذه المجموعة أحاديثه فى « الطب المصور » ومقالاته الأخرى فى « الامراض الشــائعة » وسلسلة أحاديثه عن « الذرة » وعن « الفضاء » ·

وانى لأرجو الله ســبحانه وتعالى أن يهيىء لها من يقوم بهذا الجهد ·

وبالاضــافة الى هذه الكتب العلمية الأربعة التى نقلها عالمنا الجليل الى العربية ، فقد استغل قلمه فى ترجمة عينين من عيون

الأدب العالمى لاثنين من كبار الأدباء وأبرزهم فى تاريخ الأدب اذ ترجم الدكتور زكى « غادة الكاميليا » و « جان دارك » .

وتبرز القدرة الأدبية واللغوية والتعبيرية الهائلة لاستاذنا الدكتور أحمد زكى فى ترجمته لهذين الأثرين العظيمين ، وعلى الرغم من أنهما قد ترجما عدة ترجمات أخرى الى العربية الا أن ترجمة الدكتور زكى لكل من الأثرين تبقى على قمة الترجمات ·

اما عن أعمال الدكتور زكى التى ألفها فى اللغة العربية ، فبالاضافة الى كتابيه مع الله ، وبالاضافة الى الموسوعة العلمية ، فقد أخرج للقارىء العربى خمسة كتب ضمت المجموعات الأولى من مقالاته ، جمع الدكتور زكى أحاديثه الاذاعية فى كتابين متعاقبين أولهما « سلطة علمية » وثانيهما « سلطة علمية أخرى » وسيجد القارىء بيانا بفصول الكتابين فى باب « الببليوجرافيا » ·

وقد عثرت فى تراث استاذنا الدكتور أحمد زكى على كشف بقلمه حصر فيه (٦١) واحدا وستين حديثا اذاعيا لم تنشر فى سلطة علمية ، وبين يدى القارىء أيضا بيان بهذه الأحاديث فى القسم الخاص بالببليوجرافيا ·

اما كتاب « بين المسموع والمقروء » فقد جمع فيه أستاذنا الدكتور ثلاثين قصة صغيرة وأقصوصة بعضها وصله عن طريق السماع وبعضها عن طريق القراءة أو هكذا قال هو فى التقديم ، وسنتناول هذه القصص بشىء من التلخيص والعرض والنقد فى الباب الخاص بالناحية الأدبية من شخصية أحمد زكى ·

بقى ان نذكر ان الكتاب الرابع « ساعات السحر » بفصوله الاثنين والعشرين كان مختارات من مقالات الدكتور زكى فى الهلال

الجديد الذى رأس تحريره ، وفى مجلة الاثنين ، وقد تحدثنا منذ صفحات قليلة عن السر فى تسميته بهذا الاسم ؟ وان الكتاب الخامس « مع الناس » يحوى ثلاثة وعشرين فصـــلا تتناول كل العلاقات والنواحى التى تكون بين الناس على النحـــو الذى ســـتعرضه الببليوجرافيا ٠

كان الدكتور أحمد زكى أديبا بالسليقة ، وقد حدث عن نفسه فقال أنه نظم الشعر فى شبابه حين كان فى العشرين من عمره ، ويذكر عالمنا ان أول بيتين قالهما هما هذان البيتان اللذان سجلهما على ظهر صورة شمسية أخذت له ٠

طيف شمس قد ازدهى   بشــــــباب ونضــرة
يملأ النفس وســـــعها   من ســــــرور وبهجة

ولاشك تعبر لنا هذه الابيات عن اعتداد أحمد زكى بنفسه منذ الشباب ، وهى صفة لازمته من دون افراط فيها ولا تفرط (فى نفسه أيضا) ٠

ويروى الدكتور زكى أن أول مقالاته كانت فى مجلة « السفور » وكان المنفلوطى رحمه الله قد نشر مقالا جرح فيه الشـــباب ونعى عليهم ، فرد عليه أحمد زكى بمقال جرح فيه الشيوخ ورماهم بجمود العروق وبرود الدم ٠ والطريف ان أحمد زكى قد روى هذه الواقعة حين كان على مشارف الستين ، وقال لمحرر المصور الذى أجرى معه تحقيقا صـــحفيا فى ســـلسلة عن أهـــل الفكر فى صـــوامعهم (١٩٥٣/١١/٢٧) أنه ألف وهو فى مدرسة المعلمين كتابا ســـماه « عبث الشباب » جمع فيه كل ما قال من نثر وشعر ٠

ثم أنه لما تعلم الفرنسـية على يد معلمة سويسرية بدأ يطبق العلم على العمل فترجم « غادة الكاميليا » التى نشرها أول ما نشر من مؤلفاته بعد عودته ٠

ولما سافر أحمد زكى الى انجلترا حمل معه كثيرا من كتب الأدب العربى ، وكان قليل الاختلاط بالمصريين والعرب ، ولكنه كان كثير الاختلاط بالأدب العربى المكتوب ، ولعل فى هذا سرا من أسرار تميز أسلوب أحمد زكى فى بعض العبارات بالتركيبات على نحو لا نجده فى أسلوب معاصريه ، وان لم يكن غريبا على الأسلوب العربى ٠

وكان عالمنا اثناء دراسته فى انجلترا يحرص ف رسـائله الى اصـدقائه وأهله فى القاهرة أن تكون قطعا أدبية ، وهى طـريقة لها أثرها بلاشك على تدريب القلم والرقى بالأسلوب والقدرة على التعبير ، والمثل على نجاحها واضح فى أحمد زكى ، ومن طريف ما يروى فى هذا الصدد أنه عندما عرف الدكتور أحمد زكى العالم الجليل الشيخ أبا زهرة ، سأله الشيخ « هل لك قرابة بأحمد أمين ؟ ، فقال : أحمد زكى : لا ، ولكن نسب ، ولكن لماذا هذا السؤال ؟ فقال أبوزهرة: لقد ارسلت اليه رسالة من انجلترا تصف فيه واقعة موت صديق لك فقرأها لنا أحمد أمين فى درس الأدب على أنها نموذج حى للأدب الرفيع ٠ وكان أحمد أمين أستاذا للشيخ أبى زهرة فى مدرسة القضاء الشـرعى ٠

ولم يكن أحمد زكى يحتذى فى كتاباته أديبا بالذات ، ولكنه كان متأثرا فيها بخليط من الأدباء ، وبخاصة الشعراء ، المتنبى والبحترى وأبى تمام ومهيار ، وكان المتنبى أكثرهم تأثيرا فيه ، وهذا واضـح أيضا فى نسبة الأبيات التى يقتبسها أحمد زكى من المتنبى ، وقد عبر عن حبه للمتنبى عندما سئل عن أقرب الشعراء اليه فقال : المتنبى وليته ماتنبى ٠

وسألت الاهرام عالمنا فى أوائل الستينات عن قراءاته فقال : ان اكثر مطالعاته فى الكتب العلمية لكنه يلتمس ما استطاع كتبا سواها ، لكى يستكمل جوانب المعرفة ، ويحاول بهذا الاستكمال ادراك الحكمة التى لا يمكن ادراكها الا بتجميع اجزاء المعرفة وربطها · واستطرد فقال ان التخصص لا يجوز ان يصرفنا عن الاتصال بمقدار ما ـ بجوانب المعرفة الأخرى ، بل ان هذا التخصص نفسه يحتاج الى النظرة الشاملة التى تدنيه من الحكمة فليس من المجدى أن تعرف ،ترا واحدا من الكرة الأرضية الى أعمق أعماق التخصص ثم تظل جاهلا بقية الكرة الضخمة فلا تدرى أين موقع قدمك ·

وكان عالمنا يصرح بان قراءاته فى النثر العربى قليلة ، وان اكثر ما يقرأه نثرا هو فى الآداب الأجنبية ، ولك ان تتخيل مقدار ما كان يقرأه الرجل الذى يزعم أنه لم يقرأ فى العربية الا القليل · رحم الله التواضع ·

ولم يكن أحمد زكى يرى غرابة فى جمعه بين الأدب والعلم الذى تمثل عنده ، وكانت نظريته فى ذلك ان «الفارق بين العلم والأدب مفتعل ! وهو أكثر افتعالا فى الشرق ·· فكل كاتب فى الشرق مفروض أن يكون أديبا ولو كان عالما ·· ومن غرائب الشرق ان يستغرب أن يكون العالم أديبا » ·

كان رحمه الله من طراز العلماء الموسوعيين ، وعندى أن أعظم أدباء العربية لم يكونوا الا من العلماء الموسوعيين ، وهذه حقيقة لن يتأتى فهمها على الوجه الحق الا للموسوعيين أو الذين يريدون ان يكونوا كذلك ، أو الذين يدرسون حياة هؤلاء ، وقد يتأتى لاولئك الذين يقرأون عن هؤلاء وعن غير هؤلاء ·

ونعود فننقل عن الاستاذ طاهر الطناحى قوله « ان الديك كما

قال الجاحظ فيه الشجاعة والصبر والجولان والثقافة ، وله خبرة بســــاعات الليل ومقادير الزمان ، وكذلك زكى بك يكاد يكون فوق الأسطرلاب وفوق مقادير المد والجزر ، فعلى الرغم من تعدد مشاغله وكثرة « سلطاته العلمية » فهو يقسط جهوده وزمنه على واجباته تقســــيطا موزونا ، وكأنما الحياة عنده « معمل » تخضــع للتحليل والتدقيق والتقسيط » ٠

نعم كان الدكتور أحمد زكى مثالا فى التنظيم ، والضبط ، والربط ، ولم يكن هذا الا صورة من عقليته المنظمة ، التى نظمها العلم فاتسعت للكثير من العلم ، وأعطت الكثير من العلم والعمل ٠

كان أحمد زكى كثير القراءة ، كما قدمنا ، وقد اتيحت له فرصة الفراغ لها بعد فراغه من الوظائف فى مرحلة مبكرة من عمره (لا من حياته)، وكانت له مكتبة ضخمة قيمة فى بيته بالمعادى، فلما ذهب الى الكويت وأسس العربى كانت له هناك مكتبة أخرى ضخمة فخمة كان لا يفتأ يزودها بالجديد ، ولما توفى رحمه الله اشترتها وزارة الاعلام الكويتية ، وخصصت لها موضعا ممتازا ٠

وكان الدكتور يقضى ليل رمضان كله فى القراءة ، ويظل يقرأ من بعد صلاة العشاء والافطار حتى السحور ثم يواصل القراءة مرة أخرى حتى يداعب النوم جفونه ٠

أما عن أسلوب عالمنا الجليل فيحدثنا واحد من العلماء الكبار التالين له وهو أستاذنا الدكتور عبد الحليم منتصــــر مثالا للكاتب العلمى الذى لايزال بالفكرة حتى يغرسها فى نفس قارئه غرسا ، وله طريقته الخاصةفى العرضوالتحليل فى جميع الموضوعات العلمية التى يتناولها وهو مع أنه يكتب لقطاع عريض جدا من قرائه فى الوطن العربى ، فما أشك فى أنكل قرائه يفهمونه فى سهولة ويسر ، ولا

يجدون أدنى مشقة فى فهم ما يريد ان يعرض من مسائل علمية مهما تكن صعوبتها ودقتها ٠

وسئل الدكتور زكى عن غرابة أسلوبه ، هل يحسها ، كما يحسها غيره ، فقال « اقنعنى بان أسلوبى لابد فيه شىء غريب كلمة كتبها العقاد فى المصور ، وصف بها أسلوبى فقال « انى لا اقرأ للدكتور أحمد زكى شيئا الا وأتصوره قد جلس الى مكتبه وبيده قلم ، وبيده الأخرى مسطرة ، وبرجل » ٠

وكان العقاد رحمه الله من المعجبين بأحمد زكى وبجمعه الفريد بين العلم والأدب ، وكان يقدر أسلوبه ، وآراءه فى مجمع اللغة ، وهكذا كان الدكتور زكى على رأس العلماء الذين سلموا من لسان العقاد ، بل وحظوا بتقديره ٠

وكان عالمنا حفيا ببلورة العلاقة بين الصحافة والأدب ، وبين الصحافة والعلم ، وبين الصحافة والثقافة على وجه العموم وقد قال فى حديثه للاستاذ سامح كريم « ان الصحفى اليوم لن يكون صحفيا بالفهلوة أو بالخطف ، وأنما بالثقافة والمعاناة ، صحيح ان الموهبة موهبة واستعداد ، ولكن هذه الموهبة ، وذلك الاستعداد ينبغى أن يكون فى خدمة الثقافة والاطلاع » ومضى الدكتور زكى يجيب على سؤاله عن العلاقة بين الصحافة والأدب فقال : « اذا كان الأدب هو الكاتب والقلم الثرى بلفظه ، الثرى بمعانيه ، القوى بأسلوبه ، الواصل فى يسر الى ما يؤديه فقد افادت الصحافة الكثير منه ومن أصحابه ٠٠ ومن أهل الصحافة أهل أدب بهذا المعنى ٠٠ ولكن من أهل الصحافة من اساء الى الأدب ٠ هؤلاء هم الكتاب الذين يخطفون هؤلاء هم الذين درسوا جانبا من اللغة ولكن لم ينموها ، درسوا صنوفا من الأدب فبهرتهم فراحوا يقلدونها قبل وفرة واجبة من

التحصيل ومنهم من لا يهمهم اللفظ يستعملونه مادام يؤدى الى الغرض سريعا » ٠

هذا المعنى كان أحمد زكى مهتما بالتأكيد عليه فيما يتعلق بالشباب ومحاولاتهم الشعرية ومسألة الشعر الحر ٠٠ كان عالمنا يريد أن يقول ان الضوابط والقيود والاشكال الأدبية ليست عبثا وانما هى مقدرة ، وان الحياة الحديثة ليست بالشىء السهل وان بدت كذلك الا أنها لم تجىء الا بعد معاناة وعناء طويلين ، واقرأ معى عباراته فى مقاله (يوليو ١٩٦٦) بالعربى حين يقول : « انه جيل جاء من بعدنا ، دهمته سرعة الحياة ، وغمرته المدنية غمرا حتى ما تكاد تستقر فى فيضها المتدفق قدماه ، وراح يحسب أنها مدنية فى أدب وفى غير أدب ، دانية الثمار ، وليس عليه الا ان يمد يده اليها ويقطف ، والذين خبروا هذه المدنية يخبرونك آن وراءها التحصيل الكثير والسهر الطويل والحفظ المتصل المستنير ، انها مدنية شاقة ، يبذل الانسان فيها مثل ما يجنى منها وأكبر ، ولكم شقى الانسان فيها بالعمل ، ولكم شقى ببعض ما جناه منها من ثمار » ٠

ويروى عالمنا انه حدث شابا مغرما بالشعر فى هذا فقال له الشاب : انا شاعر ، فمالى والعلم ، « قلت له ان جسمك اقرب اليك من شعرك ، وشعرك فى حاجة الى هذا العلم وان لم يظهر فيه » ٠

وفى موضع آخر (اغسطس ١٩٧٥) يتحدث الدكتور زكى عن هذه الظاهرة فيقول « انه الحب يريد الشباب ان يتروحوا منه فيصبونه شعرا قبل نضوج ، ان قول الشعر فيه شفاء لقائله ، وهو بذلك يؤدى فى الشباب غاية » ثم يردف بقوله « والظاهر ان مدرسى اللغة العربية كثرة كاثرة هبطت بشغفهم بالأدب عامة ، فكان من ذلك الشعر الضعيف الذى ينتجه شبابه اليوم ، بعد انتهاء من دراسة » ٠

والحق ان الدكتور زكى قد أفاض فى دراسته لهذه الظاهرة وحديثه عنها ، مما تظن أن سيكون له موقع آخر فى كتابنا هذا ان شاء الله .

اما لغة الدكتور زكى العربية فقد كانت على خير ما تكون هذه اللغة عند العلماء والمثقفين وعند أهل اللغة أنفسهم ، والأمر فى هذا لا يحتاج الى بيان أو توضيح .

وكان الدكتور زكى يجيد الانجليزية اجادة تامة قبل البعثة وبعدها ، وفى الكيمياء وفى غير الكيمياء .

وكان الدكتور زكى كما ذكرنا قد تعلم الفرنسية على يد سيدة سويسرية ، وسرعان ما طبق العلم فى العمل وترجم غادة الكاميليا .

ودرس الدكتور زكى الالمانية ، لأنه كان فى حاجة الى هذه اللغة فى دراسته لدرجة الدكتوراه فى العلوم ، وقد أجرى بعض بحوثه بها فى النمسا .

ونحن هنا نقتطف لك طرفة من طرف الدكتور زكى حين يتحدث عن قلمه فى مقال له بمجلة الاثنين فيقول فى فقرة من الفقرات « عرفت اقلامى أول ما عرفت العربية ، ثم هى تتدرج فتعرف الانجليزية ، ثم اذا هى بالفرنسية تلوذ ، ثم هى من الالمانية تعوذ حتى التركية كان لها من محابرى سقيا ، وكان لها نصيب » ، انظر الى حبه للفرنسية ، وقبوله الالمانية على مضض ، معنى كرره الدكتور زكى فى غير موضع ، مع أن فى قلمه تأثرا كبيراً بطريقة تركيب الجملة فى اللغة الالمانية على نحو سنتحدث عنه فى موضع آخر ان شاء الله بالتفصيل .

ويروى لنا عالمنا الجليل نفسه بعض الطرائف عن تعلمه اللغات فى مقاله « حاولت ان اتعلم الصينية » الذى نشره فى جريدة الشعب

(١٩٥٧/١/١٢) فيقول انه حاول ان يتعلم التركية على اسماعيل حقى ، وهو شاب تركى جاء مصر مع الحرب العالمية الأولى واشتهر أمره فيها ثم عاد الى تركيا حيث اعدم لمعارضته نظام الحكم ... ولكن أحمد زكى لم يواصل تعلم التركية .

وحاول الدكتور زكى ان يتعلم الروسية مع اثنين من المسلمين الروس المجـــاورين فى الأزهر الشـــريف ، وكانا من مدينة كييف باوكرانيا ، ولكنه لم يمض الى النهاية .

وحاول ان يتعلم الصينية مع بعض مجاورى الأزهر كذلك فلاقى فى تعلمها صعوبة شديدة ، وكان مرد هذه الصعوبة عنده الى انك قد تجد فى الصينية ٥٠٠ كلمة ذات معنى واحد ، ويعلق على هذه الخاصـــية من خواص الصينية فيقول انك قد تجد فى العربية كلمة ذات عشـــر معان ، وهذا قليل جدا ، ولكن ما بالك بالكلمة الصينية يكون لها خمسون معنى ، وما بالك بها ولها خمسمائة !! وهكذا فان أحمد زكى اجاد ثلاث لغات حية بعد ما لم يحالفه الحظ فى ثلاث لغات أقل حياة .

وعلى حين تعلم الدكتور زكى فى بريطانيا ، وعلى حين تزوج منها ، وعلى حين كان دائم الزيارة لها الا أن هذا لم يمنع أحمد زكى من أن يبدى الآراء الصريحة ـ التى تغضب الانجليز على الأقل ـ من **السياسة البريطانية والعقلية البريطانية** .

من البديهى ان موقفه من المسألة المصرية البريطانية كان فى الجانب المصرى مائة فى المائة ، ووطنية الرجل ليست محل تشكيك ، انما أردنا بتبصيرنا فى الفقرة الســـابقة مواقفه العامة خارج هذا النطاق الذى لا يحتمل التفاضل فى خلق أحمد زكى .

كان عالمنا الجليل يصـــرح فى الاربعينات وفى الســبعينات ان بريطانيا هى عقادة العقد (الهلال : ١٩٤٧/٤ ، العربى : ١٩٧٣/٥)

وهو يؤكد انها ما تبقى فى بلد زمانا ، وتخرج منه ، الا بعد أن تكون قد عقدت فيه عقدة يصعب على أهل البلاد حلها بعد خروجها ، ويفيض فى ضرب الأمثلة على ذلك بما حدث فى فلسطين وجنوب الســـودان وايران والعراق ٠

ولكن احمد زكى لايترك هذا الامر شماعة للبعض « وتذكر انها عقدت هذه العقد ، ولكن العقدة لاتعقدها الكف الواحدة ، انهما كفان ، كف المستعمر القوى الغازى وكف بل اكف من اهل البلاد ، انى لا أبرىء بلدا ينزل به الشر ، استعمارا كان أو غير استعمار ابدا ، انهما جرمان متكافئان ، جرم غاصب ، وجرم مغصوب ونذم الزمان لنوفر على اهل البلاد المذمة ، ونذم التخلف والتخلف نفسه انما هو جرم جناه الأجداد على الآباء ، ويجنيه ، اليوم الآباء على الابناء » ٠

ويتحدث الدكتور زكى عن بعض المواقف التى واجهته وهو يدرس فى بريطانيا ، ومن هذه المواقف انه هاجم الانجليز وبالغ فى هجومه ، وسكتوا ، حتى اذا انتهى من كلامه وهدأ ، وكان العشاء سأله احـدهم : « ان كان هذا مبلغ كراهتكم لهذه البــلاد فلماذا تأتونها ؟ » ويروى الدكتور زكى فيقول : « وكان جوابى العاجل : انما نحن نأتيها مشترين ، فلكل شىء نأخذه منكم ثمن ونحن ندفع لكم عن تعليمنا قطنا ٠٠ ولم يعجبنى جوابى ، كان الواجب أن أقول : أنا آسف انى آلمتك كل هذا الألم » ٠

على ان الأروع من هذه ما قصه الدكتور زكى من أمر زميل مصرى كان دائم الاحتداد على الانجليز ، وكان اذا داس قدم أحدهم خطأ لم يعتذر ، امعانا فى التحدى ، وكان قوى الجسم مفتول العضل، وحدث انه احتك يوما بانجليزى ، ضعيف الجسم ، قليل الحجم ،

وامتد الخلاف الى الأيدى ، وتلاكما ووقف الطلبة الانجليز والمصريون الذين يدرسون حتى انتهت الملاكمة بانتصار الانجليزى على ضعفه ، لأنه لاكم بصنعة لا بقوة ، يعلق احمد زكى على هذه القصة حين يرويها فيقول « لطالما ذكرت هذا الصـــــراع كلما قام بين البلدين صراع ان هذا من هذا ، الصنعة دائما لا العضل هى الغالبة فكيف اذا اجتمعتا » ٠

ونعود بعد هذه الدقائق الست من الاستطرادات التى ذكرنا فيها موقف أحمد زكى من الانجليز ، نعود الى ماكنا فيه من البحث فى أصول ثقافة أحمد زكى ٠

ولم يكن عالمنا يقتصـــــر فى ثقافته على القراءة ، وان كانت هذه تمثل النسبة العظمى من وسائل الثقافة عنده ، وكان يحب السينما ، ولكنه كان حزينا على مستوى السينما المصرية ، ولا يخفى احساسه ان المخرجين لا يخرجون أفلامهم لطبقة المثقفين ٠

ولم يكن له بعدما تقدمت به الحياة هواية غير القراءة ، الا انبات الزهر والفاكهة فى حديقة بيته ، وكان يتخذ من هذه الهواية مادة لدراسة علم النبات دراسة هواية ــ على حد تعبيره ــ وتجربة بعد مآ درسه دراسة منهجية ٠

وكان الدكتور احمد زكى يحب المشى كما قدمنا ، اذ كان يتخذه رياضة الشيخوخة ، وكان فى شبابه ايضا يحب التجوال والطواف فى شوارع القاهرة القديمة وقد عبر عن هذا فى مقال اغسطس ١٩٤٧ بالهلال ، فقال : « انى لم اجد اشفى لنفسى فى يوم اجازة ، وأنا البعيد عن الأحياء التى نسميها تعسفا بالوطنية من دورة ، أدورها فى الحسينية الى الجمالية الى النحاسـين فالصـاغة فالسـكرية فالعقادين فالخيامية ٠٠ وهلم جرا ٠٠ الى أن انتهى بالسيدة زينب

وما وراءها ، وعلى القدم ادورها ، وتطول فأجعل فيها محطات أحط بها استجماما وفيها أنظر روائع للفن فيشبع حسى بالفـن ، وأنظر معالم التاريخ فأحيا التاريخ البعيد والقريب وأرى صناعات تغيرت عليها القرون ولم تتغير ، فأحس للعهد القديم وآسى له على السراء » ٠

هكذا كانت حياة عالمنا الجليل تسير على نحو مرسوم مخطط ، أخلاق مصطفاة متوازنة ، وشخصية متكاملة أو هى تحرص على هذا التكامل ، ولم يكن للصدفة اثر فى حياة احمد زكى ، ولا جاءه شىء من غير أن يتمناه ويسعى اليه ، وقد سئل السؤال التقليدى ، ماذا يتمنى لو بدأت الدورة من جديد ، فقال : « لو أن الحياة عادت بى من جديد ، وأذن لى أن أتمنى ما تمنيت شيئا من هذه المناصب ٠ لقد تمنيتها قبل أن أكونها ، فلما كنتها تعلمت منها ما رغبنى عنها » ٠

والحق أن الدكتور زكى قد تفرعت به مسالك الحياة كثيرا ، ولو تأملت لتختار له المسلك الذى يسلك من بين هذه المسالك المتشعبة ما وجدت أنسب لشخصه وشخصيته مما كان ، وان وجدت ما هو أكسب ٠

وكان الدكتور زكى قمـة فى التواضـع ـ مع عرفانه لقدره واعتزازه بشخصه ـ ولابد ان كل من لقى هذا العالم الجليل شخصيا وجد فيه تواضع العلماء وأناقة الأدباء ٠٠

فتراه يصغى للحديث بسمعه وبقلبه ولعله ادرى به

كان الدكتور زكى يؤمن بأن المجد الحقيقى ليس هو ذلك المجد الصاخب وانما هو المجد العامل فى هدوء وأناة على نحو ما كانت حياته ، وهو يصرح بهذا المعنى فى مقال له فى الهلال (مارس

١٩٤٦) فيقول : « لقد آن للناس أن يكفروا بالمجد الذى يحوطه الضجيج ، لأن أكثره مجد زائف ٠٠ انه كالطبل ، أعلاه صوتا أفرغه ٠٠ ان الأمم وان الانسانية قد تقدمت ، وسوف تتقدم الى غايتها المأمولة لا بالصراخ وراء رجل أو بضعة رجال ولكن بأبطال الوف يعملون عمل الحياة على الصمت ٠٠ وفى ضياء غير باهر لا يبالون زخرف الحياة ، ولا يجزعون من الموت ، ويؤمنون بالله وبأن المجد كله لله » ٠

نفس هذا المنطق كان يحكم نظرة أحمد زكى الى الأنشطة الاجتماعية فيبدى عدم الرضا عن هذه الضجة التى تحيط بها الجمعيات الخيرية أعمالها ، ويتحدث عن هذا المعنى فى مقال له عنوانه «النسبة والتناسب» نشره فى جريدة الاثنين ، فيقول : « ولو أن الناس اعتادوا النسبة ، لسألوا هذه الجماعات كم من هؤلاء الأطفال آوت ، وكم من المسلولين والمسلولات ابرأت ، ولعلموا اذا هم نسبوا هذه الأرقام ، الى عدد ما فى هذا البلد وسكانه عشرون مليونا ، من أطفال مشردين والى عدد ما فى هذا البلد من مسلولات ومسلولين ، لعلموا أن هذه الجماعات انما تحاول أن تنزح بحرا بكوز ، أو تروى حقلا بفنجان ، ولأدركوا أن هذه الأعمال لاتساعها ولكثرة ما تحتاج من نفقات ، ليست مما تطيقه هذه الجماعات ، ولكنها بحكم الزمن الحديث وماتنشأ فيه من آراء، من عمل الحكومات ومن فروض الدول ، وان الأمر ليس احسانا ولا مبرة ، ولكنها حقوق المرضى العاجزين على الأصحاء والقادرين ، تؤخذ بالضرائب يدفعها دافعها راضيا أو يدفعها غصبا » ٠

وكانت فلسفة أحمد زكى هى الاعتدال ، وكذلك كان طبعه ولكن أى اعتدال ، انه الاعتدال الذى لا يتهاون فى الأصول ، واقرأ فى هذا المعنى عبارات احمد زكى فى وصف الشباب الذى يعجبه ،

أو ما يوده فى الشباب حين يقول : « فيعجبنى منه ـ أى الشباب ـ الوجه الطليق النظيف الذى يعمل فيه الموسى كل يوم أو لا يعمل أبدا ، والشعر المقلم الممشوط ، والثوب البسيط الأنيق · فتلك زينة خليقة بابن آدم ، وهى أخلق ما تكون بشبابه ، وهى ضريبة المنظر الطيب الذى لابد أن يشيع فى دنيا يخفف منَ عنتها أن تقع العين فيها على الحسن الجميل ، ومع هذا فهو عند العمل يخلع التأنق ، وينبوعن الترقق ، فان كان العمل فحما وزيتا انغمس فى الفحم والزيت ، وان كان انبطاحا على الأرض تمرغ فى تراب الأرض ، وان كان بخارا وعفارا ، نشق الأبخرة ، ولم يشح بوجهه عن الأعفرة ، فاذا انتهى النهار دخل الحمام ، وخرج منه فعاد الى التأنق على الصحة التى اكسبها العمل ، والى الترقق على القوة التى أكسبها مران العضل » ·

وكان عالمنا معتدلا فى مأكله وملبسه ، وان لم يخل من أناقة زادتها أناقة قوامه ، ووسامة وجهه المعبر عن حيويته ورفعته ، وكان قد تعود التدخين ثم أخذ يكثر منه حتى لم يكن يكتب الا وهو يدخن ، الى أن كان ذات يوم سنة (١٩٣٦) ، « ورأى المنفضة مترعة فتقززت نفسه ، وأقلع عن التدخين من يومها » ، وهذه الحادثة بالذات تعبر لنا عن مدى الحساسية والشفافية وحب الكمال الذى ملأ على أحمد زكى نفسه وعقله وقلبه ·

هكذا كان الاعتدال طبع أحمد زكى ، وكذلك كانت فلسفته على الرغم مما قد يبدو من شخصيته وهو العالم الحاسم الحازم القاطع فى كثير من الأمور بحقيقة الصواب ·· ولكن الحق أن الرجل كان من المؤمنين بالتطور فى الاصلاح ·· وقد لخص لنا فكرته فى هذا خير تلخيص فى عبارته التى جاءت ضمن مقاله « خواطر عند الحلاق » والذى جعله فصلا فى كتابه « ساعات السحر » حين يقول : « القليل

القليل ثم أنظر ما فعلت يداك ٠٠ أما الكثير الذى تتخطى به الحدود فقد يكون منه فساد ليس الى اصلاحه سبيل » ، وليست هذه هى عبارته الوحيدة فى هذا المعنى ، وانما هى العبارة التى رأيناها تبلور الفكرة فى أبسط صورة ، أما تفصيل القول فى هذه الفلسفة فسيأتى بلا شك فى موضعه ان شاء الله ٠

وكان الدكتور احمد زكى أنيقا بالطبع وان ظن البعض انه متأنق ، وقد أجرت مجلة الاثنين سنة (١٩٥٥) استفتاء لاختيار ملك للجمال من بين الرجال وملكة للجمال من بين الفتيات ، وجاء ترتيب الدكتور احمد زكى الثالث بين ملوك الجمال بعد الأستاذين عبد المجيد عبد الحق وفكرى أباظة ، واختيرت له جائزة ذلك انسانا ميكانيكيا ذهبت به اليه ملكة الجمال الثالثة وهى فتاة الجامعات (عزيزة عبد الحميد) وذهب مندوب مجلة الاثنين يسجل رأى احمد زكى فى الجائزة التى أهديت اليه (لجماله) فانتقل الرجل الى الحديث عن العصر الميكانيكى ومزاياه وشروره على النحو الذى ستطالعنا به آراؤه فى غير موضع من هذا الكتاب ٠

وكان للدكتور أحمد زكى اذا وقف فى الناس خطيبا أو محدثا أسلوب خاص ولصوته رنة خاصة ، ولألفاظه نبرات أخص ، ولوجهه تعبيرات خاصة أيضا ، وقال أستاذنا الدكتور حامد جوهر فى وصف هذا الخلق من أخلاق الدكتور احمد زكى : « كان فنانا ، وكان مرهف الحس فى اللغة ، فكان لكلامه موسيقية متنوعة الأدوات من ألفاظ الى مصطلحات الى أساليب » ٠

كانت أخلاق الدكتور زكى على مستوى رفيع من الرقى ، ويصف أستاذنا الدكتور عبد المنعم أبو العزم أخلاق عالمنا الجليل فيقول : « انها كانت السياج الذى يحمى فكر العالم ، وقلم الأديب ، ويضرب

على ذلك المثل بأن الدكتور زكى لم يبعد خصومه عند تشكيل مجلس فؤاد الأول الأهلى للبحوث ، وكان قادرا على ابعادهم ٠

ويمضى الدكتور أبو العزم ليقول : « ان الدكتور زكى كان ظاهرة نادرة من ظواهر العصر ، والظواهر خوارق والخوارق معجزات وفلتات لا تتكرر » ، وهكذا كان الدكتور فعلا ، والله وحده يعلم كم من الزمن ينقضى حتى يكون فى الأمة العربية « احمد زكى » آخر ٠

وكانت فى أخلاق الدكتور احمد زكى سماحة ظاهرة ، وكان يتسامح فى أخطاء الناس واساءتهم اليه خاصة ما كان منها عن فقر أو جهل أو بلايا ، وسألته مجلــة الاثنين ذات مرة عن أحب الفضائل اليه ، فقال : اما اليوم فالترفع عن الصغائر ٠٠ واما عن أحب المهن ، فقال : الكتابة ، وعن أحب الأصدقاء ، فقال : من يجازى الحب بالحب والوفاء بالوفاء ، وعن أحب البطلات اليه ، فقال : أين هى ؟ وهل ترك الرجل لهن بابا للبطولة الظاهرة مفتوحا ؟ فقيل له : فايهن من عالم الروايات ، فأجاب باسمى كتابيه اللذين ترجمهما الى العربية ، وقال : جان دارك القديسة وغادة الكاميليا غير القديسة ٠

وسئل عن أبغض الأشياء اليه ، فقال : النفاق ، وهذه حقيقة مائة فى المائة ، فقد كان الدكتور زكى صريحا واضحا يحب الصراحة والوضوح ويكره نقائضهما ، والذين يتخلقون بنقائضها ٠٠ وكانت أبرز النواحى الخلقية فى شخصيته هى الصراحة فى الحق ، وكان يعرف انها تغضب الناس ، ولكنه كان يقول : انها تغضب الناس ذوى المصالح !! وكانت هذه الصراحة هى مصدر الخشية التى تنتاب الناس من احمد زكى وبخاصة فى عصر لم تكن الصراحة

ولن تكون من أخلاقه المفضلة بعد أن قامت سياسته على ابعـاد الصراحة جانبا والى أجل غير مسمى ·

وأنظر الى صراحة احمد زكى حين تشتد الحملة الكاذبة على مجمع اللغة العربية وجهوده فى تعريب المصطلحات ذات مرة ، فيجاهر عالمنا الجليل بالسبب الحقيقى وراء تلك الحملة ويقول ف مقاله (فى مجلة العربى : يونيو ١٩٦٠) بكل الوضوح وعلى الملأ : « ثم ان قوما خانهم شرف العضوية فى هذه المجامع هزئوا بها ، وتفاكهوا عليها اشتفاء وانتقاما ، والفكاهة ، ولو كاذبة ، ما أسرع ما تسرى فى الناس » ·

وكان احمد زكى يهش بالنقد ويبش له ، وله فى ذلك عبارة فى حديثه عن تجربة الشهور الأولى من العربى حيث يقول فى مقاله (أغسطس ١٩٥٩) : « واغتبطنا بالنقد أكثر مما اغتبطنا بالحمد ، لأنك بالحمد تقف عندما صنعت ، ولكنك بالنقد تعيد النظر فيه ، فتقوم اعوجاجا أو تسد خللا ، وليس حسن الا من وراءه أحسن ، والكمال بعيد المنال » ·

ابتعد عالمنا عن الحزبية على الرغم من انها كانت فى حاجة اليه وهو العالم العامل ، وهو الكاتب الأديب ، ولكنه نجح فى أن يبعد عنها ، وأن يبعد نفسه عن التفكير فيها ، ويروى عن فترة ما قبل الثورة فيقول « انه لم يكتب ف حياته من المقالات السياسية الا اثنين شطبهما الرقيب ، واحد فى عهد الوفد ، وآخر فى غير عهد الوفد » ·

وكان احمد زكى يؤمن بالديمقراطية ، مهما كانت عيوبها ، صحيح انه كان يدرك انها لا تصلح فى بلادنا بالقدر الذى صلحت فيه فى البلاد المتقدمة ، ولكنه كان يؤمن بأنها أسلم الطرق ، وسنتناول

هذه النقطة بشىء من التفصيل كبند من البنود فى باب « الفكر السياسى عند احمد زكى » ، وفى تحقيق صحفى عنوانه « الحكم الديمقراطى كما يجب أن نفهمه » سألت مجلة الجيل ثلاثة من الوزراء (عباس عمار وحلمى بهجت بدوى واحمد زكى) عن آرائهم ونشرتها فى(١٩٥٣/١٢/٢١) وقد قال لها احمد زكى : « انه لكى نفهم الديمقراطية يجب أولا أن نفهم ما هى الدكتاتورية لأن أحسن طريق لفهم الخير هو أن نفهم الشر » وضرب مثلا بالأسرة السعيدة والأسرة الشقية ، وكأنه كان يحذر ، فقد فهم الناس ـ بعد ما عانوا ـ الدكتاتورية ، وفهموا بعدها قيمة الديمقراطية

لم يكن احمد زكى راضيا عن بعض الانحرافات التى أصابت ثورتنا المباركة التى قامت فى يوليو ١٩٥٢ ، فاستعانت فى أول أمرها بصفوة أهل الفكر فى البلد ، وسرعان ما نحتهم لينفرد البعض بالسلطة ، فكان ما كان ، وكان احمد زكى يتحدث فى أمر الثورات على العموم (فى مقال سبتمبر ١٩٦٩ بمجلة العربى) فمس هذه النقطة فى شىء من الصراحة والوضوح حين عقب بقوله « ولكن من الثورات التى أعرفها وتلك التى قرأت عنها ، ثورات نحت من رجال الفكر رجالا لهم كفايات ترجح بهم فى الموازين ، لو أذن لهم فى البقاء حيث هم ، فى العهود الجديدة لسهلوا الطريق ولكشفوا عن الأخطار ، ونفعوا نفعا عظيما » « ولكن بدلا من هذا ركنت هذه الثورات فى كثير من الأحيان الى أصناف من الرجال لم يكن فيهم النضج الكافى ، ولا حتى الايمان بالجديد الذى خشت الثورة أن يكون قليلا فيمن أبعدوا ، ولم يكن فى الكثير ممن أبعدوا عن مشاركة ، نقص فى ايمان ، ولا عزوف عن جديد ، وكانت لهم قلوب مليئة بالنقمة على القديم ، ولكنها عادة فكر كان من شأنها النظر قبل القطع والاستماع الى الرأى الحر قبل ابداء المشورة » . هل رأيت أصدق من هذه العبارات تعبيرا عما حدث

عندنا بالضبط ، ثم انظر الى العلاج فى عبارات الدكتور زكى حين يقول ، ولعله وجد سنتها آذانا صاغية « فلنفتح الأبواب على مصاريعها ليدخلها الأهل جميعا ، خدمة طائعين ، يطلبون العيش كدا ، ويطلبون اللقمة عرقا ، ويطلبون الخير لكل من أظلته سماء ، وللوطن يطلبون المجد أرفع الأمجاد » .

حقيقة ان الدكتور زكى عندما ترك مصر وأقام فى الكويت فعل هذا باختياره الكامل ، وحقيقة انه طوال الفترة التى عاشها خارج مصر كان يحظى عند مقدمه الى وطنه وعند خروجه منه بحسن اللقاء من الجميع ، ولكن هذا لم يمنع من أن يتعرض عالمنا الجليل (للروتين الأمنى) الذى حكم مصر فى فترة من الفترات ، وقد تكون هذه هى الحادثة الفريدة ، التى رواها الدكتور زكى فى مقال (أغسطس ١٩٧١) عن تجربة له مع الشرطة المصرية ، اذ ظل واحد من ضباطها يتعقبه لمدة طويلة أثناء احدى الأجازات التى قضاها فى مصر ، وفى النهاية استطاع عالمنا أن يواجه الضابط فيسأله عن سبب المتابعة ، ثم يستطرد احمد زكى محدثا الضابط — دون أن يسأله — عن كل ما قد يتعلق به من شكوك قد تكون ثابتة فى نفوس رجال الشرطة ، والضابط يقول له : ان أيا من هذه الأفكار لم يرد بباله ، ومضت الأيام ثم علم أحمد زكى أن الأمر لم يكن الا خوفهم من أن يهرب العملة الصعبة الى داخل البلاد ، وأنهم كانوا يفعلون هذا مع الذين يحضرون للبلاد فى تلك الأيام .. روى الدكتور زكى هذه القصة فى سطور طويلة ثم قال : « هل تخفى الريبة هكذا بسهولة برجال الشرطة وبهذا الاتساع وبغير تقدير الرجال ، الا أن تكون الثقة ضائعة بين حاكم ومحكوم أم لعلها المعاملة من مراكز القوى الى مراكز الضعف من مراكز الشرطة الى مراكز الشعب هى التى أوحت وتوحى الى رجال الشرطة بما توحى » .

وصورة أعمق من صورة رفض استاذنا الدكتور أحمد زكى للدكتاتورية نجدها فى فهمه « للمثل الأعلى » فقد كان رحمه الله لا يحبذ الفكرة من أساسها ، كان يؤمن ـ كما آمن مؤلف الكتاب ولكن من قبله ـ ان الانسان لا ينبغى أن يبقى على مثل أعلى واحد يحتذيه ، فذلك فى رأى أستاذنا الدكتور زكى نوع من العبودية ، ولكنه كان يرى حل هذه المسألة فى أن تكون « الشخصية التى يعبدها شخصية خيالية مقتبسة أجزاؤها من شخصيات عظيمة يوفق بين العناصر التى يحبها فى كل منها ، ويكون منها زعيمه التصورى » ٠

ونستعرض آراء احمد زكى فى عظماء التاريخ فنجده مشغول الفكر عاما بعد عام وحقبة بعد حقبة بالطريقة التى مات بها سقراط ويكتب فى هذه الواقعة غير مرة ، فى أكثر من موضع ، بل انه يجعل لها ذات مرة عنوان المقال (مايو ١٩٥٩) ، وحين يتحدث عن الولاء فى مقاله (فبراير ١٩٧٠) يعرض للقصة فيقول : « وسقراط فيلسوف الاغريق ، اتهمته أثينا بالمروق ، وحكمت عليه بأن يشرب السم ليموت ، واجتمع عليه تلاميذه ومريدوه ، وهيأوا له سبيل النجاة والهرب فأبى عليهم ، بسبب ولائه لوطنه ، ولائه لأثينا ولاء سياسيا ، ولم يمنعه من ولائه لوطنه ، والرضا بالموت واطاعة لحكمه ، انه كان حكما لا يرضاه ، وهو الذى مشى فى الشباب يؤلبه عليه » ٠

وكان الدكتور زكى معنيا بتحليل فلسفة ابن سينا وابن زهر والرازى من حكماء العرب على نحو ما سنفصل القول فيه فى موضع آخر ٠

ومن الزعماء كان احمد زكى يقدر غاندى تقديرا شديدا ، وهو يعبر عن هذا المعنى فى مقاله (الهلال : ٤٨/٧) فيقول : « ان اقرب

رجل استحق عندى زعامة الدنيا ، زعيم الهند الراحل غاندى ، ذلك الذى صلى صلاته البوذية فضمنها آيات قرآنية ، وكان جائزا فى حكمه أن يمزج بين دعوات القسيسين والأحبار » ، ثم يعقب الدكتور زكى فى أسى فيقول : « ولكن غاندى كان رجلا أسود ، والحضارة الرشيقة تكره السواد ، وكان روحانيا ، والحضارة العارفة تتجافى عن الروحانيات ، وكان قليلا عنيفا ، والحضارة الثرية ترجح عندها الفخامة ويرجح السمن » ·

وعلى نفس الخط كان الدكتور زكى يقدر نهرو ، وقد كتب بعد وفاته مقالا جعل عنوانه « نهرو ·· كان اذا تكلم أنصتت الدنيا » (العربى : أغسطس ١٩٦٤) ، وكان يقدر لنكولن ، أما ميكافيلى فكان يحظى بالقدر الأكبر من كره وهجوم احمد زكى ، فى مقالات خاصة ، وفى مواضع خاصة من مقالاته السياسية ·

تلقى الدكتور احمد زكى تربيته السياسية فى مطلع حياته فى مدرسة الحزب الوطنى ، وكان أول يوم له فى هذه المدرسة هو يوم مشى فى جنازة مصطفى كامل ، يومها بدأ عالمنا الجليل يعرف معنى الوطنية ، ومعنى مصر ، والمعنى الذى مات مصطفى كامل فى سبيله (لاحظ أن عمر احمد زكى وقتها كان أربعة عشر عاما) ، ولا يفتأ احمد زكى يتحدث عن هذا اليوم فى كثير من المواضع ، بل ويخصص له مقالا عنوانه « مصطفى كامل ·· يوم وفاته » نشره فى العربى فى (فبراير ١٩٦٢) ·

وفى مقال للدكتور زكى فى مجلة الرسالة (١٩٣٤/١٠/٢٩) يصف احمد زكى شعورهم بعد ما مشوا فى جنازة مصطفى كامل فيقول : « ذلك هو الحدث الأول الذى فتح للعيون الصغيرة أول كوة تطل منها على كل شىء يسمى وطنا ، وعلى ناس فيه بائسين

يسمون أهلا ، أو هو أول صدع فى القلوب الصغيرة فتح فيها مدخلا لحب الخير ، ورعاية الغير ، وقد كنا ربينا تربية من لون العصر الذى نعيش فيه ، لا تعين على الأكثر الا على حب الذات ، والاستعداد للرزق عن طريق المرئيات » ٠

لقن أحمد زكى مبادىء الحزب الوطنى منذ ذاك الحين ، ومن يومها توطدت علاقته هو واصدقاؤه بالحزب الوطنى ، وبخاصة بالشيخ عبد العزيز جاويش ٠

حتى اذا كانت ارهاصات ثورة ١٩١٩ التى بدأها الشباب ، كان احمد زكى ومنصور فهمى ومصطفى عبد الرازق واحمد أمين من تلاميذ فصل واحد فيها ، كما روينا عن احمد زكى نفسه فى أول هذا الباب ، فانظـر الى الفصل الذى خرج شيخ الأزهر ووزير الأوقاف ، ومديرى الجامعتين الكبيرتين والأوليين ، وعميد الآداب ٠

كافح احمد زكى وزملاؤه بالسلاح ثم أدركوا أن الكفاح الأصعب ليس بالسلاح ولكنه بشىء آخر ٠ أنظر الى احمد زكى يصف جهادهم فيقول (مقال يناير ١٩٧٢ بمجلة العربى) « كنا ونحن طلبة نجهز للوطن ، وكنا ونحن طلبة نتجهز لأسوأ حال يكون عليها الوطن ، وجمعنا الى الجد فى العمل بقاعات المحاضرات الجد فى العمل لتحمل المصادمات خارج قاعات المحاضرات ، وكان الغاصب أجنبيا ، وتعلمنـا كيف نفك السـلاح ونركبه فى مراحيض المسـاجد وفى الصحارى ٠٠ أطلقنا الرصاص ولم يعلم بما نصنع رجال ذلك العصر ولا قادته » ٠

ثم حدث التحول « أدركنا بعد مؤتمر الصلح أن السلاح ٠٠ كل السلاح على المدى الطويل ، انما هو العلم والعرفان ٠٠ فالقينـا نحن الشباب سلاحنا ، هكذا أعلنا ، واستبدلنا بالسـلاح القلم ،

وألفنا فى عام ١٩١٤ لجنة للوفاء بهذا الأمل البعيد سميناها لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وهى اللجنة التى لم يكد يظهر اسم فى عالم الأدب والعرفان فى النصف الأول من هذا القرن الا كان من بين أعضائها ·· وهى تحتضر اليوم فى شارع الكرداسى فى بيت من بيوت القاهرة عتيق ، وهى تحتضر مع احتضار الكتاب العربى فى منشئه فى القاهرة » ·

واذا استطردنا هكذا الى الحديث عن لجنة التأليف فمن الطريف أن نذكر ما كان يرويه الدكتور زكى عن أيامهم الأولى فيها حين كانوا يستعينون على تحقيق أهدافهم الثقافية بالتجارة ، ويروى الدكتور زكى ما كان يدور بينهم من محاورات : كم من الجلد هذا العام يا فريد (الأستاذ محمد فريد أبو حديد) ، وكم خسرنا فى الفول يا يوسف (يوسف بك الجندى) ·

وكان احمد زكى يرى ان ثورة ١٩١٩ لم تفشل ، ويكفيها انها قفزت بالوعى السياسى للشعب المصرى خمسين سنة الى الأمام ·

ولكن عالمنا لم يمارس نشاط الأحزاب بعد ثورة ١٩١٩ ، ترفع بعد عودته بشهاداته العليا وعقليته الجديدة أن يخوض فى مجالات يغلب عليها الكلام ، ولا يغلب عليها العمل ، وظل احمد زكى على حاله من البعد عن السياسة مع انه صار يوما بعد يوم يلمع ككاتب فحل ، وعالم رائد ، وموظف كبير ·

حتى الوزارة التى دخلهـا احمد زكى كانت وزارة مستقلين رأسها صديقه حسين سرى باشا ·

أما وظائف أستاذنا الكبير بدءا بالأستاذية (فى المدرسة أو فى الجامعة) وانتهاء بمدير الجامعة ومرورا بالمدير ووكيل الوزارة

والوزارة فانه كان يعتبرها « رسالة » لا « وظيفة » وكان سلوكه فيها جميعا على هذا الأساس ٠

لهذا فان الحديث عن روح الأستاذية فيه شيء لا تتيسر له الفقرات المطولة ، ولكننا سننقل هنا عن اثنين ممن تحدثوا عن هذا الخلق فى الدكتور زكى ، فهذا الدكتور حامد جوهر يروى انهم كانوا وهم فى أول حياتهم العلمية معيدين فى كلية العلوم « يأنسون الى المصريين القلائل من كبار هيئة التدريس نبثهم آمالنا ونسألهم النصح والارشاد ، وكان فى مقدمة هؤلاء احمد زكى ، وهنا ازددت معرفة به ، وقد وجدت دائما عنده الرأى الصائب والرؤية الصافية ، والنصح المخلص الأمين ، والصراحة التامة والبعد عن تزيين الحقائق المرة وتزييفها ، وكان يواجهنا بمواضع الخطأ فى تفكيرنا اذا رأى شيئا من ذلك ولا يأبه لما يترك ذلك من أثر غير محمود عند من يفضل أن يزين له القبيح ويشجع على المضى فى الخطأ ٠ وفى الواقع كان من أكثر ما أحببت فى فقيدنا الكبير تلك الصراحة التى كان يقابلنا بها ، وبخاصة أنه لم يكن ليعوزه الأسلوب المنسق المهذب للتعبير عن رأيه » ٠

وهذا هو أستاذنا الدكتور عبد المنعم أبو العزم يروى فيقول : ذهبت اليه وأنا على أهبة السفر الى البعثة التى اختارنى لها ٠٠ فبادرنى بقوله « أظنك قد أتيت الى لسماع نصيحة منى ، ونصيحتى لك : ألا تسمع نصيحة من أحد عما ينبغى أن تفعله بالخارج ٠ عليك أن تختار لنفسك الأسلوب الذى يوائم طبعك ، ويلائم ظروفك وأن ترى بنفسك وبعينك ما فى هذا المجتمع الجديد من جديد ، وما يمكنك أن تتعلمه من هناك دون أن تحاول معرفته من هنا ٠٠٠ » ، ثم يروى الدكتور أبو العزم انه لما عاد من بعثته قدمه الدكتور احمد زكى فى محاضرة قائلا : « من شبابنا العائدين أقدم (فلانا) وحكمى

عليه لن يكون بما حققه فى الخارج من نجاح أو تفوق ٠٠ فان غيره قد أصابوا مثل هذا النجاح ، ولكنى أحتفظ بحكمى عليه حتى يحقق فى بلده وفى ميدان تخصصه شيئا نذكره له ، ونتحدث به عنه » ٠

وعلى الرغم من أن الدكتور زكى كان أستاذا متفردا الا أنه كان يؤمن فى كل مناسبة بأهمية العمل الجماعى ، ودور الفريق فى حل المعضلات المعقدة ، لا يقصد بالفريق فريقـا من الأفـراد وحسب ، ولكن فريق المؤسسات والمعاهد ومراكز البحوث ٠ ومن هنا جاء ايمانه بضرورة اشتراك الجامعة والجامعيين فى البحوث التطبيقية التى تقوم بها مراكز البحوث ، ويروى أستاذنا الدكتور حامد جوهر أن هذا كان هو السبب وراء اهتمام الدكتور زكى بانشاء مراكز البحوث بالقرب من جامعة القاهرة ، وانه بذل جهدا كبيرا حتى استطاع الحصول على هذا الموقع ليحقق به هذا الغرض ٠

لم يكن طموح الدكتور زكى فى أى من المجالات أو الميادين التى اقتحمها يقف عند حد ، أو قل كان طموحه علويا ، وقد سئل ذات مرة فى تحقيق صحفى عن الحلم الذى يعاوده وهو نائم ، فقال انه كان يرى نفسه « قادرا على الطيران بأجنحة من نور ، وأتحرك فى الهواء خفيفا رشيقا كالملائكة ثم أصحو فأعجب كيف كنت انسانا طائرا » ٠

وكان للدكتور زكى ذكاء حاد ، وحاد جدا ، وأذكر أن أستاذنا الدكتور حسين فوزى كان يقرأ تجارب المطبعة لكتابى الأول عن الدكتور كامل حسين رحمه الله ، فأتى ضمن ما قرأ على تعليق للدكتور أحمد زكى قاله فى جلسة من جلسات مجمع اللغة العربية ، وكان التعليق ينم بوضوح شديد عن ذكاء الرجل الشديد ، ولم

يتمالك الدكتور فوزى قلمــه وامسك بالقلــم وكتب على الهامش « زكى ذكى » ٠

وليس ذكاء الدكتور احمد زكى فى حاجة الى الابانة عنه ، فهو ظاهر فى عقليته وكتاباته واسلوبه واجاباته على السؤال ، وسرعة بديهته ، وقوة ذاكرته ٠٠ وفى عبارة موجزة « كان حظه من مكونات الذكاء وافرا » ٠

وكانت عقليته رياضية قبل أن تكون علمية ، ولعل دراسته للكيمياء أضافت الى الجانب الرياضى البارز فى عقليته ما جعل فيها تكاملا مطلوبا فى عقليات الذين يتناولون قضايا المجتمع فيكونون اقرب الى الصواب فى حكمهم ، وأدنى الى القبول فى آرائهم ٠

كان الدكتور زكى فى شبابه متفوقا فى الرياضيات ، وقد حصل فى البكالوريوس المتوسطة فى انجلترا على ٩٧ر٥٪ ، وهى درجة ندر من يحصل عليها وقتها ٠

وبالاضافة الى العنصرين الرياضى والعلمى فى عقلية احمد زكى كان هناك عنصران آخران : عنصر الخيال ، والعقلية الطبية ٠

فأما الخيال فلم يجاوز الحد ، ولو جاوزه لاستفدنا بلا شك من أحمد زكى فى مجالات أخرى ، ولكن من يدرى ، لو كان هذا على حساب ما كسبنا منه ٠

وأما العقلية الطبية ، فانى أستطيع الجزم أن أستاذنا الدكتور أحمد زكى كان دائم الحنان اليها ، هل جاءه هذا من الجمع بين الميل العلمى والعطف الانسانى ؟ أم جاءه من اهتمامه واهتمام فلسفته بأمر الانسان ؟ ٠٠ ان كنا لا ندرى على وجه التحديد فاننا

لا نخطىء الظواهربدءا بسلسلة « قصة الميكروب » فى مجلة الرسالة ، وبهذا الجانب الطبى الذى أضافه احمد زكى الى « الهلال » عند رئاسته لتحريرها ولهذه الأبواب الطبية الكاملة التى حررها احمد زكى لوقت طويل فى مجلة العربى ·· بل ولهذه الظاهرة الطبيــة فى مجموعة قصصه « بين المسموع والمقروء » والتى سنشير اليها فى موضعها ·· وغير ذلك كثير ·

ونعود الى أمــر الذكــاء فنستعرض بعض محاوراته ، التى نستغلها من الناحية الأخرى فى بيان آراء احمد زكى فى الحياة والمجتمع والاعلام من معاصريه ، فعندما بدأت الأنباء تتواتر عن صعود الانسان الى القمر نشرت جريدة أخبار اليوم (٢٦/١٠/١٩٥٧) تحقيقا كبيرا بعنوان «١١ تذكرة للقمر» طلبت فيه من الاعلام الذين سألتهم أن يختار كل منهم عشرة يصحبونه فى مركبة الفضاء التى تتسع لعشرين شخصا منهم تسعة علماء ، قد احتلوا أماكنهــم بالفعل ، على أن يأخذ فى اعتباره أن المركبة ستبقى فى الفضاء أربع سنوات ·· وتوجهت أخبار اليوم الى أم كلثوم ففكرت فى توفيق الحكيم ثم استبعدته لأنه سيمضى الوقت فى التشكيك أهو القمر أم لا ·· الخ ، ثم تخلصت أم كلثوم بذكائها الشديد الذى يتميز (فى رأيى) بالتركيز وقالت : أختار الأستاذ الجليل احمد لطفى السيد فهو يساوى عشرة رجال ! ·

أما فضيلة الشيخ شلتوت فانه رأى أن يبعث بعشرة من الأشرار حتى يستريح العالم من شرهم ! على حين أن أستاذنا الكبير توفيق الحكيم مضى يشكك على نحو ما صورت أم كلثوم من أمره ! ·

وأما الدكتور أحمد زكى فقال انه يأخذ خمســـة يسميهم ، وخمســة يصفهم ولا يسميهم ، فأما الخمســة الذين يسميهم فهم

« الأستاذ احمد حسن الزيات فهو رفيق أنيس يحيى فينا الأمل حيث لا أمل ، والأستاذ احمد لطفى السيد ليروح عنا بروح أرسطو ، وفضيلة الشيخ شلتوت ليمهد لنا لقاء الله سبحانه وتعالى ، والأستاذ منصور فهمى ليريح حنجرته فيهنأ بالصحة ، والأستاذ كامل الكيلانى ليقول لنا ماقاله المعرى فى خراب الدنيا » ، وأما الخمســـة الذين بصفاتهم فهم « مجنون كبير ، ومغرور كبير ، ومنافق معروف ، ورجعى مشهور ، وأى حانوتى » • أنظر معى الى هذا التحقيق الذى هدف الى الامتاع كيف أبان لنا عن ذكاء احمد زكى التكاملى ، وتفكيره المنسق •

وفى معرض آخر تسأله مجلة الاذاعة المصرية هو وأربعة من النجوم (العقاد ، ومحمد عبد الوهاب ، وعبد الحميد الحديدى ، وزكى طليمات) عن نصائحهم لجيل الشباب الصاعدين ، فيركز أحمد زكى وصاياه للمبتدئين فى عالم العلوم فى خمس وصايا ، لابد من ذكرها ما دمنا نهدف بهذا الكتاب ضمن ما نهدف الى ضرب المثل ، ولابد من تخطيها اذا كان القارىء قد مل هذه الاستطرادات التى ما فتىء المؤلف يلجئه اليها ، ولهذا فقد وضعت النصائح مرقمة حتى يسهل تخطيها على من يريد :

١ ـ ألا يقرب العلم كمهنة يكسب منها حتى لا يتحول العلم فى آخر أمره فيفقد الكثير مما به من كسب نفسانى لقاء ما يجنى من بعد ذلك من كسب مادى •

٢ ـ ألا يقربوه حتى تكون فيهم ميول العلماء ، ولو هى بادئة براعمها ، وأن تكون أنفسهم من الأنفس السائلة عن كل ما غمض ، الطلابة لاستجلاء كل ما بهم أمامها •

٣ ـ ألا تقرب العلم الا اذا كانت نفسك تستطيع أن تبحث عن الحقائق فى حيرة •

٤ ــ الصبر على الخيبة ، فان التجارب تخيب ثم تخيب ثم آخر الأمر تنجح ٠

٥ ــ الا تضيق بجدل ، فالعالم الناجح لابد له من جدل ، بل هو يدعو الناس الى جداله ، وهذه منزلة العلماء ٠

وحين خصصت مجلة « الاثنين » عددا من اعدادها للاذاعة ، ذهبت الى كبار الشخصيات تسألهم عن التسجيلات التى يحبون سماعها ، فرتب الدكتور زكى رغباته العشر على النحو التالى : تسجيلات الشيخ محمد رفعت فى قراءة القرآن الكريم ، ثم كل ما غنته أم كلثوم من شعر شوقى ، ثم مجنون ليلى لعبد الوهاب واسمهان ثم المواويل البلدية ، ثم أغانى سلامة حجازى وعبده الحامولى ، ثم برنامج ربع ساعة مع أهل الفن ، ثم الرماد المتخلف عن حرق ورق الأحزاب ٠٠ ففيها معانى انعدام الشقاق والخصام والفرقة بين أبناء الوطن الواحد ٠

كان احمد زكى صديقا لكثير من اعلام البلد ، كان صديقا لكثير من اقطاب السياسة الوفديين من الجيل الثانى ، وكان على رأسهم محمود سليمان غنام الذى كان من تلاميذ احمد زكى الأوائل ، وكان صديقا لزعماء الأحرار الدستوريين الذين كانوا زملاءه فى « مدرسة الثورة » وفى « الحزب الديمقراطى » (حزب الشباب أثناء ثورة ١٩١٩) ، وكان على علاقة طيبة بالسعديين وزعمائهم ، وكان الاخوان بالذات كثيرا ما يترددون عليه لاستشارته فى كثير من المسائل ٠٠ كانوا يجدون فيه الصدق وكان يجد فيهم الشباب الذى يحبه ، وكان صديقا لشباب الحزب الوطنى ومن هم من جيله ٠

وكان احمد زكى صديقا لأهل الأدب واللغة ممن شاركوه العمل

فى الصحافة ، وفى لجنة التأليف وزاملوه فى مجمع اللغة العربية والمجلس الأعلى لدار الكتب ٠

وكان كبار رجال التعليم الذين ضمتهم مدرسة المعلمين العليا من قبل يفخرون بزميلهم العلامة احمد زكى ، وكان الدكتور زكى حريصا على علاقاته معهم ، التى كانت اكثر من صداقة ٠

وكان الدكتور زكى صديقا لرجال الصحافة الكبار الذين يقدرونه ، والصغار الذين يحبونه ويحبون حديثه وحواره ولقاءه ونصحه ٠

وكان صديقا للذين يقرأون له فيبدون الاعجاب ، وكان اكثر صداقة للناس الذين يقرأون فيظهرون النقد ٠

وكان معجبا بأم كلثوم وعبد الوهاب محبا للاستماع اليهما فى الشعر الفصيح ٠

وكان قبل هذا وذاك صديقا للمرأة ، والملاحظة الأولى التى ترد الى ذهن من يستعرض أسماء مؤلفات عالمنا تأتى من كتابين من كتبه يحملان اسم امرأتين ، على حين أن الباقى كله متصل بالعلم على نحو أو آخر ، احداهما قديسة هى جان دارك والأخرى غير قديسة هى غادة الكاميليا ٠

وكان عالمنا يقرر أن البنت اكثر اجتهادا فى الجامعة من الولد ، وكان لا يخفى سروره بدخولها كلية دار العلوم على عهده وهو مدير للجامعة حريصا على أن تملك زوجة المستقبل أمر استقلالها فى يدها ، وكان يقول « ان أهم أسس السعادة الزوجية هو أن الزوج الذى يجد أمامه زوجة عرفت ما عرف واستطاعت أن تكسب ما يكسب يكون أهدأ طبعا » ٠

ليس غريبا اذن أن يكون الدكتور زكى أول من وظف المرأة فى مصلحة الكيمياء ، وليس غريبا ما كان من دفاعه عنها ، خصوصا فى مسألة المساواة ، وسوف نفرد ان شاء الله بابا كاملا لهذه الناحية من خلق الدكتور زكى وآرائه فى المرأة ٠

سئل الدكتور زكى عن أخطر امرأة فى حياته فقال انها أمه ، وقال لمجلة الاثنين (١٩٥٦/٢/٦) « ان الرجل الذى لا تكون أمه أول امرأة دخلت فى حياته وأخطر امرأة فهو رجل فقد كثيرا من مشاعر الفطرة » ٠

يأتى هذا الحب نتيجة لتلك العاطفة القوية الرشيدة التى كانت والدته تشمله بها فى صغره وصباه وشبابه ، دون تدليل أو افساد ، وقد توفيت وهو فى الغربة فحزن عليها حزنا مضاعفا ، ووصفها فى عبارة موجزة فقال « انه كان لها قلب دائم التحنان وعين دائمة اليقظة ترعانى عن قرب وترعانى عن بعد » ٠

هذا عن والدته ، وقد قدمنا بعض الحديث عن زوجه التى لحقت به بعد وفاته بعامين ، وما كان بينهما من وفاق ووئام ، أما ابنة الدكتور زكى السيدة لبيبة فقد درست اللغة الفرنسية وآدابها ، وتخرجت بدرجة عالية فيها ، وعملت فى الصحافة الفرنسية فى مصر بعض الوقت ، ثم اختيرت مترجمة للامم المتحدة فى المؤتمرات الدولية ، واتخذت من باريس مقرا ومستقرا ٠

وبعد : فها نحن الآن فى صيف عام ١٩٧٥ وقد تعدى الدكتور احمد زكى الثمانين ــ وبلغتها ــ وأدركه مرض ضعف العضلات فسافر للعلاج ، وحضر القاهرة ، ودخل مستشفى المعادى ، فبقى بين أبنائه وتلاميذه وأصدقائه ومحبيه مدة من الزمن ، ولكن الله سبحانه وتعالى اختاره الى جواره بعد أسبوع من الاحتفال بمرور

عامين على انتصار أكتوبر · فذهب احمد زكى الى ربه سعيد النفس بما تحقق من النصر ، وان كان قلقا بسبب الخلافات التى دبت بين العرب فى موضوع المفاوضات ·

على أن قلقه الأكبر وهمه الأكبر كان على النواحى الداخلية التى لابد منها للانطلاقة الى التقدم · وأنظر الى آخر عباراته اذ يقول « أما الدواء ، فالانتهاء من المشاغل الخارجية ، والتركيز على الأمور الداخلية ، وتغيير القوانين بقسوة شرقية رادعة لا فلسفة للغرب فقهية فيها ، مع الدعاية الواسعة » ·

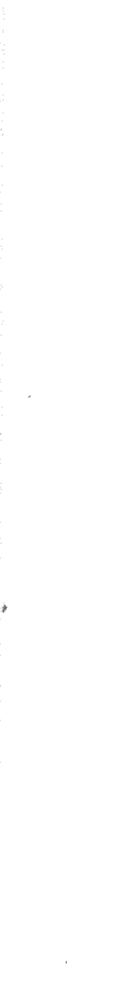
وشيعت جنازة احمد زكى فى القاهرة ، ودفن بها ، مدعوا له بالرحمة والمغفرة ، وأقام مجمع اللغة العربية حفلا لتأبين الدكتور احمد زكى ألقى الدكتور حامد جوهر فيه كلمة التأبين المجمعية ، وأبى فضل الدكتور أبو العـــزم ، الا أن يشارك بكلمة وهو رئيس أكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا ·

ثم أخذت الأقلام من حين لآخر تتناول حياة الدكتور زكى من بعض زواياها المضيئة ، وكلها زوايا مضيئة ، وتفضلت هيئة الكتاب بالتعاقد على اصـدار مؤلفات الدكتور زكى فى سلسلة الأعمـال الكاملة ، وقد أصدرت من هذه المؤلفات حتى الآن عملا واحدا ، هو « مع الله فى الأرض » ، وأظنها بصدد اصـــدار المكتب الأخرى ، ما نشر من قبل ، وما لم ينشر ·



الجـــزء الثانى

فلسفة احمـــد زكى



الفكر السياسى عند أحمد زكى

ان الديمقراطية جميلة ، ولكن غير الجميل آن يكون الناس غير ديمقراطيين يدخلون الديمقراطية بمفاهيم غير ديمقراطية ، ومع هذا فدخلوهم الديمقراطية حتى بهذه المفاهيم خير من الا يدخلوا ، انها الديمقراطية المريضة ، ولكن الأمراض لا تدوم ، وما خلقت العقاقير الا للدواء والشفاء ٠

احمد زكى

قدمنا فى الجزء الأول أن آحمد زكى لم يكن من الذين مارسوا لعبة السياسة قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ ، ومن الواجب هنا آن نقيد ذلك القول بأنه لم يكن من المتحزبين لحزب معين ، فقد أبعد نفسه عن الحزبية ، ولكن لم يبعد نفسه عن السياسة ، فقد كان واحدا من صناع الأحداث فى مصر ، ولكنه لم يكن من صناع الأحداث البارقة سريعة الظهور سريعة الأثر ، وانما كان من الذين يصنعون السياسة طويلة المدى فى مجال الفكر والعلم ٠

وقد استوزر الرجل فى وزارة من الوزارات الأربع التى كانت بين حريق القاهرة ، وقيام الثورة ، واستوزر لوزارة الشئون الاجتماعية ، وهو لم يكن من رجالها الفنيين ، اذن يمكن القـــول بأن اختياره للوزارة التى فى غير تخصصه كان من ذلك النوع الذى يسمونه « بالوزير السياسى » واذن كيف كان كذلك ، ولم يكن الرجل

من الساسة الذين يغلب على عملهم تولى الوزارات أيا كانت عندما تصل مجموعاتهم الى الحكم !

والأمر فى هذا بسيط غاية البساطة ، **فقد كان الدكتور احمد زكى هو أستاذ الجامعة الكبير ، والموظف الكبير الناجح ، والعالم اللامع ، والكاتب المؤثر ، والمفكر صاحب الكلمة المقدرة دائما ، والمسموعة فى بعض الأحيان ، كان الدكتور احمد زكى بكل ذلك شخصية عامة ٠**

والشخصيات العامة تتفاوت ، أهمية وقدرا واحتراما ، وكان احمد زكى بعقله وعمله وفكره ونفسه ولسانه وقلمه وعلمه من أرفع هذه الشخصيات مستوى ٠

لم يكن أحمد زكى نائبا ، و لارجل سياسة شعبية ، ولكنه كان يلقى الاحترام من طوائف الشعب المتعلمة ، ويلقاه أكثر من اكثرها علما ٠

وكان لأحمد زكى رأى فى كل صغيرة وكبيرة من أمور السياسة ما توافرت له مكونات الرأى ، ولم يكن يحتفظ لنفسه برأيه ، ولا كان يحافظ على نفسه من رأيه أن يبديه ، وانما كان لا يفتأ يبديه ويهديه ، ويهدى به ، فى صراحة لا تعوزها لباقة السياسة أبدا وان خالفت السياسة التى تقوم على اللباقة فحسب ٠

وكان قلم احمد زكى يتناول الموضوعات السياسية حين أتيح للهلال أن يرأس تحريره عالمنا الجليل ، فيتناول أمور السياسة الدولية ، والسياسة العربية ، والسياسة الداخلية ، فى صراحة ووضوح ، وبصر بالأمور ، وحكمة الحياة ، وصدق فى الحكم على الأشياء ، وسلامة فى القصد ، ونزاهة فى الغرض وكيف لا وهو السلام العالمى ، والوحدة العربية والتقدم الوطنى ٠٠ وتلك كانت

الأغراض الثلاثة التى يسعى اليها احمد زكى بقلمه ، بعدما تمناها فى قلبه ، وصاغ مفاهيمها ووسائل تحقيقها بعقله ٠

ثم كان ما كان من تولى احمد زكى أمر الرجل الأول فى الجامعة الأولى بعد قيام الثورة ، وكيف واجه أعتى عواصف السياسة فى السنة الدراسية التى قضاها فى هذا الموقع ، عندئذ أتيح لصاحبنا أن يختلط بالأمواج المتلاطمة ، والتيارات العاتية ، والأغراض العابثـة ، والألسنة العابثـة ، والأسلحة المتحضرة ، والعقول التى أرهبها الفكر ، والفكر الذى أرهفته الأحاسيس ٠

وخرج الدكتور احمد زكى من هذه التجربة بخبـرة الذين يمارسون الأحداث ويدركون خطورة الأمر ، ويلتبس عليهم فى لحظة من اللحظـات الحق الحق والباطل الباطل لا يدرون أى الطرق يسلكون ، وتعتريهم الرهبة من كل طريق ففى كل تضحية وتضحية جسيمة ، ويسابقهم الزمان بدقائقه لا بساعاته ليقول لهم ان اتخاذ القرار مهما كان ضلاله أهون على كل الاحوال من البقاء بلا قرار ٠

عرف احمد زكى فى سنة الجامعة طبيعة الثورات الدافعة ، كما عرف من قبل على مدى سنوات طبيعة الديمقراطيات الهادئة ٠٠ وأدرك احمد زكى كيف يكون صاحب القرار محل اتهام بما هو أبرأ الناس منه ، وكيف تسير الجماعات ، وكيف تتصرف الحكومات ، وكيف تلعب الخلفيات أدوارها فى تقرير الواقع الذى ينبنى عليه أخطر الأمور ٠

ذاق احمد زكى النار ، ولفحته العواصف ، ولكنه تحمل وخرج وقد صارت له من الحصانة والمناعة قوة لم تكن لتأتى له ٠

وخرج وقد عرف أن ليس كل ما يقال صدقا ، وأن ليس كل

ما يسكت عنه لم يحدث عنه ، وان للمواقف خلفيات غير معلنة ، ولافتات معلنة ، وما أبعد ما بين الاثنين ·

وخرج وقد عرف أن المعطيات التى تكون عند الكاتب السياسى قليلة ، وهذا لا يطعن فيه على أى حال من الأحوال ·

على انه لا يعنينا هنا من أمرالخبرة ، وهاتيك الممارسة الا أنهما كانا من العوامل التى جعلت كاتبنا ومفكرنا قادرا على القول فى السياسة ·

وليس من شك انه من دون هذا العامل فقد توافرت لعالمنا من قبل العوامل الأساسية فى تكوين الكاتب السياسى ، ولكن اضافة هذا العامل اليها قد أتاح لنا من احمد زكى كاتبا سياسيا من نوع خاص ·

أى نوع خاص من الكتاب السياسيين كان احمد زكى ؟ هذا هو السؤال ، وهذه هى الاجابة على طريقة الوصف بالخصائص :

١ ـ **بلا هوى** : لا هو الى اليمين ولا الى الشمال ، ولا الى القديم ولا الى الجديد ، ولا الى الملكية ولا الى الجمهورية ، ولا الى الديمقراطية ولا الى الدكتاتورية ·

٢ ـ **النظرة طويلة المدى** : التى لا تعنى بتحقيق المنفعة العاجلة أو الضجيج الصاخب مع تقديرها لفوائدهما ، بقدر ما تعنى بوضع الأساس الصحيح ، وانضاج البيئة الخيرة ، والعمل للمدى البعيد ، والتخطيط للمستقبل الأفضل ·

٣ ـ **التعقل** : بحيث لا تدفعه العواطف نحو موقف معين ، مهما كان سمو هذه العواطف ·

٤ ــ **الأخلاق السياسية :** وقد كان صاحبنا من اشد المؤمنين بأن السياسة أخلاق قبل كل شيء ، كان اكثر الناس كرها للميكافيلية ، وله فى هذه المقالات لا الفقرات فحسب ٠

٥ ــ **الفصل والتفريق :** بين وصف الواقع وتقرير ما هو حادث ، وبين الأمانى والمبادىء والأهداف المبتغاة ٠

٦ ــ **النظرة الكلية :** الى الحقيقة من جوانبها المختلفة ٠

٧ ــ **الاستفادة من التاريخ اقصى استفادة ممكنة :** والتاريخ هنا لا يقتصر على الماضى ، ولكنه يبحث فى تاريخ التجارب الانسانية المعاصرة تحت نفس الظروف ٠

٨ ــ **وضوح الرؤية :** ولا أظن أحدا قرأ لعالمنا الجليل مقالا سياسيا ثم سأل عن الغاية التى يقصدها ، فهو لا يترك الأمور والنوايا الا بعد التوضيح التام ٠

٩ ــ **احترام الشئون الداخلية :** اذا ما تناول أمرا من الأمور يخص دولة معينة ٠

١٠ ــ **النظرة الى السياسة على انها عنصر من عناصر الحياة :** فى كافة صورها الاقتصادية والاجتماعية و ٠٠٠ الخ ، تتأثر بكافة جوانب هذه الحياة ، وتؤثر فى كافة جوانبها ٠

١١ ــ **الكلمة المناسبة فى وقتها المناسب :** والنصيحة الغالية قبل وقت الاحتياج اليها لأن التبكير بالنصيحة هو وقتها المناسب ٠

بعد ذلك ننتقل الى سؤال آخر حول طبيعة المقال السياسى عند أحمد زكى هل كان قلمه قادرا على متابعة الأحداث فى مقال يومى ؟

او فى مقال اسبوعى ؟ ام انه كان انسب ما يكون لما كان له من مقال شهرى ؟

وهو سؤال افتراضى ، ولكن لابأس ، لأنه يعطينا مؤشرا هاما عن نوعية مقال احمد زكى ، وكتاباته السـياسية ، وليس من باب المجاملة للرجل ان نقول أنه كان قادرا على الكتابة فى السياسة كل يوم ، ولكن من الحق الذى لامرية فيه أن احمد زكى كان كذلك لا يريد الكتابة فى السياسة اليومية ، وان استطاع أن يكتب فيها كل يوم ·

بعبارة اخرى كان احمد زكى قادرا على أن يكون له مقال يومى فى السياسة او فى غير السياسة ولكنه لم يكن يفعل ذلك لأن طبيعة كتابته فى السياسة لم تكن كذلك ، فهو لم يكن صاحب حزب أو دعوة يحمل الناس عليها كل يوم ، ويفسر تصرفاتها يوما بعد يوم ، ولكنه كان صاحب الدعوات التى تعيش على الزمان ، وتبقى على الأيام ·

على اليد الأخرى ، لابد أن نشير الى ما اشار اليه احمد زكى فى عبارة عارضة فى مقال (٥٩/٨) بالعربى وقد مضى على صدور عددها الأول تسعة اشهر من قوله ان من سوء حظنا نحن الشهريين اننا نكتب فى الاحداث بعدما وقفت ، لم يكن سوء حظ يا أستاذنا الجليل ولكنه كان حسن حظ للقراء ·

قلنا فى ثلاث جمل معطوفات على بعضها ان احمد زكى كان يدعو او يكتب فى الدعوة الى السـلام العالمى والوحدة العـربية الاسلامية والتقدم الوطنى وليس هناك فى كتاباته هدف اعظم قدرا من هذه الاهداف الثلاثة فى تلك المجالات الثلاثة ·

ولكن هذا لا يمنع من أن الرجل كانت له افكاره السياسية النيرة التى لا تمثل مواقفه السياسية بقدر ما تمثل مواقفه الفكرية ، والتى

لا تمثل امنياته بقدر ما تمثل عقليته وخلفياته ، هذه هى آراؤه فى الحرية وفى المساواة · فى الديمقراطية والزعامة ، فى الحروب والقوة، فى الوطنية والقوميات ، وفى الملونين ، وفى السياسة الدولية ، والسياسة الامريكية ، فى هيئة الأمم ، وفى الثورات والتغيرات السياسية ·

هذه الآراء متناثرة فى السطور التى تركها لنا أحمد زكى فى عدد كبير من اعداد المجلات المختلفة التى تعاقب قلم الرجل عليها · ولكنها لم تكن متناثرة فى عقل المفكر الكبير ، انما جاءت الى الحياة كما يجىء كل شىء الى الحياة الدنيا بلا نظام ظاهر ، وبنظام أدق وأخفى حكم به الناموس فى اللوح المحفوظ ·

وهذا الباب يعرض لنا بطريقة منظمة (نظاما ظاهرا) الافكار السياسية للرجل بعدما استخلصها المؤلف من قراءة مائتى مقال للقلم الكبير ، وهو حين يقول « مائتى مقال » يأخذ بالاحوط ، وهو الأقل ·

على أنه لابد من باب الامتاع ان نرحم القارىء ـ مدة فقرة ـ من قلم المؤلف ـ ليقرأ لأحمد زكى نفسه قوله فى تبرير كثرة كتاباته فى السياسة وهو القول الذى ذكره فى مطلع حديثه « اختلاف الرأى فى سبيل الخير غير اختلاف الرأى عن خبث وغدر » العربى مايو ١٩٧٤ حين يقول : « أعود الى الكتابة فلا أجد بابا كالسياسة يغرى الكاتب بالدخول فيه ، **ذلك لأن السياسة هى اليوم أمس شىء بحياة العرب وأكثر الأمور ارتباطا بمصائرهم وكثيرا ما هبت رياحها عاصفة تنذر باقتلاعهم من الأرض اقتلاعا ثم هدأت ثورة الريح فافسحت الأمل ببقاء ليس هو خير بقاء** » ·

١

ونتطرق بعد ذلك مباشرة الى عرض آراء الرجل فى السياسة

الدولية فندرك الى اى حد كان نفاذه الى اعماق الأمور عندما يقرر ف صراحة ووضوح ان القوة هى الحكم والفيصـــل فى علاقات الدول بعضها وبعض ، وهو لا يكتب فى هذا من باب تقرير الواقع ، وانما حثا للعرب على الاجتهاد فى هذا المضـــمار بتقوية النفس بدلا من الاعتماد على العواطف والكلمات المعسولة والوعود !!

ويكتب احمد زكى مقالا مطولا فى هذا المعنى فى مجلة العربى « ٦٩/٧ » ويجعل عنوانه « القوة ٠٠ القوة · سياسة الأمم لا تعرف غير القوة » ويأخذ فى الاسهاب والحث على المعانى التى يلخصـــها قوله : « ســـياسة الأمم لا تعرف غير القوة ، والقوة عندهم فوق القانون والذين يحتمون بالمعانى الانسانية ، قوم مستضعفون وانسان هذه الأرض اما آكل ، وأما مأكول » ·

« والعرب تساورهم الذئاب من كل جانب فهل هم مستيقظون ؟ فلينبغ العرب بأنفسهم بطلب القوة لا ليأكلوا الناس ، ولكن لكيلا يأكلهم الناس ، فحيثما نظرت الآن وجدت حول العرب تحفزا وتوثبا » ·

ويفرق احمد زكى بين طبيعة السياسات التى تكون بين الافراد ، وبين تلك التى بين الدول بعضها وبعض ، ويسهب فى تفصيل هذا الفرق فى اكثر من موضع ، ولكننا نقتبس هنا قوله فى مقاله « من اين والى اين يارجال العرب » الذى نشره فى العربى (ابريل ١٩٧٣) حين بلغت الامور حالة من اليأس عبر عنها قولهم حالة اللاحرب واللاسلم : « ان معانى الحضارة ، وكل تلك القيم التى تضم مفاهيم العدالة والمساواة والحق والديمقراطية وأشباهها يجدها الانسان بين الافراد وبين الطبقات فى الامـــة المتحضرة الواحدة ، اما بين الأمم فليس هناك الا قانون الغاب : آكل ومأكول ، والغلبة للأقوى ، ومن شك فى هذا فليقرأ ماوقع فى فيتنام ، قصف ضحيته الملايين دام سنين وخراب ذهب بالزرع والضرع الى حين طويل » ·

حتى اذا كانت حرب اكتوبر ، وكان النصر الرائع وبان للناس صدق كلام العالم والمفكر ، خاف صاحبنا ان يستكين العرب الى ما أحرزوه من نصر ، فأخذ يكتب داعيا الى مواصلة السعى فى تقوية النفس يوما بعد يوم بكافة الوسائل ، ويفيض احمد زكى فى هذا المعنى فى حديث شهر اغسطس ١٩٧٤ مجلة العربى الـذى جعل عنوانه « هيئة الامم المتحدة · تركت الكرة فى الميدان وجلست تشهد اللعب مع اللاعبين » ويروى احمد زكى فى هذا المقال ماحدث من فض الاشتباك ، وكيف سـارت الامور ، وماذا يتوقع من امور ، ويخلص من هذا الى القول : « ويجرى كل هذا مصداقا لأن الذى يجرى سياسة هذا العالم ، ويحرك سياسته ليس هو العقل ، وليس هو العدل ، وليس هو الايمان بالمساواة ، ولكنها السيادة فى ميدان الحـرب ، والسيادة فى ميدان الاقتصاد ، ومايتبعهـا من ميادين للعلم والتقنية » ·

ومن هنا كان فهم احمد زكى لطبيعة الحروب ، بل ولضرورتها وهو يتحدث عن هذه العلاقة بين الحرب والقوة فى لغة العالم المدقق الذى يسجل الظواهر الطبيعية ويرصدها فيقول فى حـديث الشعر بالعربى (٦/٧٣) وعنوانه « منطق الحوار ومنطق القوة » فيقول : « فالقوة والحرب يكملان المنطق ، فى سنن هذا الكون ، وكثيرا ماتكون القوة وتكون الحرب اقوى حجة من المنطق ، ولا يحتقرن احد القوة ، فهى بعض سنن هذا الكون ، ان المنطق اذا لم يحل مشاكل الناس فلابد من شىء يحله ، ولهذا دخلت القوة نظاما من نظم الحياة » ·

« ما القوة الا وسيلة وهى تكون وسيلة للخير ، كما تكون وسيلة للشـر وهى على كل حـال فوق الضعف وفوق المذلة مكانا والله موسوم بالقوة وبالخير وبالجبروت »

« انه المنطق اولا فلما لم ينفع ، اكملته القوة ، والقوة منطق

افضل ، وسمى الانسان هذه القوة التى تأتى بعد المنطق ، منطق القوة سخرية بها ، ولم تؤثر هذه التسمية الساخرة فى القوة فهى قد ظلت الوسيلة الفعالة التى تحسم الخصومات فى عالم الانسان وكذلك فى عالم الحيوان » .

ومن الطريف ان احمد زكى كان يؤمن ان الحروب ستبقى مابقيت البشرية ، هكذا كان اعتقاده ، او قريبا من هذا الا ترى الى قوله فى حديث الشهر « حرب أم سلام » (العربى : ١٠/١٩٦١) : « والعقيدة بان الحرب لاتكون لانه لن يكون هناك مجنون يبدأها ، سلبية لانرضاها ، والاحتماء باليأس لان ازمة الامور فى ايد غير ايدينا سلبية كذلك لانرضاها » .

مع هذا ينبه الدكتور زكى الى خطورة الحرب واستنزافاتها ، ومع هذا وهذا يلقى الضوء على ناحية الضرورة والتورط فى الحروب وفى مقاله (العربى : مارس ١٩٦٦) يشير الى ماحدث فى فيتنام من التورط الامريكى ثم يقرر درسا هاما فيقول ان « داخل الحرب يدخلها فى الوقت الذى يشاؤه هو ، اما خروجه منها فأمر لا يتعلق بمشيئته هو وحده ابدا .. انما يتعلق بالاحداث التى تتمخض عنها الايام ، وبالعقد التى تعقدها ، فالحرب ان حلت عقدة ، ربطت لكل عقدة عقدتين وثلاثا .

ويركز احمد زكى رأيه هذا فى قوله « ان الحروب ورطة ، وقد لا تكون ورطة الضعيف ، قد تكون ورطة القوى كما حدث من امريكا فى فيتنام » .

من نفس المنطق منطق تقدير قيمة القوة ، وقوة القوة ، كان الموقف الذى اتخذه احمد زكى حين قال ان اوراق اللعبة كلها فى يد الولايات المتحدة الامريكية ، وسوف نتناول هذا الموقف فى الباب

الخاص بمعالجة الدكتور زكى لأزمة الشرق الأوسط ، من زاوية معالجة الازمة ، ولكننا نتناوله هنا ايضا من باب الفهم السياسى والفلسفة السياسية عند عالمنا الجليل ·

كان أحمد زكى فى رأيه هذا اصدق الكتاب العرب مع أنفسهم على الرغم من أنه كانت فى نفسه مرارات ـ لا مرارة ـ من الولايات المتحـــدة ، واقرأ له معى من مقاله « لا صـــــلح بين الزعماء اذا لم يتبعه صلح بين الشعوب وصلح الشعوب اعصى » (العربى يونيو ١٩٧٥) اذ يقول : ان زمـــام الامر كله فى يد دولة واحدة ، هى الولايات المتحدة كرهناها دولة أو احببناها ، والسياسة ليس فيها ما نحب وما نكره » ·

« ان القوة فى الدنيا هى الشىء الذى له فى هذه الايام السيادة ، فلا العلم ، ولا الدين ولا الفلسفة ، ولا محاسن الاخلاق لها عند أمم الارض الآن وزن · والقوة لها عجرفة تخفى عند الامم ما قد يكون بها من مكارم الاخلاق » ·

« والولايات المتحدة ، بقوتها الحاضرة ، هى سيدة الارض · روسيا لاتطاولها ولا تجرؤ أن تخاصمها فى شىء الى النهاية لان فى ذلك هلاك الجميع وأوروبا لم تزل الى الآن فى تخبط · وقد غزاها الاقتصاد الامريكى والدولار بما غزا · فهى ستظل الى حين بعيد تتبع · »

« والخصومة بين العرب والصهاينة لا يحلها الا الولايـات المتحـدة ، اذا هى شـاءت ، وتعينها روسيا على ذلك بالكثير من الترفق على ان يكون لها على مسرح الاحداث نصيب بارز » ·

ولم يكن الدكتور زكى رحمه الله من انصار الرأى القائل بانتظار

دور الامم المتحدة ، لانه كان يدرك تمام الادراك ان الامم المتحدة ليس لهـا من القوة مايمكنها من تنفيذ قراراتهـا ، وهى الحقيقة الناصعة التى ادركها رجل الشارع بفطرته ، ولكنها استعصت على كثير من المشتغلين بالسياسة الذين كـانت المعاصرة لهم بمثابة الحجاب الكثيف ٠

يتحدث الدكتور زكى فى مقال (سبتمبر ١٩٧٢) عن النظام الحزبى فى الولايات تحت عنوان « حزبان ولكن » ثم يستطرد الى المعنى الذى نتحدث فيه هنا بعبارات رائعة البيان والتعبير فيقول : « ان هيئة الامم المتحدة كالرجل الناسك التقى العابد ، عليه الدعاء الكثير ، اما استجابة الدعاء فتاتى من خلفاء الله فى الارض ، وهم خلفاء الله بمالهم من قوة ، وهم خلفاؤه بما لهم من علم ، وبمـا اقاموا من حضارة ذات وجوه شتى ، وفيها الوجه القبيح » يقصد الدكتور زكى بهؤلاء الخلفاء الولايات المتحدة الامريكية ٠

ويقرر الدكتور زكى فى وضوح ان هيئة الامم هى اليوم الولايات المتحدة الامريكية ويضرب على رأيه مثلا بما حدث فى امر عضوية الصين الشعبية فى الامم المتحدة ، وكان المثل يومها حاضرا فى اذهان القراء جميعا ٠

ومع ان احمد زكى يفصل القول فى طبيعة النظم الديمقراطية فى الولايات المتحدة فى اكثر من حديث ، وخاصة مقاله (العربى : سبتمبر ١٩٧٢) الا انه يصارح العرب بان الامر فى السياسـة الامريكية لا يتوقف ابدا على تغيير الرئيس ، وانتخاب آخر محله ، وانما هى سياسة ثابتة ، وقد عبر عن هذا حين تفاءل البعض بمجىء نكسون بعد جونسون ، فقال احمد زكى فى مقاله (ابريل ١٩٦٩) : **« لا هذا ولا ذاك اراد او يريد ، وانما هى الادارات التى وراء رئيس الدولة والمصالح العملاقة التى اليها يستند هذا الكيان الجبار الذى**

اسميناه الولايات المتحدة هى التى ارادت » ويستطرد على نفس الخط ليقول : « فالامل الذى يربطه العرب برئيس الولايات الجديد يجب ان يصحبه ادراك لمقدار الحركة التى يستطيع ان يتحركها هذا الرئيس فى مقعده ، وهو يدير آلة الولايات المتحدة العارمة » ٠

وهى عبارات مااحرى العرب بل والعالم ان ينظر فيها عند كل تغيير فى رئاسة الولايات المتحدة ٠ هكذا كان فهم احمد زكى للعامل الاول الذى يحكم السياسة الدولية ، فماذا عن العوامل الاخرى التى تحكم هذه السياسة ، هذا هو مايتبين لنا فى رأى احمد زكى فى مسألة العلاقات الصينية الامريكية (وهو الرأى الذى سيقودنا الى الموضوع الثانى فى هذا الباب (وهو القوميات والوطنيات) ٠

هذا وقد كان الدكتور زكى يعتقد ويجاهر ان اكثر شىء عكر صفو الامريكان هو دخول الصين نادى الذرة ، وكان يقول : « ان أمريكا تتخيل الصين أخطر عليها من الروس مرات كثيرة ، وذلك لأن امريكا والروس تربط بينهما ثقافة الغرب المدنية وثقافته الدينية ، ودعك من القول ان البلشفة ذهبت بالدين ، فللدين فى الأنفس حتى وهى لا تعيها ، آثار لا تمحوها السنون هكذا سريعا ، **والروس بيض، والامريكان بيض، والصين صفر، وفلسفة هؤلاء فى الحياة نقيض فلسفة اولئك** ، ودع ما جاءت به الشيوعية من فلسفة لاتتعمق فى النفس الى اكثر مما يتعمق اليه الطعام والشراب » واذا اردت ان تستزيد من آرائه فى هذا الموضوع فارجع اليها فى موضعها من مقاله « الحرب الفيتنامية توشك ان تتحول الى حرب ذرية » (العربى : مارس ١٩٦٦) ٠

على انه لاينبغى لنا ان نترك هذه النقاط من دون ان نشير الى ناحية « القوة » التى كان احمد زكى يجدها فى « الامم المتحدة » ٠ وهى انها لاتفتقد القوة الاعلامية الهائلة التى لها (العربى :

اغسطس ١٩٧٤) · ويضرب استاذنا الدكتور زكى على ذلك مثلا بما حدث فى مسالة البرتغال ، وحرب ١٩٥٦ ، ومؤتمر الشمال والجنوب الذى دعا اليه الرئيس بومدين ١٩٧٤ ·· كما يشير احمد زكى بالفخر الى نشاط المؤسسات الدولية التابعة للامم المتحدة ويقرر ان الذى حمى هذه المؤسسات من سوء المصير اشياء كثيرة ، من أهمها خلوها من الساسة المحترفين وان الكثرة التى هيمنت على مناشطها من رجال اتصلوا بالعلم نشاة ومهنة وطيب مزاج ·

٢

آن لنا بعد هذا أن ننتقل الى البند الثانى من هذا الباب ، وهو مسألة القوميات ، والالوان والثقافات ··· الخ) التى بدت فى فقرة احمد زكى التى قرأناها منذ ثلاث دقائق عن الصين وامريكا غريبة بعض الشىء على المفاهيم الحاضرة فى اذهان الناس ·· ولهذا فسوف نمضى الآن على نسق معين من الترتيب يتيح لنا فهم رأى الدكتور زكى فى هذه المسالة على النحو الاقرب الى فهمه ·

كان احمد زكى يعتقد ان للقومية ركائز خمسا ، وقد فصل القول فى هذه المسألة فى حديث شهر نوفمبر ١٩٦٦ فى مجلة العربى « دنيا البيض ودنياالصفر والسمر والسود » فقال فى وضوح شديد انه يرى ان للقوميات ركائز خمسا :

« الركيزة العنصرية
« والركيزة اللغوية
« والركيزة الثقافية
« والركيزة التاريخية
« والركيزة المصلحية

ثم يضيف اليها **الركيزة الجلدية** ، « **قومية اللون الذى شاء ربك أن يصبغ بها وجوه الناس** »

اما الركيزة العنصرية فهى التى اساسها وشائج القربى ، وتتمثل اكثر ماتتمثل فى القبائل ، ولكنها كذلك تتمثل فى القبيل من الناس ، يسكنون البقعة الواحدة من الارض ، ويجرون فى الحياة على اسلوب واحد ، وعلى الرغم من انهم من اعراق بدأت فى الزمن مختلفة الا انهم بتزاوجهم مزجوا بين الدماء المختلفة » ٠

ثم الركيزة اللغوية ،تسندها **الركيزة الثقافية** ، ولكن اللغة قد تتوحد ، وتتفارق الثقافات ، واذن يمتنع العيش الواحد ، ويصعب التقارب ، ويظهر هذا باختلاف احقاب الزمان ، وكـذا فى الدولة الواحدة قد نجد دولة ذات قومية واحدة ، على الاقل لان لها لغة واحدة وتبحث فى شئونها فتجد انها تتألف من طبقات ذات ثقافات مختلفات متفاوتات ، بعضها فى الحضيض وبعضها فى السـماء العلى ، دولة كهذه كيف يمكن ان تؤلف فى حسبان علماء الاجتماع قومية واحدة مهما اكد القانون والساسة ذلك ٠ ان قـالوا دولة واحدة فنعم ، وان قالوا امة واحدة فلا » ٠

ويعرف **احمد زكى الركيزة التاريخية** بانها الركيزة التى تجمع بين قبيلين من الناس كان لهما فى التاريخ تناصر وتآخ ، ومن أمثلتها الركيزة الدينية ان جاز هذا التعبير ٠

اما الركيزة المصلحية فيعنى بها احمد زكى ماهو حاصل فعلا فى سويسرا وبلجيكا وكندا وواضح ان هذه الركيزة جاءت توفيقا من احمد زكى للحياة مع القواعد النظرية التى شرح بها مسـألة القوميات ٠

والمسألة فى ذلك ليست ان المصلحة ركيزة تقوم عليها قومية ، وهذا ما لا أظن احدا يخالف فيه ولكن الذى حدث ان تقسيما معينا هو فى الغالب خاضع للظروف الجغرافية وسياسة مابعد الحرب ، قد اقتضى نشأة قوميات جديدة ، ستتدعم لها من الركائز التى ذكرها احمد زكى مايجعلها مع الزمن فى مصاف القوميات القديمة ٠

وقد كانت كثير من القوميات التى نعدها اليوم قديمة على هذا النحو على انى لاأود ان استرسل فى هذا الامر اكثر من ذلك حتى لايكون بابنا تعبيرا عن فكر ، ونحن نريده تعبيرا عن فكر الدكتور احمد زكى ٠

اما الركيزة الجلدية فهى عند احمد زكى قد قسمت الدنيا الى اربعة الوان : الأبيض والأسمر والأسود والأصفر ، « ولن تجد شيئا فرق بين اهل الارض كلون جلود » ٠

وينتقل أحمد زكى ليبنى على نظـــريته فى القوميات فيقول : « بعد تصنيف ركائز القومية الى اصناف خمسة يصبح مقدار مابأمة بالمعنى السياسى من قومية تدعم الوحدة امرا أيسر تقديرا » (أنه مجموع ما بها من هذه الركائز الخمس ، هو ليس مجموعها بل هو حاصلها ، والمحصلة على ما يدرس طلاب الثانوى هى قوة واحدة تلخص عمل قوى كثيرة تعمل فى جسم واحد ، وقد اختلفت مقدارا ، واختلفت اتجاها ، وحاصـــــل هذه القوى قوة واحدة ذات مقدار واحد ، وذات اتجاه واحد وتعرف بالمحصلة ٠

ويخلص أحمد زكى الى القول بان القومية اليوم هى « حاصل صنوف الركائز التى توجد فى بلد ما او بلدان ، وهى التى تقضى بالوحدة تكون أو لا تكون ٠ وعلى أى درجة من القوة هى كائنة وفى أى اتجاه تتجه ٠

ويستعرض أحمد زكى الجانب الآخر من مسألة القوميات ، وهو المتعلق بالصـــراع بينهما ، أو التكامل • التوافق أو التنافر فيقول فى موضع آخر مناديا بتقارب الثقافات بالنهوض بالثقافات المختلفة الى المستوى الأرفع : « هذه هى الدنيا اليوم وقد تقسمت وسوف تزيدها الأيام تقسما » •

« ولا ينجيها من وبال ذلك الا ان تتقارب الثقافات ، وتتشكل الدنيات ، فالفرقة القائمة اليوم ، ان يكن ظاهرها اختلاف لون ، فهى فى الصميم اختلاف علم وفهم ، واختلاف غنى وفقر ، واختلاف قوة وضعف ودرجات على ســـلم المدنية خطت بعض الأمم منها درجات كثيرا ،وخطت الأخرى درجات قليلا » •

« وسوف يظل سلام أهل هذا الكوكب محفوفا بالمخاطر حتى تتقارب حظوظ الناس من انسانية ، وتهدف الى غايات آراها الهية سجلتها الطبيعة تسجيلا فى خلايا تتوارثها ، بخيرها وشرها ، على الأزمان ، والارحام » •

ومن الطبيعى ان يتعرض قلم أحمد زكى لمسألة أزمة الملونين التى اجتاحت العالم المتحضر فىالفترة الزمنية التى كان أحمد زكى يمارس فيها الكتابة السياسية وقد رأينا أن نضـــع رأيه فى هذه المسألة فى هذا الموضوع خاصة بعدما رأينا من تقسيمه للقوميات ، وادخـــاله للركيزة الجـــلدية فى عداد الركائز التى أقام عليهـــا القوميات •

وأحمد زكى ينظر أيضا الى هذه المسألة نظرة العالم الطبيعى الى الظواهر الكونية فيقول فى صراحة : آن المسألة فى الملونين والقوميات ليست مسألة أخلاقية أو انسانية آو غير ذلك • انه حكم الطبع وكفى •

ونحن ننقل هنا عن مقاله « ازمة الملونين ، العربى : يونيو ١٩٦٨ رايه فى تشخيص الأزمة حيث يقول : « ان أزمة اللون يردها الناس فى امريكا وغيرها الى اللون لأنه الشىء الحاضر الذى يملأ العين ، ولكن عندى ، وأكرر هذا وأؤكد ان مردها الأكبر والأكثر والافضل الى اللغة والى التعليم والى مستوى المعيشة (وعلاج هذا تيسر الرزق للبيض والسود على السواء) والى التقليد الذى لايكون واحدا ، والى العادة التى لا تكون واحدة فى طعام أو شراب أو سير أو حب أو كراهية ، أو اتصال بحوادث الأيام ، وما يصيب الوطن الواحد من خير ومن شر ، عندئذ ، وعندئذ فقط ، أى عندما يستوى الناس فى هذه الأمور ، يصبح اللون قليل الخطر موضوعا »

ويمضى أستاذنا الدكتور فى وصف العلاج فيقول « والحل الوحيد لصلاح الحال لابد أن ينبع من النازحين أنفسهم ، يكون منهم الاصلاح والنصح والهداية ، والقسر والقسوة ان كان فيما تعمل القلة ما يسىء الى سائر النازحين ، تلك الكثرة الكبرى التى انما طلبت الرزق الحلال فى غير أوطانها لما ضاقت بها الأوطان »

٣

هذا عن القوميات فماذا عن الوطنية . وهى الموضوع الثالث فى آراء أحمد زكى فى هذا الباب . لم يكن أحمد زكى من المتشدقين بمسألة الوطنية لأنه كان يؤمن ان الوطنية الحقة لا تاتى بالشعارات ولا الهتاف ولا السوق سوق الاغنام ، وفى هذا المعنى يقول عالمنا فى المقال الذى نشر بعد وفاته « أمنية » العربى ١٩٧٦/٢ :

« انه لا يربطك بأرضك ، وبحب بلدك ، وبالسهر عليه ، وبالدفع عنه ، كأن يكون لك فيه نصيب ، وان تساوت الأنصبة كان هذا كل المنى » .

« ويكتب أحمد زكى فى «حب الاوطان » مقالا ممتعا فى « الهلال » فبراير ١٩٤٨ » ويعيد نشره فى ساعات السحر يقرر فيه ان : « حب الوطن ككل حب ،لا يحس به صاحبه حتى يمتنع ، وتمتنع أسبابه ، وتجف منابعه وتنحبس أفاويقه ، كالثدى لا يفتقده الطفل كافتقاده عن فطام » ويدعم هذا القول بما يروى من قصة الاعرابى الذى سئل : « أى بنيك أحب اليك ؟ » فقال : « الصغير حتى يكبر والمريض حتى يبرأ ، والغائب حتى يؤوب » والوطن أحب ما يكون عند الغائب حتى يعود ·

وفى حديث الشهر « اشتدى أزمة تنفرجى » فبراير ١٩٦٩ يزيد الأمر تفصيلا فيقول ان حب الوطن عاطفة تنشأ مع تنشؤ الفتى والفتاة فى مدارج الحياة ، فى قرية أو مدينة أو عاصمة ، ويستعين على توضيح طبيعة حب الوطن بالاستشهاد بقول الشاعر :

لا يســـــألون اخـــــاهم حين يندبهم

فى النائبـــــات على ما قال برهانا

ويردف بالقول : ان الوطن الجـدير بالدفاع هو ذلك الوطن الذى تتوزع فيه النكبة بين ابنائه بالتساوى ان تكن نكبة ، أو تتوزع النعمة ان تكن نعمة ، نصيب كل من خسارة وكسب سواء » ·

وحين يتحدث استاذنا الدكتور زكى عن الحرب الفيتنامية فى مقاله (مايو ١٩٦٨) ويشيد بروح الفيتنـــاميين فى القتال فانه لايفوته ان يشير الى التفاهم حول زعيمهم الشيوعى هو شىء منه « على الرغم من شيوعيته ، ويعلل الدكتور زكى هذا بأنهم رأوا فيه زعيمين، زعيما عقائديا ، وزعيما محررا للاوطان من الاستعمار ولم يرحبوا كثيرا بزعامته الاولى ، ورحبـــوا كل الترحيب بزعامته الثـانية

كأنما أراد الدكتور زكى بهذا أحدا من العرب (فى ١٩٦٨) من باب « واسمعى يا جارة » أظن والله أعلم ·

٤

وقد آن لنا أن ننتقل من الأمور التى تتعلق بالسياسات الدولية الى الأمور التى تتعلق بالسياسات الداخلية ، وستكون حلقة الانتقال هى الحديث عن آراء الرجل فى الزعامة والزعماء ، وهو موضوع حظى باهتمامه غير مرة ، فأفرد له موضوعا فى الهلال « ٤٨/٧ تحت عنوان « الدنيا فى حاجة الى زعيم » · كما كتب فى الاثنين « للزعامات عورات فاستروها » وهو فصل من فصول كتابه « ساعات السحر » · وأفرد لذات الموضوع حديث الشهر (٦٩/٩) فى مجلة العربى وجعل عنوانه « الزعامة والزعماء : الزعامة بعض طبائع الاشياء » ·

هذا عدا ما جمعناه من آرائه فى هذا الموضـــوع فى مقالاته العديدة التى مس فيها موضوع الزعامة ·

ونبدأ فنقرر أن أحمد زكى كان يؤمن بضرورة الزعامة أو كما عبر هو فى عنوان مقاله : وفى مقاله من بعد عنوانه ، فهى عنده « بعض طبائع الاشياء » أو هى « شىء لابد كائن ما اجتمع معا نفر من الناس » ·

ويفرق أحمد زكى فى مقال الهلال (٤٨/٧) بين نوعين من الزعامة ، زعامة أهل الفكر وزعامة رجال الحكم ، ويعبر عن حاجة الدنيا الى زعيم من النوع الثانى « لأن الأزمة التى نحن فيها لا تمهل وهى تتطلب الحل الحاضر العاجل » ويستعرض أحمد زكى زعماء العالم الموجودين يومها فيقرر أن ليس فيهم طلبه ·

ولكن ما هى المواصفات التى يطلبها دكتورنا فى الزعيم ، نقرأ له فى حديث الشهر (٦٤/٣) قوله « أن الزعيم النابه ، الجدير بالزعامة ، هو هذا الذى يدرك أنه افتقد التوفيق فى أول لحظة يختفى التوفيق فيها ، ولا يكبر عليه أن يمسك بلجام جواده ، ويعود أدراجه فى وضح النهار ، يبحث عن التوفيق أين ذهب » ٠

« انها المرونة السياسية التى افتقدها زعماء أمم فأودت بها وبهم » ٠

« وانها المرونة السياسية التى فطن لها زعماء أمم ، وارتفعوا بشجاعتهم الى مستوى التبعات العليا ، فنجوا بأنفسهم ، وبأممهم ، وكسبوا مرضاة رب عظيم » ٠

بعدها بخمس سنوات يخرج لنا أحمد زكى بدراسته عن رأيه فى شخصية الزعامة فيكتب فى (٦٩/٩) ليقول « ان شخصية الزعامة ليس فيها ما يوزن ، ولا مايقاس ، وقد تقول من شروط الزعامة معرفة الرجال ، ومن شروطها درس ما يحيط بالرجال من احوال ، ومن شروطها قلة الثقة بما تسمع وترى ، ومن شروطها القسوة ترافقها الرحمة ٠٠ الخ » ٠ ويترك الدكتور زكى التحديد فى هذه المسألة التى لا تحتمل التحديد أو لا تحتاجه ٠

قبل هذا وذاك يفرق الدكتور زكى بين الرئاسة والزعامة فيقول : (الهلال : ١٩٤٨/٧) «الفرق بين الرئاسة والزعامة كبير فكل رجل ذى كفاية معقولة يستطيع ان يترأس ، ولكن ليس كل رجل يستطيع أن يتزعم ، ان الزعامة ارادة قوية مفروضة بقوتها ، وهى فى قوتها لا تأتلف مع ضعف المشاورة القانونية ، وهى سريعة ، وهى فى سرعتها لا تأتلف مع بطء التروى » ٠

« والزعيم الديمقراطى يضيق بالديمقراطية اذا هو نشب اظفاره فيها ونشبت اخطارها فيه » ٠

ويحدثنا أحمد زكى عن العلاقة الغريبة بين الزعامة والقانون والديمقراطية وكيف تنمو هذه العلاقة وتتدرج من رعاية الديمقراطية للزعامة الى ذهاب الزعامة بالديمقراطية وهى ظاهرة واقعة لأحمد زكى فضل تنبيهنا اليها على حقيقتها حين يقول : « ان الزعامة مبناها الثقة مع القانون ، أو الثقة على الرغم من القانون ، والناس لا تعطى ثقتها للزعيم القوى فحسب ، ولكن للزعيم ذى الفكرة القوية التى تخلب أفئدة الناس ، بما تتضمنه من رفع سوء قائم ، أو جلب نفع شامل ، ولاسيما من تخليص امة من نكبة وقعت فيها ، وهذه الزعامة تبدأ عامة فى الأمم الديمقراطية على الديمقراطية ثم لا تلبث بطبعها ان تتجافى مع ما فى الديمقراطية من ميوعة ومع ما فى الراسمالية من انانية ، ومع ما فى نظم زعموها للحريةمن بطلان وخداع فاذا بها دكتاتوريات يباركها الشعب » ٠

وكانت لأحمد زكى نظرية فى الزعامة وتدرجها على المستوى الشعبى من قاعدته الى قمته ، اذ كان يعتقد أنه لابد أن تقوم زعامة الأمم على زعامات عديدة فى كل مجال من مجالات الحياة زعامة البائعين ٠٠ والصانعين ٠٠ الخ) وهو يعبر عن هذا بقوله « زعامات فى الناس الف من وضيعة ورفيعة وأرفع » ويمضى الدكتور زكى فى تفصيل القول فى نظرته هذه على نحو ممتع لا تستطيع عباراتنا ان توجزه ، ولكنها تستطيع ان ترشد القارىء الى موضعه فى مقال الزعامة ٠

وننتقل مع الدكتور زكى من الجانب النظرى للزعامة الى الجانب التطبيقى فتواجهنا مشكلة « عبادة الفرد » وقد حدثنا استاذنا فى هذه المسالة حديثا تحليليا رائعا فى الجزء الثانى من حديث الشهر

« العربى : ابريل ١٩٦٧ » متخذا من ماوتسى تونج فى الصـــــين مثــــلا ٠

واقرأ اليوم فى (١٩٨١) مقالات تناقش ظاهرة ماوتسى تونج بعد رحيله بسنوات فلا أجدها تصل الى المستوى الرفيع الذى وصل اليه مقال احمد زكى فأترحم على الرجل ٠

وينبه أحمد زكى ان الروس ليس لهم (اليوم) مع التبعـــة الجماعية ما كان لهم يوم تمثلت قواها فى فرد نحوه اتجه حبها ، وفيه انعقدت آمالها ، واليه ارتفعت أيديها تطلب اليه من طيبات العيش والتقدم والتفوق على السلام أو على الحرب ٠

ويؤكد أحمد زكى أنه فى هذه المسألة « لا يخذل ولا يناصر ، ولكنه يسجل حالا شهدها من صنوف البشر » ٠

ويرجع أحمد زكى السبب فى ظاهرة عبادة الفرد الى حقيقة هامة هى ميل الناس الى الشىء المجسد دون الشىء المجرد ، ويزيد توضيحا فيقول : « انك تحدثنى عن العدل وقيمة العدل ونفع العدل، والضرورة الاخلاقية للعدل ، والضـــرورة الاجتماعية له ، ولكن افعل فى نفسى وابلغ أثرا من ذلك ان تحدثنى عن رجل عادل ما صنع وكيف صنع ، وكيف صرف أموره ، وحل عقدا عقدها الظلم بين الناس ، وعقدتها الشراهة ، وعقدها حب السيطرة والغلبة » ٠

« وانك تحدثنى عن الزهد والقنوت ، وافعل من هذا فى نفسى ان تحدثنى عن حياة رجل زاهد قانت » ٠

« والفلسفة اسهل فهما عندما يتحدث بها ارسطو وافلاطون ، ولقد ظل ارسطو نحو ألف قرن يسمى المعلم الاول ، حتى طرحته أوروبا آخر الأمر وحرقت كتبه ، ومعها كتب ابن سينا وابن رشد ، والعرب اعرف بابن سينا وابن رشـــد • والفارابى من عرفانهم بفلسفته » •

« والسيد البدوى احظى من الهيبة ، واكثر حظـا من دعاء الناس ، ودعاء الجماهير ممن هم فوقه علما وفوقه منزلة فى طبقات أهل الورع والتقوى من القديسين والصـــديقين والجماهير هناك تتشفع به الى الله ، وكان أولى بالتشفع عند الله من قد رقد تحت العتبة الخضراء فى مدينة النور ، والسبب فى ذلك ان السيد البدوى واقع تحت انظارهم ولو رفات فى مشهد بمسجد فهو شىء متجسد ملموس محسوس وهو غير بعيد • ووقع فى روعهم ان الله عنهم بعيد وغفلوا عن ان الله أقـرب اليهم عن حبل الوريد ونسوا قوله « ولله المشرق والمغرب فاينما تولوا فثم وجه الله » •

وينهى احمد زكى حديثه هذا بقوله : « فهل أنا اشجب عبادة الفرد ، بالطبع لا ، وكيف اشجب ماظلت الانسانية تعبده منذ كانت الانسانية » •

الا ترى معى أنه ختام لبق يتفق مع رأى العالم الذى لم يفعل شيئا الا أن وصف الظاهرة واصلها علميا !! ولكن اى وصف وأى تأصيل •

٥

ولكن ماذا كان موقف أحمد زكى من الديمقراطية • فى اختصار شديد كان أحمد زكى يراها اقل الوسائل ضررا •

فأحمد زكى ينظر الى الديمقراطية على انها وسيلة ، وعلى أنها شكل وعنده أن العبرة ليست بالشكل ، ولكن بالجوهر ، وان الناس كثيرا ما تتخذ الاشكال لتهتدى ، وقد تهتدى بالاشكال حينا ، **ثم تتغير الظروف فيصبح الشكل قيدا تتقيد به العقول والافهام** « من مقاله » « الحكم الصالح » الهلال : ٤٩/٦٦ » .

ونستسمح القارىء فى دقيقة من وقته نقرأ له فيها نظـــرية الدكتور زكى فى الحكم الصالح حين يقول انه يكون « برجال له صالحين ، يؤمنون بالله ويخافونه ، ويؤمنون بالناس ولا يخافونهم، يصدعون بالحق فى غير جفوة ، ويبثون الحب والطمأنينة ويفتحون فى قلوبهم للخير بابا يدخل منه كل راغب فى الخير ، والناس عندهم سواسية قريبهم والبعيد ، غريبهم والنسيب ، يبذلون من أنفسهم أكثر مما يبذلون لها ، وتلك صفات الاشياء ، وعز حاكم ان يكون نبيا » « **انالحكم الصالح هو الذى يرضى الناس به بدءا وانتهاء** »٠

انتهت الدقيقة ونعود بالقارىء الى قضية الديمقراطية فنجد الدكتور زكى فى (العربى : ٧٠/١٢) يجعل عنوان مقاله « ديمقراطية مريضة »وهو مقال قيم من الناحية السياسية والاجتماعية هذا فى جانبه النظرى ، اما فى جانبه العملى فهو أنسب ما يكون قراءة لكثير من شباب العرب والمسلمين اليوم وغدا ٠٠ ولهذا فنحن نلخص محتواه الفكرى فى النقاط التالية :

١ ــ « ان الديمقراطية لا تزيد رزقا ، وانما عمـــل الفرد هو الذى يزيد رزق الفرد ، وعمل الجماعات يزيد رزق الجماعات ، ولا عمل الا من بعد ثقافة ، ولا ثقافة الا من بعد تدريب والثقافة مشقة والتدريب أشق » ٠

هكذا يجزم الدكتور احمد زكى فى وجه الذين ينتقلون من عهود

استبدادية الى عهود ديمقراطية فيوحى لهم هذا الانتقال بان الحياة ستكون أيسر ، وان الرزق سيكون أوفر ، وان مشقات العيش سوف تزول من الطريق · ويقول الدكتور أحمد زكى معلقا ان يكن فى فهم الديمقراطية اخطاء ، فهذا الفهم من أكبر اخطائها ·

فالديمقراطية انما هى جو ، وهى انما تهيىء للعامل الجو الصالح ، ولكنها لاتنقص مما يجب العامل ان يبذل لبلوغ غاية ·

٢ – ويبدى الدكتور زكى ضيقه مما تفعله بعض الحكومات الديمقراطية من تثبيت هذا الرأى عند الشباب ، عندما يعتريها العطف عليهم ، فلا يكادون يشكون ثقل مواد الدراسة حتى تعمد الى تخفيفها ·· والموقف سياسى الا يتسم العهد الديمقراطى بكراهة الشباب ولكن النتيجة تكون فى هبوط مستوى التعليم ، فيهبط مستوى العلم والفن والتكنية فى البلاد ، وتنزل البلاد دون مرتبتها ، ولا تجد الأمة بعد ذلك بين العلماء والفنيين من أهلها الا العلم المستجدى والفن الضئيل ·

ويضـــرب الدكتور زكى المثل على هذه النقطة بما يحدث فى الآداب « فلا يكاد الشاب يفرغ من دراسة الثانوية حتى تراه يأخذ ينظم الشعر ويحاول ان ينظم قصائده قصارها والطوال فاذا هى لم تنشر عد ذلك تثبيطا لهمم الشباب ، وهو لم يبلغ محصوله فى الشعر أكثر مما حصل من دراسته ، وقد كان الشاعر القديم وغير القديم يخشى الشـــعر ان يقوله حتى يكون حفظ فيه الآلاف من الابيات واطلع على التواريخ والاحداث التى تفجرت بالشعر الرصين الخالد على السنين ·

ويمضى الدكتور زكى ليقول « وفى سبيل الخطف والتسهيل بتدعوا نوعا من الشعر سموه بالجديد » ويرى الدكتور أحمد زكى

أنه احق بان يسمى الديمقراطى ويصفه فيقول « لا تكاد تكون فيه قافية أو وزن ، وليس فيه طعم الا ما ندر ، وطعمه انما يكون لا بأنه شعر ، ولكن بأنه نثر » ويقولون لك ان الوزن قيد ، والقافية قيد ، والديمقراطية تأبى القيود ·· وهكذا كما فى الأدب فى غير الأدب وفى سائر احتراف للحياة ·

ويختم الدكتور زكى الحديث فى هذه النقطة بقوله : « وهذا الذى يخطف ، اعتقادا منه بان الديمقراطية جاءت للتيسير لا للتعسير ، انما يجنى على قومه ، فقيرهم وغنيهم ، وعلى فقيرهم قبل غنيهم ، يفتح بابا للمرض اذا هو استشرى لا تسده العقاقير » ·

٣ ـ ويتساءل الدكتور زكى « من قال ان حياة ما ، تكون بلا قيد على ظهر هذه الارض » « ان جاذبية الارض ضربت مثلا للانسان ان من القيود ما هو ضرورة لازمة للحياة » « وأنت تستطيع ان تكون حرا فى حركتك اقصى الحرية وأنت على الارض البسيطة ، ولكن مارس نفس هذه الحرية وأنت على حافة جبل ، وانظر ما يكون منها · انه الهلاك المحقق » « أنها القيود وكدت ان أقول : « ولكم فى القيود حياة يا أولى الألباب » ·

ويشرح الدكتور زكى طبيعة قيود الديمقراطية بقوله « والفرد حر أن يفعل بنفسه ما يشاء ، عن علم أو عن جهل ، وقد يكون فى بعض حريته هذه الدمار » وتزيد القيود اذا اجتمع فرد بفرد وتزيد اذا اجتمع فرد بألف فرد أنه المجتمع ، ينزل فيه كل عن قسم من حريته حتى لا تضيق بصاحبه ساحة هى ايضا نصيبه من الحرية ، وهذه كلها معان ليس فيها جديد ·

٤ ـ والدكتور أحمد زكى مع القول بان الديمقراطية لا تجوز ولا تصح ولا تنجح الا فى المجتمع الواعى المتربى المثقف ذلك لأن

علاقة الفرد بالمجتمع وعلاقة المجتمع بالفرد وعلاقتهما جميعا من حيث قيام الدولة ، قوية ذات نظام ، علاقات تجل عن فهم السواد فى الأمم التى لاتزال على فطرتها الوحشية الاولى ٠

٥ ـ ومن عيوب الديمقراطيات الناشئة الفهم الخاطىء لفكرة المساواة ، وسنفصل القول فى هذه المسألة بعد حوالى ربع ساعة فى بند خاص من بنود هذا الباب ٠

ونعود مع استاذنا الدكتور زكى الى عدد (فبراير ٤٧ ـ من « مجلة الهلال » لنقرأ له تحت عنوان « عندنا دكتاتوريات مقنعة » عبارات صريحة فى مسألة الديمقراطية والطبيعة البشرية اذ يقول : « ان الديمقراطية ليست من طبيعة البشر ، لأنها تتعارض وما فى الناس من غرائز اقتضاها طلب الحياة على أرض فيها النجاح كفاح فالكفاح يتطلب القوة ، والقوة تدعو الى الأثرة ، والى الغلبة ، ومادام هناك غالب فلابد من مغلوب ، ومادام هناك سيد فلابد من مسود ، ومن أضاحيك الديمقراطية التى تسرى بين الناس ، ان نداء التخاطب لايزال يحمل معنى السيادة : فالانجليزى يقول مستر ، والفرنسى يقول مسيو ، والالمانى هر ، والتليانى سنيور ومعناها كلها سيد والشرقى عند الخطاب لا يتجه به الى من يخاطب ، ولكن الى المكان الذى حل فيه ترفعا عن ان يمس الذات الكريمة بلفظة من لسانه فهو لا يقول : أنت ولكن : حضرتك ، ومن الحضرة ينتقل الكلام الى الذات فرضا » ٠

وينبه أحمد زكى فى هذا المقال الى ان الديمقراطية ليست بالأمر الهين يكتسب بسهولة ، وانما هى جهاد طويل ، تعليم وتدريب وتمرين، ولعله حين ينبه الى هذا يجيب فى فترة مبكرة على المحاذير والتوقعات التى يتوقعها المفكرون من الأمة التى تجرب الديمقراطية فتفشل معها فى المرة الاولى فتتركها بلا عودة ، وهذا ما حدث فى كثير

من الفترات فى الأمة العربية • انظر الى أحمد زكى ينظر بمنظار يخترق حجب الزمن ويقول : « ان الديمقراطية كالمدنية تكتسب اصطناعا ، وهى تكتسب بالتعليم والتدريب والمران الطويل ، وهى لا تخلق فى يوم وليلة ، أنها تاج تتوج به المدنية فى أرقى مدارجها ، والديمقراطية عمادها المساواة ، فان لم تكن مساواة ، فتقارب كالمساواة ، والمساواة مساواة علم ، تنتهى غصبا بمساواة مال • ومصر والشرق أبعد ما يكونان عن مساواة فى علم أو مال ، فالديمقراطية الصحيحة فيها لا يمكن أن تكون حقا وصدقا ، ستظل ديمقراطيات الشرق ديكتاتوريات مقنعة حينا طويلا ، يقود فيها صحيح البصيرة أعورها ، ويقود أعور البصيرة أعماها ، والأعمى والأعور لايستطيعان فى الحياة الا انقيادا » •

والمسألة اذن تكمن فى الوعى السياسى وهذا هو ما يؤكد عليه أحمد زكى فى مقالين كبيرين « ذكرى الخامس من حزيران وما بعد الخامس من حزيران » (يونيو ١٩٦٧) ، و « الصفقات السياسية (أغسطس ١٩٧٠) بكل ما أمكنه من وسائل التعبير •

ونكرر هنا قول الدكتور زكى فى (الهلال : ٤٩/١١) « ان العبرة ليست بالشكل ولكن بالجوهر ، فمن الدكتاتوريات دكتاتوريات حبيبة صالحة •• ومن الديمقراطيات ديمقراطيات كريهة ظالمة ، ووجدت دكتاتورية هى أقرب الى الديمقراطيات بمعنى تلك الأصلى » •

ولكن ما هو الوعى السياسى « انه شىء عظيم ، ولا يمكن أن تقوم ديمقراطية أو يقوم حكم سليم والناس لا وعى لهم ولا ثقافة فيهم • ان شكوا الظلم ، وشكوا الاجحاف فالظلم أسبابه فيهم •• والاجحاف يبدأ حيث يبدأ الجهل ومع الجهل قلة الدراية والفطنة » •

ويزيد الدكتور زكى هذه النقطة ايضاحا فى مقال يونيو ١٩٦٧ فيقول - مشيرا من بعيد أو من قريب الى أحوال بلاد عربية : « فمن ضياع الوعى فى الأمة :

١ - ألا تعى أنها أمة واحدة .

٢ - الجهل فى شأن الدنيا والدين .

٣ - خشية الرأى الحر يخشاه الكاتب والحاكم .

٤ - استمرارها فى تخلفها .

٥ - ميلها الى الخرافة وتصديق الخوارق من الاحداث .

٦ - نجاح قوم فى السعى بالريبة حتى يصبحوا يرتابون فى كل ما يكسبهم القوة والعزة بين الأمم .

ويلخص أحمد زكى فكرته فى هذا المقال فيقول قرب نهايته «ومن المشاكل التى تواجه الأمة العربية بعد حزيران الحكم للشعب هو أم لغير شعب ؟ وكم لشعب ؟ وكم لغير شعب ؟ أم هو كله للشعب ؟ . ونعلم ان الحكم كمحرك السيارة يتجه بها ألف اتجاه ، وقد يتجه بها الى العطب عن عجز أو سوء قيادة » .

من ناحية أخرى ينتهز الدكتور زكى حديثه عن رحلته فى لندن فى صيف ١٩٧١ ويأخذ يعلل سيادة الديمقراطية عند هؤلاء القوم فيقول : ويرجع هذا لاشك الى أن هؤلاء الناس من خطيب فى الجمع وسامع أو كاتب نشأوا على معان للديمقراطية ألفوها كما ألفوا الهواء والماء ولكنه يرجع على الأكثر الى الوعى السائد فى هذه الشعوب الذى كان من حصـــيلة الحرية وهو يرجع الى اللاحرية التى اختفت منذ زمان ، والى ممارسة احداث من الزمان كثيرة كأن فيها الحلو وفيها المر والى الفوائد المكتسبة من خيرها الأيام سودها والبيض ، فما جاءت الديمقراطية مهداة فوق طبق من ذهب » .

بقيت نقطتان فى موضوع الديمقراطية ٠٠ النقطة قبل الأخيرة هى اعتزازه بالصورة الديمقراطية التى ف ديمقراطية البادية العربية وهى ما عبر عنه ف حديث الشهر (ابريل ١٩٦٧) حين كتب عما رآه من مشاركة أمير الكويت للشعب فى « رقصة العرضة » ف عيد الاستقلال اذ قال « والديمقراطية قد يدعيها من الأمم من يدعى ، ولست أجد ديمقراطية فيها أصالة الطبع كديمقراطية العرب ، تلك التى يحلو لى أن أنسبها الى أصولها الاولى ، فأسميها ديمقراطية البادية ، ان الذين يدعون الديمقراطية كثيرون ولكن ليس كديمقراطية نزل فيها النازل مع الناس ، يمتزج بهم ف أسواقهم ، ويشاركهم ف مفارحهم ومحازنهم ، واذا حان وقت الطعام جلس معهم الى قصاعتهم » ٠

أما النقطة الثانية فهى أروع ختام لموضوع الديمقراطية « ان الديقراطية جميلة ، ولكن غير الجميل ان يكون الناس غير ديمقراطيين يدخلون الديمقراطية بمفاهيم غير ديمقراطية ، ومع هذا فدخولهم الديمقراطية حتى بهذه المفاهيم خير من ألا يدخلوا ٠ أنها الديمقراطية المريضة ، ولكن الامراض لا تدوم وما خلقت العقاقير الا للدواء والشفاء » ٠

٦

لعل ف أفكار الدكتور أحمد زكى عن المساواة اكبر متعة فكرية للذين يريدون الاستمتاع ببنات أفكار هذا العالم الكاتب المفكر الأديب ٠

على أن وضعنا للمساواة ف هذا الموضع بعد الحديث عن الديمقراطية ف البند السابق وقبل الباب الثانى الذى يتناول ان شاء

الله مفهوم الحرية فى فكر احمد زكى ليس وضعا عشوائيا وانما هو متعلق أشد التعلق بطبيعة أفكار احمد زكى فى مسألة المساواة ٠

فأحمد زكى **عدو للمحسوبية ، ويطالب بالاستحقاقية بدلا طبيعيا عنها** ، وهو يؤمن بالمساواة ولكنه يحدد ، فهو يؤمن بالمساواة فى الغرض ، لا فى توزيع النتاج ٠

ودعنا من الفاظنا لننقل أفكار وفقرا تأحمد زكى فى هذا الشأن وقد خصص حديث الشهر « نوفمبر ١٩٦٧ » لهذا الموضوع وجعل عنوانه عنوانا على الافكار التى ناقشها فيه . « **المساواة ؟ نعم ٠٠ ولكن فى أى شىء** » ، وقد أسهب ، فى المقدمات التاريخية التى قدم بها للموضوع ، مناقشا قضية المساواة على امتداد التاريخ وأكد على الحقيقة التى قد تغيب عن الاذهان « **ان الناس ولدوا مختلفين لا متساوين** » ويتحدث عن **المساواة فى القانون** فيقول انها يجب ان تكون فى القانون وأمام القانون « والعدالة لا تكون فى الاجراء وحده، ولكن على الأخص فيما تقضى به القوانين ، فالعدالة لا تبدأ عند القضاة فى المحاكم ، ولكن عند واضعى القوانين ، وما على القاضى الا صحة التطبيق » ٠

ويتعرض **للمساواة السياسية** فيسخر من أن تكون عند الانتخاب فقط ، ويؤكد ان العنصر الاول فى **المساواة الاجتماعية** هو المساواة فى الكرامة الانسانية ، فكل ما خلق الله كريم ، ومنها ان لا يكون قوم يقال لهم أنهم السادة وذلك لأن اباءهم كانوا سادة ٠٠ ويشير الى أن الطبقية جاءتنا من الغرب بينما العرف العربى والدين العربى أعطيا للناس فى ميزان الكرامة الانسانية اقساطا متساوية « فعمر ظل عمر ، وأبو بكر ظل أبا بكر ، ولم نسمع برفاعة بك وعلى باشا مبارك الا فى القرون الحديثة القريبة ، ومع هذا ظلوا فلاحين

يفترشون الأرض ويحصون أعواد القصب في الحقل مع الاعيان من أهل القرية والاصحاب » .

أما عن مبدأ « الاستحقاقية تهزم المحسوبية » فيحدثنا أحمد زكي فيقول : « انهزام المحســوبية معناه انهزام الطبقية بمعناها القديم لا بمعناها الحديث ، اعنى بمعنى الاستقلال . ان مصالح الدولة الحديثة تعددت ، وواجباتها تكاثرت واختلفت وجوه الانتاج التي تتولاها ، والخدمات وعز احصاؤها » .

« والمحسوبية تصنع الرجل غير الصالح حيث يفســـد العمل به انتاجا كان أو خدمة عامة ، والرجل الصالح يؤخذ من القصر كما يؤخذ من الكوخ . من بيت الوزير ومن بيت الخفير » .

ويضرب لنا الدكتور أحمد زكي مثلا يقرب به الى الاذهان فهم رؤيته للمساواة فيقول « اننا لا نستطيع اذا جمعنا بين الماء والزيت أن نمنع الزيت من ان يرتفع فوق الماء » .

وجوهر فلسفته في المساواة أن الناس تبدأ عند خط سباق واحد، ولكن لا ينتهى السباق الطويل على السنين الا وقد اختلفت النتائج ، ومع هذا تقارب بين الخطـــوط يكون بالمنح التى تزيد في التآخى ، وهى نوع من الشكر لله يبذله من ميزه على ما خصه به وحباه ، ولن ننسى ابدا ان نصيب الفرد منا من ذكاء وغباء هو أيضا بعض حظوظ ميلاد .

ومن هذا المنطلق يعارض أحمد زكي « المســاواة المطلقة » . وخلاصة رأيه في هذا سجلته كلماته الاخيرة في مقاله « أمنية » الذى نشر بعد وفاته (فبراير ١٩٧٦) حين يقول « المساواة المطلقة اذا ، أو بدأناها ، مادامت » .

وحقوق الناس الظاهرة فى المساواة المطلقة ، سوف يعارضها حقوق أخرى ليست أقل ظهورا ، تلك هى حقوق العمل ، والقدرة على العمل ، والذكاء فى العمل ، والعرق الصبيب الذى يتصبب من جبهته ومن ابطه عند العمل » •

« وهذا امر لا خلاف فيه وان اختلفت المذاهب » •

أما تفصيل هذه النظرة فتجده فى فقراته التى كونت الحقيقة التاسعة من الحقائق العشر التى اعتبرها احمد زكى سبب تخلف الشرق فى مقاله « حقائق عشر عن تخلف الشرق » حديث الشهر العربى (١٩٧٣/١) حيث يقول أحمد زكى :

« واكثر الناس ، واعنى المحرومين خاصة ، يطلب المساواة فى ثمرات الحياة ، وهو لا يحدد ، أو لا تتحدد فى ذهنه الحدود التى اليها يصل • أنه فقير ، فهو فى حاجة الى مال ، وجاره غنى ، فعنده فضل من مال • أو هكذا هو يخال • وأذن فليقتسم » ويعلق أحمد زكى على هذه الوجهة بقوله « هذا كلام قد يؤذن به أن يأتى من فرد فى ضيق ، وقد يكون قولا مرتضى فى حالة ما ، ولكنه كلام لا يؤذن به أن يأتى من رجل من رجال دولة مسئول ، والسبب فى ذلك عنده يوضح لنا نظرته العلمية الدقيقة والعميقة الى المساواة :
« فليس بهذه السهولة تعالج العلاقة ما بين الفقر والغنى ، فلو ان قوما فعلوا هذا يوما ، فى حى ، لتحول القوم وشيكا الى قوم جياع عراة ، ان المجتمع الانسانى أعمق من هذا وعلائقه الف ، ان اتضح لنا بعضها فخفى علينا منها الاكثر ، وثروة الناس ليس ما يملكون، وانما ثروتهم ، ثروة الغد ، هى ما اختزنوا فى عقولهم من فن ، وفى أدمغتهم من مران ، وما هم قادرون على انتاجه لو ان ثروة اليوم

اطاح بها كلها حريق ماحق شـــامل والى جانب القدرة والموهبة العقلية الحوافز القلبية » ٠

« فالمجتمع الانسانى لا يعالج هكذا بالسكين ، بهذه البساطة ٠ ان الفقير العاجز له حق على الغنى القادر لا شك فى هذا ، ومن أول حقوقه ان يقيمه الغنى على رجليه فيعطيه القدرة على الكسب ٠٠ الصحة عند الولادة ، والطعام والكساء حتى يكبر وحق التعليم ، وحق الاحتراف أو الامتهان ليعمل ، وكل هذا بالمجان فى المجتمع القادر ، ثم ينزل فى المعترك يجاهد ويصارع ٠٠ المساواة بين الفقير وغير الفقير فنعم ، ولكنها مساواة فى فرص الحياة ٠ ويدخل الكل ميدان العمل فيحتلون فيه بحكم الطبع وبحكم الذكاء والموهبة مراتب شتى ! ولن يكونوا ابدا كأسنان المشط ، كلها سواء » ٠

وهذا هو معنى المساواة عند أحمد زكى ٠ مساواة فى الفرص ٠ وبعد هذا فالموهبة تعمل عملها فى وضع الناس فى مراتبهم ودرجاتهم، ولكنه لا يقف عند هذا الحد من هذه المساواة ولكنه يفهم عاملا ثانيا يأتى بعد هذا : « ومع هذا فالمجتمع الكريم ينظر الى حظوظ العاملين، ويعلم أنه الى جانب المزايا الطيبة تعمل الاقدار فهو بالغرائب يقارن بين هذه الحظوظ » ٠

هذا هو جوهر الحقيقة التاسعة من الحقائق التى تحدث عنها أحمد زكى ٠ فى حديث الشهر (١٩٧٣/١) والتى خصصها الدكتور لمناقشة معنى المساواة ٠ ثم أردفها بالحقيقة العاشرة التى حذر فى نهايتها من اللعب على اوتار التفرقة بين طبقات الشعب المختلفة تحت أى دعوى ، « ان الدولة هى العاملون فيها ، وان يكن للدولة معنى روحى فكل العاملين فيها هم ابناؤها ٠ وابناء الدولة الواحـــدة أخوة ٠ لبسوا الاقمصة الزرقاء أو الاقمصة البيضاء ٠ وكلهم لهم

على الدولة السعة والرخاء ، توزعها بينهم سوية من فضل ما يعملون ، والذى يرفع من مرتبة أزرق فوق أبيض ، أو أبيض فوق أزرق انما يدق فى كيان الدولة لاسيما المتخلفة الأسافين » ·

ويؤكد الدكتور أحمد زكى بهذه المعانى ما سبق ان تحدث عنه فى حديث الشهر (٧٠/١٢) بعنوان « ديمقراطية مريضة » حين هاجم مبدأ المساواة يطالب به بعض الذين يفهمون الديمقراطية فهما خاطئا فقال « ان المساواة فى الفرص لابد ان تفتح الابواب لكل دارس، وكل طالب ، وكل مجتهد ، لا يعوق أحدا عن ذلك فقر أو ضياعة نسب أو فقدان جاه » · وعبر فى عبارة أوضح فهما فقال : « الناس فى المداخل سواسية ، ولكنهم غير سواسية عند الخروج لا فيما حصلوا ، ولا فيما وجب ان يرتزقوا ·· نعم تتقارب الارزاق ، ولكن لا تتساوى » ·

ويضرب مثلا « بروسيا حين بدأت بالمساواة فى الأجر رغم اختلاف المحاصيل التى حصلها العمال من دراسة ومن تدريب ثم تبين لها الخطأ الأكبر فى ذلك ، فما أسرع ما قضت بغير ذلك ، لا يأخذ أحد ما دون الكفاية ، وهو الأجر الأدنى للعامل ، كائنا من كان · أما فوق ذلك فيكون بمقدار الكفاية الفنية والتحصيل ·

وكذلك المراتب لابد فيها من التمييز (ولكن هذا الفهم يعوز أهل الديمقراطيات الناشئة ، وهو قد يعوز العامل الصغير والعامل الكبير على السواء ، فتكون الطامة أكبر » ·

المصـــــــادر :

١ ـ « عندنا دكتاتوريات مقنعة » ·· الهلال : فبراير ١٩٤٧ ·

٢ ـ « حب الاوطان » ·· الهلال : فبراير ١٩٤٨ ·
(الفصل السابع عشر من ساعات السحر)

٣ ـ « الدنيا فى حاجة الى زعيم » ·· الهلال : يوليو ١٩٤٨

٤ ـ « الحكم الصالح » ·· الهلال : نوفمبر ١٩٤٩ ·

٥ ـ « حاجة الناس الى الزعامة » ·· الهلال : ديسمبر ١٩٥٦

٦ ـ « رابطة الثقافة أقوى من رابطة السياسة » الهلال : ديسمبر ١٩٥٣ ·

٧ ـ « السخف السياسى فى السياسة الدولية » العربى : مارس ١٩٥٩ ·

٨ ـ « التقى العاهلان » « وتنفس العالم الصعداء » العربى نوفمبر ١٩٥٩ ·

٩ ـ « حرب أم سلام » العربى : اكتوبر ١٩٦١ ·

١٠ ـ « الديمقراطية حكم الناس بالناس » العربى : فبراير ١٩٦٢

١١ ـ « كادت الحرب أن تندلع ولكن الله سلم » العربى : فبراير ١٩٦٣ ·

١٢ ـ « الحقوق انما تؤخذ فى هذه الدنيا غلابا » العربى : يناير ١٩٦٤ ·

١٣ ـ « الديمقراطية اتخذت منها دول الارض ، زورا ، اقبا محببا الى الناس » العربى : يوليو ١٩٥٦ ·

١٤ ـ « الوحدة العربية ليست شعارا يصرخ به الصارخون ليحجب الحقائق المرة حتى تفضحها الايام » العربى : مارس ١٩٦٦

١٥ ـ « اصداء واجواء ·· الاحداث العربية اصداء لاحداث الدنيا» العربى : مايو ١٩٦٦ ·

١٦ ـ « دنيا البيض ودنيا الصفر والسمر والسود » العربى نوفمبر ١٩٦٦ ·

١٧ ـ « ديمقراطية البادية اصدق الديمقراطيات » العربى : ابريل ١٩٦٧ ·

١٨ ـ « عبادة الفرد » العربى : ابريل ١٩٦٧ ·

١٩ ـ « عقل الانسان ميزان غير ثابت على الزمان » العربى : يونيو ١٩٦٧ ·

٢٠ ـ « المساواة ؟ نعم ·· ولكن فى أى شىء » العربى : نوفمبر ١٩٦٧ ·

٢١ ـ « قصة فيتنام ، مأساة من مآسى الحياة الدولية آذنت باختتام » العربى : مايو ١٩٦٨ ·

٢٢ ـ « أزمة الملونين » العربى : يونيو ١٩٦٨ ·

٢٣ ـ « اشتدى أزمة تنفرجى » العربى : فبراير ١٩٦٩ ·

٢٤ ـ « القبعة تغيرت وظل الرأس واحدا لم يتغير » العربى : ابريل ١٩٦٩ ·

٢٥ ـ « القوة القوة ·· سياسة الأمم لا تعرف غير القوة » العربى : يوليو ١٩٦٩ ·

٢٦ ـ «الزعامة والزعماء : الزعامة بعض طبائع الاشياء » العربى: سبتمبر ١٩٦٩ ·

٢٧ ــ « الصفقات السياسية » العربى : أغسطس ١٩٧٠ .

٢٨ ــ « ديمقراطية مريضة » العربى : ديسمبر ١٩٧٠ .

٢٩ ــ « لندن فى صيف ١٩٧١ » العربى سبتمبر ١٩٧١ .

٣٠ ــ « الزعامة والزعماء » العربى : أغسطس ١٩٧٢ .

٣١ ــ « حزبان ولكن » العربى : سبتمبر ١٩٧٢ .

٣٢ ــ « حقائق عشر عن تخلف الشرق » العربى : يناير ١٩٧٣ .

٣٣ ــ « من أين وإلى أين يارجال العرب » العربى : ابريل ١٩٧٣ .

٣٤ ــ « منطق الحوار ومنطق القوة » العربى : يوليو ١٩٧٣ .

٣٥ ــ « اختلاف الرأى فى سبيل الخير غير اختلاف الرأى عن خبث ومكر » العربى : مايو ١٩٧٤ .

٣٦ ــ « هيئة الأمم المتحدة تركت الكرة فى الميدان ، وجلست تشهد اللعب مع المشاهدين » العربى : أغسطس ١٩٧٤ .

٣٧ ــ « ميكافيلى السياسى الذى لعنه الساسة » العربى : فبراير ١٩٧٥ .

٣٨ ــ « الحرب والسلم بينهما فرق شعرة ، هى الموت والحياة لآلاف من البشر » العربى : ابريل ١٩٧٥ .

٣٩ ــ « لا صلح بين الزعماء اذا لم يتبعه صلح بين الشعوب وصلح الشعوب اعصى » العربى : يونيو ١٩٧٥ .

٤٠ ــ « قالوا المصلحة أولا ، وقالوا أما العواطف من تراحم وود ، ومن صداقات وحب فأشياء عفى عليها الزمان ، وبئس ما قالوا » ، العربى : نوفمبر ١٩٧٥ .

٤١ ــ « أمنية » العربى : فبراير ١٩٧٦ .

البــــاب الثانى

الحرية فى تفكير احمد زكى

يطلبون الحرية والأصل فى الحياة القيود

كان احمد زكى رحمه الله يولى قضية الحرية ومعناها النظرى والتطبيقى أهمية خاصة ، وكان يركــز على حـــرية الرأى ، متى تباح ؟ ، ومتى تحظر ؟ ، ولماذا ؟ وكان يحلل علاقة حرية الفكر بحرية لقمة العيش ، ويفيض فى تحليل هذه العلاقة ، وكان يتحدث عن دور الحرية فى العلاقات الدولية ، فيضع المفاهيم العلمية والواقعية من اذهان الناس موضعها الصحيح ، وكان يتناول بالشرح والتحليل حريات الانسان فى العصر الحديث والتطور التاريخى لتحقيقها على النحو الذى أتت به الثورات مستخلصا بهذا العبرة فى بناء كيان الدولة الحديثة •

وعن هذه الامور الخمسة التى تتعلق بمعنى الحرية ، وبحرية الرأى ، وعلاقة حرية الفكر بلقمة العيش ، ودور الحرية فى العلاقات الدولية ، وتاريخ حريات الانسان سيكون هذا الباب من هذا الكتاب •

١

منذ الاربعينات يؤمن احمد زكى ايمانا راسخا بأن الانسان اذا ولد بدأت مع مولده القيود ، قيود البيئة درى بها أو لم يدر •

وفى مقاله «سلاسل وأغلال» (الهلال ٤٨/١٢) يستنكر الدكتور احمد زكى قول القائلين « ان الناس يولدون احرارا ، وان الشقى يجنى على نفسه الشقاء حرا طليقا ، وأن السعيد يكسب لنفسه السعادة حرا طليقا» ، ولكنه يرى رأى روسو فيلسوف فرنسا الشهير ان الرجل يولد حرا فاذا مشى فى الأرض أثقلته الاغلال : « ودرت أمشى فى الارض ابحث عن اغلالها ، فوجدت فى كل طريق قيدا ، ان الرجل منا حر له ان يأكل أو لايأكل ، ولكن هذا لايتأتى الا أن يكون طعام · وهو حر له أن يشرب على أن يكون شراب ، وهو حر أن يزرع ليأكل ، على أن تكون أرضه ، وهو حر أن يعمل ويكتسب قوت يومه ، على ان يكون عمل ، وهو حر أن يتعلم ، على ان تكون فى جيبه نفقة ذلك » ·

واختصارا سنخلص الى النتيجة التى خلص اليها احمد زكى فى مقاله « بين الحرية والكسب » حديث الشهر ، العربى ، يوليو ١٩٧٢ حين يقول : « أن الذين قالوا : ان الناس ولدتهم امهاتهم احرارا ، انما عنوا أنهم ولدوا متأهلين للحرية ، يكتســـبونها ، أول مايكتسبون بالكسب » ·

وبين الرأيين ســـنسرد رءوس أفكار احمد زكى فى مفهوم الحرية ومعناها ، ملخصين ماأفاض فيه احمد زكى الحديث فى عدد من المقالات والاحاديث وبخاصة مقاله « يطلبون الحريات والاصل فى الحياة القيود » حديث الشهر ، العربى ، ابريل ١٩٧١ :

١ ـ فالاصل فى الحياة القيود · وهذا يجب ان يكون واضحا فى اذهان الذين يطلبون الحرية ·

٢ ـ والانسان مقيد قبل ان يولد (لاحظ ان القيد هنا امتد الى ماقبل الميلاد ، ماعلاقة ذلك بتطور تفكير احمد زكى فى هذه

المسألة ؟) وبعد أن يولد والى أن يموت ويضيق بالقيد ، فيطلب الحرية مع القيد ٠

٣ ـ وما التقـــاليد الا قيود تعين النـــاس على حمل اثقال الحياة ٠

٤ ـ والانسان مجبور مختار ، كالسجين فى رجليه القيد ، وفى رجليه مع القيد الحركة المحدودة ٠

٥ ـ الجاذبية أول القيود التى تمنع الحرية ٠

٦ ـ واللغة بعدها قيد ، فالانسان اذا عرف لغته هذه فانمـــا انتمى ، وقد كان قبل اللغة انسانا مطلقا ، فصار انسانا عربيا أو هنديا أو روسيا ٠٠٠ صار صنفا من الناس والتصنيف قيد ٠

٧ ـ والاسرة بتعليمها اللغة للطفل انما تبدأ بتشكيل شخصيته والتشكيل قيود ٠

٨ ـ والتقاليد قيود لانك لاتستطيع ان تخرج عليها ، ولســت حرا فى أن تسلك فيها اى مسلك تشاء ، هى راحة وهى قيد فى آن واحد ٠٠

٩ ـ حل مشكلة الجبر والاختيار : ان الجبر يكون بالدخول غصبا فى زنزانة الحياة ولكن فى الزنزانات حركة تجـــريها ارادة حرة ، فهذا مانريده عندما نقول ان الحياة اختيار ٠

١٠ ـ النظام لايكون الا بقواعد ترسم وقوانين ٠ وكل قاعدة قيد وكل قانون كذلك ٠

١١ ـ وان تكن القيود طبعا ، فالتحرر من القيد كذلك طبع فى الانسان فهما طبعان يتزاحمان ، كما يتزاحم الحلم والغضب والحب والكره والشجاعة والجبن فى قلوب الانسان ٠

١٢ ـ ومن الناس من يطلب التحرر من الحكومات جميعـــا وتلك هى الفوضى ، ولهــا مذهب معروف ويعرف اصــحابه بالفوضويين ولسنا منهم ٠

وفى الشهر التالى (مايو ١٩٧١) يحدثنا الدكتور زكى ، فى حديث الشهر ، مجلة العربى ، فى ذات الموضوع ، ويجعل عنوانه « ماوجدت الحكومات الا لتحمى الحــريات » ، وهو هنا يحلل التعارض من الظاهر عند الناس بين الحريات المطلقة ، والحريات عندما تقيدها الحكومات ، ويتحدث عالمنا عن النوازع الانسانية ، وضرورات الحياة ، وطبيعة مناشطها ، ورغبات الناس، وأهدافهم المتعارضة ، يقدم بذلك كله للقول بحاجة الناس الى حكومات لتحمى الحريات ، وحاجة الحكومات الى قانون ينظم لها هذا الدور ، أو بوجوب وجود القانون ، ووجود قوامين على هذا القانون ، وفى الفقرة الثانية ذات المعنى ســالكا مســـلك القانون فالحكومات ، ولا بأس عليك ولا على المعنى ٠

« ان الذى دعا الى وجود شرطة أو حكومة ، انما هو حاجة المجتمع الى تنظيم وهو تنظيم يفرض على الناس الفروض فهو بذلك يزيد فى القيود ٠ ولكنها قيود تقيد سلوك الفرد حتى لايعتدى على حرية الغير ٠ انى لو اطلقت لنفسى حريتى ، وكنت انا القوى وأنت الضعيف لمددت سلطانى فى هذه الارض حتى لايكون لك رقعة تعيش فيها ، فالقانون يتدخل ليحد من حريتى ، لاشك فى هذا ، أو بعبارة أخرى هو يقيدنى ٠ ولكن فى حدود نصيبى من الحرية ٠ حتى يحفظ لك أنت الضعيف نصيبك منها » ٠

« اذن وجب ان يكون قانون ـ وأن يكون لكل مسـلك من مسالك العيش قانون • ووجب أن يكون على القوانين قوامون ، فتلك هى الحكومات من شرطة وادارات • ونجمع كل هذه المسالك وكل هذه القوانين والقوامين عليها وأشـتاتا أخرى من مرافق الحياة فى المجتمع ورجالا ذوى مناصب صغيرة وكبيرة عديدة ، فذلك هو الكيان الضخم الذى نسميه بالدولة » •

ويستطرد الدكتور أحمد زكى استطرادا مطلوبا ، يحدد فيه ضرورة الشرطة ، ضرورة القوة لقيام الحكومات•

« ولكن الحكومة صاحبة القانون لاتقوم بغير قوة • ولهذا كان لابد لها من قوة شرطة ، وقوة جيش والجيش اصلا ليحمى الحدود ولكنه كذلك ليدعم الشرطة اذا عجزت عن حماية القانون والقائمين على حماية القانون • وتسأل ممن يحمون القانون ؟ ونجيب : من تلك الطوائف من الشعب التى لاترضى من الحرية الا بالقسـمة الجائرة ، الكثير لهم ، والقليل لغيرهم والذين يعبر عنهم المتنبى بقوله :

« والظـلم من شـيم النفـوس
فان تجد ذاعفـة فلعله لا يظلم »

ويعالج الدكتور احمد زكى مسألة التوازن بين حرية الفرد وأمن الجماعة بشىء كبير من تأييد الموازنة بينهما ، فان يكن من تفضيل فلأمن الجماعة ، ولكن فى حدود ، هذا هو لب رأى احمد زكى فى المسألة ، وعبارته فى مقالة (اغسطس ١٩٦٩) تقول : « فالانسان فى الجماعة لابد أن يأخذ لأنانيته وأن يعطى منها واذن وجب ان يكون لهذا الاخذ والعطاء تنظيم ، يدرك منه الآخذ والمعطى من قبل اخذ وعطاء ، ما ياخذ وما يعطى ، وكم ياخذ وكم يعطى » •

ويحظى موضوع الشرطة من الدكتور / احمد زكى باهتمام خاص ، فيخصص له مقالا تحت عنوان « **رجال الشرطة بين حرية الفرد وسلطة الجماعة** » (العربى : ١٩٧١/٨) ، والشطر الاكبر من « الافتتاحية الاخيرة العربى ١٩٥٨/١٢ ، ونراه يكتب فيعلل طبيعة العاطفة السائدة بين الجسور والشرطة عاطفة قلة المحبة والود ، فيرجع ذلك الى أن « الشرطة كابحة والحرية ترفض الكبح» ويمضى فى تفصيل ذلك فيقول : « **وحتى لو رجع الانسان الى حقيقة عمل الشرطى ، وادرك انه يحمى المنزل من السرقة ، ويحمى النساء من الاعتداء ، ويمنع الحى من اضطراب يقوم فيه ، لكانت حصيلة هذا التفكير احتراما يكتسبه رجل الشرطة بين مواطنيه ، ولكنه قلما يبلغ فى المحبة ، لاسيما عند العامة ، الدرجة الواجبة ، وهو قد يبلغ هذه الدرجة عند الفلاسفة ويبلغها اصطناعا بحكم الفكر لابحكم العاطفة المرسلة** » .

وعلى لسان احد محدثيه يكتب الدكتور زكى فى آخر مقالاته منبها الى أهمية « الأمن » فى المجتمعات ، والدور الذى لابد للشرطة من القيام به فيقول : « **ان هذه المدنية الحاضرة ، بل أى مدنية** أثمن ما فيها الأمن بين الناس ، الأمن من غوائل الأقوياء والقوانين التى تخطط لذلك لاقيمة لها الا أن يقوم الى جانبها شرطة **تهابها الناس ، وقضاء له النزاهة ، وله من الناس الاحترام ومع الاحترام الخضوع** » . على لسان صالح بن عبد القدوس .

ويمضى فيقول : « ان الجرائم الانسانية تكاد ترد جميعا الى الاعتداء بالقوة ، والشرطة هى مانعة الاعتداء فى الامم ، والقضاء من ورائها يؤكد عدل الشرطة بين الناس ، وفساد الدول يبدأ عادة بفساد شرطتها وذهاب حيدة القضاء ، والحاكم الفرد المستبد يطلب من أول وسائل حكمه السيطرة على الشرطة والقضاء » .

واذ يدرك الدكتور زكى هذه الاهمية المتزايدة للشرطة فانه ينادى بضرورة تهيئتها لقيامها بهذا الواجب ، ويتفرع الدكتور زكى ـ ونتفرع معه ـ من مناقشة الجانب النظرى فى مسألة الشرطة على المستوى الانسانى لننقل عنه فقراته التى يدعو فيها الى الاهتمام بتثقيف الشرطة ، وبترقية الشرطة : « **ان الشرطة أداة للتنفيذ ، وهى أوامر مجملة ، يظهر اجمالها عند التطبيق فى المواقف الحاسمة مهما احتوت تلك الاوامر من تفصيل وتفصيل ، فكثيرا ماتتكشف المواقف عن تفاصيل لم يتنبه لها عند الصياغة حتى صائغوها · ويكون المعول بعد ذلك على رجال الشرطة أنفسهم يترجمون ما غمض هدفا ويقدرون · وهنا لابد لرجال الشرطة من ثقافة كافية · لايكفى أن نأتى بالرجل من الحقل أو من الصحراء لنصنع منه رجل شرطة فى يوم وليلة** » ·

« **والشرطى هو وجه الدولة الذى يراه الناس فان كان مؤدبا فالدولة مؤدبة وان كان شرسا فالدولة شرسة ، وان كان هوانا فالدولة هوانة ، لاسيما فى عين الغرباء** » ·

« **والشرطى ان كان حسن الهندام · فالدولة حسن هندامها وان كان مبتذل الثياب فالدولة على شاكلته · لهذا فان كان السخاء يطيب فى شىء فهو أطيب مايطيب عند البذل للشرطى واعطائه الراتب الجدير بمظهر الدولة** » ·

ويردف الدكتور زكى بالحديث عن الشرطة الراقية فى البلاد الراقية فيقول :

« يحترمونهم لأن فيهم ثقافة كثقافتهم ، ولابد بهم وطنية كوطنيتهم ، **وان رجل البوليس يجلس الى رجل الشعب ويتحدث اليه ، فلا يدرك انه انما يتحدث مع مخلوق لايعرفه جاء من جزيرة**

سومطرة ، ذلك ان التعليم واحـد والفكـر واحد ومراتب العيش ومشاكله بينهم جميعا متقاربة » ٠

« ان رجل الشرطة فى انجلترا ليس حصيلة نفسه وحده ، وثقافته وحدها ، أنه حصيلة بلده ، وهو حصيلة تاريخ » ٠

على أنه مراعاة للنسب التى جعلناها للافكار فى كتابنا ، لابد لنا من الخروج من الحديث عن الشرطة ، أداة لتنظيم الحرية ، الى البند التالى ، ومراعاة لنسب أخرى فلابد أن يكون مخرجنا مخرج صدق يصدق فى تعبيره عن جوهر الرأى فى المسألة لهذا نضع أمام القارىء فقرتين من أحمد زكى : « حـــرية الفرد وأمن الجماعة موازنة صعبة ٠ وحرية الفرد اذا اطلق لها الضمان ذهبت بأمن الجماعة ، وأمن الجماعة اذا بولغ فيه ، ذهب بحرية الفرد ، ورجل البوليس عليه حراسة الممتلكات من السرقات ، وعليه ان يســـود السلام فى الطرقات فلا يكون فيها الهرج والمرج ، وعليه تدبير المرور لسلامة المارة ٠٠ » ٠

والفقـرة الثانيـــة قوله « ففى الدفاع عن الحـــريات ترجى الحكومات ، والحكومة تحمى الشعب ،وتحمى حرياته فى الحياة ، والشعب يحمى الحكومة بجيش منها حتى لا تأخذ بها فتنزل بها عن منصة الحكم يد فحل من فحول بنى الناس طامع جبار » ٠

ولهذا يعلل لنا الدكتور أحمد زكى السر وراء العلاقة الغريبة التى يجدها بين الحكم ورجال الشرطة فى دول الدكتاتوريات فيقول : « والمستبد لا يجد من الشرطة التى تعودت النظام والحكم الديمقراطى العـــون الكافى ، ولا الغلظة المطلوبة ، لهذا هو يلجأ دائما الى استحداث شرطة له خاصة ، تقوم بأغراضه الخاصة ، وتعرف عادة بالمخابرات ، وما من بلد الا وبه مخابرات ، ولكنها مخابرات تكشف

عن خطط تتصل بنظام الحكم يخطط لها اعداء الدولة ، فهى ليست مخابرات تستخبر أمور الشعب ، وقد يستفحل أمر المخابرات لتكون نقمة آخر الأمر على منشئها المستبد » ٠

٢

ننتقل بعد ذلك الى البند الثانى من هذا الباب ، وهو حرية الرأى متى تباح ؟ ومتى تحظر ؟ فالدكتور احمد زكى يؤمن ايمانا يقينيا بأنه لابد أن يكون مع الحرية احساس بالتبعة أولا ، وهو ثانيا يفرق بين حرية الفكر فى سلام ، وحرية الفكر فى حالة الحرب، وهو ثالثا يقيد حرية الرأى لا بالحالة الحربية فحسب ولكن بحال الجماهير من حيث النضج ٠ واليك تفصيل القول فى هذه النقاط ففيها يتعلق بالحرية والتبعة ، فيقول الدكتور احمد زكى فى حديث الشهر ، العربى ، مايو ١٩٧٣ :

« لابد أن يكون مع الحرية احساس بالتبعة »

« ليس لأحد باسم الحرية أن يدعو الى الاجرام ، أو الفوضى واذا هو سئل فى ذلك يقول : دعونى فأنا حر ٠ أنه حر فى نفسه ٠ يفعل بها وهو فى حجرة ذات حوائط اربع ما يشاء ، اما اذا هو خرج الى الناس ، الى المجتمع فقد اختلفت بالنسبة له معانى الحريات ، ومعانى الحقوق » ٠

« ونقول اختلفت ، ولا نقول امتنعت ، فالمجتمع شىء مشاع ٠ هو ملك للجميع »٠

«« ووجه الاختلاف الواحد ، عندما يخرج من حرية الحجرة الى حرية الطريقهو أن الحرية عندئذ يجب أن يصحبها شىء ، هو

التبعة . فالدعوة الى الاجرام لاتبعة فيها ، والدعوة الى الفوضى لاتبعة فيها » .

« **واذا جاز أن نتجاوز فى السلم عن النظر فى أمر التبعة ، فان هذا لا يجوز والحرب قائمة ، والحرب حرب مصير ، فالتبعة تسبق الحرية وتعلو » ونحن فى ذلك انما نفعل ما فعلته الأمم الديمقراطية من قبلنا « وضرب مثلا بما حدث للفيلسوف البريطانى برتراند رسل فى أثناء الحرب العالمية الثانية من قبل السلطات البريطانية » .**

ومكذا يجعل الدكتور أحمد زكى من أمر التبعة مدخـــلا الى التفريق بين حرية الفكر فى السلم وحرية الفكر والحرب على الابواب، لاحظ تقديره لخطورة الحرب فهو لا يقابل بجمل متوازنة ويقـــول حرية الفكر فى السلم وحرية الفكر فى الحرب وانما يتنازل عامدا عن هذا التوازن البلاغى ليعبر عن المعنى الخطير !

« اما والحرب قائمة ، فحرية القول ، وحرية النقاش ، لابد أن تتأثر بكل موضوع يثار ويتصل بالحرب ، من قريب او بعيد ، ولكن لابد من أن نطلق النقاش ، ونطلق حرية الكلمة فيما لايتصل بحرب والا خيم الظلام ، وفى الليالى اذا اتصل اظلامها ستر لكثير من صنوف الاجرام ؟ من سرقة اعراض ، وأموال ، وضياع أمن ، واهدار ارواح » .

« ويعود احمد زكى ليبلور اوجه الاختلاف بين الحالين وليؤصل طبيعة هذا الخلاف فيقول : « فى السلم الحريات تطلق فى صدور عامة الشعوب ، ووعيها ويقظتها أولا ، ومن بعدها القانون. اما الحرب فالمسألة حلها فى أمرين : أن تحدد الحكومات بأقصى ماتحدد من حريات لاسيما فيما لايمس الحرب وجهودها فى سبيل دفع غائلة الاعداء ء وأن يتولى الكتاب اقصى مايكون لديهم من

حذر ، مع احساس عميق بالتبعة ، فلا يتخذ الكاتب منهم موضوعا ظاهرة تتصل بحرية فى القول معترف بهـــا ٠ ولكن بباطنه هدف آخر ٠ كاثارة الجمهور لحاجة خاصة فى نفسه » ٠

وننتقل الى الجانب التطبيقى من الموضوع فيما يتعلق بالقضية العربية ، وأرجو ان يلاحظ القارىء ان المقال نشر فى مايو ١٩٧٣ (أى أن أحمد زكى كتبه قبل المعركة الفاصـــلة فى اكتوبر ١٩٧٣ بحوالى ستة اشهر والتمزق العربى قد بلغ مداه فى نفوس الصحفيين والاعلاميين ، وكان أحمد زكى كما سنفصل القول فى موضع آخر مستاء أشد الاستياء من هذا التمزق الذى اصاب هذه النفوس ففعل بها مافعل فتراه هنا يتكلم من واقع الحرية المســـئولة ويقول : « وانى لأقرأ اليوم فى صحف بعض الدول العربية ، الموسوم النشر فيها بالحرية ، اقوالا كثيرة لاتبعة فيها ٠ فكاتب يكتب باسم الحرية عن جهل ٠ وكاتب يكتب باسم الحرية عن حقد ٠ وكاتب يكتب باسم الحرية عن عنصرية غير خافية ، وأخرى عارية ٠ وكاتب ٠٠٠ عن اقليمية جارفة ٠٠ وكاتب يكتب باسم الحرية وأكاد اســتشف فى أسطره دوافع صهيونية ويمنعنى من الجزم ان حروف المقال حروف عربية ٠ وكاتب يكتب باســـم الحرية وهو انما يهـدف الى خنق الحرية » ٠٠٠٠٠٠٠٠

ويعدد الدكتور أحمد زكى صنوفا من هؤلاء ٠٠ ثم يقول قولة مدام رولان الفرنسية المشهورة « أيتها الحرية كم باســـمك تقترف الآثام » !

على انى أحب ان انبه الى نقطة جديرة بالتنبيه وهى أن هذه الآراء لأحمد زكى فى مسالة الحرية ، والحرية المسئولة ، والحرية بين الحرب والسلم لم تكن وليدة هذه الظروف الصعبة التى عاشتها

أمتنا فى هذه الرحلة بين الحربين (٦٧ ــ ٧٣) وانما كانت أصيلة فى نفس الرجل الذى تحدث من قبل بافاضة فى هذا الموضوع فى اكثر من موضع كمقال : **ومقاله « مؤتمر القمة العربى الاول »** ، العربى ٣/١٩٦٤ ، وهو المقال الذى قال فيه بصراحة « ان الرأى يجب أن لا يترك طليقا لاسيما فى جماهير لم تبلغ بعد حد الكفاية من وعى ان الرأى الحر ليس من حقه الهدم والتخريب » وهذا هو جوهر النقطة الثالثة من البند الثانى فى هذا الباب ·

« **ان لك من الحرية بمقدار ما فى جيبك من مال » هكذا يقرر** الدكتور أحمد زكى فى مقاله « **بين الحرية والكسب** » ، حديث الشهر العربى ، يوليو ١٩٧٢ ، وهو يردف العنوان الرئيسى بقوله : سألوه كم لك من الحرية فى هذا العيش ؟ فأجاب : أكسب فى الشهر عشرين دينارا » ، وحديث الدكتور أحمد زكى فى هذه النقطة ممتع الى حد كبير ، ولا أظننى أوفيه حقه أو أوفيك حقك من الامتاع اذا نقلته لك هنا سببا ونتيجة على نحو مباشر ، انما تتأتى لك المتعة به اذا قرأته جملة ، فى موضعه ، فالأمر فى نظرية أحمد زكى ظاهر الصواب، غير انى أثبت هنا ما قاله الرجل استطرادا الى موضوع حرية المرأة وعلاقتها بكسبها حيث يقول : « لا ضمان الى اليوم لحرية المرأة الا بأن تكسب هى حريتها بالعمل المناسب لأنوثتها ، فاذا سئلت كم لها من حرية قالت : أكسب عشـــرين دينارا أو مائة ، وفى هذا بلاغ » ·

« من أجل هذا كانت حظوظ النساء من الحرية فى القرون القلة دون حظوظ الرجال ، وحتى اليوم فحظ الكاسب ليس كحظ المشارك فى كسب » ·

« **ولابد هنا من الاشارة الى رأى لأحمد زكى قد لا يكون** فى ظاهره متصلا كل الاتصال بهذه النقطة من معانى الحرية ، ولكن

ليس الا صدى او أرهاصا لهذه الآراء ٠ فأحمد زكى حين يناقش قضية فقر الفقير وشقاء الشقى لا يحملهما تبعة ما هم فيه من فقر أو شقاء ، وانما يحمل هذا للمجتمع ، فالمسألة ليست فى حريتهم فى بقائهم على ما هم عليه ، لأن هذا ليس بيدهم ، ولا هو مسئوليتهم واقرأ معى لأحمد زكى فى مقاله « سلاسل وأغلال » ، الهلال ، ديسمبر ١٩٤٨ ، والذى نشره مرة فى كتابه « ساعات السحر » حيث يقول فى وضوح وصراحة :

« يخيل الى أن المسألة ليست رضا الفقير بما هو فيه ، ولكن رضانا نحن أنا وأنت ، بالذى هو فيه ، أنا لا أكلف الفقير شططا فأطلب اليه أن يدرك ولا أكلف الجاهل شططا ، فاطلب اليه أن يفهم ولا أكلفه حتى أن يرضى أو لا يرضى ، ذلك انى اذا كلفته أن يرضى قام علمى يكذبنى وضميرى يؤنبنى ، وأنا اذا كلفته أن لا يرضى ، وهو غير قادر على أن يتحول ، فأنما أزيد طينته بلة ، أزيد حسه بالسوء ليزيد حسه سوءا ، أوقظه لما هو فيه ليتألم على اليقظة ، وأنت تريده ان يهنأ نفسا ، وهذا نوع من أنواع الرحمة الخفية الذى لا يدرك كنهه الا الفطناء ! »

ويزيد احمد زكى هذه الفكرة توضحيا وتعميقا فيقول « اقول ان المسألة ، ليست ان الفلاح ، واشباه الفلاح ، يرضون عن حالهم او لا يرضون ، ولكن المسألة أن نرضى نحن ، أنا وأنت ، عن حالهم او لا نرضى ، نحن لنا القدرة على الرضا ، أو غير الرضا ولنا الحق فى الرضا وغير الرضا ، وعندنا الاداة التى تؤهلنا لنرضى أو لا نرضى ، ولا احسبنى ولا أحسبك ترضى أن هذا الرجل الجاهل الفقير ، واسمح لى أن أقول ـ التعس ـ ولو مرة فى غير مناقضة لفكرتك ـ هذا الرجل ينعتونه بانه ابن جلدتك ، وهو كانفك منك وان كان اجدع ، فأنت اذن لا ترضى عن انجداع

انفك ، واذن فانت والله لا ترضى عن فقر رجلك وتعاسته ، هذا حسن جميل ، واذن لابد من تغيير ، والتغيير يجب ان يبدأ من أعلى ، **حيث أنت قاعد يا عزيزى • ان الماء الذى يسيل من المكان العالى يهبط فى سهولة ، ويسر فيكون فيه السقى والرى • وغير ذلك الماء الذى يتفجر من المكان الخفيض » •**

٤

« اما عن الحريات فى العلاقات الدولية فيتبلور لنا رأى أحمد زكى فى مقاله حرية الصحافة ، حديث الشهر ، العربى ، مارس ١٩٧٢ ، اذ يقول فى معرض الحديث عن الحريات قبل التمحيص بالحديث عن حرية الصحافة :

« ان الحريات فى هذه الدنيا التى نعرف ، كالبضائع ، تشترى بالمال ، وما أكثر ما تدفعه الأمم ثمنا لحرياتها • السلاح وحده ، كم ثمنه ، وهو سلاح أرض ، وسلاح ماء ، وسلاح هواء ، وكم ألوف مؤلفة من الناس تقوم فى صناعته ، وكم الوف مؤلفة من الناس هى اليوم قائمة فى الجيوش حاضرة لدفع غائلة ، الحرية اذن فى السلم ليست من طبيعة الاشياء ، حتى والحضارة حاضرة ، والثقافة بينة ، وذكاء بنى الناس غير منقوص ، الحرية لابد ان تشترى فى هذا العالم البشرى بالعرق الصبيب ، كالطعام والشراب سواء بسواء » •

وقبل هذا المثال بحوالى ربع قرن كتب أحمد زكى يتحدث فى شجن وأسى عن مصرع الحرية فى القرن العشرين بمقال حمل هذا العنوان فى الهلال ، يونيو ١٩٤٩ ، ومازال بمصرع الحرية يتحدث عنه حتى وصل الى القول بأن « الصراع القائم اليوم بين شرق الأرض وغربها ، ليس صراعا على الحرية ، فالكل مجمعون على

ضرورة وضعها وراء قضبان من حديد ، ولكن الخلاف على مصيرها من بعد ذلك ، فأهل اليسار يريدون ان يقتلوها بالسم قتلة عاجلة وأهل اليمين يريدون ان يقتلوها ولكن مصابرة ومطاولة » ·

وأدهى من ذلك يقرر أحمد زكى فى مقاله هذا أن الحرية ليست من قانون الوجود ، وأنها ما كانت ولا سوف تكون « **وانه لا وجود للحرية فى قانون الوجود الا بالقدر الذى يؤهلك لادراك ما أنت عليه من قيد ، كالشىء الحلو تعطاه لتتذوقه ليدلك على ما كنت فيه من طعوم مالحة » ·**

ولعل هذا يدفعنا الى التساؤل اذا كان هذا هو حقا جوهر الحق فى أمر الحرية فى قانون الوجود ، فأى ذنب جناه القرن العشرون على الحرية حتى يقول أحمد زكى بمصرع الحرية فيه ، أم أن المسألة أن أحمد زكى ذكر ذلك ليبرر ما حدث فى القرن العشرين ، وليقول أنه ليس بالشىء الجديد ، وبخاصة أنه استعرض أحوال الحرية فى مصر القديمة ، وروما ، والنصرانية ، ودول الاسلام استعراضا ممتعا لابد لك من أن ترجع اليه ، هذا بالاضافة الى أحوال الحرية فى الجامعة وبين الناس وفى الطبيعة ··· الخ » ·

ونعود مرة ثانية لنتأمل مع أحمد زكى تأثير المال على الحريات حتى فى السياسة الدولية ، ونقتطف هنا من مقاله « سلاسل وأغلال » ومن المثل الذى ضربه بقطة كانت لجارهم ، وكانت أقوى القطط ، فكانت تحظى من الطعام بأكثره لهذا السبب واقرأ لأحمد زكى :

« والمسألة ان المال يحمل معه دائما طابع السلطان ، ويحمل الغلبة ، ويحمل القوة وحيثما هبط تنفرج له الصفوف ، وتتخاذل دونه العزائم ، والمسألة فى ذلك مثل مسألة القطط تجتمع على الطعام ، فلا يكون الطعام الا من نصيب قطة لها جسم ملىء ورأس

ضخم ، واكتاف سمان ، وسواعد شداد ، ومخالب حداد ، ونفثة عن الشر مخيفة ، فهذه تدور تلم من النفايا الساقطة فى فمها هذه القطعة ثم هذه ثم هذه ، وسائر القطط واقفة ، واسعة العين ، تنظر ولا تجرؤ ، للذى بها من ضعف وهزال ، كل أملها أن تضل هذه القطة الكبرى عن قطعة فلا تراها » .

« هذه القطة فازت بالأنصبة جميعا أو بأكثرها ، لأنها أشبع ، ومن الشبع قوة ، وسائر القطط فازت بالنصيب القليل ، أو بلا نصيب لأنها أجوع ، ومن الجوع ضعف ، فى طبيعة الشبع سر زيادة الشبع ، وفى طبيعة الجوع سر زيادة الجوع .

ويعقب أحمد زكى على هذه الفكرة بسؤال تقريرى من نوع خاص فيقول :

« أفلا ترى معى أن هذه الصورة ، التى تجدها فى حديقتى ، هى صورة صادقة مما يجرى فى حدائق العيش بين الناس ؟

بقى الأمر الخامس من أمور الحرية فى تفكير أحمد زكى ، وهو نظرته الى التطور التاريخى للحريات فى القرون الثلاثة الاخيرة . وقد أفاض استاذنا الدكتور زكى الحديث فى هذا التطور فى أكثر من مقال ، ولكنه زاد الأمر تركيزا أو بلورة وافساحا للتفاصيل فى مقالات ثلاث متتالية :

– « يطلبون الحرية والأصل فى الحياة القيود » حديث الشهر العربى ٧١/٤

– « ما وجدت الحكومات الا لتحمى الحريات » حديث الشهر العربى ٧١/٥

– « حريات الانسان » حديث الشهر العربى ٧١/٦

(ومن الطريف أن تجيء هذه المقالات فى توقيتها مع ما أعلنته مصر فى ٥/٧١ من بدء عصر الحريات) ٠

على اننا سنجتزىء هنا فى هذا المقام بذكر ودرس أفكار احمد زكى فى هذا الموضوع وهى العبارات التى تحمل فى طياتها المعانى التى نود أن نشير الى وجودها فى فكر الرجل :

١ ــ « حريات الانسان : فاز القرن الثامن عشـــر بالحريات السياسية وفاز القرن التاسع عشر بالحريات الاجتماعية » ٠

٢ ــ « الثورة الفرنسية أيقظت أمم الأرض بما يجب أن تكون عليه كرامة الانسان » ٠

٣ ــ « الثورة الصناعية كانت ثورة حضارية اجتماعية سياسية فى آن » ٠

٤ ــ « الحرية اذا زادت على حدها انقلبت الى ضدها ، وهكذا فعل انطلاق رأس المال فى العمال »

٥ ــ « ان اليوم له وجهان وجه أبيض مشرق اسميناه بالنهار ووجه آخر مظلم أسميناه بالليل ٠

وكذا الثورة الصناعية كانت وجها من وجوه الانسانية المتوثبة الطامحة مشرقا ٠ ولكن الى جانب وجه أسود مظلم يتمثل فيما عاناه العمال فى هذه الفترة من بؤس وشقاء » ٠

٦ ــ ان رفع الحكومات يدها عن البرلمانات كان أول الخطوات لاستقرار الحكم فى البلاد ، وهنا يجب ان نلخص رأى احمد زكى فى هذا الموضوع على أكثر درجات الاختصار ، فان الفيلسوف الانجليزى هبز «Thomas Hebbes» (١٥٨٨ ــ ١٦٧٩) أخاف الحكومة كل الخوف ، فقـــام الفيلســـوف الانجليزى لك «John Locke»

(١٦٣٢ ـ ١٧٠٤) ففصل الحكومة عن البرلمان ، وجاء الفيلسوف السياسى منتسكيو «Montesquieu» (١٦٦٩ ـ ١٧٥٥) فاستقل بالقضاء ، ووضعت (١٧٠١) فى انجلترا وثيقة القضاء الشهيرة «Act of settement» ، وبذا تم فى الدولة الديمقراطية فصل السلطات ·

وليس من شأنى هنا أن أحلل للقارىء نظرة أحمد زكى فى هذا الشأن وموقعها من الصواب والآراء الأخرى ، وليس هذا عجزا ولا تواضعا ولا اختصارا وانما هو مراعاة للمقام وبخاصة ونحن نتكلم عن الحرية المسئولة ·

ولكن من شأنى ان أختم هذا الفصل بعبارات لأحمد زكى فى شأن الحرية أبلغ ما فيها هو هى نفسها : « نشأنا جميعا ونشأ العالم على تمجيد الحرية ، ولكن الحرية كالسيف ، تحمله فى يمناك ، فتعلم حين تقطع به أين تقطع ، وكذلك تحمله فى يسراك فتضرب به فقد يصيب رقبة ابنك » ·

« وهكذا فعلت الحرية فى طليعة الثورة الصـــناعية ، ومعنى استعمال كلمة «Laisser Faire» ومعناها دعوا الأمور وحدها تجرى فى أعنتها ، أو اتركوا الصناعة وحبلها على غاربها تجرى ما شاء لها الجرى والى أى ناحية تجرى ·· صار لأصحاب المصانع أن ينظموا مصانعهم على هواهم ··

كان من الطبيعى ان رجلا مثل كارل ماركس (١٨١٨ ـ ١٨٨٣)

ما كان ليولد فيعلن اعلانه الشيوعى «Manifesto Communinst» (١٨٤٧) ولا ليكتب كتابه «رأس المال» الا فى قرن مثل هذا القرن التاسع عشـــر ، وفى أحوال ما كانت لتتمخض الا عن مثله ومثل مذهبه » ·

المصـــــادر :

١ ـ « سلاسل وأغلال » الهلال : ديسمبر ١٩٤٨ ·

(الفصل الحادى عشر من ساعات السحر)

٢ ـ « مصرع الحرية فى القرن العشرين » الهلال : يونيو ١٩٤٩ ·

٣ ـ « أيتها الحرية كم بأسمك تقترف الآثام » الهلال : سبتمبر ١٩٥٠ ·

٤ ـ « المدرسة والحرية والحياة » الهلال : اكتوبر ١٩٥٥ ·

٥ ـ « لابد للناس فى حياتهم من قواعد ومبادىء » العربى : يناير ١٩٦٣ ·

٦ ـ « مؤتمر القمة العربى الاول » العربى : مارس ١٩٦٤ ·

٧ ـ « الحرية فى ظل العادات وفى ظل القانون » العربى : أغسطس ١٩٦٩ ·

٨ ـ « يطلبون الحرية والأصل فى الحياة القيود » العربى ابريل ١٩٧١ ·

٩ ـ « ماوجدت الحكومات الا لتحمى الحريات » العربى : مايو ١٩٧١ ·

١٠ ـ « حريات الانسان » العربى : يونيو ١٩٧١ ·

١١ ـ « رجال الشـــرطة بين حرية الفرد وســـلامة الجماعة » العربى أغسطس ١٩٧١ ·

١٢ ـ « حرية الصحافة » العربى : مارس ١٩٧٢ ·

١٣ ـ « بين الحرية والكسب » العربى : يوليو ١٩٧٢ ·

١٤ ـ « حرية الفكر فى سلام وفى حرب » العربى : مايو ١٩٧٣ ·

١٥ ـ « قانون الطبيعة غذى حركات التحرير فى كل القرون » العربى : اكتوبر ١٩٧٣ ·

١٦ ـ « الافتتاحية الاخيرة » العربى : ديسمبر ١٩٧٥ ·

البـــاب الثالث

نظـرات فلســفية

العقل والايمان : عينان بهما يبصر الانسان سبل الحياة ويهتدى ٠

أحمد زكى

هذا هو الباب الثالث من الجزء الذى يتناول فلسفة الدكتور أحمد زكى واذن فليس من المتقبل أن يختص وحده بالعنوان الذى يشير الى أن يتناول الفكر الفلسفى ، أو التفكير الفلسفى عند أحمد زكى ٠

وقد ادرك المؤلف هذا بلاشك ، ولاشك ادركه القارىء عندما وجد العنوان على النحو الذى هو عليه من جمع التنكير ٠

وأصل المسألة أن هناك مسائل ما ، تدرج فى تصنيف المعرفة تحت عنوان الفلســـــفة ، رغم أن كل نظـــراتنا الى كل أوجـــه الحياة هى نوع من الفلسفة ، ولكن هناك قضايا هى فلسفة الموضوع والنظرة ٠ أو هكذا اعتاد المفكرون والمصنفون والمؤلفون أن يضعوها كمسألة القضاء والقدر ، والجبر والاختيار ، والمادية والروحية ، وما وراء الطبيعـــة ، والحقيقـــة وأمـــور المنطق ، والعقـــل والعاطفة ٠٠٠ الخ ٠

أما هذا الباب فيتناول من كل هذه الأمور أمرين اثنين فحسب، رأى المؤلف أن دراسة فلسفة الدكتور زكى لهما يعطينا فكرة لابأس

بها عن نظراته الفلسفية ولا أقول عن تفكيره الفلسفى أو عن فلسفته فذلك من شأن الجزء الثانى كله بأبوابه الثلاثة عشر ·

١ ـ الحقيقة

أول هذه الأمور هى « الحقيقة » ، وعلى الأخص سبل الوصول اليها ·· فعلى حين كان الدكتور زكى يقدر قيمة العقل والفكر والمنطق والعلم فى الوصول الى الحقيقة ، وعلى حين أن عباراته فى هذا واضحة فى كثير جدا من المواضع الا أننا سنركز معه على الجانب الآخر من القضية ، وهو الجانب الذى يطرح لنا سؤالا يقول : متى لا تكون كل هذه الوسائل العلمية والمنطقية هى السبيل الأمثل الى غاية الانسان من استجلاء الحقيقة أو استهداف الصواب أو طلب الحق ·· الخ) ·

هنا نقرأ لا ستاذنا الدكتور زكى مقالا قيما فى (الهلال · ١٩٤٨/٩) تحت عنوان « الكرة التى تحمل فوق عنقك » ، وهو فصل من فصول كتابه (ساعات السحر) ويحدثنا استاذنا فى مقاله عن زيغ الرأس التى كنى عنها فى العنوان بالكرة التى تحمل فوق عنقك حديثا طويلا ثم يخلص الى النتيجة فيقول : « أو لست أحسب أنى أريد من أحد ان يقلع عن زيغه ، فزيغ العقول صفة لها أصيلة لا يمكن أن يكون عنها اقلاع ، ان الزيغ من بنية العقل ، من تشكله ، ومن تصميمه ، ككرة الحشيش اذا دحرجت عليه ، بها ما بها من ثقل ، أو بها ما بها من تحدب جانب دون جانب لم يكن لها اختيار الا أن تميل ·

والحل : « ولكنى أود لو يفعل الناس برءوسهم فعل مدحرج الكرة بكرته ، انه يقدر ما فيها من زيغ ، ويحسب ما فيها من عوج، ثم هو يطلقها طلقة تتراءى عوجاء ، ولكنها تصيب الهدف تماما كما

تصيبه الكرة الأخرى التى ليس فيها ثقل ولا زيغ اذا اطلقت مستقيمة غير ذات اعوجاج » ٠

هكذا يضـــع الدكتور أحمد زكى تصوره لحل المسألة ، لأنه يؤمن بأن زيغ العقول صفة فيها لابد لها منها ، ولهذا هو يريدك أن تفكر بها مع تقديرك لزيفها حتى لا يذهب بك الأمر الى أن تكون من الذين يفكرون لاوفق ما يجب ان يكون ، ولكن وفق ما يحبون أن يكون ، فيبلغون النتيجة التى يريدون دون تفكير ثم هم بعد ذلك يعملون المنطق ليأتوا لها بما يبررها ٠

على نفس الخط من الرؤية يأتى تقدير أحمد زكى للخيال ، وهو بالطبع تقــدير شـــروط ، واقرأ له معى فى هذا المعنى من مقالة « حشاشون بلا حشيش » الذى نشره فصلا فى ساعات السحر قوله :
« ان أثمن ما فى الرجل منا الفكر ، ومن أثمن ما فى الفكر الخيال ، والخيال جعل ليجمع به المرء من الاشياء اجزاءها ، ومن الحوادث أطرافها وليصور به لنفسه كيف تصلح الأمور وهو خيال يتصـــل بالواقع ، ويتصل بالمنطق ويعتمد على الممكنات ، وهو أداة المخترع حين يخترع ، والعالم حين يبتدع ، والشاعر حين يقصد القصيد ، والفيلســـوف حين يقنن الأمور ٠٠ ولكن غير ذلك الخيال الذى تثيره حشـــيشة الليل ، وغير ذلك الخيال الذى تثيره حشـــيشة النهار » ٠

على صعيد آخر يذهب الدكتور أحمد زكى فى تاكيد انتفاء العقل المطلق ، نفس المعنى الذى مســـه من قبل ، وفى يونيو ٦٧ يكتب الدكتور أحمد زكى فى العربى ليقول ان « العقل المطلق لا وجود له فى الناس ، ان العقل منطق ومنطقه البادء مستمد من حياة صاحبه ومن عـــاداته ، والعـــادات مســـتمدة من جغرافية المكان وتاريخ

الزمان على السـواء واختلف الزمان ، واختلف المكان فاختلفت العقول وتفاوتت » .

وفى عبارة أخرى « من المشكوك فيه أن ميزان العقل من الدقة ثابت الدلالة بين أيامه القريبة وأماسيه البعيدة ، ومن المشكوك فيه ان يزن الخير دائما فيجد أنه الخير ، ويزن الشر دائما فيجد انه الشر ، وقد يدخل الشك الى سجية هذا الميزان ، فيصبح يزن الشر الثقيل فلا يثقل به كثيرا أو لعله يزن فيجعل الخير مكان الشر والشر مكان الخير » .

ويضرب الدكتور الأمثال على صحة رأيه بموقف البشـرية وعقلها ، فى قضايا الرق والقتل ، والعفة ، والعمل ، وحتى الشوارب واللحى .. ثم لفت النظر الى الحقيقة الكبرى حين يقول : « لهذا جاءت أحكام السـماء تثبت أحـكام أهل الأرض وتنأى بها عن المزالق ».

وينتقل الدكتور أحمد زكى الى مسألة متقدمة فيقول ان العقل حتى مع العلم قاصر (أى عقل العلماء) لسببين أولهما : قصـر أعمار العلماء فالعالم يحصل ثم حتى اذا هو بدأ ينتج عاجله الموت ، وتزداد مدة التحصـيل (كلما تقدم الزمن) كلما اتسـع العلم ، وازدادت المفازة عمقا ، والسبب الثانى « هو ذلك القصور الذى فى الذهن نفسه من حيث أنه جهاز له طاقة للنمو ينتهى عندها .

بل ان العقل نفسه ، لا يشكل الا جانبا واحدا من جوانب النفس الانسانية فللنفس الانسانية جوانب أخرى اذا حاول العقل أو حاول المنطق دخولها فقد عمى ، ان العقل لا يكاد يرى من هذه الجوانب شيئا .. ، نعنى بها العواطف ، والاحاسيس وصوت فى الاعماق أدخل فى النفس وأعمق ، أو لعله لا مدخل له و لامخرج ، وانما هو صوت الكيان يتردد خافتا فى الأعماق » .

ومن هذا المنطق كانت أفكار الدكتور زكى فى مقاله (نوفمبر ١٩٦٨) الذى يقارن فيه بين العقل والايمان أو يجمع بينهما على أنه كما يقول العنوان : « العقل والايمان : عينان بهما يبصر الانسان سبل الحياة ويهتدى : فيقول :

١ ـ العقل والايمان ، سبيلان الى المعرفة سلكهما الانسان منذ كان قبل المسيحية ، وبعدها ، وفى دين ، غير دين ، أما العقل فمنك أما الايمـــان فمن الله ٠ اما أن يمن الله عليك به واما ان يحرمك اياه ٠٠ « ازدواج طبيعى » ٠

٢ ـ « **وعند جاكوبى : ان الله الذى يمكن اثباته بالمنطق لا يمكن أن يكون الله** ، لأن الحصول عليه بالمعرفة عن طريق العقل يتضمن معنى سيطرة العقل ، والخالق الأعظم لا يمكن أن نسيطر عليه ، أو يحتويه عقل ٠٠ ان الحقيقة فيما وراء الطبيعة ليس ســبيلها الفكرة المنطقية تتلوها أخرى ٠٠ ان سبيلها تتكشــف عن طريق الالهام وهذا الالهام هو الذى يسميه جاكوبى واضرابه بالايمان » ٠

٣ ـ انهما « كالنظارة ذات العدستين اذا طمست عدسة منهما ، قامت الأخرى تحل محلها ، أما اذا طمست العدستان معا ، كان العمى ، ومع العمى الحيرة التى لا يدرى معها صــاحبها الى أين يتوجه » ، وهكذا فعلت الوجودية ، ومذاهب أخرى بالانسان فى هذا الزمان » ٠

٤ ـ « سر القلق فى العصر الحاضر أن ما أحدثته تلك المبادىء الفلسفية المتضاربة المتشابكة المعاكسة التى ينفى بعضــا بعضــها ، والتى كانت ، قاصرة على المكتبات ، حبيسة فيها زمانا لا يقرأها الا المختصون ، ثم هى نزلت بالنشــر ، على اختلاف طـرقه الى القارىء العادى فى مدرسة وجامعة والى رجل الشــارع من بعد

مدرسة وجامعة » ·· « وقد كان لاستجلاء سبل الحياة عند المفكرين طريقان : طريق الايمان المباشر ، وطريق العقل ، وسبق الضعف الفكرى الى طريق الايمان فى الناس فاضمحلت الثقة فى الايمان ، ثم قام رجال جدد من أهل الفكر يقضون على السبيل الباقية تلك ، سبيل العقل ·· ذهبوا بالايمان ونفوا العقل · فماذا بقى ؟ بقيت الحيرة تحتل أنفس الناس ، وظهرت فى الشباب أكثر لأنهم أكثر تأثرا وأقرب ثائرة » ·

٥ ـ وانضم الى هذا الخبال فى فلسة الحياة : خبال فى حال الدنيا ، خبال فى المجتمعات وخبال فى حكامها ··

لهذا كله يؤمن الدكتور بضرورة **الاعتماد على الايمان** ، والابقاء على الايمان ، والايمان بالايمان ، وان تتوجه الى نفسك تطلب منها الهدى : « واذا عجز أهل الفكر ، وأهل الفلسفة عن اثبات وجود ، واذا رفض العلم الحديث فى هذا الأمر بعد ان دفع بعدم الاختصاص لم يبق لنا الا الرجوع الى المصادر التى نهرع اليها دائما عندما تتعطل مصادر العقول ·

ونتفرع من مسألة الحقيقة لنناقش آراء الدكتور زكى فى « حتمية التاريخ » هل يعيد التاريخ نفسه ؟ أم لا يعيد ، وهنا سنلخص أفكار الرجل وأكثرها ما ورد فى حديث الشهر « ابريل ١٩٦٨ » ·

١ ـ ان قولهم بحتمية التاريخ « عبارة حلوة ، أجد فيها أنا نفسى روحا وريحانا ، وشميم أمل حتى واليأس كل اليأس جاثم » « وهى عبارة ليست بنتيجة دراسة خرج الدارس بها : ان التاريخ يحتم ، انما هى عبارة ايمان ، والايمان قد يخرج من الرأس والايمان قد يخرج من القلب ، وحتمية التاريخ صرخة من صرخات الايمان التى تخرج من القلب · انها صرخة الأمل · قد يفرزها ما يتواكب

معها من احداث الدنيا ، تلك التى تهدف جميعا الى غاية واحدة فيها استبشار وبشرى ·

٢ ـ وهو يستعيد او يتحفظ لأن « **التجارب العملية هى وحدها التى تعيد نفسها** أى اذا نحن أعدنا فى المختبر اجراءها عادت بنفس خواتيمها ، وغير ذلك التجارب الانســـانية وتجارب المجتمعات الانسانية ، وتجارب التاريخ » ·

٣ ـ **والســـبب فى عدم تقبله لفكرة الحتمية** هو ان فى أمور التاريخ « الانسان هو أول شىء تفاعلى ، وليس كالانسان مثل ، ينفى صفة الثبات كيفا وكما ، انه الهوى المتغير ، والمطمع المتقلب والثقافة المتباينة والميراث الذهنى المتفاوت ·· جيلا واحدا ، وانما جيلين وثلاثة أجيال اجتمعت كلها على صعيد من الزمان واحد بل يصل الحد الى القول بأنه لا يوجد فى التاريخ حادثتان متطابقتان ابدا ولو اسميناها اسما واحدا ·

٤ ـ « **ان الأبدية المتواصلة عند نتشة تتمثل فى الدائرة** ·· على أن مقالته قد تصح فى غير اجمالها هذا المتناهى فى زمان محدد قصير من حياة البشر ولكن قديم ، أما اليوم فنحن فى زمان غير ذلك الزمان » ·

٥ ـ **وهذا هو جوهر الرأى العلمى فى المسالة يبديه الدكتور** زكى بعد دراســـة تمحيص ودون تعرف عند الاطراف فيقول : **« كل الذى يستطيعه الناظر عند المقارنة أن يحدس ، أى خاتمة تكون ، وهو يحدس حتى فى حياته الخاصة ولحياته الخاصـــة لا خاتمة واحدة ، بل عدة من خواتم ، ربما تمثلت فى عدة من تجارب سابقة له ، وليس من الضرورى ان تكون وقعت لأخ أو اب أو قريب او صديق أو حتى تسامع بها »** ·

٦ ـ ومع هذا لا ينكر الدكتور زكى الفائدة التى افادتها البشرية من هذا الرأى فيقول « الرأى بأن التاريخ يعيد نفسه ، صح أو لم يصح ، كان له نفع لا شك فيه ، من ذلك ان الناس تدرس التاريخ ، وترى اوضاعا ماضية تشبه أوضاعهم الحاضرة ، وتخشى ان تحل بهم النتيجة التى كانت فيقومون فوق رجل واحد يحولون بينها ، وفى هذا نفع كبير » .

هذا عن حتميـــة التاريخ ورأى أحمد زكى فى هذا المذهب ، ونذهب مع استاذنا ، ومع التاريخ الى مقاله الذى كتب قبل وفاته بمدة وجيزة (٧٥/١٠) تحت عنوان « الأزل والأبد معنيان تحديا فطنة الانسان من قديم العصور والأزمان » .

ونجده يقول فى تأكيد « ان الانسان خلق أعمى رغم حاله من عينين من قديم العصور اذن لهما فقط ان يبصرا ما أذن لهما أن يبصراه ، والانسان قد يكون أشد جهلا بالذى خرج منه النور او وقع عليه النور ، والنور قد يبهر ، فيحسبه الانســـان علما ، ثم لا يكون الا وسيلة لتغطية سر مكنون ، وكم فى الدنيا من خفاء يسطع من الغباء » .

« واذا كان العلماء حاولوا ان يغوصـــوا بعلمهم فى غياهب الماضى فما اهتدوا ، فهم اقل اهتداء وهم يغوصون بعلمهم فى مجاهل المستقبل ، وهى أقص وأمس واعسر » .

بقيت نقطة فى هذا البند لابد منها قبل ان ننتقـــل الى البند الثانى ، ولعلها هى الحلقة الرابطة ، ونحن نعود مع اســـتاذنا الدكتور زكى الى مقاله عن التعميم والتخصص فى الدراســـات الجـــامعية (٧٢/١٠) فنجده يناقش قول الذين يقولون ان أهل العلم الطبيعى أهل جفاء وقسوة ، وما يرتبونه على هذا القول من أن احكام أهل العلم بعيدة عما تبتغيه الانسانية ، فنجد الدكتور زكى يرد فى صراحة وقوة ووضوح على هؤلاء بقوله ان هذا القول ضلال

كبير ٠٠ « وأصدق منه أن تقول « ان أهل العلم الانسانى ومنهم الأدباء هم أهل العاطفة الأشد ، والعاطفة قد تكون خيرا ، والعاطفة قد تكون شرا ، وهتلر ما كان عالما طبيعيا ، وما كان موسلينى ، كلاهما كان ذا قلب خفاق نبضاته تتصل بأحوال الانسان دون علوم الأرض ، وهما صنعا من الخراب ، ما لم يسبق مثله على سطح هذه الأرض » ٠

أرأيت الى هذا الحل البديع الذى حل به استاذنا الدكتور زكى هذه المشكلة الفكرية التى لاتفتأ تراودنا فى كثير من الأحايين ٠

٢ ـ المادية والروحية

كان الدكتور أحمد زكى يتناول مسألة المادية والروحية من الجانب الذى عرضت المسألة نفسها فيه على التفكير الشرقى ، حين ثار السؤال التاريخى الذى تساءل عن **امكانية الجمع بين حضارة الغرب وروحانيات الشرق** ، ولسنا فى حاجة الى تفصيل للقول فى هذه الناحية ، بقدر ما نحن فى حاجة الى الدخول مباشرة الى حيث ناقش الدكتور زكى هذه القضية ابتداء حين حلل أصلها فى مقاله (٧٤/٤) فقال : **« ولعل الحقيقة أن العلماء اهتموا بالمادة قوانين ، واهتموا بها مظاهر حياة ، وظواهر كون ، لأن عندهم الوسائل المادية لبحثها ، وسكتوا عن الروح لأنها أعصى من أن يتناولها بحث أو يحوزها مختبر ، فاتخذ اكثر الناس من هذا السكوت عن الروح انكارا لها والحق انه كان عند العلماء الاحدثين ايمان بالروح بالقدر الذى عند غير العلماء اثباتا ورفضا تبعا لما آمنوا به من دين ، أو ما اتبعوا من فلسفة ، أو اتفق لهم من مزاج » ٠**

« على أن الأمر تبدل أخيرا ، وأدرك العلماء انه ليس من الجائز عند عالم أن ينكر مالا يعلم ، أو ما لا يستطيع عالمه ، وغير

ذلك اتضح للعلماء أن مسألة الرفض لا تكون بهذه السهولة ، وأن تسلك الظواهر الحيوية ، وتتابع بعضها وراء بعض فى منطق عجيب ، وهدف بل أهداف فى الحياة واضحة ، تشير كلها الى أن للحياة تخطيطا وتدبيرا لا يمكن ان تقوم به وحدها المادة الصماء الخرساء » .

وأحمد زكى لهذا لا يتطرق الى لب المسألة الا بالقدر الذى يعرض فيه لآراء ووجهات نظر أصحاب المذاهب فيها ، على النحو الذى نعهده منه حين يتناول المسألة من المسائل الخلافية ولكنه مع ذلك يعقب فى فبراير ١٩٧١ بقوله « **على أنه لا يفوتنى ان أذكر أن الذين يقولون بالمادة والروح شيئين متفاضلين أو بالجسم والعقل ، هؤلاء كانوا أهدى سبيلا وأكثر اتباعا من الماديين الذين رفضوا الروح أو ارتابوا فيها** » .

وأحمد زكى يرد القول الفصل فى هذه المسألة الى « **النفس** » كما يفعل فى كثير من أمور الغيبيات «الحجة الأقوى عندى هى مايجده كل انسان فى دخيلة نفسه ، لكأنى والله بنفسى نفسان لا نفس واحدة . وتحدث احداهما الأخرى وتجادلها ، فكيف لا يكون لهذه النفس وجود رائع هو بعض وجودى » .

ان ما يهمنا أن نقرر أن البحث عن وجوه أعمق فى مسألة المادية والروحية لم يكن الشغل الشاغل لعالمنا بالقدر الذى كانه أمر آخر ، هو اهتمام أحمد زكى باقناع العقل العربى أنه من الممكن أن يجمع الى روحانيته خير المادة ، وخير حضارتها ، وهو فى هذا لا يؤيد رأيه بالايجابيات التى حققتها الحضارة المادية يسردها على العقل العربى كما يفعل الكثيرون ولكنه يذهب مذهبا آخر يبرىء فيه ساحة المادة نفسها مما ألحقه بها بعض أهل الفكر من عيوب واكبت حضارتها ، فاستحقت بسببها نقد هؤلاء ، وخوف اولئك من تلك المادة والمادية والحضارة المادية :

، ولا أستطيع أن أقنع نفسى بأن انسانا ــ كان ما كان ــ يستطيع أن يتقرب الى الله بذم خلق الله ، فالاجسام مادة ، وهى من خلق الله · فكيف تكون هى بعد ذلك شرا فى ذاتها · وكيف يقرب انسان الى الله ينفى مقاصد الله فى مخلوقاته · ان شهوة الطعام من صنع الله · وما صنعها الا لهدف · وشهوة الجنس من صنع الله ، وماصنعها الا لهدف · هدف الأولى وصل الحياة فى الفرد · وهدف الثانية مواصلة اسكان الأرض ، وان كان بهما مايعاب فهو الافراط أو التفريط ولا أكاد أصدق أن رجلا يؤمن بالله يذم المادة أبدا ، بمعناها الخلقى بتسكين اللام ، أما معناها الخلُقى (بضم اللام) فهى الأنانية والبخل والحرص فمقبول معنى ، مرفوض لفظا · قل ان الرجل بخيل ، أو محب للمال ، أو مفرط فى شهواته أما أنه مادى: فلفظ فيه التباس كريه » ·

ويتطرق الدكتور أحمد زكى الى مناقشة الأثر السيء الذى تركته هذه الفكرة على أعمال وتصرفات وسلوك كثير من البشر ، فتركوا العمل الى اللاعمل ، وعبارته فى هذا المعنى أوضح من ان نقدم لها ، وأشهى من أن نتأخر بها عن قارئنا ، يقول الدكتور زكى فى مقـــاله (يوليو ٦٦) «ولاننسى العرق الصبيب ، فهذه الحياة عرق صبيب ، انه العرق الصبيب أو الفقر الذريع ومن أجل هذا وجدنا أكثر شعراء هذا العصر فقراء لأنهم عدوا النزول من أبراجهم التى أقاموها عالية، الى الأرض الدنية يتفهمون الحياة تجرى ، والمال كيف يحصل ، والانتاج كيف يكون ، والأمعدة كيف تملأ ، والاجسام كيف تكسى انما هو هبوط الى عالم المادة ، عالم الانحطاط والتردى » ·

ينظر الدكتور زكى الى مسألة المادية والروحـــانية من وجهة صوفية عملية ان جاز هذا التعبير وهو يقول فى مايو ١٩٦٣ عندما يتحدث عن هذه المسألة عرضا « ···· حياة المدنية الحاضرة التى يحلو لكثير من الرجعيين بأن يسموها مدنية مادية ، تحقيرا

لها وتهوينا من شأنها . هى مصدر للروحانية قد يفوق المصادر جميعا .... » وفى موضع آخر يفصح الدكتور زكى عن هذا الرأى ويزيده ايضاحا فيقول :

« وعندى ان رجلا عاملا يقف الثمانى الساعات كل يوم امام الآلة تتسخ يده بمسها ، وينال قميصه غير المحمود من زيتها ، ويعود فى آخر اليوم الى بيته . ينفق مماكسب على أهله ، طعاما هنيئا وكساء سابغا ومسكنا طيبا ، وترفيها ما استطاع ترفيها ويسجد لله يحمده على ما كسب ، هذا الرجل وهو يعمل فى المادة لينعم هو وأهله بالمادة ، روحانى فى الصفوف الأولى من الروحانيين وحسبه من روحانيته أنه احيا بعمله فى المادة لانتاج المادة ارواح ذرية مساكين ، وكل ذرية مسكينة لأنها على الصفر بالعجز موسومة » .

وقد أفضنا فى الحديث عن الجانب العملى من هذه المسألة فى هذه النقطة فى موضع آخر . ولكن هل لنا أن نختم هذا الموضوع بعبارات لأحمد زكى عبر فيها عن أمله فى ان تهتدى الانسانية الى وجه الحق فى مسألةالمادية والروحانية (من جانبها النظرى) فيقول : «وكل الذى أرجوه ان يتحقق عندى ان تكون أنفس هؤلاء الرجال ــ بعض أصحاب الرأى فى مسألة المادية الروحية ــ قد اطلعت من بعد موت على حقيقة الحال ، وددت لو أنهم استطاعوا بعد ذلك ان يتصلوا بذوى القيمة من الرجال ، وان يفضوا اليهم بالسر الأكبر الذى كشف لهم عنه الموت » .

« وذلك رجاء أن يهدىء الرجال الأحياء من جدلهم ، ويقدروا حقيقة مايستطيع الفكر الانسانى كشفه فى فترات من الزمن قصار ، هى فترات اعمارهم ، وان يصبروا فما أسرع ماسوف تتكشفه لهم الحقيقة عندما تفترق أجسامهم ، وهى مادة ، عن ارواحهم ، وهى لطافة وأحسب انهم عند ذلك سوف يدركون أن الانسان مادى وروحى فى آن » .

المصـــادر :

١ ـ « الكرة التى تحمل فوق عنقك » (الهلال : ٩/٤٨) ، وهو الفصل الثانى عشر من ساعات السحر .

٢ ـ « الذرة تشق طريقها الى الصناعة وسائر مرافق الحياة شقا حثيثا » العربى : مايو ١٩٦٢ .

٣ ـ « الجدل أكثره مجهود غيرنا » العربى : اكتوبر ١٩٦٣ .

٤ ـ « خدعوك فقالوا : تغير الزمان وما تغير الزمان ولكن تغيرت اساليب البغى والعدوان » العربى : ابريل ١٩٦٥ .

٥ ـ « عقل الانسان ميزان غير ثابت على الزمان »العربى : يونيو ١٩٦٧ .

٦ ـ « هذه المدنية زادت الناس تجميعا أم تشتيتا » العربى : أبريل ١٩٦٨ .

٧ ـ « التاريخ قال قائلون انه يعيد نفسه وقال آخرون انه لايعيد » العربى : ابريل ١٩٦٨ .

٨ ـ « العقل والايمان : عينان بهما يبصر الانسان الحياة ويهتدى » العربى : نوفمبر ١٩٦٨ .

٩ ـ « المادية والروحية عند الفلاســـفة » العربى : فبراير ١٩٧١ .

١٠ ـ « بين التخصص والتعميم فى الدراســـات الجامعية » العربى اكتوبر ١٩٧٢ .

١١ ـ « المادة والمادية والروح والروحانية وســؤال المادة والمادية فى العربية » العربى : ابريل ١٩٧٤ ٠

١٢ ـ « الحضارة الحاضرة سبقتها حضــارات كثيرة » العربى : يونيو ١٩٧٤ ٠

١٣ ـ « الأزل والأبد معنيان تحديا فطنة الانســان من قديم العصور والأزمان » العربى اكتوبر ١٩٧٥ ٠

الباب الرابع

فلسفة الحياة عند الدكتور احمد زكى

لابد من الغاية فى الحياة وكيف يكون النجاح بدون غاية ؟ بل حتى كيف تكون الخيبة بدون غاية ؟

احمد زكى

يتناول هذا الباب عشرة بنود تدور فى فلك الحديث عن فلسفة الحياة عند الدكتور زكى ، وقد تعرضنا فى الباب الاول لحياة الرجل ، ولسنا هنا نفلسف لحياته ، ولكننا نعرض فلسفته التى اراد للناس ان يأخذوا بها فى حياتهم ، ولم تكن هذه هى الفلسفة التى صاغت حياة احمد زكى ، ولكنها كانت الفلسفة التى صاغتها حياة الدكتور زكى الطويلة العريضة العميقة واول هذه النقاط هو طبيعة الحياة ، الحياة على وجه العموم ، والحياة فى هذا الزمان ، وثانيها تتعلق بحظوظ هذه الدنيا، ومافيها من ثنائيات قد لاتسر المرء فلا يرضاها، ولكنه اذا اراد ان يعيش فلابد لها من الأمر ونقيضه ، والأمل وخيبته ، و ...... ، ..... ، وثالثها يتعلق بترديد احمد زكى فى شبه اقتناع لنظرية الابقراطية فى أن امتناع الالم هو سبيل السعادة ، وان انعدام الشقاء هو اللذة ، ورابعها تناقش معنى النجاح فى الحياة ، وخامسها تركز على « الغاية » من الحياة ، وأهميتها فى صنع النجاح ، وفى تقدير النجاح .

ثم يتطرق بنا الحديث فى البند السادس من هذا الباب الى انجح الوسائل لاختيار البديل فى طرق الحياة عندما تتعرف بالانسان

وأنجح الوسائل عند أحمد زكى هى الفطرة ، ولهذا فان النقطة التالية (السابعة) تحلل فلسفة الحياة مع النفس ، على حين يدعو الدكتور احمد زكى (فيما جعلناه ترتيبا (النقطة الثامنة) الى التركيز على الحاضر وضرورة الاستمتاع به ، ثم تتناول النقطة التاسعة أراءه فى علاقات المرء بالنـــاس من حوله) ونظريته فى ذلك ان العيش المعاملة (على وزن الدين المعاملة) • ونختتم هذا الباب بتحليلاتشيقة للدكتور أحمد زكى يناقش فيها مصائب الدنيا كيف تهون ؟ وهى مناقشة علمية طريفة سوف تفتح نفس القارىء للباب التـــالى ان شاء الله •

وهذه هى البنود العشرة على سبيل التفصيل :

١

كتب الدكتور احمد زكى مقالا رائعا فى الهلال ، ديسمبر ١٩٥٠ تحتعنوان «الحياة فنعسير» قص فيه قصة شاب نابه نابغ، استكمل تعليمه فى كلية الطب ، وخرج الى اوربا ، فعاد منها بأرفع الشهادات مستوى ، وكان له من العلم مستوى ارفع ، فلما أخذ يعامل الناس كطبيب لم يحظ بالنجاح الذى حظى به من هم دونه بمراحل علما وخبرة وشهادات ، هذا هو مايعنينا من التفاصيل الطويلة التى رواها الدكتور أحمد زكى فى أمر هذا الشاب ، وما ناقشه من أسباب فشله فى ممارسة الحياة ، ولعلنا نأخذ هنا تلك العبارة البليغة المركزة المؤثرة التى روى بها احمد زكى سبب فشل هذا الشاب حين قال « انه خرج الى الناس لاخروج انسان ولكن خروج كتاب » •

« ذلك ان الحياة علم ، وان الحياة فن ، ولكنها علم لاتلقى دروسه فى حجرات المدارس ، وفن لا يتعلمه الانسان فى مرسم أو منحت أو متحف فنون ، وليس للحياة عـــلاقة بشهادات المـــرء

ولا مؤهلاته ، فهذه لا تغنى شيئا عن صاحبها اذا اخترق الشارع خطأ فداسته سيارة ، وليس يعفيه من عاقبة خطئه أنه محام كبير أو عالم جهبذ ، ذلك أنه لا المحاماة ولا العلم تعلم اختراق الطريق أو احسانه ٠

« وقد تجد رجلا لم يتعلم ولم يتفقه ، ولكنه فى الحياة ناجح وهو فيها سباق ، ذلك لانه تعلم الحياة لا مما تجمع من علومهـــا وتبوب ، ولكن من ذلك الجانب الأخفى الذى يتعلمه الانسان ممارسة بالعيش واحتكاكا بالناس وتدربا على تصريف الامـــور وهى فى مجاريها الطبيعية من سطح هذه الارض » ٠

ونعود مع مجلة الهلال حوالى عشرين شهرا لنقرأ لأحمد زكى فى مقاله « الكذب : فى قديم الزمان وحديثه » الهلال ابريل ١٩٤٩ اقرارا طويلا بصعوبة الحياة نجتزىء منها بقوله : « وصـــناعة العيش مرهقة ، والطبيعة ، والطباع ، وأوضاع الحياة كثيرا ماتكون مجحفة ، وهذه الأرض البســيطة ما بســطت ، لتكون أرضـــا حراما والا فما فضل المساجد والكنائس والبيع » ٠

هذا عن الحياة فى عمومها ، فماذا عن حياة اليوم ، حيـــاة القرن العشرين ، هذا هو مانقرأ فيه فى الجزء الثانى من حديث الشهر ، العربى ، ابريل ١٩٧٥ ، تحت عنوان « دنيانا هذه مريضة تزداد مرضـــا عاما بعد عام » حيث يقول الدكتور أحمد زكى : « ان سرعة الحياة فى القرن التاسع عشر غير سرعتها فى القرن العشرين ، الحياةتتسارع على القرون ، ونعم تظل ضربات القلــب فى انسان القرون واحدة ، وعدد الانفاس فى الدقيقة واحدا ، ولكن غير ذلك ما تجرى به الاقدام وتختلج الأدمغة وتضطرب به القلوب والرءوس ٠٠ » ٠

ولكن هذا لايبرر الهرب من الحياة ولا من معاملة الناس ، مع ان الحياة فن صعب ومعاملة الناس هى اصعب اشياء هذا الفن مراسا ، وهذا هو مايؤكد عليه الدكتور احمد زكى فى مقاله الحياة فن عسـيـر :

« وقد ينجح الهارب من الحياة ، ولكنه يكسبها عندئذ تبقى الحياة ، والهرب على كل حال هرب من تبعة ، والحياة انما كانت لتحمل فيها التبعات والراحة آتية لاشك فيها ، وهى رقدة تطول لاتتغير فيها جنوب الراقدين ، فلم نستعجلها ، ولم ننكر الحياة ، وفى صدرنا أنفاسها » .

ويلتفت الدكتور احمد زكى بعد هذا ليقول : « اقول هذا ليسمع عنى السامعون وأذنى بالذى اقول اولى » أليس فى هذا تاكيدا للمعنى الذى اشرنا اليه فى مقدمة هذا الباب ، الم يكن الرجل ينصح الناس بما وجده فى حياته وان لـم يكن قد التفت الى اهميته فى بعض الاوقات .

٢

وفى مقال « تحرك الزمن ، فتحـركت همومه » ، الهلال ، ديسمبر ١٩٤٧ ، وهو الفصل الثانى والعشرون من «ساعات السحر» يتحدث الدكتور احمد زكى عن نوعين من البشر ، وقارن بينهما ، وأراد الناس ان يتعظوا برأى شيخ كان يرى فى الدنيا ثنائياتها ويؤمن بتتابع هذه الثنائيات ، وبتواليها ، وبوجودها معا : « حكمة بالغة تلك التى علمها اياى هذا الشيخ فى زمانه ، انى على الجوع لابد ان اذكر الشبع ، وعلى الشبع لابد ان اذكر الجوع ، وفى الخيبة لابد ان اذكر النجاح ، وعند النجاح لابد ان اذكر الخيبة ، وفى كدر الصداقة لابد ان اذكر صفوها ، وعندما تصفو الصداقة يجب الا انسى كدرها » .

وأكثر من ذلك يذكر الدكتور أحمد زكى للناس أنهم لو تكاشفوا بما فى حياتهم لوجدوا أن الجانب الذى لايسر فيها اكثر من الجانب الذى يرتاحون له ، ويصوغ عالمنا هذه الفكرة فى قالب مؤثر فيقول : « ان الله أعطى الانسان اللسان يكشف به عن نفسه ، ولكنـــه اعطاه كذلك الصمت يستر به على نفسه ، ولو تحدث الناس بالذى فى طواياهم ، وصدقوا لعرفوا ان حظوظ هذه الدنيا من خـــوف أكثر من حظوظها من اطمئنان ، وقسمتها مما يسوء أكثر من قسمتها مما يسر ، ولو أن الناس نطقوا وأفصحوا عن نية خالصة ، لهان بالتعاون عليه واستئصال اسبابه » .

ويمضى الدكتور احمد زكى فى هذه الناحية يضع تصويرا (طبيعيا) لحياة الناس بداياتها ونهاياتها : « ان حياة الناس كأنها الأرض ، لها منبع ، وبها مصب ، ومن البحار تعود فتنشأ الانهار ومن الانهار القصير الســـريع ، لأنه يهبط من جبل ، ومن الانهار الطويل المتهادى لانه يجرى فى انبساط ، ومن الانهار المستقيم ومنها المتعوج حتى لتحسبه عائدا من حيث أتى ، ومن الانهار مايضيق مجراها حتى لتحسب أنها تنضب وتجف ، فاذا بلغت مداها اتسعت فلا تكاد تؤلف بين هذه السعة وذاك الضيق ، ومن الانهار ما تعترضه الشلالات ومنها مايدور حول جزر ، ولكنها كلها تنتهى دائما الى المحيط الاعظم فتنسى ، وينسى معها وجودها ، وكل ما كانت قد لقيت فى مجراها » .

« وكذلك الناس ، يلقون مايلقون بين شروق الحياة وغروبها ، وعند الغروب يستوى العظيم والضئيل والكثير والقليل ، وذو اللون الزاهى ، وذو اللون المعتم ، ان الالوان تتوحد بدخول الظلام » .

٣

والمعنى الذى تدور حوله هذه النقطة من ان السعادة هى انتفاء الآلام ، معنى فلسفى قديم ، لم يفتأ احمد زكى يكرر روايته حينا على سبيل الرواية فحسب ، وحينا على سبيل الرواية او الترجيح وحينا على سبيل الرواية مع الاعجاب، وحينا مع التزكية • وسنجتزىء هنا ببعض الفقرات القصيرة من مقاله « هكذا أدبنا أشياخنا » ، الهلال ، مايو ١٩٥٠ ، و « تحرك الزمن فتحـــركت همومه » ، الهلال ، ديسمبر ١٩٤٧ ، واكثر من حديث من احاديث الشهر حسب ما ستوضحه قائمة المصادر •

والعدم خير من الوجود الذى يكون شقاء ، ويكون ألما ، وانعدام الشقاء أول خطوات السعادة ، وانعدام الألم أول السبيل الى اللذة •

لقد اوجب ان تكون حياة العاقل منا لاسعيا دائما الى لذة ، ولكن تجنبا دائما للالم ، ان السعادة فى الحياة قد تكون بالذى تأتى به الحياة من افراح ، ولكنها تكون اكثر من ذلك بالذى لاتأتى به من احزان ، وماكدح الناس فى الحياة وراء الغنى الا دفعا للفقر لانه ألم » •

ولا يقتصر أحمد زكى على أقوال الابوقراطية القدماء وحدهم فى هذه المسألة ولكنه يبدى اقتناعا بها فى فلسفة ارسطو حين يقول « العاقل لا يهدف الى اللذة فيطلبها ولكن الى الألم فيتحرر منه » وفى أقوال فولتير حين يصور الأمر بطريقة أخرى فيقول « انا نحس السرور حالمين ، ولكنا نحس الاحزان ايقاظا » •

أما القول بأن أحمد زكى كان من هؤلاء فأمر لايزال دليلنا عليه يعوزنا •

٤

وماذا عن النجاح فى الحياة ، ان أحمد زكى يخصص مقالا فى هلال مارس ١٩٤٧ ، تحت عنوان « أصحابى الذين خابوا » يناقش فيه الأسباب التى حالت بين هؤلاء ، وبين النجاح ، ويلخص الدكتور أحمد زكى عوائق النجاح بعدما أفاض الحديث فيها على نحو لابد من الرجوع اليها للباحثين عن النجاح ، والمعانين فى سبيل البحث عنه ، ولكن لابد لنا من ان نجتزىء هنا هذه الفقرة :

« فدون النجاح فى الحياة عوائق ، هى ضروب ثلاثة ، عوائق من طبـــاع ، وعوائق من بيئة ، وعـــوائق من فـرص تأتى ثم تفلت وقد تتجمع فتجعل النجاح أعســـر من دخـــول الجنــة ولكن كثيرا ما يسعف الطبع وتســـعف البيئة وتأتى الفرص فتقف عند بابك ، فتصبح الموانع من النجاح دوافع اليه ، وندر أن تجتمع كل هذه دفعة واحدة لرجل ، الا رجلا اصطفته الآلهة ، كما زعم الاغريق ـ للاعزاز وللتدليل · »

والحقيقة ان الدكتور أحمد زكى بعد ماحقق من نجاح ، وبعدما استبان له طريق الحياة بما فيه من دروب شاقة ، ومسالك وعرة ، وبعد جاءته الخبرة بالحياة قراءة وسماعا وملاحظة لخطى الناس كان يؤمن ايمانا لاشك فيه بضرورة المجاهدة والمكافحة الى أقصى مدى ، وفى كل لحظة وحين ، فلا ميل الى دعة ولا الى هدوء ولا ارتكان الى صدف أو رياح تأتى بما تشتهى السفن ، ولعل فى هذه الفقرة ما يعبر عن حرارة هذا المعنى وتمكنه من نفس أحمد زكى ·

« ان النجاح أكثر ما يكتسب غلابا وصراعا ، وكل رجل منا كالملاح فوق سفينته ، فقد يسكن له الماء ويهب الريح على هواه · ولكن الماء أكثر ما يكون مضطربا تنشره وتطويه الامواج ، والريح أكثر ما تكون عاصفة هوجاء ، فيعمد الملاح عندها الى ما أسموه

فى لغة البحار الصفح والاصلاح ، فيقتبس من الريح وهى تعارضه نصيبا يدفعه ، يدفعه الى حيثما يريد هو لا الى ما تريد الريح ، ويصل الى غايته أخيرا ، وبعد مشقة وبعد زمن قد يقصـــر أو يطول ، وقد يطول الزمن فوق ما يطول العمـر ، فيفنى الرجـــل المجاهد كما تفنى الموجة فوق سطح الماء ، وفى نفسه لبانة لم تنقض ، وفى قلبه من أجلها حسرة ، وقد تنقلب به السفينة على الرغم من الجهود الشاقة ، وعلى الرغم من المهارة والنية الصادقة ، لأن الموج كان أعتى وأغلب » ٠

٥

وأحمد زكى فى فهمه لمعنى النجاح فى الحياة يوافق الناس الى حد كبير على فهمهم له بأنه النجاح فى الغاية ، فى النهاية ، يكسب السباق ، هنا يكون معنى الغاية وعلاقته بمفهوم النجاح واضحين فى فكر الرجل ، وعبارته فى هذا صريحة : « والناس لا تفهم من الاشياء الا غاياتها ، ولا ترى من هذه المعارك الدائمة الا خواتيمها، وهم فى سباق الحياة ، كما هم فى سباق القوارب ،يتكوكبون عند الهدف الاخير يصفقون للرجل الذى وصل أول واصل بأول قارب ، أما سائر القوارب فتنسى ، أو هى لا تنسى لأنها لم تذكر قط ، ولن تذكر أبدا ٠

والناس من يلق خيرا قائلون له
ما يشتهى ، ولأم المخطىء الهبل

ولكن أحمد زكى يتخذ من هذه النقطة بالذات مدخـــلا الى تقرير أهمية أن يكون للانسان غاية فى هذه الحياة ، يسعى اليها يوما بعد يوم ، وهذا هو المعنى الذى كرره أحمد زكى مقالا بعد مقال ، بل أنه يبدى تعجبه من أن يتحقق النجاح وليس للانسان غاية يســـعى اليها ٠ هذه الفكرة بالذات من أعظم أفكار مفكرنا الكبير ، ومن أروع الافكار فى تفكيرنا العربى المعاصر ، يظهر فيها

واضحا أثر التفكير العلمى الذى يهدف فى الأصـــل والنهاية الى ايجاد حل لمشكلة !! ، ويظهر فيها واضحا فكر الرجل الذى كان يعرف ماذا يريد فحقق ما أراد .

لابد من الغاية فى الحياة . « وكيف يكون النجاح بدون غاية ؟ بل حتى كيف تكون الخيبة بدون غاية ؟

« ذكرنى هذا بالفتاة « أليس » فى الكتاب العالمى الشهر « أليس فى بلاد العجائب » جاء فيه أن « أليس » وقفت عند مفترق الطرق ولا تدرى أى الطرق تأخذ ، وجاءت قطة تسعى . فنادتها الفتاة وسألتها : أى هذه الطرق آخذ ؟ قالت القطة : هذا يتوقف على أية غاية تقصدين ، قالت الفتاة : ليس لى غاية فقالت القطة : اذن فخذى هذا الطريق أو هذا أو هذا . »

٦

ولكن كيف يمكن للانسان أن يسلك مسالك هذه الحياة الوعرة، وما هو المعيار الثابت الذى يستطيع ان يقيس به الأمور اذا اختلطت عليه الأمور ، صوابها وباطلها أو صوابها وصوابها . ان أحمد زكى يؤمن بما يدعو اليه الحديث الشريف من أن البر هو ماوافقت عليه نفسك ، وعبارات أحمد زكى فى هذا واضحة صريحة لا تحتاج الى تعليق ، غير اننا هنا ســـنجتزىء مع اعادة ترتيب لفقرات وعبارات الرجل فى هذا الموضوع ، فى مقاله « الى أين المسير » ، الهلال ، فبراير ١٩٥٠ .

ان الذى أريده منك ، فيما ترتاب فيه ، ان تستوحى الفطرة ثم تسلم لها قيادك كما اسلمت الأم التى ترعى وليدها – ولو سألت المنطق لما وجدت سببا فحياتها ليست متوقفة عليه بل تسوء . فتخرج بك من الظلام الى النور فتحسن العاقبة » .

« الفكر كالبصر له غاية وليس جواب » الى أين المصير » مما يدركه الفكر ذلك لأنه جاوز تلك الغاية • وهنا تتدخل الفطرة فتهل حيث يعجز الفكر » •

فطرتك هذه هى منار الهدى لك ، ما بقيت سليما ، هى مصباحك الذى ينير لك السبيل ما حافظت عليه فلم تأذن لأحد أن يفسر زيته أو يعبث بفتيله أو يحطم زجاجه ، فطرتك هذه هى فى داخلك تستخدمها وتستمد منها العون فتغنيك عن عون يأتيك من خارجك ، انك اذا تبعت ما توحى به الفطرة سلمت عاقبة » •

« وانى بالفطرة أحس دبيب الفرح فى قلبى : ان هذا الخلق ما كان عبثا ، وان هذا الفكر الذى أفكر به لا يجوز فى احساس الفطرة ان يكون ثم لا يكون وان هذه الدنيا لها ما وراءها » •

« ما خشيت الزمان ، وما خشيت الكهولة ، ولن أخشى الشيخوخة لأنها الفطرة والفطرة عودتنى ألا يكون منها الا الخير وانا لن أخشى ما وراء ذلك لأن الفطرة تريده ، والفطرة طيبة خيرة ، فهذا ما علمت منها فى سابق الأيام » •

٧

ومن الطبيعى اذا كان لفطرتك التى هى بعض نفسك كل هذا الدور فى تحديد مسار حياتك ، فلابد لك من التوافق مع هذه النفس ، وان تكون واياها فى انسجام ، وهدوء بال ، والدكتور احمد زكى يعبر عن هذه النقطة بالذات بمثل واقعى من الحياة ، وذلك ان الدكتور الجوادى (يقصد الدكتور عبد الجليل الجوادى) كان استاذا للنبات فى جامعة مصرية (هى جامعة الاسكندرية) واصابه من الناس فيها عنت ، ومشقة وأوذى فى عمله ، فظن ان فى الهجرة

خارج مصر متنفسا له ولعلمه ، وترك البلد ، وسـافر ، فعمل فى امريكا ، وما لبث بها وقتا قصيرا ، حتى كان الدكتور أحمد زكى هناك فى رحلته التى استطلع فيها أحوال مراكز البحث العلمى فى البلد الكبير ، فطلب مقابلته ، وقابله واستمع الدكتور أحمد زكى منه الى قصته ، وما عاناه ، وحاول ان يرغبه فى العودة الى الوطن بعد عام أو عامين ، فوجد عند الدكتور الجوادى رفضا وتصـميما ، شديدين ثم مرت فترة قصيرة ، وأتى الدكتور أحمد زكى الخبر بأن الدكتور الجوادى أنهى حياته منتحرا ويحكى الدكتور أحمد زكى هذه القصة مشيرا الى أسم العالم المصرى فى مقاله « هربوا من الحياة ، فلاحقتهم » الذى نشره فى الاثنين ، ثم اعاد نشره فصلا فى كتابه « ساعات السـحر » ويقول الدكتور أحمد زكى : « ان صاحبنا الذاهب (د . الجوادى) أصابه فى مصر من الناس لاشك شىء كثير ، ولكن أكثر ما أصيب به كان فى نفسه ، تلك النفس الحساسة ، القلقة ، المريضة ، التى أخذت تدفع لوم الناس بلوم ، وترد لهم التهمة بتهم ، وتتلقى البصقة القليلة تلوكها لتردها اليهم أكبر حجما واكثر لزاجة ، حتى حصـلت من خصومة الناس هم الحياة ، وشغلها المرض والقلق والحس المرهف عن القعود فى هدوء تدرس فيها أسباب كل هذا الشغب لتبدأ بنصيبها من اصلاحه ، بل لعلها عرفت بالحس الخفى ما سوف يؤدى اليه هذا القعود ، وكرهت نصيبها من الاصلاح فآثرت عليه لفحة الخصام ووطيس الحرب » .

« وذهب الدكتور المسكين ذلك المذهب البعيد ليبرأ من الناس وبرىء ، ولكنه لم يبرأ من نفسه ، لأنه لا يستطيع البعد عنها ، وكيف وهو يحملها بين جنبيه » .

« ويستطرد الدكتور أحمد زكى من هذه النقطة الى القول بأن الأسرة قد تكون هى الأخرى عاملا تضيق به نفس الانسان ، فيخرج عن طوقه ، وقد تكون هذه النقطة بعيدة عن الترتيب الطبيعى لهذا

الباب ، ولكن لابأس من أن يقرأها القارىء من باب الاستطراد ، بل وله الحق أن يأخذها كما لو كانت هامشا ٠

وآخرون عرفناهم لم يضق بهم وطن ، ولكن ضاقت أسرة ، واتخذوا الزوجة من بعد الزوجة ، وحسبوا فيمن تركوا السوء ، وفيمن استجدوا الخير ، وتكذب التجربة ، فيعودون يطلبون الزوجة الصالحة ، وما فى الزوجة الفساد ولكن فى الزوج وانى له أن يرى ولم تخلق بعد المرأة التى يرى بها الرجل نفسه كما يرى وجهه اذن لعلم أنه فى مهربه انما يهرب من نفسه ، وهو لا يستطيع منها هربا ، وانه لا يستطيع أن يجد الزوجة الصالحة ولو بلغ الزوجات ألفا ، وان عليه ان يطلب أول ما يطلب ، النفس الصالحة » ٠

ونعود مع الدكتور زكى حين يؤكد على ضرورة الرجوع الى النفس للاستهداء بها فى كل ما تفترق فيه الطرق وهو هنا يؤكد على النسبة بين النفس والدنيا ، لا تقليلا من شأن النفس ولكن تقريرا لقيمتها الحقيقية ، وهى عظيمة !

اذا ما ضقت أو قلقت ، فارجع الى نفسك ، وانظر ما بها ، ان الدنيا كبيرة عظيمة لا يمكن ان يغير الفرد ما فيها ، ولكن النفس صغيرة قليلة ، وهى ملك صاحبها ، اذا لم تكن غلبته تملكه ، واذا ضاع اتساق بين كبير وصغير ، وكثير وقليل ، أعيد الاتساق بتعديل القليل الصغير ليتفق مع الكثير الكبير ، فعدل من نفســـك تتعدل الدنيا » ٠

٨

والدكتور احمد زكى يؤكد على ضرورة الاستمتاع بالحياة ، لا استمتاع اللاهى العابث ، ولكن استمتاع المقدر للحلاوة والمرارة والعامل للحياة وما بعد الحياة ٠

وفى مقاله « الحرب اليوم علم وتكنية » مجلة العربى ، حديث الشهر ، مارس ١٩٦٩ ، نجد قوله :

ويجب ان تستمتع بالحياة ، وتهمس لها ، تستمتع بحلوها وملحها وبحانقها ولا تجعد الوجوه تقززا من مرها لأنه كائن ، وكل كائن هو بعض الحياة ، فاذا جاءنا المر ونحن فى نشوة من حلاوة ، وجب ان نقف بالحلو عند غايته ونقول للمر تقدم فما عليك من بأس » ٠

« نعم يجب ان يتعلم الشباب منا والرجال ان الدنيا ورود وأشواك ، وان الله ما جمع الورد والشوك على ساق واحدة عبثا ٠ انها رمز الحياة » ٠

وفى حديث له عن الاجازات والاسترواح ، بعنوان « أخذت اجازة من نفسى » الهلال ، يوليو ١٩٥٠ يقول الدكتور أحمد زكى : « ان أكثر ما يعكر على الانسان صفو الحياة ، تلك اللفتة التى يلتفتها المرء الى الوراء الى الأمس ليذكر ٠٠ أو امتداد العنق لتنظر عليه الى أمام الى الغد فيأمل » ٠

« ان الرجل فى اجازته يجب أن يتذكر حاضره ، يجب ان يأخذ اجازة من نفسه ، من ماضيها ومن مستقبلها ، وأن لا يعنى بغير الحاضر ، يجب أن يحزم فى حقيبته ما شاء الا الهم هما سلف ، أو هما يستقبل » ٠

٩

ويلفت عالمنا النظر الى أهمية حسن العلاقة مع الناس ، وهو يؤمن بصعوبة تحقيق هذا الخلق ، ولكنه يؤمن أيضا بأنه ممكن وليس مستحيلا ، وهو يرتفع بهذا الخلق الى درجة رفيعة ويؤكد على أهميته المرة تلو المرة ، وبخاصة فى فصول كتابه « ساعات

السحر » التى كانت فى الأصـــل مقالات فى الاثنين وفى الهلال فى أواخر الأربعينات ، وهى الفترة التى عنى فيها الدكتور أحمد زكى « قالوا ان الدين المعاملة ، وأقول ان العيش المعاملة ، المعاملة بين الناس شاقة حتى على النية الحسنة انه العيش المعاملة بين شيئين قلما أن يكونا خلقا ليتفقا ، والتنسيق بين أمرين قلما أن يكونا وجدا ليتسقا ، والتعشيق بين ترسين من فولاذ فى مكنة الحياة ، قلما أن يكونا صبا ليتعشقا .

وعلى نحو ذلك يمضى الدكتور أحمد زكى يعـــبر فى عبارات مطولة عن أننا ننكر من الطبيعة الجامدة أشـــياء كثيرة ، حرا ، وبردا ، ومطرا ، وجفافا ، وربما رمالا ، ومع هذا نصبر على أسواء الطبيعة الحية ، وأحداثها ، أجواء الناس ؟

ونعود لننهى هذا البند بما بدأ به أحمد زكى حديثه فى هذه النقطة حين يقول : « انك لا تستطيع ان تكون هذا ، أو بعضه اذا أنت لم تكن قادرا على أن تجعل ما بينك وبين الناس عامرا ، وأن تجعله موصولا ، وتجعله صافيا ، أو اذا هو تعكر ، أن تحتمـــل العكر ، وتحتمل القذر ، وتحتمل الأذى » .

« انك يا صاحبى ذو حس مـرهف ، تسيئك الكلمة النابية ، والنظرة الجافية ، والفعلة النكراء ، فتجفل منها ، وتعطى ظهرك للدنيا ، ان الذى أريده منـك أن تفعـــل كالقطط ، تقذفها الناس بالاحجار ، ولكنها تثبت على البيت الذى خرج منه الحجر ، لأنها تعلمت بالتجربة ان البيوت كلها بها محصول من الحجر وافر ســـوف لا يغنيك أن تتحول عما أنت فيه ، فانك حيثما تحولت ستجد الأرض هى الأرض ، والسماء هى الســـماء ، والناس هم الناس » .

١٠

وقد لا يكون من التكرار الممل ان نعيد هنا فى معرض الحديث عن تهوين الدكتور أحمد زكى لمصائب الدنيا قولا له وضعناه من قبل فى البند الثانى من هذا الباب حين أردنا أن نعبر عن فهمه لثنائيات الحياة ، وهذه الطبيعة الثنائية فيها ، اذ يقول الدكتور أحمد زكى : «ان الله أعطى الانسان اللسان يكشف به عن نفسه ولكنه أعطاه كذلك الصمت يستر به على نفسه ، ولو تحدث الناس بالذى فى طواياهم ، وصدقوا ، لعرفوا أن حظوظ هذه الدنيا من خوف أكثر من حظوظها من اطمئنان ، وقسمتها مما يسوء أكثر من قسمتها مما يسر ، ولو أن الناس نطقوا ، وأفصحوا عن نية خالصة لهان الهم بالشركة فيه ، أو لهان التعاون عليه واستئصال أسبابه » ٠

وجوهر فلسفة التهوين فى الفقرة السابقة هو المشاركة (الشركة) أو التعاون على أن هناك فلسفتين آخريين للتهوين الثانية عبر عنها الدكتور أحمد زكى فى مقاله « تحرك الزمن فتحركت هumومه » الهلال ١٩٤٧/١٢ وتكمن فى توحد المكان على نحو ما يحدث فى ميدان الحروب حين يموت الجمع مرة واحدة :

« والانسان يفقد أمه أو أباه ، أو يفقد ولده ، ولا يكاد يخطر له فى بال أنه فى تلك الساعة ذهب عن الدنيا ألوف من آباء وأمهات وأولاد ، جمع بين أحداثهم الوحدة ، الزمن الواحد ، وفرق بينها المكان ، ولو توحد المكان ، لهان من الأمر ما هان ، لهذا كان موت الميدان ، فى الحروب ، أخف من موت الفراش فى الأسرة ، هؤلاء يموتون جماعة ، وهؤلاء فرادى ، ومن الأحداث ما يجمع بينهما المكان الواحد ويختلف الزمان ، ومن ذلك ذهاب الجد والأب والولد من بيت الأسرة الواحدة يمضون على أحقاب متفرقة ، فيزيد فى ألم

الشتات اختلاف الزمان ، لارتباط بحاضر ، وتعلق بماض ، وتربص بمستقبل » .

والفلسفة الثالثة تكمن فى الاحســـاس بالزمن الجارى الذى لا يدع لك فرصة للتفكير الطويل فى مسالة الفاجعة : « ان الاحساس بالزمن الجارى ، يذهب عن الناس بشىء كثير من مواجعهم ، ويذهب كذلك ببعض مفارحهم ، وهو فى الحالين كسب ، لأن مبناه الحقيقة الشعر والخيال » .

وبعـــد :

فهل وجد القارىء فى هذا الباب ما يفيده فى أن يحيا الحياة كما أرادها الله ، أو كما يريدها لنفسه ، أو كما أرادها أحمد زكى ، أو هل أفاد القارىء فى ان يفهم بعض حكم هذه الحياة الدنيا ، أو بعض أمور الحكم فيها ، أو هل اضاف اليه هذا الباب شيئا يستطيع به أن يحكم على موقفه من حياته أو أن يتحكم به فى مسارها .

بل هل أفاده شيئا فى ثقافته ، ثقافة العامة ، أو ثقافة الحياة ؟ هل فتح عينيه على سعادة لم يكن يجدها ، أوعلى باب للسعادة لم يكن يعرفه من قبل لو كان لهذا الباب بعض هذا فان للمؤلف أن يسعد ، ولو لم ينل هذا الباب من قارئه بعض هذا أو لو لم ينل به قارئه بعض هذا فان أمام المؤلف ثلاث فلســـفات للتهوين من أمر المصائب قد سردها المؤلف عن قرب فى البند العاشر مع ايمـــان المؤلف ان أعماله مهما بلغت لا تصل الى هذه الدرجة من الأهمية :

المصـــــادر :

١ ـ « أصحابى الذين خابوا » الهلال : مارس ١٩٤٧
(الفصل الثامن عشر من ساعات السحر)

٢ ـ « تحرك الزمن فتحركت همومه » الهلال : ديسمبر ١٩٤٧
(الفصل الثانى والعشرون من ساعات السحر)

٣ ـ « سلاسل واغلال » الهلال : ديسمبر ١٩٤٨
(الفصل الحادى عشر من ساعات السحر)

٤ ـ « دنياك لا تخشها أبدا » الهلال : يناير ١٩٤٩
(الفصل السابع من ساعات السحر)

٥ ـ « الـــــكذب » الهلال : ابريل ١٩٤٩
(الفصل الثالث عشر من ساعات السحر)

٦ ـ « الى أين المسير » الهلال : فبراير ١٩٥٠

٧ ـ « هربوا من الحياة فلاحقتهم » الفصل السابع والعشرون من ساعات السحر نشر قبلا بمجلة الاثنين ٠

٨ ـ « الحياة جسر لابد أن يعبر » العربى : مايو ١٩٥٩

٩ ـ « هكذا أدبنا أشياخنا » الهلال : مايو ١٩٥٠

١٠ ـ « أخذت اجازة من نفسى » الهلال : يوليو ١٩٥٠

١١ ـ « الحياة فن عسير ٠٠ استفد من تجاربى » الهلال : ديسمبر ١٩٥٠

١٢ ـ « سألت عن السعادة » الهلال : فبراير ١٩٥١

١٣ ـ « النجاح فى الحياة حظ » الهلال : يونيو ١٩٥٦

١٤ ـ « الحرب اليوم علم وتكنية » العربى : مارس ١٩٦٩

الباب الخامس

احمد زكى والوحدة العربية

لا يخلص العرب فى النكبات غير العرب ، وغير التمسك بالوحدة عندما تمهد النكبة للفرقة ، شريطة أن يكون عند كل بلد عربى مايؤهله للوحدة ·

أحمد زكى

سنحاول ان شاء الله ان نركز الافكار فى هذا الباب ، بعدما أفضنا فى الباب السابق فى الحديث عن موقف أحمد زكى من أزمة الشرق الأوسط ، ومعالجته لها ، وقبل أن نتعرض فى الباب السادس ان شاء الله لآرائه فى قضية الاسلام والعصر الحديث ، ولا بد أن نشير هنا أنه لابد للقارىء لكى يستكمل الصورة فى آراء أحمد زكى فى مسألة الوحدة العربية ان يرجع الى البابين السابق واللاحق ·

وتأتى أهمية رأى أحمد زكى فى مسألة الوحدة العربية من سيرة حياته شخصيا ، فهو عالم مصرى ، ذهب فأقام فى الكويت ، ليرأس تحرير مجلة تصدر للعرب أجمعين وتحمل اسم العربى ، والأهمية ليست شكلية فحسب ، ولا نظرية فحسب ، وانما هى أعمق من هذا وذاك ·

وقد تحدث أحمد زكى برأيه فى الوحدة ، وجودها وحقيقتها، وسبلها ، وكيف الوصول اليها ، فى غير حديث من أحاديث الشهر ، ولن نسرد هنا كل ما قاله ، ولا كل مقالاته ، وانما سنمضى على

نحو معين لا يرتبط بالترتيب التاريخى ، ولا يالاســـتقصاء ولكنه يرتبط بالقدرة على « أو بامكانية » الابانة عن أفكار الرجل فى هذا الشأن •

كتب الدكتور أحمد زكى ف (عدد يناير ١٩٦٦) يتحدث عن الأعوام السبعة الماضية من حياة العربى فأشــــار الى أن هناك مواضيع تغلق دونها أبواب النشر فى العربى ، اذ لا يمكن معالجتها ودخــــول « العــربى » بها فى كل البلاد العربية مع المزاج الفكرى الحاضر ، وضرب مثلا بالاشتراكية ، ومثلا آخر « بالوحدة العربية » وذكر أنه اذا تحدثنا الآن عن الوحدة وتحدثنا صادقين وخلعنا أدب السياسة والساسة والعقائدية ، لقلنا ان الوحدة الشاملة الكاملة تراجعت اليوم فى حسبان العرب الى حيث تراجعت بها التجربة المرة والاحداث ، والحديث اليوم أولى أن يكون فى وحدة كل قطر ، الوحدة الداخلية التى لا تكون وحدة خارجية الا بها ، وحدة الكيان الذى فيه بناء الدولة • هذه الوحدة الداخلية فى حاجة الى رعاية كثيرة فى أكثر البلاد العربية ، والى بحث كبير والى حديث كثير اذ كيف يمكن التوحيد بين وحدات هى فى داخلها متصدعة •

وعاد الدكتور أحمد زكى فى (مارس ١٩٦٦) ليجعل عنوان حديث الشهر : « الوحدة العربية •• ليست شعارا سياسيا يصرخ به الصارخون ليحجب الحقائق المرة حتى تفضحها الايام » فذكر أن كثيرا قد أرسلوا يعاتبونه على هذا الكلام الذى كتبه ، وأضاف أن أحدهم ناقشه فى رسالة ثم قال له فى آخرها : •• هب هذا حقا ، فما كان لرئيس تحرير «العربى» ان ينطق بمثله • ويسخر أحمد زكى من هذا الرأى قائلا : « عنده ان رئيس تحرير « العربى » يجب أن يكون حامل شعارات فى الأمة العربية ، دائما يصرخ باخبار السفر ، ولو كذبا ، حتى تصـــبح الأمة ذات يوم فتجد العدو عند عتبات

دورها يدق بكعوب بنادقه الأبواب » لاحظ أن هذا الكلام كان قبيل النكسة بعام وشهور » ٠

ويؤكد احمد زكى أنه ليس شيء أحق بالقول من هذا الذى قاله رئيس تحرير العربى فى ذلك المقال ٠

ويزيد فيقول « ان الوحدة العربية فى ظروف التاريخ العربى الحديث ، ومع رواسبه هى كوارث » ٠

ويحذر من أنها « شيء لا يمكن أن يتقبله الناس على مستوى عواطف الجماهير والشعور العام وحده ، لأن وحدة تبنى على هذا المستوى تكون كالشيء الطافى ليس لها قرار ٠ ليس لها عمد متأصلة فى قاع البحر تعمدها ٠٠ ان تذوق الجماهير الوحدة تخيلا غير مذاقها فعلا » ٠

الاقليمية والوحدة :

والدكتور احمد زكى يرجع السبب فى انهيار الوحدات القائمة على عواطف الجماهير الى الاقليمية المتأصلة فى طباع هذه الجماهير ٠

ولكنه ينظر الى هذه الاقليمية نظرة موضوعية ، ويقرر انها بعض صفات النفس الانسانية حتى فى البلد الواحد ويضرب الأمثلة الكثيرة على هذا المعنى ، فدمشق أحب للدمشقيين من حلب ٠٠٠ الخ ٠٠) ٠ ثم يفرق بين اعلان الحرب على الاقليمية واعلان الحرب على الغلو فيها ، « ان الاقليمية مزاج طبيعى محمود فى اعتداله ، مرذول فى غلوائه ، وما الاقليمية الا نوع من الاقليمية السليمة ، ومنها حب الاوطان » ٠

« وللاقليمية حتى فى البلاد المستنيرة حساسية تجاه كل غريب عن البلاد ، لا سيما فيما يتصل بالسكان فى البلاد ، لقد كره الفرنسيون وجود الجنود الامريكيين فى فرنسا بعد حرب ، وهم مخلصوهم من نكبتهم .. » .

ويمس الدكتور أحمد زكى العلاقة بين القومية والوحدة العربية فيقول : ان الوحدة الكاملة الشاملة الدستورية التى تشيع فى افهام الناس تتطلب نزول البلد الواحد عن بعض وجوه السيادة فيه ، فكيف يرجى من تلك الاقليميات التى نعرضها اليوم فى البلاد العربية أن ترضى بهذا ؟ هذا اذا كانت حرة فى اختيارها ، فكيف اذا لم تكن ؟

« ان سنين من التوعية طويلة يتطلبها التحضير الشامل للوحدة الدستورية الكاملة الشاملة ، ان تكن هذه حقا فهى خير مظلة تستظل بها البلاد .

والسبيل عند الدكتور أحمد زكى هو قيام كل بلد بالتحضير ، بالعمل على التشابه « علما وأدبا ، وثقافة ولغة وتنشئة أجسام وتربية أفهام ، ومعالجة مال ، واستثمار أرض وتصنيع موارد ، بحيث يجعل كل وجه من وجوه الحياة هنا شبه أخيه هناك الا فيما تدعو الى الخلاف فيه مصلحة ، ومعنى هذا « ممارسة التعاون على طول الخط » وهذا هو السبيل المفضل عند مفكرنا .

تقوية الاجزاء :

ولابد فى هذه السنوات من اشتغال كل أمة بأمور نفسها اشتغالا كاملا حثيثا تحاول به أن تسبق الزمان مسبقا ، تزرع البلاد اذا لم تكن تزرعت ، وتصنع اذا لم تكن تصنعت .. » .

« ان الوحدة اذا تعثرت قليلا أو اذا هى تجهم لها الدهر قليلا أو كثيرا ، فخير ما تنفق البلاد فيه زمانها – دون ان تنسى الوحدة – هو قيام كل بلد عربى بالعناية بأمر نفسه ، بارساء مقومات الحياة فيه ، أساطين عريضة ، تحمل مطالب هذا العصر الحديث وحاجاته الثقيلة ولا تتزلزل » ٠

ويلخص أحمد زكى فكرته فى هذا المجال فى عبارة أروع من عبارة نسبت الى سعد زغلول ومصدر الروعة فيها أنها استمدت التقرير والتقرير من الدرجات لا من مفهوم الأبيض والأسود حيث يقول : « ولنتذكر دائما ، ان الوحدة ، التى تضم آخر الأمر نياقا ، غير الوحدة التى تضم فيلة وفهودا وآسادا » ٠

أليس ذلك خيرا من القول بأن الصفر والصفر صفر كبير ! والواقع واحد أو يكاد ! ٠

ونواصل عرض آراء أحمد زكى فى موضوع الوحدة العربية « فى مقالات أخرى ، ولكن على طريقتنا هذه فى التبويب » :

الشعوب والوحدة :

وكان أحمد زكى لا يفتأ يدعو الى توعية الشعوب بمدى التضحيات من أجل الوحدة حتى يتبين استعدادها « علموا الشعوب ان الوحدة الشاملة أخذ وعطاء ، وهذا حق ، ولكن علموهم أيضا ان الوحدة الشاملة ستجمع بين السباع والذئاب والنعاج وأن النعاج لابد مأكولة ، وعلموا الشعوب التى عندها ما تعطى ظاهرا وليس عندها ما تأخذ ظاهرا بأن الوحدة غرم عليها واستغلال ، (العربى : يناير ١٩٧١) ٠

التقسيمات والمحاور :

وكان الدكتور احمد زكى لا يفتأ يتحدث عن خطورة التقسيمات الى اشتراكية وغير اشتراكية وملكية وجمهورية ، وكان يناقش هذه الآراء فيمحصها ويبين ان النفع ليس فى الشكل وانه فى المضمون ٠

وكان يرى أن الحل فى هذه الأمور هو معالجتها بهدوء : « انها صنوف من الاختلاف تمنع من ائتلاف ، اما أن نعالجها بحكمة ، والا فعلى العروبة والاسلام كليهما السلام ٠

الوحدة الاندماجية ليست اليوم :

وهو يستنتج بعد هذا ويقرر أنه « لا يمكن ان تكون هناك وحدة اندماج تكون فيها للعرب حكومة واحدة تنظر فى شتى أمورهم وتدفع عنهم غائلة الايام من الخليج الى المحيط » الى هذا يجب أن ننتهى ، وبهذا نصرح ولا نخدع الناس » ٠

« وتبقى الوحدة الكاملة الشاملة أملا عسى ان تخطىء الآراء وتتغير بما لا نستطيع ان نتنبأ الاحوال » ٠

« وصلة العروبة لا يمكن أن تزول ، كما أنها ، على التقدير الحاضر للامور لا يمكن ان تنتهى الى وحدة كتلك التى ننعتها بالكاملة الشاملة ٠

« وان لم تكن وحدة واحدة شاملة كبيرة فلتكن وحدات مجزأة صغيرة » ٠

وحدات جديرة بالرعاية :

ونعود لنتأمل فى هدوء سريع – ان جاز هذا التعبير – آراء أحمد زكى فى عناصر الوحدة ، والطريق الى الوحدة الشاملة، هذه

الآراء التى ابداها مع انعقاد مؤتمر القمة العربى الاول فى ١٩٦٤ ..
كان أحمد زكى يرى ان هناك وحدات كثيرة أولى بالرعاية ....
والوحدة الثقافية أولى هذه الوحدات بالرعاية ، وهى أسهل شىء تحقيقا فى مثل عالمنا العربى ، لسان واحد ، وتاريخ واحد ، وعادات موروثة واحدة ، وجهاد واحد للخروج من تخلف آثاره فى الوطن العربى كله واحدة والثقافة تتأقلم ولكن لا يبلغ بها التأقلم حد التنافر .

والوحدة الاقتصادية : كالوحدة الثقافية خطرا ، فالثقافة حاجة الروح والاقتصاد حاجة البدن ، ولعل حاجة الابدان أكثر ربطا للاقدام من حاجة الارواح . والوحدة الاقتصادية العربية بالطبع لا تسد النوافذ على أسواق الدنيا الواسعة العريضة . تأتى بعد ذلك الوحدتان الدفاعية والسياسية ، ولهما أهداف سواء .

الصفاء مع الفرس والباكستان :

سيجد القارىء فى الباب الذى يتناول معالجة أحمد زكى لأزمة الشرق الاوسط أننا خصصنا بندا للحديث عن ما بعد الحرب ودعوة أحمد زكى الى الانفتاح على العالم بدءا بالجيران الأقربين ، ودعوة الى التوسع فى معنى العروبة والاتجاه الى الاسلامية .. والحق أن أحمد زكى لم يناد بهذه الدعوة بعد نصر اكتوبر فحسب ، ولكنه كان ينادى بها من قبل ٦٤ ، وكان يدعو الى اعادة النظر فى العلاقات مع الفرس والباكستان ، واصلاح شأن هذه العلاقات ، وكان يقول « ان اقداما مست الأرض فى القرن العشرين ، يجب ان تحمل رءوسها معها ، فلا تتركها ترعى المر والحنظل من زرع ماضيات القرون » ويحث أحمد زكى فى موضع آخر على اصلاح شان هذه العلاقات فيتساءل « لقد وسعت سماحتنا بل وصداقتنا أمم الأرض .. فكيف لا تتسع لشعوب شاركتنا فى صنع أمجاد لنا ولهم قديمة ، وقاسمتنا

أرزاء للزمن حاضرة » ، ويحذر عالمنا الجليل من أن نخضع هذه الأمور للجدل « لا سيما اذا استعين فيه بنبش الماضى بعيده والقريب ، حينذاك يتغبش ويصبح الحق وكأنه الباطل ٠ (هل كان الرجل ينظر من وراء حجاب الى ما حدث بعد وفاته بسنوات فى حروب الخليج) ٠

هل العروبة عروبة دم ؟

مع شك أحمد زكى فى تحديد معنى العروبة الا أنه كان يجاهر فى صراحة (العربى : نوفمبر ١٩٧٠) ان العروبة ليست عروبة دم أبدا ، ولا عروبة عروق موروثة ، وأكثر ما يقال فى هذا الأمر وأوضح ما يقال : ان الدم العربى دخل - على القرون الطويلة شرايين الكثير ممن ينطقون اليوم بالعربية ٠ وسواء دخل كثيرا أو دخل قليلا ، أو حتى لم يدخل أبدا ، ودخول الدم الاجسام لا يعنى عند العلماء شيئا حتى اختلاط الانساب لا يدوم أثره أكثر من ثلاثة أجيال أو أربعة أو خمسة ثم يمحى ٠

دور اللغة فى تحقيق الوحـــدة :

وعلى الصـــعيد الآخر يرى الدكتور أحمد زكى (العــربى : نوفمبر ١٩٧٠) أن اللغة لغة الناس ، هى المكون الاول لقوميتهم ، فهى الوعاء الذى يحمل حاضرهم بكل ما فيه مما يسر وما يسىء ، وهو الوعاء الذى يحمل ماضيهم وما الحاضر الا ارث من الماضى وهو الوعاء الذى تجد فيه كل آمال القوم ، وكل آلامهم ، والحوافز التى تحركهم جميعا فى مسالك الحياة جميعا ٠ كيف يسلكونها والى أى الغايات يسلكون ؟ « لكادت اللغة والقومية أن يكونا شـــيئا ســـويا » ٠

لهذا كان اهتمام الدكتور أحمد زكى شديدا بهذا الدور الذى تلعبه اللغة ، فهو يقدره حق قدره ، ويدعو الى الاهتمام به ، ويجعل له المنزلة العظمى فى مسألة القوميات ٠

فأما عن تقديره له فقد سقنا الفقرة السابقة ، وأما عن دعوته الى الاهتمام به فهذا هو موضوع البند التالى حول المشرق العربى والمغرب العربى كيف فرقت بينهما اللغة ،واما أن أحمد زكى يجعل للغة المنزلة العظمى فى مسألة القوميات فقد سبق ان أوضحنا هذه النقطة بكثير من التفصيل فى الباب الذى تناول الفكر السياسى للدكتور أحمد زكى فى البند الخاص بالقوميات ٠

بين المشرق العربى والمغرب العربى :

كان الدكتور زكى يرى لا فى كتاباته فحسب ولكن فى العنوان وبالبنط العريض ، أنه « من وحى رحلة فى المغرب العربى لصيف عام ١٩٧٠ ٠٠ اللغة العربية ان شقت الوطن العربى شقين ٠٠٠ فشق ينطق بالضاد ، وشق ينطق بغير الضاد ٠٠ فذلك قضاء الله لا دافع له » ٠ وخلاصة قوله فى هذا أن المغرب العربى قد عانى من الاستعمار الفرنسى « اللاتينى » الذى عرفنا من خصائصه حب صبغ مستعمراته بلون ولغة ٠٠ وهكذا عانى مغربنا العربى من هذا التغير الخطير ٠ ويمضى الدكتور زكى فى شرح ابعاد المشكلة وحلولها وكيف أن الأمل فى حلها كبير ، خصوصا للاسباب الآتية:

١ ـ ان الريف ، وهو أكثر النبلاء لا يتكلم الا العربية ، ولو عامية محلية ٠

٢ ـ ان الذين يتكلمون لغة المستعمر فى العواصم من الجمهور لا يتكلمون من هذه اللغة ولا يعرفون منها الا القدر الذى تستوفى حاجات الشوارع والاسواق والجارى السارى من المعاملات ٠

٣ ـ ان المستعمر خلف البلاد فى جهالة غامرة ، واذن لابد من أن يبدأ تعليم السواد من جذوره وحيث بدأنا من الجذور وجب أن تكون البذور عربية ٠

٤ ـ ان طائفة الوطنيين المثقفين ثقافة فرنسية ، وهم قلة وهى الضخمة ، ولهم كل عطفى بحسبانهم ذلك فهؤلاء امرهم يسير ليس فيهم من يعجز عن أن يستدرك من لغة آبائه ما فات ، ولن يساء أحد بسبب اختلاف الدهور وتقلب الحظوظ ٠

ولكنه مع ذلك يركز على الاختلاف الناشىء بين ضلعى الوطن العربى ، واثره السىء فيما يتعلق بمسالة الوحدة العربية ٠

وان ما يعنينا من هذا الحديث هو ذلك الفهم التطبيقى للأثر الخطير الذى هو للغة فى صنع القومية وقيام الوحدة ، على اننا سنترك للقارىء حرية الرجوع الى هذا الحديث للاســـتمتاع بهذا الأثر الفكرى الرائع ٠

الانسجام مع الجماعة سبيل العروبة الى الحياة :

يهدف أحمد زكى من هذا الشعار الذى رفعه فى أوائل مقالاته بالعربى الى أن ينسجم الفرد مع رأى الجميع حتى لو عرف بضلاله ، وأدرك خطأه ٠ ويمضى يذكر لنا أمثلة ومواقف من التاريخ العربى كان أبطالها الشاعران الكبيران دريد بن الصمة ، ومحمود سامى البارودى ، يدركون أن الجماعة تذهب بعيدا عن الصواب ، فكانوا يذهبون معها ، حتى لا يفتحوا بابا للشـــقاق ، ولكنهم ســـجلوا باشعارهم أنهم كانوا على صواب ، وبقيت لنا هذه الأشعار تبرئهم من فساد الرأى ، وتذكر لهم فضل الانسجام مع الجماعة ٠

ولكن لابد للعمل الجاد من أجل الوحدة :

وعبارات كاتبنا الكبير فى هذا المعنى غنية عن التعليق ، وعن مقال مارس ١٩٦٤ ننقل قوله : « ان السماء لا تستجيب لدعاء الا

أن يعمل له الداعى أولا فوق هذه الأرض ، ولقد نظرنا فى أسباب الفكر الذى كان فرضـــيناها قواعد تترك لكل بلد أعنتـــه فى أيدى رجاله ، وتتواصى ، ولكن على الرفق ، ونجعلها حلبة سباق تسبق فيها الجياد الضامرات الفضليات فى كل مرفق من مرافق الحياة ، وفى حلبة السبق يتعلم أصحاب الجياد الشىء الكثير » ·

« واختصارا نعود الى المزاج العربى الذى كان ســـائدا عام ١٩٥٦ حين لم يكن بين العرب روابط الا روابط قلوب ، حين وقع الاعتداء المسلح فاهتز له الوطن العربى بمثل ما لم يكن يرجى له أخيرا أن يهتز والدعوة الى « الوحدة الشاملة » قائمة مسمعة تصم الآذان » ·

خطـــورة ضـــياع الوحـــدة :

ليس من خاتمة فى هـــذا الموضوع أولى من خاتمة التحذير والتنبيه فى قول الرجل « وبضياع الوحدة تكون مرارة فى الأنفس شديدة عميقة ، لو كانت فى اللسان ما ذهبت بها حلاوة يجتمع على استخلاصها النحل من زهر الأرض جميعه · والعاقبة للصابرين » ·

المصـــــادر :

١ ـ « رابطة الثقافة أقوى من رابطة السياسة » الهلال : ديسمبر ١٩٥٣ ٠

٢ ـ « الجامعتان العربية والاسلامية » الهلال : نوفمبر ١٩٥٤ ٠

٣ ـ « القومية العـــربية تجتاز محنـــا ثلاث » العربى : ابريل ١٩٥٩ ٠

٤ ـ « النكبة الكبرى نكبة فلسطين » العربى : يونيو ١٩٥٩ ٠

٥ ـ « العروبة ليست رابطة دماء » العربى : يناير ١٩٦٠ ٠

٦ ـ « الشعوب نعرة عنصرية وتفتيت قومية » العربى : فبراير ١٩٦٠ ٠

٧ ـ « أمجاد العرب هى أم أمجاد المســـلمين » العربى « فبراير ١٩٦٤ ٠

٨ ـ « مؤتمر القمة العربى الأول » العربى : مارس ١٩٦٤ ٠

٩ ـ « العروبة والاسلام » العربى : يونيو ١٩٦٤ ٠

١٠ ـ « بدأنا الســـنة الثامنة مباركة فى حياة العربى » : يناير ١٩٦٦ ٠

١١ ـ « الوحدة العربية ليست شعآرا يصرخ به الصارخون ليحجب الحقـائق المرة حتى تفضـــحها الايام » العربى : مارس ١٩٦٦ ٠

١٢ ـ « نحن العرب : لا خوف علينا اليوم ولا غدا ، ولا بعد غد ولا نحن نحزن » العربى : يناير ١٩٦٩ ٠

١٣ ـ « المجتمع العربى » العربى : اكتوبر ١٩٦٩ ٠

١٤ ـ « رباطان هما مساك الأمم لا ينحلان أبدا : القومية والدين » العربى : ابريل ١٩٧٠ ٠

١٥ ـ « من وحى رحلة فى المغرب العربى لصـــيف عام ١٩٧٠ » نوفمبر ١٩٧٠ ٠

١٦ ـ « ان تكن ماتت الوحدة الكاملة الشاملة ٠٠ فلنحى اجزاء فى ظل العروبة متكاملة » العربى : يناير ١٩٧١ ٠

١٧ ـ حضارتان عريقتان يعيش العربى فى ظلالهمـــا » العربى ديسمبر ١٩٧٢ ٠

١٨ ـ « الانسجام مع الجماعة سبيل العروبة الى الحياة » العربى : ديسمبر ١٩٧٣ ٠

١٩ ـ « الانفتاح على الدنيا ضرورة » العربى : فبراير ١٩٧٤ ٠

٢٠ ـ « اذا جمعت الحرب فلابد ان يفرق السلم » العربى : مارس ١٩٧٤ ٠

٢١ ـ « اختلاف الرأى فى ســـبيل الخير غير اختلاف الرأى عن خبث ومكر » العربى: مايو ١٩٧٤ ٠

٢٢ ـ « لا صلح بين الزعماء اذا لم يتبعه صلح بين الشـــعوب وصلح الشعوب أعصى » العربى : يونيو ١٩٧٥ ٠

الباب الســـادس

الاســـلام والعصر الحديث

« لقد كانت الحضارة العربية الاسلاميـــة جديرة بان تكون هى الحضارة الجديدة تعتنق الجديد اللازم لهذه العصور الجديدة ، وذلك بكل ما تضمنته من خير عظيم، ومن ديمقـــراطية هى فى أصـــل حياتها وثيقة وفيرة ، ولكن فاتهـــا ما لم يفت أهل أوروبا من ضرورة تحرير الفكر قبل التفكير فى التخطيط والتدبير » •

احمد زكى

لعل فقرة الاطار تلخص فى تركيز شديد الجزء الاكبر من افكار هذا الباب ، ولكنها مع ذلك قد لا ترضى البعض ، وهى على هذه الصورة من الاجمال والتعميم ، ومن هنا تأتى فرصـــة المؤلف فى هذا الباب ، **لا بالاطناب أو الاسهاب أو التعليق** على ما لا يحتاج الى التعليق ، ولكن بتناول الجوانب والنواحى والمزايا المختلفـة لهذه القضية من خلال افكار الدكتور احمد زكى فى عدد من مقالاته الصحفية المختصة •

وتأتى اهمية فلسفة الدكتور زكى لهذا الموضوع من حيث كان الرجل مفكرا اسلاميا غيورا على دينه ، مهتما بأمره ، مدركا كيف يكون التوافق بين الدين والحياة ، دارسا لفلسفة التاريخ وطبيعة التطور •

ولن يجد القارىء فى هذا الباب حلا لكل المعضلات التى تواجه

الفكر الانسانى فى العصر الحديث فيما يتعلق بهذه القضية ، ولكنه سيجد أساسا فكريا يستطيع أن يبنى عليه من الموقف ما يساعده على الوصول الى وجه الحقيقة فى كثير من هذه الجزئيات ·

وسـيلاحظ القارىء فى العبارات التى ننتقيها للدكتور زكى شيئا من الانشاء فى اعجابه بالدين الاسلامى وسماحته وقدرته على الاستيعاب والتوجيه والبناء ، وليس للمؤلف أن يقول ان هذه العبارات لا تنم عن عاطفة الدكتور زكى بقدر ما تنم عن عقله ، ليس للمؤلف أن يقول ذلك فيما أظن لأن هذا من البدهيات سواء من ناحية الاسلام الذى لا يستطيع قلم كائن من كان أن يوفيه حقه ، أو سواء من ناحية الدكتور زكى ·

وفيما يتعلق بالدعوة الى انشاء جامعة اسلامية (توسـيعا للجامعة العربية) أو بادىء ذى بدء فقد أشرنا الى هذه الفكرة لأحمد زكى فى الباب السابق من وجهة النظر السياسية والعربية · أما هنا فسوف نشـير الى الفكر من وجهتى النظر الانسـانية والاسـلامية ·

وسوف يخرج القارىء من هذا الباب وهو يشعر بقصـره ، ولكننا نرجو أن لا يشعر القارىء بقصور فيه ، فهذا ما عملنا على تجنبه قدر امكاننا ·

اما عن أبرز المقالات التى تأخذ منها أفكاره هذه فهى :

١ ـ « **الجامعتان العربية والاسلامية** » **الهلال** : نوفمبر ١٩٥٤ ·

٢ ـ « **الاسلام والمسيحية هل يمكن التوحيد بينهما ؟** » الهلال : يناير ١٩٥٥ ·

٣ ـ « كنا زمنا سادة فلنكن اليوم أسيادا » **الهلال** : يناير ١٩٥٦ ·

٤ ـ « عبادة الله بغير علم كعبادة الاصنام » الهلال : مايو ١٩٥٦ ٠

٥ ـ « النكبة الكبرى نكبة فلسطين » العربى : يونيو ١٩٥٩ ٠

٦ ـ « أمجاد العرب : العرب حملوا مشعل الفكر قرنا » العربى : نوفمبر ١٩٦٣ ٠

٧ ـ « أمجاد العرب هى أم أمجاد المسلمين » العربى : فبراير ١٩٦٤ ٠

٨ ـ « العروبة والاسلام » العربى : يونيو ١٩٦٤ ٠

٩ ـ « النكسة الكبرى ثالث النكسات فى ٢٠ عاما » العربى يوليو ١٩٦٧ ٠

١٠ ـ « نحن العرب : لا خوف علينا اليوم ولا غدا ، ولا بعد غد ولا نحن نحزن » العربى : يناير ١٩٦٩ ٠

١١ ـ « الحرب اليوم علم وتكنية » العربى : مارس ١٩٦١ ٠

١٢ ـ « ١١ عاما من حياة العربى » العربى : يناير ١٩٧٠ ٠

١٣ ـ « الولاء » العربى : فبراير ١٩٧٠ ٠

١٤ ـ « رباطان هما مساك الأمم لا ينحلان أبدا ـ القومية والدين » العربى : ابريل ١٩٧٠ ٠

١٥ ـ « معركة الفقر والغنى » العربى : يوليو ١٩٧١ ٠

١٦ ـ « حضارتان عريقتان يعيش العربى فى ظلالهما » العربى : يوليو ١٩٧٢ ٠

١٧ ـ « حقائق عشر عن تخلف الشرق » العربى : يناير ١٩٧٣ ٠

١٨ ـ « للجدل آداب لابد من احيائها » العربى : فبراير ١٩٧٣ ٠

١٩ ـ « من أين والى أين يارجال العرب » العربى : ابريل ١٩٧٣ ٠

٢٠ ـ « الحضارة الحاضرة زيت وفحم » العربى : يوليو ١٩٧٣ ٠

٢١ ـ « الضمير لفظ له معنى فى اللغة لم يعرفه العرب » العربى : مارس ١٩٧٥ ٠

وقديلاحظ القارىء أن بعض العناوين التى أخذنا عنها هذا الباب قد لا تمت الى الموضوع مباشرة ، والواقع أن هذا يعود الى أن الدكتور زكى لم تقتصر أفكاره على موضـــع معين من مقالاته واحـــاديثه ، وانما كانت تفرض نفســـها على قلمه فى كثير من المواضع ٠

ويؤكد الدكتور زكى بشدة على أهمية عنصر حرية الفكر وهو يرى فى مقاله « معركة الفقر والغنى » (العربى : يوليو ١٩٧١) أن مشكلة الاسلام جاءت من بعض الذين أتخذوا من الدين صناعة، وضيقوا على الناس أبواب الفكر ، وحرموا الفلســـفة فى حين أن الاسلام هو أكثر الأديان تكريما للفكر والعقل ، والجدل فى الاسلام أساس الايمان :

« لقد أعطى الله العرب والمسلمين دنيا سمحة ، وآفاقا للرأى واسعة ، وسعت الدنيا والآخرة ، وأعطاهم من الرجال المتحـررين مثل من يقول لعامل له : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم احرارا ، ولكن قوما صار لهم الدين صـــناعة ، وما جاز الدين الاسلامى ان يكون صناعة لأحد ، عمدوا بحكم الصنعة الى تضييق السبل وتعسير السبل فيها ، والى المبالغة فى الحذر حتى سدوا على الناس أبواب الفكر ، وجعلوا الفلســـفة بابا كتبوا عليه « ممنوع

الدخول » زيادة فى الخشية حينا ، وجهلا بالفلسفة أحيانا ، ولو علموا أن الفلسفة كالفكر قد تؤدى الى الايمان كما تؤدى الى الكفر ، لما ألحدوا وثابروا على ذمها الى اليوم · هذا فى حين أنك لن تجد دينا كرم الفكر ومجد العقل · كما كرمه ومجده الاسلام · والجدل فى الاسلام أساس الايمان » ·

ولكن ما هو معنى السماحة فى الدين ؟ وماهو علاقة هذا المعنى بالاسلام كدين للمسلمين فى هذا العصر ؟

« الدين الاسلامى سمح والدين السمح هو الذى يقول نعم أكثر مما يقول لا ، «لا» لا بد منها ، ولكن لا تقول «لا» الا بعد فكركثير، وحذر شديد ، وأخذ بما نؤمل للعرب والمسلمين فى مستقبل أيامهم، لا من نعمة وخيفة هازلة ، ولكن من طيب حال وطيد ، وعزة وقوة وصفة لا تطيب بغيرها حياة أبدا ففى الآخرة عنها عوض ان الله أوجدنا فى الدنيا لنبتئس بها وليكون أجر بؤسها فى الآخرة !!

« قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » ·

ويفهم الدكتور أحمد زكى الاصلاح الدينى على نحو يخلص الاسلام مما أحاط به فى عصور متتالية ويرجع الى يوم كان النبى صلى الله عليه وسلم :

« الاصلاح الدينى فى الاسلام هو الرجوع الى الدين يوم كان محمد صلوات الله عليه قائما فيه والاكتفاء بما كان من دين فى عهده ، والى وفاته · فلماذا ندعى بأن اسلامنا لا يصح ، الا اذا عدنا الى المؤلفات الكثيرة والمذاهب العديدة التى صنفها القرون من بعد ذلك وهى قرون اختلفت والقرن الذى عاشه النبى صلى الله عليه وسلم واختلفت وقرونا نعيش فيها اليوم » ·

وينتقل الدكتور أحمد زكى الى تحـــديد العــلاقة بين الدين والحياة على نحو يتيح للأخذ بفلسفته نوعا من التوفيق العقلى ، وعبارة الدكتور أحمد زكى فى هذا المعنى جازمة حاسمة ، اقرأ لهفى مقاله « الضمير لفظ له معنى فى اللغة لم يعرفه العرب » « العربى · مارس ١٩٧٥ » ·

« علم الله لا أقر دينا لا يعمل فى صالح من هم به مؤمنون ، فالمصلحة أولا ، ورأى الرائى فى تفسير النصـــــوص يأتى فى المقام الثانى ، واعلم أن رأى الرائى فى تفسير النصــوص يتلون بلون زمانه ، وللأزمنة ألوان شتى وأعلم ان الناس تتطـــور ويتطـور عيشها ، وتتطور أنظمة حياتها · وتتطور مشاكل لها فلا يبقى مما تعتمد عليه من مقالة قديمة للحكماء ، أو رأى شديد كان لبعض البلغاء الا ما اتصل بقواعد الحياة الأساسية الأولى التى يحاول الدهر أن يغير منها ويبدل ثم لا يكاد » ·

وفى موضع آخر يرد الدكتور زكى على أولئك المتحذلقين الذين رأوا فى الدين وفى الايمان تخلفا ورجعية ، ومناقضة للتقدم ، فيقول فى نهاية حديثه « حتى الايمان لا يكون الا بعد تفكر والايمان درجات، لا أحسب أن رجلا ، ذا دين ، يتفق فكره كله مع ما جاء بدينه حرفا حرفا ، ولا يخرجه ذلك عن ايمانه » ·

ومن هذا المدخل يتناول الدكتور أحمد زكى فى مقال عن الحرية « العربى مارس ١٩٦٩ » مسألة رهن الحضارة الاوروبية بحجة « معارضتها مع الدين » لما تحتويه من بعض التجاوزات فى الناحية الاخلاقية التى يكثر الرافضون من ذكر أمثلتهـــا ، ويفند الدكتور أحمد زكى هذه المزاعم ، وينهى حديثه بقوله « هذا افك وبهتان ، فالصالح صالح فى كل زمان ومكان ، وهم يقبسون للتشهير بالمدنية الحاضرة ما فيها من شر ، ويصمتون عما فيها من خير ليحسب

الناس أنه هكذا كل ما فى الوعاء ، وماعرفنا مدنية الا وكان فيها الطيب والخبيث بحكم ان الانسان مصدر الخير والشر صاحبها » ٠

ذات المعنى يعبر عنه الدكتور أحمد زكى فى قضية أخرى تتصل بالموضوع ، فى مسألة العلاقة بين الولايات المتحدة والعرب ، حين كانت الولايات تستعلى بقوتها على العرب ، وعلى حل القضـــية الفلسطينية فى الفترة ما بين الحربين (١٩٦٧ ـ ١٩٧٣) وكان هناك قوم يردون ذلك الى أن فى العلم شرا أو شيئا من هذا القبيل ، وكانوا يذكرون هذا فى معرض الحديث عن العلم والأخذ به ، وكان فى ذلك شر الأمور حين نترك العلم الى الجهل لأننا نرى قوما صار لهم مع العلم شىء من الشر ، هنا لا ينى الدكتور أحمد زكى عن أن يبين الحق فى طبائع الأشياء فيقول فى وضوح وحزم وجزم :

« ان الانسان خلق ومعه الخير والشر ، والعلم والتكنية فيهما الخير والشر معا ، بل هما اداتان عجماوان ليس فيهما ارادة الخير أو ارادة الشر ، ولكن فى الانسان كالسكين نقطع بها الثمر من شجر ، أو بها قطع الرقاب ، كذلك العلم والتكنية مطيتان طيعتان يركبهما بنو الناس ليسلكوا بهما الطريق الى الله أو الطريق الى الشيطان وما اكثر ما يتعمى على البشر الطريقان » ٠

يؤمن الدكتور احمد زكى بضرورة ايجاد التوازن بين العلـــم والايمان ، وبضرورة الجمع بينهما فى توازن وتوائم وتعاون يتيح التقدم الذى يســـــند الى القوة الذاتية ، والقوة الداخلية التى لاتزعزعها عواصف الزمان ٠

وعلى حين ينعى الدكتور احمد زكى على الجامدين جمودهـــم فى سبيل العلم ، وكفهم عن الجهاد فى سبيله فانه فى الناحية الأخرى لايقبل مايفعله « التقدميون » ممن ظنوا أنهم بدرجاتهم العلمية قد

أصبحوا مؤهلين للحكم فى أمور الدين والدنيا ، فذهبوا يرمون الدين وأهله بالرجعية والتخلف · ها هو مفكرنا الدكتور زكى يقولها فى صراحة وقوة لهؤلاء ·

« ومقالة أقولها لبعض شباب العرب الذين أخذوا من الدكترة شارة يتقدمون بها الى السذج من أهلنا ، يتهمونهم بالرجعية ، وينسبون هذه الرجعية الى الايمان بالله ، ويشككون فى الاديان جميعا ، أقول لهؤلاء فما بالكم وضمائر هذه الأمم التى لا تجد لها الى اليوم اساسا صالحا تقوم عليه غير الدين · مابالكم بها هكذا تصفون · واياها تهدمون ، واذا هدمت فماذا للناس بديلا عنها تقدمون » ·

يتناول الدكتور أحمد زكى مسألة الضمير ، وقد أفردنا لهذه النقطة فى فكره بندا فى باب البناء الاجتماعى ، ولكن ما يعنينا هنا هو هذا التأكيد الذى يذهب فيه مفكرنا الى أبعد مدى فى اضواء الاسلام وقرآنه على خلاصة الضمائر وأصولها الأولى ، هنا يتبين لنا الى أى حد كان الرجل يؤمن باخلاقيات الإسلام وامكاناتها غير المحدودة ، على الرغم مما قد يتصوره البعض حين يقرأون له رأيه القائل بأن الدين ليس مصدرا للسلوك الانسانى أو حين يتجاوزون فى فهم هذا الرأى النظرى الذى عبرنا بالتفصيل عن حقيقته فى موضع · واقرأ للدكتور زكى فى مقاله عن الضمير قوله :

وفى الدين الاسلامى ، وفى القرآن الكريم ، مايملأ دساتير الضمائر بأصولها الأولى ، من عدل ورحمة ، وزاد فى الكشف عن كلمة العيش مفاهيم تخفف على الناس فى دنياهم كثيرا من اثقال السنين ، والاسلام ، كما جاء به الرسول الكريم ، لاكما صار اليه من بعده فى وجوه شتى دنيا ودين · ومعنى ذلك عندى أنه عقيدة

وفريضة • ثم هو حضارة ، حضارة سبقت زمانها بعدة من قرون لو أن الله كان قيض لها كفاة من أهلها لما بزتها الى اليوم حضـارة كانت أو تكون •

جانب آخر يحرص الدكتور أحمد زكى على لفت النظر اليه فى ديننا الحنيف ، حين يتحدث عن الولاء ، ويحلله لنا فى دراسة تاريخية واجتماعية شاملة ، ويتعرض للولاء فى الاسلام فبين كيف نجح الاسلام فى التوفيق بين الولاءات ، وكيف اعطى لكل ولاء حقه المناسب ، المناسب للولاء ، والمناسب للانسان نفسه :

« والولاء العاطفى اتسع له الاسلام اتسـاعا كبيرا ، ولكن لم يتسع كل هذا الاتساع للولاء الوطنى المحلى السياسى • ان احتمله بمقدار مايحتمله الطبع الانسانى ولكنه تجاوز الوطن الأوسع الى أرض الله الواسعة • فحيثما ذكر اسـم الله فهذا هو الوطن على اختلاف لون ، واختلاف لسان ، ومن أجل هذا كثرت فى الاسـلام الأوطان » •

« وينزل العالم ببغداد أو بدمشق أو القـاهرة أو القيروان أو قرطبة ، وهو حيثما حل يجد وطنا واحدا ، وولاء واحدا ، وترحيبا واحدا ، وكثيرا مازاد فأين ولد ابن خلـدون وأين درس وأين عبد اللطيف البغدادى وأين علم ؟ والكندى وابن الهيثم ؟ ، وهو حيثما حل ، عنده الولاء يعطيه ، وله الولاء يعطاه » •

ثم يخط لنا قلم أحمد زكى عبارة من عباراته الخالدات ، لابد من الاعتراف من أن المؤلف أمضى الساعات يفاضل بينها وبين العبارة التى وضعت فى صدر هذا الباب أيهما يضع ، حتى غلبته طبيعته فى ذكر العبارة التى تغطى وجهين فى صدر الباب والابقاء على العبارة التى تصور جوهر رأى أحمد زكى فى لب الباب •

عبارة الدكتور زكى تقرر حقا لا ريب فيه حين تقول ان الاسلام كان أقوى روابط البشرية على الزمان :

ان انسان هذه الأرض ماربطه فى قديم الزمان رباط الاسلام ، وانا لا اتحدث هنا عن الاسلام عقيدة ، ولكن عن الاســلام حــركة انسانية ، جمعت من الانسان ، وربطت بينه ، مالم يكن سبق مثله ربط ولا جمع » ٠

ونعود للعلاقات بين الاسلام والعصر الحديث فنستطلع رأى العالم الذى قال فى عنوان مقاله فى الخمسينات ان عبادة الله بغير علم كعبادة الاصنام ، والذى تلت نفس القولة على لسانه فىحديثه مع سامح كريم (الاذاعة والتلفزيون : ١٩٧٤) هل كان الدكتور زكى صاحب هذا الرأى القائل بأن الباحث فى العلم اذا استهدف به بعض جوانب الله فهو أكبر عابد ، مشجعا لاولئك الذين يخلطون العلـــم بالدين ، على النحو المسمى بالتفسير العلمى للقرآن وما الى ذلك من الأمثلة التى يعرفها القراء الاعزاء ٠٠ وأقرأ معى مبرراته فى مقاله « حضارتان عريقتان يعيش العربى فى ظلالهما » (العربى : ١٢ / ٧٢) اذ يقول :

« وجاء عصر العلم الحديث ٠ فقام قوم باسم العلم ، يعمدون ماخالوا ان فقهاء المسلمين غير عامديه ، فربطوا الدين بخرافات من العلم حديثة ٠ زعزعت من ايمان أهل الايمان واليقين ٠ لووا عنق العلم مرة ، ومرة اصاب اللى عنق القرآن الكريم ، كل هذا ليلتقى الاثنان وساء لهم التقاء ، وقالت زمرة طيبة من خيرة من الفقـــهاء ماهذا بدين ، وماكان كتاب الله كتاب علم تستفاد منه تفاصيل المظاهر الكونية والقوانين ، فقلت لهم اصدعوا برايكم واصرخوا اعـــلانا وارتفعوا بالقرآن عن تلك المهاوى ، فهى ان زادت جمهرة الجاهلين

ايمانا بشعوذة زادت جمهرة أهل العلم شكا وريبة · قلت اصدعوا برأيكم ، ولكنهم عادوا بالسكوت والصمت يلوذون » ·

وفى مسألة **القومية والدين** يكتب الدكتور أحمد زكى كثيرا ، ثم يخصص مقالا كاملا لهذا الموضوع (ابريل ١٩٧٠) يجعل عنوانه . رباطان هما مساك الأمم لا ينحلان ابدا : القومية والدين ، وقبل أن يدخل الدكتور زكى فى العلاقة بين الاسلام والقومية يتعرض لليهودية التى كانت « دينا مغلقا وقومية مغلقة فلم تمتد فى ارجاء الدنيا ، ولعلها بسبب هذا عانى أهلها ولاسيما من أهل الغرب ، ماعانوا ، من معاملة لم تكن من أحسن المعاملات » على حين كانت المسيحية « دينا مفتوحا وقومية مفتوحة امتدت فاحتوت الكثير من ارجاء الدنيا » ·

وينبه الدكتور زكى من باب الاعتبار ـ على أثر الزمن فى الديانات ورجالها فيقرر فيما يتعلق بمسألة الكنيسة والدولة فى العصور الوسطى ان المسألة مسألة زمن ومسألة بشر :

« أى ادارة كنسية أو غير كنسية انما يديرها رجال والرجال تخطىء وتصيب وتصلح وتفسد ، ويختلط صالحها بفاسدها، والزمان الذى يأبى على الطعام أن يبقى طاهرا مطهرا فيصيبه العفن ، والزمان الذى يأبى على الشباب أن يظل على الصحة والقوة والقدرة فيصيبه مع الشيخوخة بالمرض والضعف والعجز هذا الزمان كأنما يأبى أن يترك شيئا على حال واحدة » ·

وينتهى الى مسألة ظهور « العلمانية » فيبين عن فهمه للأمر فيها بقوله « ان الخشية من الأديان ظهرت فى دساتير الأمم الحديثة لاسيما دول أهل الغرب ، وذلك للذى عاناه المجتمع الأوربى من حروب سببها اختلاف الأديان (حروب الثلاثين عاما والمائة عام)

« وكلها اختلطت فيها الاطماع الدنيوية بالمذاهب الدينية ، » مظهر الخشية عند هذه الأمم حذف ما كانت تجرى به الدساتير من أن الدين دين هذه الدولة أو تلك » ٠

ثم يقرر الدكتور زكى أن « حذف الدين من الدساتير انما يفيد عندهم (هكذا ذكر لى ذاكر منهم) ان الاديان لديهم سواسية . وانه لا يجزى مواطنا بينهم جزاء خير أو شر بسبب (نبيه) ولكن بامكاننا الرد على هذه النقطة بالذات فى بساطة شديدة فنقول انه كان بالامكان أن تبقى هذه الدول فى دستورها على النص على دينها ثم تضيف اليه هذين المعنيين سواسية الأديان ، وعدم ربط الجزاء بالدين ٠

على كل فان الدكتور أحمد زكى لايذهب فى هذه المسألة الى أبعد من هذا الحد ، لأنه يؤمن تمام الايمان ان مسألة الدين مازال لها الأثر الكبير فى عقليات ونفوس الأوربيين ، وأن علاقتهم بالحروب الصليبية التى قام بها أجدادهم فى الماضى لاتزال قائمة ، وأن الأمر فى هذه الحروب وان توارى الا انه لايزال راسبا فى أعماق الوعى أو أعماق اللاوعى قابلا للظهور فى المناسبات (انها احقاد تهبط من الوعى الى اللاوعى حتى تأتيها المناسبات فتطفو ٠٠ سلطان اللاوعى هو المحرك الثابت الدائم على الزمان) ٠

لهذا يدعو الدكتور احمد زكى الى قيام جامعة اسلامية ، وان تكون هذه الجامعة « سياسية هدفها الدفاع عن العقيدة ذاك الحق الذى سجله العصر الحاضر ، والديمقراطية الحاضرة ، وهو حق من ابرز حقوق الانسان) ٠

ويدعو الدكتور زكى الى اعادة النظر فى العلاقات مع اوربا من هذا المنطلق عنده أن الحق فى هذه الأمور يجب ان يكون واضحا عندنا وعندهم ، وان لابد من أن تظهر صورة الاسلام ساطعة ناصعة

قوية بمثل القوة التى فيه ، ولايمانع الدكتور زكى فى قيام قومية على اساس دينى ، على أساس الاسلام ، ويضرب الأمثال فيقول ان الدين هو حافز اليهود اليوم مهما حاول الصهاينة أن يقنعوا العالم بغير ذلك (ومن التاريخ القديم يذكر الدكتور زكى أن ابراهيم عليه السلام لم تمنعه مكانته عند الله من ان يكون شيخ قبيلة بدوية يريد لها مايريد من قومية ، وموسى كان رسولا نبيا ولكن لم يمنعه ذلك من انه كان زعيم قومه ، وانه خرج بهم من عبودية) .

على أن المؤلف يريد أن يستسمح القارىء فى ثلاث دقائق يزيد فيها مسألة العلاقة بين المسلمين واوربا ايضاحا بفقرتين من مقال الدكتور زكى « ومن أين والى أين يا رجال العرب » العربى : ابريل ١٩٧٣ ، اولهما قوله : « من **الواجب أن يقوم المسلمون بالدعاية الواسعة ليثبتوا بها ان الحروب الصليبية ما كانت الاحروبا استعمارية** شىء كهذا ، كان يذهب بالكثير من الكراهة التى فى قلوب أهل الغرب للعرب وللمسلمين منهم خاصة ، وسيعجب المسلمون عندما يعلمون أن اكثر مسيحيى أوربا يعتقدون أنهم وثنيون،فهكذا سماهم مسيحيو القرون الوسطى وتناقلوا هذه التهمة عبر السنين » .

والفقرة الثانية «سبب آخر جعل بيننا وبين هؤلاء الاقوام جفوة، لاتزال الى اليوم تعلم فى مدارسها التاريخ ، ومن التاريخ الحروب الصليبية » .

(**ولاعبرة للقول بأن المسيحية ضعفت فى اوربا** ، ونحن نأسف لضعف دين من أديان أهل الكتاب بين أهله ، فالدين عماد ، والدين خير ، والدين محبة.، ولكن ضعف العقيدة بين نصف أهل أوربا لايؤثر فى عواطف الرجال عندما ما يكبرون ، فالعقل هاربا او ضالا قد يقول لا ، وقد تقول العاطفة الدينية والكراهة : نعم » .

كل هذا فى الجوانب النظرية للموضوع فماذا عن الخطوات التنفيذية للنهوض بالمسلمين فى العصر الحديث ، هذا موضوع لاشك يرتبط بالواقع الاليم الذى عاشه المسلمون والعرب حين كان الدكتور أحمد زكى على قيد الحياة يعانى فى أكثر العمر من الهزائم التى منينا بها ومن ساعات الضيق والشدة ، ولكن هذا لايمنعه من ان يرى النور وسط الظلام ، وأن يرى طريق الخلاص ، وأن يلخص ذلك فيجعل أهدى السبيل هو **حرية الفكر** « نفس ماعبرت عنه الفقرة التى فى صدر هذا الباب) قال الدكتور أحمد زكى فى ختام حديث له عن المتناقضات والمؤملات العربية :

« **ومع هذا اختم القول ان العرب اليوم فى احلك ايامهم ، وقد تشرق الشمس غدا ، أو بعد غد،ولكن لا بد لاشراقها من اصلاح ذلك الخلل الأول فى بناء الناس ، ذلك الذى حال بين أهل الرأى ، وجماهير الناس ، فأهل الرأى عليهم رقابتان ، رقابة الحكومة ، وقد تكون جائزة ، ورقابة الجمهور المتخلف ، وهو كثيرا مايرفض الخير لجهالة ضاربة فيه ، ولنذكر دائما تلك النسبة التى اقسم بها العرب فى القرن العشرين ، تلك ان بهم سبعين فى المائة من الأميين** » ٠

وصبيحة النكسة كتب الدكتور أحمد زكى (٦٧/٧) يقول (**لنعد اسرع مانستطيع الى التحدى ، نعود الى التحدى العاقل هذه المرة ، العامل هذه المرة ، الصادق هذه المرة ، الصابر هذه المرة ، الناظر لما يقرأ أو ما يسمع هذه المرة ، المشارك مشاركة فعالة فى خلق الأجواء ، جو العمل فى الحقل والمصنع والمكتب والمتجر ، وجو الفكر فى مدرسة وجامعة ومسجد ومعبد ٠٠ الجو الحر الطليق الذى لا يخشى الحرية فطالب الحرية كيف يخشاها** » ٠

(ان وقائع هذا الزمان تصرخ فى آذاننا تريد أن تقول لنا أن عندكم أيها العرب أشياء كثيرة تحتاج الى اصلاح ، والكثير منها

الخافى الذى يخاف حتى عقلاء الناس ان يذكروه ·· عليكم اولا ان تتبينوها ، ولايكشفها الا الفكر الطليق » ·

« الفكر العربى فى الوقت المناسب القريب لا بد أن ينطلق أبيضه وأسوده وأزرقه وأحمره من كل أرض ، ومن كل كوخ ، ومن كل قصر ، ومن كل حامل سيف أو مشرط أو قلم أو كتاب أو فأس ، ويجب ان نسمع الرأى من ذوى العقول الراجحة ، وتلك التى تتراءى لنا غير راجحة ، ونسمع من العقول الملتزمة وغير الملتزمة ، والتى مزاجها الحفاظ ، والأخرى التى مزاجها التحرر على السواء » ·

« كل الآراء يجب أن يؤذن لها أن تقال ، ثم يقلب الرأى الواحد الذى أقنع رأسا على عقب لعل نقيضه هو الأهدى سبيلا » ·

« وأمور نشأنا على اعتبارها بعض قوام الحياة لابد أن نبدأ اليوم ندرسها من جديد ، لعل بهم اسم الحياة ، ونحن لاندرى ، حتى الغذاء ، حتى الهواء يجب ألا نفرض فيها الصحة والنقاء فمن يدرى ؟ ·

فى الشهر التالى (أغسطس ٦٧) يؤكد أحمد زكى بعنوان المقال نفسه أن « الفارس الذى سقط منه عند النزال سيفه ·· لا يزال سليم القلب والجسد » وفى موضع آخر يقول أحمد زكى فى قوة وصراحة انه « **لاحاجة بنا الى اخلاق نستوردها ولادين ·· أن ديننا مصدر من مصادر الخلق عندنا مبين مكين** » ·

الباب السابع

نظرية البناء الاجتماعي فى فلسفة أحمد زكى

(الغرائز ـ العادات ـ الأخلاق ـ التقاليد ـ الضمير ـ القيم)

أن اصحاب الضمائر هم قادة الأمم الصامتون وهم الذين يحركون حتى على الصمت الركب الانسانى نحو غاية أريدت له مرجوة ، فان نطقوا كانت الحركة أكبر واسرع ٠

أحمد زكى

كان الدكتور أحمد زكى دائم التأمل فى طبيعة النظم التى تحكم العلاقات بين الناس ، وكان دائم الكتابة فيما يلحظه من قواعد تقنن هذه الأمور ، والملاحظ للتطور الزمنى فيما كتبه الرجل ابتداء بمقالات الأربعينات فى الهلال ، أو ماقبل ذلك بقليل لاشك واجد كيف نمت الفكرة بعد الفكرة فى رأس الرجل ، حتى استطاع فى نهاية الأمر أن يكون فكرة كاملة أو نظرية متكاملة فى هذا الشأن ٠

ولو كان من عادة أحمد زكى أن يعيد النظر فيما كتبه فصولا ليكتبه كتابا أو كتيبا متكاملا لخرج من مقالاته التى تناولت هذا الموضوع بهذا الباب الذى نخرج به الى القارىء هنا ٠

ومن نافلة القول أنه ليس من الصعب على القارىء المحيط بأفكار أحمد زكى ومقالاته جميعا أن يدرك المعانى الكثيرة التى يرمى اليها تجميعنا لهذا الفصل ، غير أنه ليس بالشىء اليسير أن تفوت هذه

المعانى المتعطشين لفكر عالم ، عاش الحياة ، وفلسـفها ، وأراد الناس أن يعيشوها على خير ماتكون ·

ولن يزعج المؤلف فى هذا الباب بالاشارة الى مصادر حديث أحمد زكى ، فى أى مقال وفى أى مجلة ، فى كل فقرة من الفقرات ، ولكنه يتنازل عن هذا الخلق بعض الشىء ، ليتيح للأفكار التى تتناول حياة الناس الاجتماعية انسيابية تقربها من انسيابية حياة الناس الاجتماعية ، ولكن المؤلف مع ذلك سيشير فى البداية الى أهـم المقالات التى أخذ عنها تفكير أحمد زكى فى هذا الموضوع وهى :

المصـــادر :

١ ـ « عقل الانسان ميزان غير ثابت على الزمان » ـ العربى : يوليو ١٩٦٧ ٠

٢ ـ « هذه المدنية زادت الناس تجميعا أم تشتيتا » ـ العربى: ابريل ١٩٦٨ ٠

٣ ـ « الأخلاق ٠ اذا عجز العقل عن القول فيها ، قامت معايير أخرى تدعم قواعد السلوك والأخلاق » العربى : أغسطس ١٩٦٨ ٠

٤ ـ « العقل والايمان : عينان بهما يبصر الأنسان سبل الحياة ويهتدى » العربى : نوفمبر ١٩٦٨ ٠

٥ ـ « الحرية فى ظل العادات وفى ظل القانون » العربى : أغسطس ١٩٦٩ ٠

٦ ـ « مصادر السلوك الأنسانى ثلاثة : الغرائز والعـــادات والضمائر » ـ العربى : فبراير ١٩٧٢ ٠

٧ ـ « الأخلاق والقيم والعادات فى حياة الناس » ـ العربى : نوفمبر ١٩٧٢ ٠

٨ ـ « توحد المذاهب والمشـــارب والعادات فى الأمة الواحدة يسهل مسيرة الحياة فيها » ـ العربى : أغسطس ١٩٧٣ ٠

٩ ـ « التقاليد » ـ العربى : يوليو ١٩٧٤ ٠

١٠ ـ « أهل اليمين وأهل اليسار » ـ العربى : أكتوبر ١٩٧٤ ٠

١١ ـ « الضمير لفظ له معنى فى اللغة لم يعرفه العرب » ـ العربى : مارس ١٩٧٥ ٠

١٢ ـ « سوق عكاظ أيكون له نشر من بعد انطواء » ـ العربى : أغسطس ١٩٧٥ ٠

فى حديث للدكتور أحمد زكى عن **مصادر السلوك الانسانى** ، لخص عالمنا رأيه فى طبيعة هذه المصادر فى عنوان فرعى ، وقال انها ثلاثة : **الغرائز ، فالعادات فالتقاليد** .. وقد جعل الدكتور أحمد زكى مدخله الى الحديث قصة قص فيها أنهم كانوا فى جلسة عند واحد من الأصدقاء اذ جاءه خادمه فقال له أن فلانا يسأل عنه فى التليفون حتى اذا كان فى الدار جاءه على التو لزيارته،فقال صاحب الدار للخادم : قل لفلان أنى تركت المنزل منذ دقيقتين قاصدا الى المدينة وأنك لم تستطع أن تلحق بى لتخبرنى بمجيئـــه ! فتعجب الحاضرون ونظر بعضهم الى بعض والى مضيفهم وابتسموا فقال الرجل أنه ما أراد أن يجمع بين هذا الذى تكلم وبين أحد الجلوس لأن فى اجتماعهما جمعا بين الزيت والنار « فكذبناها كذبة بيضـاء ندفع بها من السوء الشىء الكثير » فيسأل واحد من الحضور : وماهى الكذبة السوداء ؟ فيجيبه الرجل : « أن تكون من مستأجرى أرضى ، وتجمع الحصاد ، وتبيع من الثمر ماتبيع ، وتلقانى وأسألك عن الايجار ، فتقول لى أنك فى حرج من ضيق ، وفى جيبك حشوة من مال وفير » وأضاف رجل آخر من الجلوس أن هناك كذبة لالون لها ، فسألوه : ماتلك ؟ فابانلهم عن أنها تلك التى نتفوه بها جميعا حين يلقى بعضنا بعضا كل صباح ويسأل الواحد اخاه : ــ كيف الحال ، وفى كل صباح يجيب بأن الحال عال والحمد لله « ولايمكن أن يكون الحال كل صباح عالا ، وأنت تعلم أنه لايمكن أن يكون كل صباح عالا ، وأنا أعلم أنه لا يمكن أن يكون كل صباح عالا فهذهكذبة نأتيها جميعا باتفاق عام ، ما كذبتك وما كذبتنى ، فهذه الكذبة التى لالون لها » ثم مضى الدكتور أحمد زكى يضرب على لسان واحد من شخصيات حكايته التمثيلية الوانا من الكذب التى تقع فى الحياة كل يوم : الزوج يسأل زوجته عن هدية أهداها اياها ، كيف وجدتها ، فكيف تقول ؟ زائر زارك فى المساء وحتى انتصف الليل ، ثم ذكر وهو يغادر بيتك أنه ربما أثقل عليك ، فأى شىء تجيب ؟ .. الخ ، وعقب

بقوله : « أمثلة فى الحياة لاتعد ، يقف منها الأنسان منكرا ، ولايقول الا حمدا ، أو حامدا ٠٠ وانتقل بعد ذلك ليضرب المثل بالرجل فى الحرب يقابله عدوه وهو خارج من البيت فيسأله أفى البيت أحد ؟ والعدو لايقصد الا قتلهم ويصف الدكتور زكى هذه الكذبة بأنها « كذبة جلت عن أن تكو نبيضاء » ٠ فهى فوق صنوف الصدق جميعها !

وانتقل أحمد زكى ليتأمل فى معنى الفضيلة ، ومعنى الرذيلة، وجعل تأمله على هيئة حوار بين الجلساء :

ثم سأل أحدهم : « من قال ان الصدق فضيلة وأن الكذب رذيلة ألا ترون معى أن أكثر مايمارس الناس فى حياتهم العادية الكذب ، وأنهم جميعا يعرفون أنه الكذب ، وأنه لايشجب أحد منهم أحد فى ذلك لأنه الكذب ٠ لابد من الرجوع الى المصادر التى قيمت مسالك الانسان لتعرف منها الحكمة أو الحكم التى من أجلها رأى الناس ، أو شاع فيهم أن هذا المسلك فضيلة وأن هذا رذيلة ، فلعلنا نجد أن كثيرا مما يساق على أنه رذيلة ، ينفع الناس ، فحق أذن أن يكون فضيلة ٠

والسؤال أذن ماهى الأصول التى تحكم مسالك الناس واخلاقهم؟

هذا هو السؤال الذى يدور حوله حديث عالمنا عن مصادر السلوك الأنسانى وقد جاء به بعد هذه المقدمة الطويلة التى اختصرناها على النحو سالف الذكر ، بعدما أثار بها أهمية الموضوع من حيث صار خلقا لا أحد ينكر فضله موضوعا للتفاضل عند الأخذ به ! فهو أى الصدق مهلكة فى حالة كحالة الحرب ، مجاف للذوق والخلق الكريم فى حالات أخرى،ليس من المستحسن الأخذ به فى كثير من الأمور التقليدية ، ومدعاة لجلب الخلافات فى أحوال أخرى اذن فهل هو مطلوب ؟ أو هل هو مطلوب على الدوام ؟ وما الحكم فى هذا ؟ من الذى يحكم فى مسالك الانسان ٠

هل الدين مصدر من مصادر السلوك الانسانى ؟

فى ثقة بالرأى يستبعد الدكتور أحمد زكى أن يكون « الدين » أصل الأصول فيما هو فضـــيلة ورذيلة !! ومذهبه فى هذا أنه من الجائز أن يهتدى الانسان وحده الى مسالك العيش حتى اذا تخلف عنه عون السماء !! ويدلل على هذا بدليل قاطع حين يذكر من حال الناس الذين اختاروا أديانهم فى قديم الزمان أنهم قد رضوا أديانهم بقدر ما عرفوا فيها من حسن سلوك :

« ندرك هذا من قصص القوم الذين دخلوا فى الاسلام أو فى المسيحية أو غيرهما يعرض عليهم الدين فينظرون فيما قدمه لهم الدين من عقائد ومن اخلاق ومن معاملات بين الناس أى مسالك عيش وهم يرضون الدين بسبب ما يرضون من هذه الأمور واذن فهم عارفون الأخلاق الطيبة وما المسالك الخيرة قبل ان يكون لهم هذا الدين أو ذاك ، عرفوا ذلك من حياة الانسان التى سبق أن عاشوها ٠٠ وهذا يؤكد قولنا أن الانسان مهتد الى ما تدعو اليه الأديان من مسالك قبل ان تكون الأديان ٠٠ انها بذور الخير التى بذرها الرحمن فى الانسان ليتعرف بها الحياة ٠ ويتعلم خطاها ، ويهديه فى كل ذلك الطبع الخير اذا تخلف عن اللحاق به الرسول الهادى !! »

واذن فأحمد زكى لا يعتبر الأديان مصدرا من المصادر التى حكمت السلوك الانسانى واذن ـ مرة ثانية فما هى الأصول التى بنى عليها سلوك بنى الناس ؟ ويجيب مفكرنا أنها ثلاثة :

١ ـ الغرائز البشرية ٠

٢ ـ العـــادات القومية ٠

٣ ـ الضمائر الانسانية ٠

وهو يرتبها هكذا على مذهب البعض فى ترتيب وجودها تاريخيا ولكنه يعتمد فى مذهب الذين يقولون بأنك تبحث عن المسلك الانسانى الواحد ، فى الرجل أو الفئة من الرجال ، فلا تدرى ما سبق الى تكوينه : غريزة هى ؟ أم عادة وتقاليد ، أم ضـــمير ؟ وعندهم أن الثلاثة تفاعلت معا فأنتجت ما أنتجت من مسالك للسير رضـــيها الناس » ٠

الغـــرائز

وخلاصة قوله فيها أنها أول مصادر السلوك الانسانى ، ولكنها غير كافية من هذه الناحية ، لأنها تحتاج الى أمور أخرى ، فلو سلك الناس حياتهم بها وحدها ، ما نتج عنها الا الصدام والمجابهة٠ **من ناحية أخرى فانك لا تستطيع أن تعيب أو تحمد سلوكا انسانيا يقوم على الغرائز وحدها** ٠٠ واقرأ من كلام أحمد زكى :

« ان الانســـان منا يبدأ الحياة ومعه أقوى دوافعها ، تلك الغرائز ، أنها تعلمه ، كيف يصنع فى الحياة ، ومنها غريزة الطعام، فالطفل يمد الى الطعام يده عندما يجده ، وهو لا يسأل أهو طعامه أم طعام غيره ٠٠ وهكذا ٠

و « **مسالك الحياة المطلقة الأولى** مع الغرائز الاولى ، لا ينتج عنها بين الناس غير الصدام ، وغير المجابهة ، والحرب الدائمة » ٠

وأى نسق **فى السلوك الانسانى ، يقوم على الغرائز وحدها** ، فى مراتب الحياة **الانسانية البدائية الاولى ، لا يحمد ولا يعاب ذلك انك لاتستطيع أن تذم الجائع الذى يطلب طعاما فلايجد الا رميك بالنبل اليه سبيلا** ، ولاتستطيع أن تردمن رماك بسهم اذا أنتقمت تمنع عنه الماء ويضرب لك الدكتور أحمد زكى مثلا عمليا فى مقال آخر فيقول : « اذا كنت فى جزيرة وحدك فلك أن تكون أنانيا ما شاءت لك الانانية،

وأغلب الظن أنها لا تضرك ، وهى عندئذ لا تكون من الاخـــلاق المحمودة أو السيئة المرذولة فى شىء وانما تصبح كذلك اذا سكن مثلك فى الجزيرة رجل أو رجلان عندئذ تتضارب الأنانيات » ٠

العـــادات

المصدر الثانى من مصادر السلوك الانسانى

لا يذهب الدكتور أحمد زكى فى تعريف العادات أكثر من أن يضرب مثلا لتكون العادة بأطفال صغار رآهم قد خرجوا مع أبيهم يرمون الورق المستهلك من سبت صغير بيده ، ويضعه فى برميل طويل أقيم لاحتواء الزبالة ، فأخذ الولدان اللذان يبلغان من العمر حوالى السنتين ، والخمس يقلدان والدهما فيما يفعل « أنه التقليد الذى هو بعض الشر » وكان لون شعر الطفل والطفلة أصفر وما كان ليختلف لو ان الشعر كان أسود وأحمر » ٠

« أنه التقليد الذى يصنع فى الأمم العادات ، فان صار عادة فهو مسلك رضيه الناس وهو بعض مسالك القوم » ٠

« والعادات عشرات ومئات يمارسها الناس ، ابن عن أب ، وأب عن جد ، وتصبح عادات طعام وعادات شراب ، وعادات ملبس ومسكن ، وعادات بيع وشراء ، وعادات تمس الأخلاق فى الصميم وأخرى تمس الاخلاق مس الأديم ٠٠ الأديم » ٠

« والطبع البشرى يتقبل العادات دون التوقف للنظر فيها ، خشية أن تنقلب الحياة كلها الى تساؤل فى هذه العادة ، وتساؤل فى تلك ، فلا يكون فى الدنيا لعمل حسم ولا لحظة اطراد » ٠

النظرية الاقتصـــادية فى العـــادات :

هنا لابد أن نتطرق لنذكر ما حرص الدكتور أحمد زكى على تكراره والتأكيد عليه دائما أ نالعادات اقتصاد ، لأنها توفر على الناس مجهودا كبيرا فى التفكير ، وتغنيهم عن النظر فى الشىء الذى يصفونه ، ومواقف الحياة تتكرر ، والمواقف المتشابهة كثيرة ، يلقى الانسان الموقف الجديد الذى سبق أن وقف مثله ، وتصرف فى مثله ، وعندئذ لا يكون عليه فى هذا الموقف الجديد الا أن يعيد تصرفا كان له فى الماضى ، وبذلك يختصر الجهد والفكر والزمن ، « ومن هنا فان للعادات من حيث الاقتصاد دورا كبيرا فعالا » .

واذا كانت العادات اقتصادا ، فكذلك التقاليد ، وسـنعود الى هذه الفكرة بشىء من التفصيل فى جانب آخر من جوانبها ، عندما نتحدث عن الأثر الذى أحدثته التكنولوجيا فى التنظيم الاجتماعى فالفلسفة هى ذات الفلسفة .

ويتفرع الحديث عن العادات **الى الحديث عن العادات الشخصية والعادات الاجتماعية** كنموذجين مختلفين لطبيعة العادات :

فالعادات الشخصية صنف من صنوف العادات ، وهى تمس الشخص بمفرده ، ولكن الاختلاف فيها قد يؤدى الى متاعب غير قليلة ، «لأنه ما من شىء يعتبر شخصيا فى أكثر صفاته الا وهو متصل بالحياة العامة من حيث يدرى صاحبه أو لا يدرى » .

وخذ مثلا لذلك حلاقة الذقن«لو أن الناس تعودوا عادةواحدة، وهى الشفرة فى الحلاقة صباحا ، لكان صدى هذا فى الصناعة فى الأمة صدى كبيرا اذن تصنع الشفرة بكثرة ، واذن تصنع أجود ما تصنع ، وتباع بأرخص الأثمان » .

ومثل هذا فى الطعام والشراب » وفى توحيد الذوق تسهيل الأمر على الصانع والخابز فى كل مرفق من مرافق الحياة »·

« انه المجتمع الانسانى ، والاجتماع لا يكون الا بين أشباه ، وكذلك العادة ، وانما هى الخط الواحـــد والانماط الواحدة التى تلبسها الاشياء » ·

والعادات الاجتماعية : وهى التى تتصل بالحياة فى المجتمع، تتصل بالمعاملات ، بالبيع والشراء وبالتعليم والصـــحة والزواج والطلاق والولادة والموت والأفراح والأتراح فهذه من الضرورى أن تضمها وتلمها صور من العادات واحدة ، وهذه العادات تتصل بالزواج والجنس وبحسن المعاملة وكل ما درجنا على تسميتـــه بالأخـــلاق ·

أثر الزمن فى العادات :

هذه النقطة بالذات استحوذت على اهتمام الدكتور أحمد زكى فى عدد كبير من مقالاته وله الحق ، ولها الحق ، لأنه فى تقـــرير طبيعة أثر الزمن على العادات ، تقرير لحياة العادات ، هل هى شىء وقتى ؟ أم شىء متغير مع الزمن ؟ ان طبيعتها تتغير مع طبيعة الزمن ؟

والجواب أن الأمر يختلف من عادة الى عادة ، وان الناس تنظر الى العادات نظرة براجماتية تبتغى منها النفع ، وهى غير مطالبة بأن تقدس عاداتها على مر الزمن وهذه هى فقرات من أحمد زكى فى مواضع مختلفة :

ومن العادات ما هو دائم النفع يصلح لكل زمان ، كعادة العمل ، ولكن من العادات ما يصلح لزمان دون زمان ، كوسائل المواصلات ووسائل العلاج ·· الخ · فقد استبدلنا بالجهل فى هذه الأمور علما على الزمان الطويل ·

« والعادات تدوم ما رضى بها أهلها ·وتتغير الظروف المعاشية، والاعمال المهنية والمسالك الاقتصادية والمجتمعات الانسانية ، فلا يلبث سكان المدينة أو القرية أن يحسوا الحاجة الى التغيير · فتتغير العادات رويدا رويدا · وفى التغيير استرضاء لمطالب الحرية بتوسيع مجالات الحركة فى العيش » ·

« والعادات باقية فى قبيل الناس ما بقيت تعطى نتائجها المرضية من التعاون والتآلف وحمل التبعات معا وبالسرية » فهذه الرتابة الراضية تسرق من الناس الفكر فى صلاح هذه العادات أو فسادها ·

« العادات راحة ، والتقاليد راحة ، وفيها راحة الروتين وترك العقل خاليا ليفرغ لتقدم الحياة وأسعارها » « ولكن تقدم الحياة على هذا النحو يغير من صور الحياة، وقد تتغير عادات على هذا النحو وبسرعة هذا التغير فلا يكاد يحس به أحد ونخدع فى ذلك ونقول مثلا ان عادات اليابان وتقاليدها رغم تقدمها الصناعى ظلت على ما كانت عليه ، والحقيقة أنها تغيرت كثيرا بسرعة لم يحس به راكبو قطارها » ·

وهكذا يحدد أحمد زكى فى وضـــوح طبيعة اختلاف العادات بمرور الزمان ، ويقرر أن العوامل التى تستطيع تغيير العادات ليست أقواما من الناس «استعجالا للخير أو مايحسبون أنه الخير «فيفشلوا» « **وانما ينجح فى تغيير العـــادات : ظروف الحياة المتغيرة بعنفها وجبروتها ، وينجح تطور التعليم ، وينجح تواصل الأمم** » ·

الضـــــمير

واذ يتحدث الدكتور أحمد زكى عن حكم العادة ، يتطرق الى الحديث عن الضمائر هنا يعرف عالمنا الضمير تعريفا غامضا بعض الشــىء حين يربطه « باســـتيقاظ الحفاظ على العادات ···

وهو حفاظ طبيعى الأصل فيه معارضة التغيير لأن التغير غير مأمون العاقبة ، وباســـتيقاظ هذا الحفاظ على العادات عند الكثيرين ، يستيقظ فى بعض أفراد الأمة الضمير تلك القدرة النفاذة التى تنام فى الناس طويلا حتى توقظها دقة الاجراس المنذرة بالمخاطر » •

وعلى الوجه الآخر « اذا حدث ان جماعة قامت تعرض على فرد من هؤلاء الافراد ما لا يرضى بدأ استيقاظ الضمير الرافض ، الضمير الذى يقول لا ، ولو قال من حوله ألف لسان نعم ، فأصحاب هذه الضمائر كانوا يركبون راحلة العادات مركبا سهلا ، فلما رأوا أنها انما تسير بهم الى اضرار لا يدركها الا ذوو العقول الناقدة نزلوا عن المركب السهل واتخذوا ضمائرهم المركب الأخشن » •

والمسلك الطيب عند ذوى الضمائر هو الذى يحكم عليه بأنه المسلك الطيب فى محكمة الضمائر ، تلك التى لو شئت أن تتخذ لها مقرا لجعلته حبات القلوب » •

العلاقة بين الضـــمائر والتقاليد :

« ليست محكمة الضمائر ، بالمنصوبة دائما لتعارض محكمة التقاليد فحسب فهذا هو السخف البعيد ، ولكن محكمة الضمير هى التى تتخذ من عقل صاحبها ، ومن فهمه ، ومن رقيق حسه ، ومن لطائف طبعه ، ومن علمه فى الحياة وخبرته وثقافته موارد قانونية تستند عليها فى احكامها وكثير من هذه الأمور لا يحتاج فى أحكامه الموضوعية الى الغوص البعيد فى المراجع » •

« وأوضح مثل على ذلك هو ما نذكره من أمر الرجل العربى البدوى الذى نشأ فوجد قومه يعبدون وثنا ، ثم استيقظ ضميره عندما رأى ثعلبا يبول عند رأس الرب ، ففكر ، فحكم فقال :

أرب يبــول الثعلبــان برأســـه

لقـــد ذل من بالت عليه الثعـــالب

وهذا أمر لا يحتاج الى ضمير نفاذ (نلاحظ هنا أن مثل هذا الحدث عند الكثيرين من أهل الرأى والفكر ليس أمر ضمير وانما هو أمر عقلى ، ولكن أحمد زكى يتسع بالضمير فيشمل به مثل هذه الأمور) ٠

ويمضى الزمن فيحس الدكتور أحمد زكى - قبل ان نحس - ان كلامه هذا فى موضوع الضمير الذى جاء عرضا عند الحديث عن العادات والتقاليد ، لا يوفى الضمير حقه ، ولعله كعادته بحث ، بدءا بقواميس اللغة فى أمر الضمير ، فلما استقرت له الفكرة كتب عن الضـــمير شـــهرا كاملا فى مجلة العربى (٣/٧٥) وجعـــل عنوانه « الضمير لفظ له معنى فى اللغة لم يعرفه العرب » ٠

من هذا الحديث بخاصة ومن غيره تأتى أفكار الرجل التالية فى مسألة الضمير ٠

ما هو الضـــمير ؟

تعريف الضمير عند أحمد زكى هنا يتفق تماما مع **تعـــاريف جمهرة علماء النفس** ، ولعل هذا الاتفاق جاء نتيجة أنه مقال عالم جاء بعد قراءة ودراسة ، لا بعد تأمل نفس وتفكر ٠ ليس غريبا اذن أن يعرف أحمد زكى الضمير فى مقال مارس ١٩٧٥ بأنه « الوازع الذى يزع الانسان عن ممارسة السوء » وأن يردف قائلا : « والوزع هو الكف والمنع » « والوازع الزاجر يزجرك عندما تريد مقـــارفة الشـــــر » ٠

هذه الفلسفة فى النظر الى الضمير على أنه رقيب يمنع الشر ويحول دون السوء والفساد ·· الخ ·· هى جوهر ومظهر نظرة أحمد زكى الى الضمير ، وانى لأعجب كيف جعل استاذنا الدكتور زكى الضمير فى هذه المنزلة فحسب ، ولم يذهب الى الناحية الأخرى ليجعله دافعا الى الخـــير ، وانى واثق كل الثقة أن أحمد زكى بالذات لو عبر عما فى نفسه لذهب هذا المذهب ، ولكنه فكر فى المسألة على نمط من التفكير لابد أن ينتهى به أو بغيره الى هذه النتيجة وهذا هو نمط التفكير :

الضـــمير والشـــيطان :

يذهب الدكتور زكى مذهب القائلين أن : وجود الشيطان فى النفس ووســـوسته لها بالشـــر ، اقتضـــى وجـود عامل آخـــر يقـوم فى النفس أيضـــا، ويهمس لها بالخـــير ، ويزجـــرها عن الشر زجرا ، وذلك كى تتزن موازين الأمور · أنها الزوجية التى وجب ان تكون فى كل شىء ·· خير وشر ·· نهار وليل ·· حياة وموت ·· ثراء وفقر ، عز وذل ، حلو ومر · وهذا العامل الآخر الذى يوسوس بالخير ، أو يقوى فيزجر عن الشر ، انما هو الضمير بالمعنى الحديث » ·

ولو أكد الدكتور أحمد زكى على قوله « ويهمس لها بالخير » وانطلق من هذه النقطة لأتى لنا بفلسفة عميقة فى مسألة الضمير، ولكنه يفضل أن يذهب الى القول بأن الضمير ، وازع ، رادع ، رقيب الى الحد الذى يشبه فيه الضمير بالرقيب فى الصـــحف ، ويمضى فى تفصيل هذا التشبيه على نحو يستطيع القارىء لو أحب أن يرجع اليه فى موضعه ·

الضـــمير أشـــمل من القوانين :

ويقارن أحمد زكى بعد ذلك **بين الضمائر والقوانين** من حيث **مقدرتها على الرقابة على الذنوب ، ويقول :**

قوانين الدولة لا تشمل الذنوب جميعا ولكن تشملها الضمائر ان القوانين تحمى الناس من القتل غيلة ، ومن سرقة المال ، ومن انتهاك العرض وما الى ذلك من الجرائم الواضحة البينة · ولكن كثيرا من هذه الشوائب قد تخفى على القوانين وعلى الشرطة ، ولكنها لا تخفى على الضمائر ، ولا تحمى منها القوانين ولا الشرطة ولكن تحمى الضمائر ·

وان من الذنوب ذنوبا لا يمكن أن تدخل فى قوانين لأنه لا يمكن تحقيقها ، ولا تكييفها ولا وزن لها ولا قياس · فماذا تصنع القوانين فى رجل قيل انه عق أباه ، أو أزرى بأمه أو شـــتم بين الجـدران زوجته ، أو سامها سوء العذاب ، وما كل عذاب يظهر على جسد » · « كل هذه الذنوب لا تغطيها قوانين الدولة ، ولكن تغطيها ضمائر الناس عندما تصح أو تسوء » ·

ويتوج أحمد زكى هذه الفكرة بحكمة من مأثوراته فيقول :

« فاذا نزلت بقوم ، فلا تسأل كم عندهم من قوانين ، وكم لهذه **القوانين من نفاذ ، بل أولى بك أن تســـأل كم بأنفس أهلهـا** من ضمائر » ·

ويعود الدكتور أحمد زكى ليؤكد معنى التفريق بين القوانين والضمائر ــ لمصلحة الضمائر ــ من زاوية أخرى فيقول :

« الشرطة والمحاكم قائمة على نفاذ القوانين مما تســـتطيع الدولة تقنينه وتصنيفه وتكييفه · أما الضمائر فهى رقباء على نفاذ

كل القوانين ، ما خالته الدولة وما لم تخله ، وما استطاعته وما لم تستطعه ، وما يدخل تحت معنى القانون أو يدخل تحت معنى الذوق والجمال والمواساة والرحمة وكل مسلك من مسالك الخير » ٠

المبادىء التى يسير عليها الضمير :

« **انها قيم الحياة ، فى مراتبها العليا** ، وفى تلك المراتب الأخرى السفلى ، تلك القيم الكريمة النبيلة الواحدة التى لا تأبى أن تحل فى قلب رجل حل به الفقر ، أو رجل صاحبه الثراء ، ولا رجل رفع به العلم ما رفع ، أو نز لبه الجهل ما نزل ٠ **انها القيم التى ترتفع بالناس فوق ارزاء الدنيا ، وفوق آلامها ٠ وفوق آمالها واحلامها ، والتى بها وحدها يحكم المرء على نفسه يوم الرحيل الأخير أنجح فى هذه الحياة الدنيا أم فشل فيها ٠**

كيف يتكون الضـــــمير ؟ :

وهذه الفقرات المنتقاة من أفكار احمد زكى هى أروع ما فى حديثه عن الضمير وسنوالى بينها بالصورة التى تحدثنا عن تكوين الضمير دون تعقيبات ولا استطراد :

الضمير لا يبدأ الا حينما تحصل علاقات بين الانسان والانسان بعد الثالثة يأخذ الطفل يعى أنه ليس وحده يملك الدنيا ٠ فهناك صبى ، وصبى وصبى ، فلابد ينسجم ٠٠ وعلى أمثال هذا ينشأ الكثير من الضمير ٠

« **الضمير يبدأ ملء دستوره فى البيت** ، ويتابع كتابة دستوره فى المجتمع ٠ ان المجتمعات تحمى نفسهـــا باشياء كثيرة منهـــا « الاتباع » والاتباع عامل فى ملء دستور الضمير له اثر كبير ٠

وهناك أمثلة تضربها من ظواهر الأمور • وهناك أخرى أخفى منها ، وأذهب فى النفس الانسانية عمقا ، وأكثر فى الفكر الانسانى اختلافا ، ومنها الآداب العامة ، وأشد منها وأعمق العادات القومية، وأعمق من هذه العقائد الدينية •

ودساتير ضمائر الناس ليست كلها نسخة واحدة ، لأن الناس فى أجسامهم ، كما فى أنفسهم أشباه ولكن ليسوا فى جسم أو نفس سواسية •

والانسان فى المجتمع يمر بأطوار الصبا والمراهقة والشبــــاب وأكثرها أطوار تقليد يصنع الانسان فيها ذاته بالتقليد لما حوله • وفى الانسان مقدار من التقليد يضارع أو يشابه ما فى القردة من ذلك • وبعد دور التقليد والانصياع لطقوس المجتمع وعاداته يبلغ الانسان السن التى عندها يأخذ يدخل فكره الى التقاليد ليرى كم هى تقع من الفكر السليم بحسبان أن فكره هو ، هو الفكر السليم ، وعندئذ يدخل الحذف والمحو والتصحيح فى دســـتور الرجل الذى يأخذ يهديه ضميره ، وهو يسلك به فى مسالك العيش •

المصـــادر الأخرى للضـــمير :

وعلى نحو ما فعل الدكتور أحمد زكى فى مناقشته لمصـــادر الســـلوك الانســـانى ، نجده هنا يتأمل هذه الناحية فيما يتعلق بالضمائر ، ونلخص آراءه هنا فنقول نقلا عنه ان « فى أديان الأرض كثيرا من الروادع التى تتألف منها دساتير الأرض» ، «ولكن القواعد التى سنها الفلاسفة لا تصلح لأن يقام عليها ضـــمير • ذلك لأنهم اختلفوا فنفى بعضهم بهذا الخلاف بعضـــا ، ولأنهم فكروا فحينا أصابوا وحينا أخطأوا ، وضلوا ضلالا بعيدا » واذن فالعلة فى عدم صلاحية الفلسفة لتكوين الضمير تقود الى الاختلاف البين والى

التفكير ، والتفكير لا يؤدى الى الصواب دائما • ويفيض الدكتور زكى فى تفصيل هذه النقطة وضرب الأمثلة لها على نحو ممتع يجدر بالقارىء أن يعود اليه •

الضـــمير وتقـــدم الأمة :

لا ينظر أحمد زكى الى ضمير الجماعة . نظرة الذين يحللون ، أموجود هو أو غير موجود ، وما هى طبيعته ، دائما يأخذ أحمد زكى بالجانب المرتبط بالاصلاح والتقدم ، من حيث أهمية الضمير لهذين الجانبين •• **فنراه يركز على اهمية يقظة الضمائر** ، من حيث **كانت هذه اليقظة ضرورة أولى للاصلاح والترابط والتماسك** •

ويذهب الدكتور أحمد زكى فيصف أحوال الجماعات والأمم فى غيبة الضمير ، **وصفا يؤكد على اهمية الضمير** ، واهمية العناية به •

ويتطرق الدكتور احمد زكى ليتحدث عن الرشـــوة (الناحية الاصلاحية العلاجية الوقتية فى مقالات عالمنا الجليل ذات الصـــفة الشهرية) وعن علاقتها بالضمير ويرد ذلك منذ البداية الى أن الفقر يضعف الضمائر • • ضمـــائر الافراد • وقوله هنا « الفقر كافر والضمير ايمان » درة من درره •

وهاك فقرات الدكتور زكى على نحو مسرود فى سرعة وترتيب :

ولكن للضمائر مقدار من اليقظة اذا هى لم تبلغه ، لم تبلغ الأمة ما وجب ان تبلغه من اصلاح • **ولم تبلغ ما وجب ان تبلغه من ترابط وتماسك • فما يكون فى غيبة الضمائر الا الظلم والا الاعتداء ،والا اضاعة الحقوق • والا ذهاب القوة فى الدولة من حيث أنها قائمة دائما فى ميدان صراع بين دول أكثرهم به عداوة وله اطماع •**

ان **الفقر يضعف الضمائر** ، ضمائر الأفراد ، والفقر كافر ، والضمير ايمان وفى **الفقر يشمل** المرء مالا يشمله على الغنى ، ودعوة الوعاظ الى التمسك بالصبر ، على الفقر ، بأن الله رازق ، **قلما تشبع من جوع وتغطى الجسم العارى بلباس** ٠

والفقر كان حظ الدولة العربية فى دور الاستعمار الذى كان ولكم امتد فيما بعده من سنين ، والاستعمار كان فقرا وكان جهلا ، والجهل يسد باب الغنى ويسد باب الضمير ٠

وغابت الحرية ٠٠ وفى مظلة الاستبداد تكثر السرقات ، وتباح الحرمات ٠

لهذا كان من رحمة الله أن تجول الأبصار اليوم فى الدول العربية فلا تزال تجد فيها من الضمائر بقية باقية ٠ الا أن أكثرها ضمائر عاجزة ٠ ترى المنكر وتضعف عن تغييره ، الا بقلوبها ، والتغيير بالقلوب أضعف الايمان ، ان أكثر الضمائر تقبع حيث يقبع الذل ، والذل أخرس » ٠

ولكثرة ما شاعت الرشوة فى الناس حتى صارت أصلا من أصول العيش ، **اقترحت أن يحذف من القوانين العربية حيث الرشوة شائعة** ٠ النص بعقوبة المرتشى والراشى ٠

والى جانب الرشوة الاختلاس ٠ ويختلس وهو آمن أو يكاد ٠٠ **يأمن القانون ٠٠ ويأمن الناس أن تسفك دمه أو تحرق** بيته ٠٠ جزاء عن الآلاف الكثيرة التى اختلسها من شعب فقير ٠ وذلك لأن ضمائر الناس ألفت أن تسمع ثم تقول لا حول ولا قوة الا بالله ٠ مع ان الله أعطاهم كل حول وكل قوة » ٠

ولكن ما هو الحل ، هنا لا يجد الدكتور أحمد زكى بدا من أن يقولها بملء فمه : أنه التربية ، ويرد أولا على الذين ينادون بمثل ما حدث فى الصين من « ثورة ثقافية » فيقول :

« ولكنى لا أحسب أن بهذا تنصلح الأمور • فالضمائر تحيا بالتربية فى المنازل وفى المدارس وفى المساجد وفى المجامع والدعوة الى تصحيحها تخرج من بوق من أبواق الدعاية ، وفى كل كتاب الا أن يأتى القوم نبى ، فيبدل من أنفسهم تبديلا • نبى من بنى البشر لا رسول من رسل السماء •

انتهينا مع الدكتور أحمد زكى من واقع مقالات سابقة لعل أبرزها المقال الذى جعل عنوانه « مصادر السلوك الانسانى » الى أن هذه المصادر ثلاثة هى الغرائز فالعادات فالضمائر •• وفهمنا عنه أن المنطق ليس بمصدر ، وأن الدين ليس بمصدر للاسباب التى ذكرنا بالتفصيل •

ولكننا نجد للرجل بعد ذلك مقالا كاملا عنوانه الأخلاق ، والقيم ، والعادات فى حياة الناس • ما مصادرها ؟ وعلى سبيل التلخيص السريع الذى لابد منه لفهم الأمر كلية باديء ذى بدء ، فان الدكتور زكى قد جعل مصادر الأخلاق والقيم والعادات أربعة مصادر رتبها على النحو التالى :

أ ــ الفكر الانسانى ما احتواه من منطق •

ب ــ الطبيعة التى يعيش فى أحضانها الناس •

جـ ــ الجبلة الانسانية التى لا تكاد تعتمد على فكر

د ــ أديان البشر جميعا •

وتركنا الدكتور زكى فى حيرة · أيهما مصادر السلوك ؟ الثلاثة الأولى الغرائز فالعادات فالضمائر ، أم الأربعة التالية : الفكر والطبيعة والجبلة والأديان ·

على أن الاختلاف فى العناوين قد يورى بارقة أمل ، فالثلاثة الاولى مصادر للسلوك الانسانى ، على حين أن الأربعة التالية مصادر للاخلاق والقيم والعادات · ولكن ما الفرق ؟ لاشك أن هناك فرقا بين السلوك الانسانى وهو شىء واقع وبين الاخلاق والقيم ، والعادات وهى أشياء يفترض فيها أنها تحكمه أو تحاول أن تحكمه أو تقسره أو تحاول أن تفسره ·

ولكنى لا أظن أن هذا الفرق يبلغ الدرجة التى تسوغ هذا الاختلاف بين تأجيل المصادر فى كلا الحالين ·

فلننظر أى المصادر تكررت فى الأمرين ، عندئذ نجد الغرائز (فى الأولى) قد عبر عنها بالجبلة (فى الثانية) وهناك فرق مابين الاثنين سأتحدث عنه فى حينه ·· ونجد العادات (فى الأولى) مصدرا ولكننا نجدها فى الثانية من الأشياء التى تتطلب المصدر ، ونجده فى الأولى ينفى أن يكون الدين مصدرا ، ثم يجعله (فى الثانية) المصدر الرابع ·· ويبدو اذن أنه على مثل هذا النحو من المقارنة والمراجعة لن يتأتى التوفيق الذى يؤدى بنا الى فهم فلسفة أحمد زكى فى هذا الموضوع ·

ولكنى أزعم أنى فهمت الموضوع على نحو رياضى ، يستند الى علم التفاضل ، لا تعقيدا للموضوع ولكن تبسيطا له ·

وتبسيطا لهذا الفهم أقول اننا نجرى عملية « التفاضل » فى الرياضيات على نحو قريب مما يسميه العامة بالتفصيص ، أو على نحو ما يفهمه الكثيرون من سلسلة الأمور فعبد الله بن عبد المطلب،

ومحمد صلى الله عليه وسلم ابن عبد الله ، وهو ابن عبد المطلب أيضا (ولكنها ليست بنوة مباشرة ، ليست بنوة ناتجة من الخطوة الأولى فى تعاقب الأجيال) •• وهكذا تمضى العلاقة التفاضلية أو العملية التفاضلية على نحو يتيح لها ان تكرر نفسهاعلى الناتج الذى انتجته من المعطى الأول •

لا على القارىء مما تقدم ، ولينظر معى الى السلوك الانسانى ما مصادره ، فليكن مصدره أى شىء ، ولكن ما مصدر هذا الشىء المصدر ؟ انه المصدر (الجد) •• ولكن مصدر السلوك الانسانى ليس واحدا وقد يكون أكثر من شيئين أو ثلاثة ، وقد يكون لمصدرين من مصادر السلوك مصدر واحد أعمق ، وهكذا ••

لو فهمنا هذه القاعدة التفاضلية لأدركنا أن أحمد زكى لم يخلط حين جعل مصادر السلوك الانسانى هى الغرائز فالعادات فالضمائر ثم اعاد النظر يرى ما هى مصادر العادات والاخلاق والقيم فوجدها الأديان والجبلة والطبيعة والفكر •

بل أكثر من هذا فقد جعل الدكتور **مصـــادر الاخلاق فى مقاله (أغسطس ١٩٦٨)** ثلاثة هى من ذات التى نتكلم عنهـــا ولكن مع اختلاف فى الترتيب :

(أ) الدين •

(ب) قانون الطبيعة •

(ج) الجبلة البشرية •

يقول المؤلف هذا هنا بعدما أخره عن قارئه لكيلا يزيد اللبس، ولكنه متأكد الآن أن لا لبس ولا تلبيس •

ولا علينا من هذا **الترتيب التفاضلى** ، لأنا لا نهدف فى المقام الاول الى جعل هذا الباب تكامليا بالدرجة الاولى ، ولكننا نهدف الى أن نستكمل على نحو ما البحث والتأمل فى جزئيات فلسفة أحمد زكى فى جوانب النظام الاجتماعى ، لهذا سنسرع الحديث عن القيم ثم نتفرع بالحديث الى الأصول الأربعة :

القـــــيم

وهى عند الدكتور أحمد زكى تلك التى « يقيم بها الانسان أشياء الحياة ، مما يتصل بحوافزها ، وأهدافها ، والأمانى التى يحاول الانسان أن يبلغها .

تعريف ليس هو تعريف غالبية الفلاسفة ، ولكنه قريب الى حد بعيد منها .

ويتفرع الحديث بالدكتور أحمد زكى ليحدثنا عن نوعين من المجتمعات :

المجتمعات المســـتقرة :

التى قلما تتاح لها الفرصـــة فى التريث قليلا لتنظر فيما هى صانعة ، وفى موضع صنعها من الصحة والخطأ ومن الحقوالباطل، « ومثل هذا المجتمع عنده أن عاداته حقة ، وأن نقيضها هو الباطل ، وأنها حقة لأنها عادات ، وأنها عادات فاذن هى حقة ، والا ماحفظها الزمان » **ومثلها مجتمعاتنا الشرقية** .

والمجتمعات غير المستقرة :

وهى تلك التى يصحو الناس فيها ويمسون ، وهم يفتشون فى عاداتهم وأخلاقهم ومعتقداتهم من كل نوع . ومثلها المجتمعـــات

الاوروبية ٠ ويذكر الناس من أمثلة القلاقل التى وقعت فى المجتمعات الاوروبية الثورة الفرنسية وقبلها كان التحرك الفكرى الذى قاده فلاسفةالفرنسيين فى أوائلالقرن الثامنعشر وفى أثنائه وهو كما عبر عنه باسم التنوير « وقبل عصر التنوير كان عصر النضهة ، وكان عصر الثورة الدينية ، ومن بعد الثورة الفرنسية جاءت الحركة الرومانسية ٠٠ أمواج متلاطمة فى البحر الذى افتقد السكون ٠ تلك البيئة الاوروبية فى القرون الثلاثة أو الأربعة الماضية ٠

وكان أثر هذه الزوابع التى وقعت فى الغرب فى حياة الناس فى أمم الغرب أثرا بالغا فى مساكن الناس ، وملابسهم وطعامهم ، وعاداتهم ، وآرائهم العلمية والاجتماعية والنفسية والمادية والروحية ٠

ويمضى الدكتور أحمد زكى يناقش الى أى مدى بلغ تأثير ما حدث فى الغرب على الشرق ٠

ونعود لنناقش معه مصادر السلوك والأخلاق فى أمم الأرض

١ ـ الفكر كمصدر من مصادر السلوك الانسانى والاخلاقى :

بعد أن يضرب الدكتور أحمد زكى أمثلة على نحو الأمثلة التى ضربها فى مقاله (فبراير ١٩٧٢) يقرر صراحة أن « مبادىء الاخلاق ، وقواعد السلوك لم تكن من نتائج الفكر ٠ أو على الأقل من نتائج الفكر العارى والمنطق السليخ وحده ٠ لابد اعتمد الناس فيها على مصادر أخرى ٠

وليس معنى هذا أن أحمد زكى لا يعتبر الفكر مصدرا من مصادر السلوك ، ولكنه يريد أن يؤكد أن الفكر العادى أى الفكر

المجرد ، والمنطق المطلق (بتعبيره : السليخ) ليسا هما المصدر الوحيد للسلوك الانسانى ·· صحيح أن عباراته فى هذا ليست واضحة بالقدر الكافى ولكن سيأتى بيان هذه النقطة فى موضع آخر من كتابنا هذا ان شاء الله ·

٢ ـ الطبيعة كمصدر من مصادر السلوك الانسانى :

يسرد الدكتور أحمد زكى نماذج الطبيعة التى يستلهم منها الناس سلوكهم ، ففى الحيوان تعاطف ، وفيه ميل بين الذكر والأنثى وفيه أمومة ، و القط يأبى القذارة ، فلهذا يلعق شعره دائما ، والكلب يحسن ولاءه للنعمة ، والشجرة تزرعها حيث ضوء الشمس قليل فتميل لتخرج الى الضوء ·· وكل هذه دروس للانسان ·

ولكن الدقة العلمية تجعل الدكتور أحمد زكى لا يمضى دون أن يذكر الجانب الآخر من الموضوع ، فان « فى الطبيعة ظواهر جرى الناس فى اخلاقهم على نقيضها · ففى الحيوان افتراس دائم ، يأكل القوى الضعيف ، ويأكل الكبير الصغير ، والناس لا ترضى هذا ، أو هى على الأقل تحاول أن لا ترضاه ، فتنشىء معانى من العدالة ومن المساواة ، لا يعرفها عالم الحيوان ·

وينتهى الدكتور أحمد زكى نهاية أقرب الى ما ننتهى اليه فى أمر الفكر كمصدر من مصادر السلوك الانسانى فيقول « وليست هذه المعانى مصدرها الفكر والمنطق ، وليس مصدرها الطبيعة يعيش الانسان فى احضانها ·

٣ ـ الجبلة الانسانية كمصدر من مصادر السلوك الانسانية :

وهنا سؤال ، هل أراد الدكتور زكى ان يعاود القول بأثر الغريزة فاختار لها اسما آخر هو الجبلة · قد يكون · ولكنه ضرب

مثلا يساعدنا على فهم الجبلة على أنها شىء آخر غير الغريزة ، فهى شىء فى الانسان الذى نما فى المجتمع الانسانى ، اما الغريزة فهى تلك التى فى الانسان الذى ولد فحسب ، هذا هو ما فهمته شخصيا من ضربه المثل بالرجل يأكل طعامه على ناصية الطريق فيمر به المحروم فتدفعه جبلته – ان ظلت صحيحة – الى أن يجود ببعض طعامه لهذا المحروم ·

ويختتم أحمد زكى رأيه فى أمر الجبلة بتأكيد ما ذهب اليه من قبل من أثر الغريزة أو الجبلة أو الطبيعة فى سلوك الانسان وعباراته فى هذا واضحة « هذا هو أنت أيها الانسان ، ولا تقل من أى جنس أنت ، ولا من أى أرض ، ان كل الناس الاسوياء فى هذا سواء فتلك هى الجبلة الانسانية ، وكدت أقول الفطرة التى تهدى الناس سواء السبيل » ·

٤ – الأديان كمصدر للسلوك الانسانى والاخلاق :

ولعل رأى الدكتور أحمد زكى فى مسألة الدين هنا أقرب الى الصواب من رأيه عندما تحدث عن مصادر السلوك الانسانى ، تنفى ان تكون الأديان من هذه المصادر ، لأن الناس تقبلوا الأديان بقدر ما وجدوا فيها من توافق مع ما عرفوا من قواعد السلوك السوى ·

وقد يكون هذا صحيحا فى شأن اولئك الذين اتتهم الأديان فى ماضى الزمان ، ولكن ما بال اولئك الذين يولدون فيجدون أنفسهم على دين آبائهم ، وهم كل الذين يعيشون عصورنا اليوم ·

لهذا كان من الصواب ان يذهب الدكتور أحمد زكى فيقرر الدور الايجابى للاديان فى تكوين السلوك ، وطبيعة هذا الدور ، على النحو

الذى نجتزىء منه بقوله : « جمعت الاديان ـ الى العبادات والعقائد ـ محاصيل القرون من الاخلاق ، ورسمت طريقا معبدا سهلا ، وفر على الناس اضطراب الفكر ، وريبة المنطق ، واشياء يستوحيها الانسان من بيئته ، ومن الطبيعة التى يعيش فيها ، اما الجبلة الانسانية فانتقلت خلاصتها طاهرة مطهرة الى الاديان تكاد تتحدث بهـا » ٠

« والفضائل الأساسية فى الأديان ـ واحدة أو تكاد تكون » ٠

ولكن ماذا عن التقاليد ، أنها الشىء الذى لم نتناوله حتى الآن بالتفصيل بعدما تناولنا مع الدكتور أحمد زكى : الغرائز ، والعادات ، والضمائر ، والقيم وكلها من عناصر البناء الاجتماعى ٠ ها هو الدكتور أحمد زكى يختص التقاليد بمقال كامل فى حديث الشهر يوليو ١٩٧٤ مجلة العربى ويجعل عنوانه « التقاليد : يذكرها من أهل اليمين من يذكر فيرفعها الى الذروة ، ويذكرها من أهل اليسار من يذكر فينزل بها الى الحضيض » ، ومن هذا المقال ، ومن فقرات أخرى نلخص للقارىء آراء أحمد زكى فى التقاليد من زوايا مختلفة ٠

التقاليد بين أهل اليمين وأهل اليسار :

ولأهمية هذه النقطة نقدمها فى الحديث كما قدمها أحمد زكى من قبل ، التقاليد لا تختلف فى قيمتها بين هؤلاء وهؤلاء ، ولكنها تكاد تكون من العوامل المفرقة بين أهل اليمين وأهل اليسـار ، فأهل اليمين ينظـرون اليها على أنها عمد من أعمدة الحياة ، تتقوض الحياة بتقويضها ، وعند أهل اليسار هى أسـواء وأدواء يجب ان تتخلص منها الحياة لتصح وتتطهر ٠

ما هى التقـــاليد ؟ :

وينتقل الدكتور أحمد زكى الى **تعريف التقاليد** حسب مفهومه فهى : « انماط من السلوك تواضع عليها مجتمع من الناس ، لتنظم الحياة بينهم ، فلا تكون فوضى ، ولكى يعرف كل من فى المجتمع حين يحل به أمر ، أو يشكل عنده مشكل ، أو يقع له من الاحداث ما يحب أو ما لا يحب ، كيف يتصرف كما يتصرف الناس لابد من **أسلوب واحد أو أسلوب متشابه يتعوده الجميع** فى شتى ما يكون بينهم من علاقات » ٠

وأبسط مثل للتقاليد هو السلام ٠ على اختلاف صور التحية **التى يحيى بها الرجل من يلقاه ممن يعرف** وهو « تقليد دفع اليه الطبع عند لقاء الناس بالناس ٠ ان الرجل لا يلقى الرجل وكلاهما كالحجر جامد اصم ، لابد من حركة ، من اشارة من كلمة من تحية، ولابد من الاتفاق عليها ليفهم معناها ٠ وهذا هو التقليد عند اللقاء ، وفاء بحاجة الانسان » ٠

ويجيب الدكتور أحمد زكى على سؤال يطرحه « كم عدد التقاليد هل هى مائة ؟ هل هى ألف ؟ » فيقول انها عديدة لايكاد يحصـــرها حصر ، وهى تشمل جميع مناشط الحياة ويمضى فى تفصيل ذلك على نحو نتركه **للقارىء فى مقال الدكتور زكى** ٠

معنى التقاليد :

وهذه **فقرة هامة لأحمد زكى** يعبر فيها عن رأيه الشخصى فى **التقاليد ، وعن معنى التقليد ، ومن الطريف ان** هذه الفقرة بالذات وردت فى مقاله « الأكل فن وفلسـفة » وهو أحد فصـــول كتابه « ساعات السحر ٠٠ فاقرأ معى الخلاصة الاولى للرأى : » أحسب

أن الأساليب شيء عظيم ، وان أطرزة التقاليد لم تكن عبثا ، وأنها دائما أبدا ترمى لمعنى ، قد يكون صريحا أول الأمر ، ثم هو ينبهم من بعد ذلك ، فيقول التقليد وحده من بعد ذلك ، فيظنه الناس عبثا ، وما هو بالعبث ، انه لفظ فقد معناه ، أو انبهم معناه ، ولكن يبقى له جرسه المسموع المألوف الحبيب » ٠

من يصـــنع التقـــاليد ؟ :

انها مؤلفات فقدت أسماء كتابها ، ولعل ذلك كان بسبب كثرة من اشترك فى تأليفها ، وينشأ الناشىء فى المجتمع فيحسب أن هذه التقاليد خلقت فى المجتمع مع ظهور الشمس والقمر ٠

كيف تنشـــأ التقـــاليد ؟ :

ويضرب لنا الدكتور أحمد زكى فى أكثر من موضـــع الأمثال لنشأة التقاليد ، وهو حريص على أن يؤكد ان التقاليد فى نشأتها لا تعرف المنطق ، والمثل الكلاسيكى عنده لهذا ، هو السنة القمرية : « فابتدعنا السنة القمرية ، وهو معنى مصنوع ، وهو لا يتصـــل بجرم من السماء ، السماء تعرف سنة الشمس ، ولا تعرف ، وما عرفت للقمر سنة فقط ٠ على كل حال هذا استطراد أشبه بالثرثرة٠ فليمض الناس على ما هم فيه فللتقاليد قوة فوق المنطق ، لا سيما اذا عززتها وغرستها وصانتها فى قلوب الناس السنون ٠ فلنسر مع القمر ، فى صحبة وثيقة ربطت أواصرها القرون » ٠

التقاليد والقانون :

وينتقل الدكتور أحمد زكى الى علاقة التقاليد بالقانون فيذكر ان من التقاليد « مايرى المجتمع أنها بلغت من الضرورة مبلغ الالزام

فيجعل منها المجتمع قانونا ملزما • « ويقع هذا أكثر ما يقع فيما يتصل بين الناس والناس من معاملات وخصوم » •

« على ان أكثر القوانين،بل الكثرة الكاثرة منها ، انما ترسم للناس جميعا فى حياتهم الجارية كيف يسلكون ، ويرضـــاها الناس حتى لتصبح فيهم تقاليد ، بمعنى أنها تصبح فيهم عادة ، وخطوطا للعمل يمشون عليها غافلين عما تضمن القانون بها خاصـــة من ثواب وعقاب » •

وعلى الجانب الآخر فانه الى جانب هذه التقاليد التى يعمدها القانون ، تقاليد أخرى عدتها ألف لا يعمـــدها القانون ، ذلك لأن القانون كالسيف القاطع ليس مما يفيد المجتمع ان يعلق فوق كل حائط ، وكذلك من شئون الحياة ما يجب تركه لضمائر الناس لتقضى فيه ، تستخدم فى حكمها ماوهبت من عقل ، وماقسط المقسط لقلوبها من رحمة وذلك لأن الهدف الأكبر من التقنين ، وان طال زمانه أن يقوم مقام الضـــمائر حتى تبلغ غايتها من النضـــج ، لهذا يجب استخدام الضمائر وتدريبها ، حتى يأتى الزمان الذى يكون فيه الضمير هو القانون الذى يحكم ليحتكم اليه الناس » •

تقاليد الزواج : مثل للتقاليد الشائعة :

ويعود الدكتور احمد زكى ليستعرض بعضا من تقاليدنا الشائعة ويقف منها بعض وقفات التأمل ، سنعفى القارىء من أكثرها فى هذا المقام ولكننا سنستمتع معه بالاســـتماع الى احمد زكى وهو يتحدث عن تقاليد الزواج فيقول ان الزواج ازدواج ، والعروس والعريس عند الازدواج يغفلان عن كل هذا ، ووجب أن يغفلا ، انه الحب بينهما ، وانه العشق ، وانه الشهوة أو ما شئت من أشياء•• ان الانجاب واحد من أشق الواجبات زيفته الشهوة التى تبدأه ،

انها كشهوة الطعام لولاها ما قام أحد الى مائدة » ويستطرد ليقول ان التزييف نوعان ، ان تجيء الخسيس تحت غطاء من ذهب ، وتكشف عنه غطاءه ، فلا تجد الا شيئا خسيسا ، ولكنك أيضا قد تجيء الشيء الثمين تحت غطاء من فضة وتكشف عنه غطاءه ، فتجد من دون ذلك ذهبا خالصا » وهكذا الانجاب عمل يغرى به الانسان فقشرته من فضة ، ولو كشف عنه قشرته ، لوجده ذهبا خالصا وقل من الناس من يتوقف ليكشف ٠

التقاليد والحروب :

« وللتقاليد جذور ثابتة فى الشعوب وقد عرفت أوروبا قبل الحرب تقاليد تكاد ثابتة بثبوت الدهر ، ثم تبدلت أسرع تبدل عقب الحرب العالمية الاولى وجاءت الحرب الثانية فزادت تلك التقاليد تبدلا ، حتى كان التبدل ثورة » ٠

« وتنتهى الزلازل المتلاحقة وقد تقطعت روابط الناس بالناس، والذى لم يتقطع شك الناس فيه ، وانه النافع حقا ، وتتغير بتصدع الايمان غضبا » ٠

ومع هذا فللكثرة من سكان أوروبا وسكان أمريكا كان لابد من تقاليد ٠ أهى جديرة قد تكون ولكنها على كل حال تضمنت الكثير من القديم فان الطبيعة الانسانية لا تأبى الانفصام والمجتمعات الانسانية تأبى الا الانسجام ، فان ذهبت تقاليد فلابد ان تحل محلها تقاليد ، والا صارت الحياة فوضى ، فى منزل ، وفى شارع ، وفى سوق ، وفى كل مكان تذهب بالناس اليه خطاهم ٠

التقاليد بين الريف والحضر :

وينبه الدكتور أحمد زكى الى اختلاف التقاليد بين الريف والحضر ويضرب المثل لذلك بالاقراض فهو فى الريف دون صك ،

فان اتبعت هذا التقاليد فى الحضر فاكبر الظن أنه لن يعــــود اليك مقترض بمال ، ولن يحمدك على عملك هذا حامد ، هذا فى الريف حسن ثقة وخلوص نية ، وفى الحضر سفه وغفلة وقلة احساس بالتبعة ٠

والحضر ذاته درجات فهناك حضر صناعى وحضر زراعى ، وحياة هؤلاء غير حياة هؤلاء ، وتقاليد هؤلاء لا يمكن ان تطابق تقاليد هؤلاء ٠

التقاليد ومصالح الناس :

« ان التقاليد وجودها مرتبط بأنها مع تيسير عمل الناس فى الحياة بتوحيد مسالكهم فيها تقوم بخدمة مصالح الناس » ٠

والتقاليد ما خلقت فى بدء خلقها الا لتفى بحاجة من حاجات العيش ، وهى قد تتوسط معاملات الناس وقد تكون بدءا فى هذه المعاملات وقد تكون انتهاء وما خلق تقليد أبدا لمضرة الناس ، اذن لما كان تقليدا رضيه الناس » ٠

التقاليد البـــالية :

ولأننا نعيش فى عصر تتغير ظروفه وحاجات الناس تتغير بتغير الأزمان « فلا مانع مطلقا من ابدال جديد من التقاليد بقديم ، على أن يكون التقليد من الأصالة فى العيش بحيث يستأهل كل ما يبذل فى ذلك من جهود وعلى شرط أن يكون للناس وأخص السواد ، ان يكون لهم مصلحة محققة فى هذا الابدال والتغيير » ٠

اثر التعليم فى التقاليد :

أنه يحدث انقلابا فى التقاليد وحسبك أمره فى مسألة السفور وواجبنا ان نفتح الابواب لتعليم الرجال والنساء « ويسروا للناس

الاعمال ليرتزقوا الرزق الحلال الطيب المجزى ، تتطهر المجتمعات من كثير من التقاليد ، لا نقول البالية ولكن « الضارة » قديمة كانت أو حديثة »

« ان للجهل تقاليد تخفف عن الجهلة اثقال الحيـــاة ، حتى ليكون أحيانا من المضرة سلبهم اياها ، انها المخدر الذى يذهب بالآلام ، وكذلك الفقر له تقاليد تخفف عن أهله مرارة العيش ، وقد يكون من القسوة تجريعهم كأس العيش بمرارته الكاملة » ٠

التقاليد والمستقبل :

وقد يكون من حسن الختام ان نختم حديثنا عن التقاليد وعن نظرية البناء الاجتماعى فى فلسفة الدكتور احمد زكى بالحديث عن أمل الدكتور أحمد زكى فى تطوير التقاليد خصوصا وان الفقرتين قبل الأخيرتين من هذا الباب تحـــدثنا عن التقاليد البالية ، وأثر التعليم فى التقاليد ٠

لا شك أن ذلك من حسن الختام ، خصوصا اذا كنا نقتبس من الرجل الذى كان يحسن الختام ، وقد أحسن الله خاتمته ٠

روى الدكتور أحمد زكى أنه حدث رجلا جاهلا فقيرا فى شىء يشبه ما يتحدث عنه الناس من تقاليد فقال ذلك الرجل موجها حديثه الى أحمد زكى : « عادات أيه وسخام أيه ٠ ما لها عاداتنا ، انها على قدنا ـ ٠٠ ان كنتـم تريدون عمل شىء لنا ، فعلموا أولادنا كيف تكتب وتعمل وترتزق ، واملأوا أفواههم باللقمة الســـخية الطافية حتى يملؤوها هم بأيديهم » ٠

ويشير الدكتور أحمد زكى الى أنه من اللطيف ان الرجل ذكر الاولاد ولم يذكر آباءهم ، لعله ظن ان النجدة بحسبها ان تصل الى الاولاد ، وانه ليس فى الزمن متسع لأكثر من هذا « فهل نفعل ؟ » ٠

الباب الثامن

نظرة فى الاصلاح الاجتماعى

الاصلاح عندى لا يبدأ من أسفل ، ولكن يبدأ من الأعالى الى الأسافل أو هكذا هو يجب أن يكون ٠٠ ان الانسان أوثق قدما وأثبت موضعا وهو فى الدور السفلى من ناطحات السـحاب « فاذا أنت علوت ثم علوت ثم علوت حتى بلغت الدور الأربعين أو الخمسين من البناء ، ونظرت الى أسفل ، هالك المنظر ، وضاعت عند ذلك وثاقة القدم ، وذهب ثبات الموضـع ، وانت ان بقيت هناك طويلا نسيت ما العيش ، مع سـواء الناس ، على الأرض الجامدة » ٠

احمد زكى

لعل أول الأمور فى فلسفة الاصلاح الاجتماعى وأخطرها عند الرجل الذى نيطت به هذه المهمة على مستوى الوزارة هو « القضاء على الفقر » ٠٠ حتى الاخلاق هى عنده نوعان : اخلاق على الفقر، واخلاق بعد القضاء عليه ، وعباراته فى هذا المعنى واضحة ، ومنها قوله فى (يوليو ٧٢) : « القناعة تكون بعد الثراء لا قبله ، ولا باس من البحبوحة فالناس ناس » ٠

والفقر عنده **مأسـاة تؤثر حتى على الايمان** (٧/ ١٩٥٩) : « الجوع كافر ، فلا تأت لكافر ، كفره الجوع ، فتحدثه عن ايمان ان سـبيل الايمان عنده الرغيف والادام ٠ ان هذه هى الطبيعة وهكذا خلقنا الله » ٠

والفقر عنده مأساة تؤثر على الانسانية فتنزل بها عن المستوى الذى أراده الله (١٩٥٩/٧) : « الانسان على الجوع المتصل نزل فى الفهم الى مستوى البهيم » ·

والفقر سبة (٧٢/٧) ، سبة للفرد لأن مع الفقر الضعفين : ضعف الجسم ، وضعف النفس ، وكلاهما سبيل الضعة والمذلة ، فالفقير لا يكاد يرفع يديه ليرفع ، بصـــرا لأنه تعود النظر الى الأرض » ·

والفقر سبة للجماعة وسبة للأمة التى أكثر أهلها فقراء فى عصر حضارى ·

ولكن على من يقع وزر الفـــرد ؟ ان الدكتور زكى يلقى به صراحة على عاتق الدولة (٦٧/٣) · ان وزر الفقر على الدولة ووزر البطالة ، وهى فقر ، على الدولة ، والدول الواعيـــة اليوم تدرك أنه ما من بطالة الا وهى سوء تنظيم وتخطيط « ان تيسير اللقمة النظيفة لتصـــل الى أفواه المواطنين هى فى حســــبانى أول واجبات الدولة » (العربى : ٧٤/١٢) ·

وفى هذا المعنى يقول الدكتور أحمد زكى ، « لا لربط الفقـــر بالمذاهب انها طبخة الطابخ هذا يحبذ أن تطبخ فى نحاس ، وهذا يحبذ ان تطبخ فى حديد ·· فى فخار ونسوا الطبخة نفســـها ·· والطبخة قيمتها ليست فى وعائها ولكن فيما تحويه من لحم وشحم وما الوعاء الا عارية » ، « والناس تقضى امساءها والأصباح فى مذاكرة المذاهب ولو انهم صـــمتوا عن هذه المذاهب ونزلوا الى الحقول يعملون لاغناهم العمل ، وانتجة العمـــل ، عما كانوا فيه مجتمعين » ، « أخطر من المذاهب الاقتصادية الاقتصاد نفسه » « لابد من عمل الناس كافة ، فلا يكون بينهم قادر كسول عالة ·· يأكل بلا عمل ، أو يأكل من عمل غيره ، عمل الناس » ·

ويضـرب الأمثلة « لقد زرت المانيا بعد نكبتها بسنوات فوجدتها كخلية النحل لا تهدأ عملا ، والنحل يعمل نهارا ، وهؤلاء كانوا يعملون ليلا ونهارا ، فى « الرور » فى « الرين » فى كولون .. الخ) .. صفوف كصفوف النحل رائحة بأعمالها غادية ، ومنهم من أعطى فوق حصته عملا ، ورفض أن يأخذ عليه أجرا ، أنه يبنى أمة ، انها روح الجهاد ، شملت كافة الناس هناك ، ولم أقف لأتساءل : ما كان مذهبها الاقتصادى عند ذاك » .

وان تعجب فاعجب من قوم يرون فى المذاهب انها الغاية المذهب عندهم هو الاول والآخر ، يعتنقون المذاهب اى مذاهب ثم ينظرون الى السماء علها تمطر ذهبا ، انها معركة الفقر أقل سلاحها خطرا المبادىء والمذاهب واعظمها خطـرا عمل العامل وجهد الجاهد » .

اذن الحل هو العمل ، والانتاج ، ولكن أى نوع من العمل والانتاج ان أحمد زكى يركز على ضرورة التصنيع ، وحتى الزراعة لابد من دخول التكنية اليها ، وهو يفيض فى شرح المعنى الذى يفرق بين الناتج النهائى من الزراعة أو العمل اليدوى ، وبين ذلك الناتج بعد التصنيع ، وسنورد هنا فى اختصار شديد بعض فقراته فى هذا الصدد .

١ ــ « والحقيقة التى أريد أن يعلمها العرب ، وأكثرهم لاشك ايقاظ لها ، بها عارفون ، أنه لا سبيل الى أن تكون للعرب صناعة الا من هذه المدخرات التى اتتهم من البترول ولست أريد للعرب زمانا صناعيا ضنكا كالذى كان للشعب الانجليزى فى القرن الماضى ولا كالذى كان للشعب الروسى فى القرن الحاضر ، ولكن أريد أن اقول ان انشاء الصناعة العربية يحتاج الى تضحية من أقلها ترك البذخ والاسراف فى اقتناء السيارات وبناء القصور ، ويكفى العرب الى حين أكثر مما كفى الانجليز والروس فى نشأة صناعتهم » العربى ١٩٧٣/١ .

٢ ـ « اكاد اقول ان البلاد التى لم تتصنع ليس من حقها ان تشترى من هذه المدنية الصناعية ما تشاء بغير حساب ، لاسيما فى البلاد التى اذا اشتريت فيها سيارة ذهب ثمنها بطعام مائة أو ألف من الناس لاسيما سيارة لا يركبها راكبها الا لينتمى ظاهرا الى المدنية الحاضرة وهو ليس منها وهى ليست منه » ٠ (٧٤/١١)

٣ ـ « المصانع اليوم صـــارت أبواب الثراء وأبواب الاكتفاء وأبواب الرخاء ، وأبواب العزة لمن يطلب العزة ، والقوة لمن يطلب القوة ، والعزة التى بناؤها القوة هى اليوم المتكأ الأول لمن يخشى فى الحياة ذلة » (٦٦/١٠) ٠

٤ ـ « المكن المكن يا ســـادة العرب ويا دهماءهم ٠ تمكنوا بالمكن ، فليس اليوم فى حاضر هذا العيش من مكنة سواه ٠ ان الذراع الذى يعمل اليوم من حديد وان بقى ذراع من عظم ولحم يعمل الى اليوم فهو ذراع البقر والخيل والحمير ٠

الشرط الاول للتجهيز للانتـاج الميكنى : أن يقرأ العامل وان يكتب فكيف يعمل المكن ثم كيف تحســن ادارته وحسن الانتاج به عامة » (٧٠/٣) ٠

٥ ـ ويعلق على الذين يفخرون باقامة مجموعة من المصانع والصناعات تبلغ خمسا أو ســتا وتكون هذه فخر مواطن بوطنه ويقول « وأحسبها فخرا لصناعة بادئة ، ولكنه يجــب أن لا ننسى ان هذه الصناعات ألف وألف ، لا بضع خمسات أو عشرات ، وعلى هذا المواطن ان يراجع قوائم الصناعات فى البلاد الصناعية ويحتاط حتى لا يتورط فى انهيار عصبى شديد » (العربى : ٧٣/١) ٠

هل لنا ان ننتقل بعد عرض هذه الفقرات التى ابانت عن نفسها، وعن فكر احمد زكى فى المطالبة بضرورة تصنيع البلاد العربية الى الجانب الثانى من جوانب الاصلاح الاجتماعى وهى مسألة متصلة

أشد الاتصال بالجانب الاول من حيث اهمية العلاقة بين الاجور والانتاج لأنه لابد من مراعاة « ان كل محاولة لرفع الاجور الحقة فوق ما يأذن به الانتاج أو خفضه دون ذلك لابد أن تنتهى بالفشل وتعم المأساة حين يصل تأثير هذا الخفض فى سائر الانتاج فتفسد به الأجور ويتعطل العمال والنتيجة التى لا مهرب منها انما تكون زيادة الاسعار وزيادة الاسعار عقوبة للشعب » .

ويصل اقتناع أحمد زكى بهذه الفكرة الى حد ان يجاهر (فى ٧٣/٩) بأن كل مؤسسة عامة أو خاصة لا تحسن الانتاج ـ كثيرا ما يكون اغلاقها خيرا لأنها تنزل بالأجور وترتفع بالاسعار والفقر يرقد فى كليهما والافقار » .

وأحمد زكى يقيس الاصلاح الاجتماعى ، والنجاح الاقتصادى المسبب له بالمستوى الأدنى الذى يكون فى البلاد بعبارة أخرى يذهب الدكتور أحمد زكى فى تعريف الفقر الى أنه غياب الضروريات « والضرورة هنا ليس معناها ان الشىء هذا الذى نسميه بالضرورى اذا غاب هلك الانسان ولكنه ضرورى بمعنى أنه اذا غاب افتقده الانسان افتقادا شديدا » .

بعبارة ثالثة اقرب الى علم الحساب والرياضة أنه يجعل حد الفقر وهو الحد الذى يكون من تحته فقيرا ٧ بدلا من ٣ وهكذا .

هذه المعانى تجدها فى حديثه عن الصناعة وعلاقتها بالحرية ، وها نحن نختار لك من حديثه فى هذا المعنى ثلاث فقرات من مقاله فى يوليو ١٩٧٢ » .

« الرجل القنوع هو الذى يأكل ولكن دون أن يشبع ويطلب الطيب من ثمرات الأرض ويقف دون الكثير حتى يكون لغيره نصيب، وهو الذى يلبس الثياب نظيفة مريحة لا بهرج فيها ، ويفى بمطالب العيش ولكن فى اعتدال » .

« والرجل القنوع هو الذى يقنع بالعيش المحدود ، شريطة ان يكون هو الذى يحد منه ، والرجل القنوع هو الذى يرضى بالعيش القليل شريطة ان يكون هو الذى يقلل منه ليبقي منه شيء ينتفع به ذو رحم أو ذو صداقة او ذو ميزة أو ذو جاه » ٠

وليس من القناعة ان يقنع المرء بالعيش الزرى الذى تفرضه عليه الايام فرضا ذلك الذى نسميه بالفقر ، فما كان الفقر يوما بزينة ٠ وما كان صبر على فقر له أجر فى دنيا او آخرة ٠ والرجل قادر على تغييره ٠ أما ان يطلب الفقر عمدا ، ف اليوم الحاضر رجاء أجر مرجو غدا ، ففكرة تعجز عن فهمها العقول » ٠

واروع من هذه الفقرات الثلاث السابقة ، فكرة ذكية لأحمد زكى يرد فيها على أولئك الذين يرضون لشعوبهم — أو لغيرهم أو لأنفسهم — الفقر تحت شعار الزهد ضاربين الأمثال بالزهاد الكبار فى تاريخ الانسانية والاسلام ٠ فيقول أحمد زكى ان هؤلاء عملوا ولم يرفضوا أجر عملهم ، وانما أجلوه — الى يوم القيامة — فهو نسيئة ٠

وأخيرا فان أحمد زكى يؤمن ان ليس فى عالم اليوم مـــكان للضعفاء على النحو الذى يجده القارىء مفصلا فى الباب الأول ٠٠ وهو يتحدث فى (٦/٦٨) عن أحكام القانون الدولى فى شأن الدول المتخلفة ثم يقول عن هذه القوانين أنها صارت كلها كسائر قوانين أهل الأرض ان كنت ضعيفا وتخشى الملامة فأنت تتقبلها وتحاول فيما ظهر منك أن تخضع لها ، وان كنت قويا فمنذا الذى سوف يطالبك من بعد حساب ٠

المصـــــادر :

١ ـ « الفقر داء عز دواؤه » الهلال : مايو ١٩٤٨ ٠

٢ ـ « معركة الفقر قائمة » العربى : يوليو ١٩٥٩ ٠

٣ ـ « فقر الدولة من فقر أفرادها وغناها من غناهم » العربى : يوليو ١٩٦٤ ٠

٤ ـ « الف مصنع ومصنع تفتح الآن أبوابها لتصنع الرجال » العربى : اكتوبر ١٩٦٦ ٠

٥ ـ « الفقر ٠٠ الفقر » العربى : مارس ١٩٦٧ ٠

٦ ـ « الدولة الخـــيرة ترعى ابناءها من يوم يولدون الى يوم يقبرون » العربى : ديسمبر ١٩٦٨ ٠

٧ ـ « فقر وغنى » العربى : مارس ١٩٧٠ ٠

٨ ـ « التربية كيف تمارس على التخلف والفقر » العربى : فبراير ١٩٧١ ٠

٩ ـ « هموا الى الاصلاح » العربى : مارس ١٩٧١ ٠

١٠ ـ « معركة الفقر والغنى » العربى : يوليو ١٩٧١ ٠

١١ ـ « بين الحرية والكسب » العربى : يوليو ١٩٧٢ ٠

١٢ ـ « حقائق عشر عن تخلف الشرق » العربى : يناير ١٩٧٣ ٠

١٣ ـ « الأجور وكيف اختلفت بين الناس » العربى : ســـبتمبر ١٩٧٣ ٠

١٤ ـ «الاسعار ٠٠ الاسعار » العربى : نوفمبر ١٩٧٤ ٠

١٥ ـ « الفقر اكثر اسباب التخلف اصـــالة » العربى : ديسمبر ١٩٧٤ ٠

الباب التاسع

المرأة

أحب المرأة التى تقول لا ، ولا أحب التى تقول نعم دائما لأنها تعيش على الظلم ، ولا التى تقول لا دائما لأن هذا ينافى طبائع الاشياء ٠

أحمد زكى ٢/٦٨

يناقش هذا الباب بعض النقاط التى قد تبدو منفصلة عن بعضها، أو بالمعنى التقسيمى تبدو كل واحدة منها منتمية الى عنوان كبير غير الذى تنتمى اليه النقاط الأخرى ، ولكننا مع ذلك نجمعها فى هذا الباب الذى يحمل عنوانا له الصدارة من حيث أهميته على بقية العناوين ، من حيث كانت المرأة طبيعة ، وللطبائع السبق عند التقسيم وخير التقسيمات هى تلك التى تخضع للطبيعة ٠

يناقش هذا الباب حاجة الرجل الى المرأة : طبيعة هذه الحاجة ومداها وسرها ، ويعرض رأى الرجل فى تحرر المرأة وأى نوع من التحرر يجيز والى أى درجة يوافق ، ويعرض ايضا مذهبه فى ان الأسرة باقية ، وان الاباحية شىء الى حين ٠ والوحد ٠

والأمومة ، ودورها فى تربية الانســـــان ، ربابة البيت كمهنة المرأة الاولى ، طبيعة المرأة التى تضيق بالقرى والاباحية كل هذه أيضا رءوس موضوعات يتناولها هذا الباب على نحو نرجو له أن يلقى القبول ٠

ويستـــتمد هذا الباب افكار أحمد زكى فى عدة مواضع لعل ابرزها ٠

المصـــــادر :

١ ــ « للنساء حروب ناعمة » مجلة الهلال : سبتمبر ١٩٤٩ ٠

٢ ــ ، الخاطبة » مجلة الهلال : ديسمبر ١٩٤٩ ٠

٣ ــ « اللهم نسألك الستر » ٠٠ الفصل العاشر من « ســـاعات السحر » (١٩٥٠) ونشر فى مجلة الاثنين قبل ذلك

٤ ــ « عتـــاب » مجلة حواء : ١٩٥٦/٣/١ ٠

٥ ــ « الأمـــومة » العربى : مارس ١٩٦٢ ٠

٦ ــ « حجر الأم أول كرسى فى مدرسة الحياة » العربى « يونيو ١٩٦٦ ٠

٧ ــ « أحب المرأة التى تقول لا وتقول نعم » العربى : فبراير ١٩٦٨ ٠

٨ ــ « الأســرة بين عصــرين زراعى قديم ، صـــناعى حديث » العربى : نوفمبر ١٩٧١ ٠

٩ ــ « مكانة المرأة فى سائر الأمم عبر القرون » العربى : يناير ١٩٧٥ ٠

١٠ ــ « ربابة البيت أول مهنة ، وأقدم مهنة ، وأثقل مهنة وأكرم مهنة امتهنتها الأنثى فى شتى العصور ولسائر المهن فى حياة المرأة المكان الثانى » العربى : سبتمبر ١٩٧٥ ٠

على أنه ينبغى لنا قبل ان نمضى فى هذا الباب ان نشير الى أمرين :

أولهما : أن أحمد زكى كان من **أنصار المرأة** – ان صح ان للمرأة أنصارا وأعداء – كان يدافع عنها فى العهد الذى كان الدفاع عنها فيه شيئا غير مألوف من الرجال ، وكان يفخر بالمرأة المصرية فى كل مجال ، وكان يدعو الى التقدم المحســـوب بالمرأة العربية ، المحسوب ولكن فى جميع الميادين ، وكان يعتب على المرأة نفسها أنها لا تنهض ببنات جنسها النهوض الواجب عليها نحوهن • كان أحمد زكى يقدر فضل المرأة على ولدها جنينا ، رضيعا وطفلا شابا ، يافعا ورجلا •• وكان يعتز بفضل أمه عليه ويوليها من حبه أكثره ، وكان يقدر لزوجه صبرها وتحملها وجلدها ورعايتها له •• وكان يصرح بذلك فى فخر • وكان يحترم المرأة فى بيتها وعملها ، وكان يشجعها فى الجامعة وهو استاذ وفى مصلحة الكيمياء وهو مدير ، وكان يهتم بأمرها فى مجلة العربى وفى مجلة الهلال من قبل ؛ يخصــص ركن الأسرة والمرأة ، يعنى فيه بكل الأمور المنزلية والصحية •

ثانيهما : ان أحمد زكى كان من المقتنعين تمام الاقتناع أن الأسرة باقية ما بقى الزمان أو بتعبيره ما بقى طير قادرا على بناء عش لم يتعلم كيف يبنيه •

وكان ينظر الى كل موجات الانحلال على أنها عوارض ستزول وكانت له فى ذلك فلسفته التى سنقرأها بعد قليل •

هذان الأمران ستتناولهما البنود القـــادمة من زوايا مختلفة فلنبدأ :

١ – حاجة المرأة الى الرجل :

١ – ان المرأة لابد لها فى الحياة سند ؛ رجل كل ما نرجوه ان يكون سندا معوانا فيه الود ، والحب ، والفهم معه الرحمة ، وكل هذه صفات تناهض فيه القوة وعنفوانها وغطرستها •

٢ ـ « ان المرأة قد تكسب حق التصويت فى سياسة ، وقد تكسب ما تراه نصيبها فى ادارة ، وقد تكسب حق العمل ، وحقوقا لها فى زواج ، وحقوقا فى طلاق ، وقد تخاصم الرجل خصومة تقول أنت لشدتها : ما بعد هذا الخصام وئام ، ولا بعد هذا الانفصام التئام ، ثم تنفض الجلسة وتاتى للاستراحة فترة تبحث فيها عنه وعنها فتجدهما وراء الكواليس قد جمعتهما قبلة » .

« ان الغاية لا تستغنى ابدا عن وسيلتها ، والرجل وسيلة المراة ، والولد غايتها هكذا قال زرادشت » (الهلال ٩/١٩٤٩) .

٣ ـ « المرأة ترضى بغضب الرجل لأنها بدونه سوف تلقى من البشر الذئاب ، وهو ان مات عنها تحرشت بها السباع والضباع فهى مع زوجها ، كما قال الشاعر وأحسن ، الأعشى « ويلى عليك وويلى منك يا رجل » العربى : ٧٥/١

٢ ـ حاجة الرجال الى المراة :الأمومة :

والدكتور أحمد زكى يؤمن ايمانا يقينا (٦٦/٦) ان الانسان يولد ليموت لولا أمه ، فان فقد الأم فأبوه ، وذووه ، أنه لا يدرى ما ياكل ، ولا كيف ياكل ، فتعلمه الأم ما ياكل وكيف ياكل .. وكذلك الشرب والمشى والتعبير .. ويكبر الطفل وفى اثناء ذلك تعلمه الأم الكثير من ثقافة العيش الأولى . واللغة .. ومع اللغة ثقافة القوم .

والمراة روح البيت لا الرجل انها ساكنته ، وأنها حارسته ، وانها الحانية على فراخه ، ولهذا وجب ان تتثقف كتثقف الرجل او فوق تثقف الرجل ، وان تفتح لها بالتعليم على الدنيا الف نافذة . .

والتعليم والتثقف ليس تعرية نحور ، ولا كشفا عن ظهور ، ولكنه كذلك ليس اختباء فى حجور ، والتثقف وقاء من شرور الدنيا ، والا فثقافة الطبعأولى وأحكم ·

والأمومة فى الحيـــاة عامة اذن ليســت بالواجب الحقيقى (٧٢/٣) انها أصل الكون ، وأصل الحياة المركبة فى شتى درجاتها على سطح هذه الأرض ، ولكن أشـق الأمهات عبئا انما هى أم الانسان ·

والأم فى المدنية واجبها اكبر ، عليها أن تصنع من **الاولاد ما** يتفق وهذه المدنية وفقا لما اخرجه علماؤها **ويخرجونه كل عام من** كشوف تتصل بنشأة الأطفال ·

الأمومة اذن دراسة ·· الأم ليست وعاء حمل فحسب ، **ولا** مرضعة فحسب ·· **انها** تشكل الرجل ·· **تشكل جهاز** النفس ·

ويلفت الدكتور أحمد زكى النظر الى أهمية **الموازنة بين حقوق الزوجية والأمومة** ، وفى هذا يقول ان جهاز الأمومة ليس من فولاذ ، انه لحم ودم وأعصاب ، يضع الولد الواحد فيه فى العام الواحد ثم هو لابد ان يستريح لأعوام ·

والمجتمع لا يكون الا بالأسرة ، والأسرة لا تكون الا بالزوجة **والزوجة لن تشبع مطالب الأنوثة الا بالأمومة · فلا تقيمه الا امرأة** أخرى ·· المرأة **اذن هى البيت فى الاصباح والامساء** ·

« **الأمومة شاملة فى ذاتها على الثراء** ، فكيف بها على الدخل المحدود ، وعلى الدخل الذى يزداد كل يوم تحددا » ·

٣ ـ ربابة البيت هى مهنة المرأة الأولى :

لأنها كما يعبر الدكتور أحمد زكى فى العناوين النوعية فى مقال

سبتمبر ١٩٧٥ بالعربى « أول مهنة ·· واقدم مهنة ·· واثقل مهنة ·· واكرم مهنة » :

انه مبدأ تقسيم العمل ، هذا المذهب الحديث الذى اعتنقه كل ناظر فى الاقتصاد من الناس ، علام قالوا انه مذهب حديث ، وهو أول المبادىء التى طبقها الانسان بفطرته على نفسه ؟

والانسان الاول لم يكتشف هذا المبدأ عن علم واسع أو تكنية مساعدة ·· انه اكتشفه بحكم الطبع ، لا بحكم الفكر ·

وليس معنى هذا أن احمد زكى يريد **أن يقصر عمل المرأة على رباية البيت ، ولهذا فهو يســارع فيقول « ان ربابة البيت ليست هى المهنة الواحدة المفتوحة للمرأة التى يجب سائر المهن أو ســائر الاعمال فان المرأة — فى نظره — على رقتها** (ويتحوط فيقول : ولا أقول ضعفها) **يتسع وقتها للحمل** واشياء غير الحمل ، وليس من هم الرجل ان تظل المرأة تحمل له العام بعد العام ، فلا تكون هناك فترات راحة واستجمام ، حتى المكنات الصماء لابد لها من اجازة تنائى بها العمل ، والمرأة تنتج بمقدار ما تحمل جسمها ، وبمقدار ما يتسع رزقها ورزق زوج ·· ثم ان الاطفال يكبرون ، وتقل عنهم رعاية الأمومة ·

فالمرأة ان ملأت رعاية الزوج ، ورعاية البيت والاولاد وقتها كله ، فانعم بذلك ، وأنعم بمهنة امتهنتها هى أشرف مهن المرأة على الاطلاق ·

والمرأة اذا فاض وقتها عن رعاية البيت ،وطلبت الى مهنة البيت مهنة اخرى ، فاهلا بذلك وسهلا ، وليس فى هذا جديد ، فالمرأة من قديم الزمان خرجت عن بيتها لمعونة المرضى ومواساة الفقراء ورعاية

الأشياخ الضعفاء ، وخرجت حتى مع الخارجين الى الميدان لتعالج الجرحى وتحمل المئونة والسلاح ·· ومنهن من تسلحن وأخذن يدفعن مع الدافعين » ·

والمرأة اليوم تمتهن التمريض ، وتمتهن التدريس ، ومهنا أخرى كثيرة اتضح ان الأنوثة أدق أداء فيها وأحسن انتاجا ، ولابأس عندى أن تخرج المرأة الىكل عمل يأتلف وطبيعتها · ولكن فى الرجالمروءة تأبى عليهم ان يروا امرأة تكنس الشوارع أو تحفر الأرض أو تسوق قاطرة بخارية أو يروا امرأة متمددة على الأرض تحت سيارة تحاول أن تصلح فيها ما فسد » ·

ان مهن النساء تعددت اليوم وهى مهنة كريمة : فى الطب ·· فى علم الحياة ·· فى العلم جميعا وفى الجامعات ·· وفى البنوك ، والشركات وفى الصحف والاذاعات » ·

ولكن فى كل هذه تحتاج المرأة الى حماية والى حماية تأتيها من الرجال · من المجتمع ومن كل ذى شارب وكل حليق » ·

ان حرية المرأة لا يكفلها فى المجتمعات الا كبح جماح الرجال · فان من الرجال رجالا كان من الخطأ ادماجهم فى الجنس البشرى ، وهم كانوا بالظهور فى أجناس الماشية أولى ، بل ان فى الماشـــية احتراما للانثى أكثر من احترام نراه فى بعض المجتمعات الانسانية »

٤ ـ الأســرة باقيــة :

يخصص الدكتور أحمد زكى حديث شهر نوفمبر ١٩٧١ فى مجلة العربى لدراسة التطور التاريخى للاسرة عبر العصور والازمان ،

وفى الأديان وعند الفلاسفة ، ويناقش كل موقف من هذه المواقف ، ويحلل الاباحية المتفشية اليوم وينتهى الى ان الاتصال الاباحى ـ ان يكن مهربا للرجل ، فهو مهرب الى حين ، فالجنس فى الحياة ليس كل شىء ، والجنس ينطفىء لهيبه على السنين ، وهوان لهيبه فى العشرين والثلاثين · ثم يبحث الرجل عن طمانينة الحياة بتقدم السن فيفتقدها : الصحبة الصادقة ، المشاركة فى السراء والضراء ، الأنس فى الوحدة ، فى غربة وغير غربة ، وفى وحدة النكبات ، فى كل هذه لا يكون لارتداء الشهوة مكان ، وفى الأزمات تتراءى الشهوة على حقيقتها : انها الأنانية · وانها أنانية الرجل خاصة · وانها الكراهة الخبيئة فى قلب المرأة » ·

الاباحة يغالبها الانسان خصائص لا يمكن ان يتخلص منها لأنها معجونة فى كيانه · فهو لا يستطيع ان يســـتعير طبع الكلاب طويلا ، فيلقى بشهوته ، كما يلقى الكلب ببوله ، وهو عابر سبيل ، فالشهوة للبقاء لا للهرب ، والحياة ذكرى ، والحياة تمسك بالايام وتعلق ، والانسان منا ذاهب ، يعمل فى الأرض لارساء أقدام لاحق · وشر الذاهبين من قدروا ولم يلحق بهم أحد ·

لا ، لا ان الأسرة باقية ما بقى طير قادرا على بناء عش لم يتعلم كيف يبنيه ، أو حيوان وحش يطلب جحرا يطويه · أو انسان يأوى الى كهف يسكنه أو بيت يحتويه ·

٥ ـ حـــــرية المــــــرأة :

من مقال ديسمبر ١٩٤٩ ننقل هنا بالنص رأى أحمد زكى فى هذه المسألة وهو رأى واضح قوى أخاذ جدير بالأخذ به قبل ذلك وبعده · يقول الدكتور زكى :

الخير كل الخير ان نقر تحرر المرأة ، وان نقر سفورها ، وان نقره لا شعور قلب فحسب لكن شعور عقل وشعور فكر وشعور لسان وشعور اختلاط وان ننظم هذا الاختلاط فنخلق من ذلك اعرافا جديدة مكان العرف القديم · وان ننظمه بحيث نهدى الفتاة الطيبة الى الفتى الطيب ونزيد الفرصـــة للقاء طالب بمطلوب على براءة وحسن مقصد فيبنى الزواج الذى هو غاية كل حى ، على اختيار متكافىء ليس فيه مشتر ومشترى ، ولا بائع ومبيع ، وسوف تتطلب منا حتى هذه الحرية المنتظمة قرباناً ، فلنتقرب به عن رضا ولنتذكر دائما عند التقرب به ان للنظم جميعا ما تحرر منها وما تقيد ضحايا وقرابين اقتضاها الزمان من كل الأمم وكل القرون » ·

٦ ـ دفـــاع عن المـــرأة :

يدافع الدكتور أحمد زكى عن المرأة فيطالب بالا تكلف فوق طاقتها ، انطلاقا من مبدأ المساواة ، الذى يريد البعض الانتقام به له منها ·

ويتوجه أحد القراء للدكتور زكى بســؤال من هذا المنطلق، فيرد بقوله ان هذه هى المساواة المتقعرة ·

وتشتد الحملة على المرأة فى بعض الاحيان ، وتتهم فى خلقها . فيجاهد أحمد زكى قائلا : « ينسى الشرق أن الانثى عندما تبتسم فى لطف ، أو تغمز بعين لا تطلب العاشق العابر ولكن تطلب العاشق المقيم ، تطلب الزوج وتطلب الولد ، وتطلب من حيث تدرى أو لا تدرى عمارا يكون باعطائه طفلا يولد مكان شيخ يموت ، وينسى الشرق وينسى ذكوره أن المرأة لا يمكن ان تفسد الا اذا فسد فى قبالتها رجل ·

ولو ذهبنا نستقصى للقارىء ما لخصناه واستنبطناه من حديث أحمد زكى فى شأن المرأة ما وجدنا الى ذلك سبيلا ، لا اقصد سبيل قدرة، ولكن أقصد سبيل تواؤم مع الخطة الزمنية التى قسمنا عليها وقت هذا الكتاب ٠ ٠لهذا سنسرع لننهى هذا الباب بعد دقيقتين نروى فيها ما يرويه أحمد زكى من حلم رأى فيه نفسه فى مزرعة العراة ووجد النساء أكثر هذه الجموع ضيقا ، وأكثرهن سخطا ، فقلت لهن : أفما كانت هذه الغابة التى رمت اليها اكثركن ، قلن : قبحت من غابة ٠٠ لقد كنا نتخذ من الثياب ستارا للمصائب نخفيها ، واطارا للمفاتن نبديها ، وكنا نملأ بها الفراغ ، ونخفف بها عن الملآن، والزوايا نحشـــوها فنصطنع منها الداوئر والذيل نجرره أحيانا ، والمعطف نعطفه فتنة ودلالا ، قلت : والرجال ؟ قلن : قبحهم الله ، لقد كان الرجل منهم يدخل بيوتنا فأول ما ينادى : (ياستار) ! فما أولاهم اليوم بهذا النداء ، وما اولى بهذه الكروش الورمة والصدور المعشبة ، وتلك السيقان النحيلة العوجاء التى كأنها تمشى القرفصاء ما أولاها الآن ان تصرخ تطلب الستر من الله ٠

البـاب العاشـــــر

تنظـيم الأسـرة

ان الأمة قد يكون لها مصادر طبيعية للثروة كثيرة ولكن ليس كالثروة البشرية ثروة ، ان الانسان ثروة ، وهو قد لا يكون ذا قيمة كبيرة وهو خامة ، ولكن قيمته هى القيمة الكبرى من بعد تصنيع ٠

أحمد زكى

تثور الدهشة فى نفس المطالع للببليوجرافيا حين يجد شيئا من التعارض فى عناوين مقالات أحمد زكى ، فبينما يجد كثيرا من هذه الموضوعات تنادى عناوينها صراحة الى الحد من النسل وتنظيمه يجد على الصعيد الآخر بعضها يدعو الى التناسل والتكاثر ٠ ومن الطريف ان هذه التى يدعو فيها الرجل الى التناســـل هى آخــر مواضيعه ، وهكذا يصبح من السهل على الذين ينادون بالتناسل والتكاثر أن يضعوا أحمد زكى فى قائمة المعارضين لتحديد النسل ، ويصبح من السهل ان يقال فى بساطة أن الرجل العالم انخدع طيلة عمره ولكن الله هداه فى النهاية فكتب يقول :

ليس ما يعنينا هنا ان نضع الرجل فى هذه القائمة او تلك ، او على رأس هذه القائمة أو تلك ، أو أن ننتقل به بين القائمتين ، وانما نحن ندرس فكر الرجل محللين ومقارنين ومتوصلين الى الأصـــل فيه وعندئذ نصل الى جوهر رأيه فى الموضوع ، والجوهر واحد والصور التى تظهر له متغيرة ، المبدأ واحد ، والمواقف التى تنشـأ

عن المبدأ الواحد يجوز لها ان تتغير ، هذا هو الفـــرق بين المبدأ والموقف • كلاهما صورة للرأى ، وكلاهما يتخذ الرأى صـــورة وكلاهما يتخذ صورتهما فى الرأى • ولهذا كان عنوان هذا الباب من كتابنا رأى أحمد زكى فى تنظيم الأسرة ، ولم نقل مبدأ لأننا لن نقتصر فى التناول على الجانب النظرى من فكر الرجل ، ولم نقل موقف لأننا لن نبرر مواقفه الاولى والاخيرة وانما سنناقش فكرة الرجل وكيف أوقفته مواقفه التى وقفها ، ووفقته الى آرائه التى ابداها •

وسوف يناقش هذا الفصل أربعا من النقاط الأساسية يتحقق بمناقشتها مجتمعة فهم فكر الرجل فى شان تنظيم الأسرة •

الوجهة الدينية فى الموضوع :

واحمد زكى على رأس المؤمنين بان ليس فىتنظيم الأســـــرة تعارض مع الدين ، ولا مع الايمان بان الله هو الرازق •

وهو يؤكد على هذا المفهوم غير مرة فى مقالاته فى أول حياته وفى آخرها ، ويكفينا ان ننقل هنا عنه قوله فى ابريل ١٩٦٧ •

« وهم يؤكدون لك ان عليك ان تلد وان الرزق على آلله » •

« اما انها ارادة الله فلا علم لنا بأنها ارادته » انما الذى يعلم ان الملايين تموتكل عام جوعا فى الأرض حيث لايكون النسل ضابطا حابسا بالقدر الذى فى الموارد من وفاء »

« اما أن الله يرزق من يشاء فانه يرزق حقا وصدقا ، ولكنه لا يرزق الجاهلين العابثين غير الحاسبين من عباده الا الفقر • وان جعل فى الخلق قوانين لا يخرقها ، وجعل لكل شىء سببا » •

« ويمضى الدكتور أحمد زكى فيذكر المفهوم الذى أتى به حديث

رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمر دابة الاعرابى ، حين قال له : اعقلها وتوكل ·

« ويكرر أحمد زكى ذات المعنى بأسلوب آخر فيقول فى « مارس ١٩٧٠ » تحت عنوان « فقر وغنى » : « لن يقول أحد باطلاق النسل، ولأن الله يرزق من يشاء بغير حساب » ذلك أن الله أول ما رزق الانسان رزقه العقل والعقل يقضى بان زيادة السكان مع ثبات الانتاج يؤديان الى زيادة الحرمان والتاريخ دليل ذلك » ·

ويعقب الدكتور أحمد زكى بقوله : وانا اؤمن باطلاق النسل وزيادة الانتاج والجمع بينهما · فدون ذلك فناء العرب ولكن لهذا حديث آخر » ·

طبيعة دعوة أحمد زكى فى تنظيم الأســـرة :

وينبغى هنا ان نشير الى أن احمد زكى كان مهتما بهذا الموضوع أشد الاهتمام ، وبخاصة أنه فى مقدمة طلائع الأمة العربية المفكرة، وقد واجهه لبعض الوقت وهو وزير الشــــئون الاجتماعية أما عن أحمد زكى شخصيا فقد ذكر الباب الاول أنه كان له ابنة واحدة ، فى حين كان هو أكبر ستة اشقاء ·

ولكن ما هى خلفيات أحمد زكى فى مسألة تزايد النسل ؟ انه يفرد مساحة كبيرة من حديث الشهر (٦٦/٢) للحديث عن تزايد السكان فى حين لا يزيد الانتاج (على النحو الذى قال به من قبل علماء الاقتصاد وهو يؤمن ايمانا شديدا بقول الخبراء ان الخطورة فى مسألة تزايد السكان أشد ، والنكبة فى هذه الناحية أقرب فى الأمم المتخلفة وحدها ، وهذا هو ذات المعنى الذى عبر عنه من قبل حين تولى وزارة الشئون وخرج يطالب بتحديد النسل حيث يوجد الفقر

والتعاسة ، وهو يرى أنه لا فائدة حاسمة ترجى من معونة القادر لغير القادر » ، والغنى للفقير اذا لم يقم العاجز الفقير نحو نفسه بما يجب عليه من التدرج فى مدارج الرخاء وأولها ضبط النسل ·

وبطبيعة العالم والمفكر العميق الذى يتميز بطول النظـــر ، والعمل على تقصى المشاكل وحلها من جذورها ، نجد أحمد زكى يجاهر فى العناوين الفرعية ان « لا مخلص الا التوعية ومع التوعية الحبوب واللولب » أما التوعية « فيكون هدفها اقناع الأم بمخاطر الأمومة التى تتضاعف مثنى وثلاث ورباع ·· وثمان وتساع ·· مخاطرها على صحة الأمة نفســـها وذبول زهرتها بهذا التكاثر ، ومخاطرها على الاولاد الذين سوف تنجب للفقر ، لنصف طعام ، ونصف كساء ، وللحقير من الايواء ، وما يصـــاحب هذا وما قد صحبه فعلا ملايين من سكان بعض من نعرف من الأمم الحاضرة من هبوط فى طاقة أجســـام وضعف فى مدارك أفهام ، جلود على عظام ، تسير بها على الأرض سيقان كالعصى تكاد تنكفىء بهم على الأرض سكارى ولكن من جوع وما يدرك ما سكر الجوع من لم يعرف حياته غير الشبع » ·

« يجب ان تعى الأم ان الطعام فى مستقبل الايام اذا ظل حال النسل فى الدنيا على هذا الحال ، سوف يعز فى الدنيا فلا يشتريه حتى المال » ·

« يجب ان توعى المرأة بان مع اليوم غداً ، وان تعـــود ان لا تنظر فى يومها فحسب ، وتحت قدمها الحاضرة فحسب ، ولكن كذلك الى الاغداء البعيدة بعد العام ، والعشــرة والعشـــرات من الاعوام ، وحينما يكون اطفالها رجالا ، سببت هى وجودهم على الكثرة فى هذه الدنيا ، فضاقت بهم الموارد ، رغم التشـــمير عن

السواعد ، أو جاءت بهم قلة فنعموا بمقدار ما يأمل أن ينعم الانسان بالذى يبذر ويحصد من طيبات هذه الارض » ٠

« ومع توعية النساء لابد من توعية الرجال ، ومع التوعية حبوب ضبط النسل ولوالب » ٠

وينبغى لنا ان نشير أيضا الى أن أحمد زكى قد خصص الصفحات العديدة من مجلة العربى يكتب فيها بقلمه وبقلم غيره ، فى غير موضع من موضعها ، وفى كثير من الاعداد ، يجارى بهذه المقالات والتحقيقات آخر ما وصل اليه العلم من استكشافات فى مجال وسائل منع الحمل ، ويدل عليها جمهور القراء ٠

خفض سن الزواج لا رفع سن الزواج :

ولكن هناك وسيلة من وسائل تنظيم الأسرة لم يكن الدكتور أحمد زكى يرتاح اليها ولا يحبذها بل كان يسعى الى نقيضها على خط مستقيم ، هى المطالبة بسن تشريع برفع سن الزواج « الى عشرين مثلا للفتاة وأربعة وعشرين للفتى » ، وكان الدكتور أحمد زكى يعارض بكل شدة هذه الوسيلة ، وقد جعل لهذا الحظ الأكبر من حديثى الشهر (العدد ٤١) و) العدد ٧٨) على الرغم من أن هذا القول قد حظى برضا الكثيرين « ووافق عليه بعض أهل العروبة ، وصادق على أقوالهم الاطباء ، وصادق العلماء ، والمهندسون ، وصادق النفسانيون ، ولم يبق أحد الا قال له آمين ، ومن ذا الذى لا يقول آمين ، لاول وهلة ، وقد فجأه حل تراءى ، أنه يقف سدا يمنع هذا الفيض الذى يهلك بعضه بعضا من خلق الله » لكن أحمد زكى مع هذا يرتاب فى فعالية هذا الاجراء للاسباب التالية :

١ ـ لا ينجح قانون ليس وراءه رأى عام فى الشعب يدعمه ، وان كان الشعب يؤمن حقا بنظرية احتمال انفجار المكان بالسكان اذن فما الحاجة الى القانون ؟

٢ ـ ان القانون يتدخل فى شهوة طبيعية ، تكون عارمة فى بعض الناس ، وقد تكون مجنونة يريد القانون كبحها فلا تكبح ، وفى هذا خطر كبير ، ولنذكر دائما ان طالب الشهوة قسرا ، لا يطلبها للطفل الوليد يأتى من بعدها ، وانما هو يطلبها ليخفف عن نفسه قسوتها تماما كالجوعان يطلب الطعام ، لا يعفيه من ألمه ان يقول له القانون اصبر على الجوع يوما أو بضعة أيام .

٣ ـ ان القانون المطلوب سوف يحرم الزواج ليمنع النسل ، ولكنه سوف يمنعه فقط فى زواج ولن يمنع النسل يأتى فى غير زواج، اذا تراضى الطرفان .

٤ ـ اذا منع القانون اتصالا بين الفتى والفتاة فى زواج ، اتصلا فى غير زواج ، وعين القانون تنظر ، ويده تعجز عن عمل ، ثم يخشى الفتى وتخشى الفتاة مغبة الطفل ينتجانه فى غير ظل الله فيعمدان الى منع الحمل بالحبوب الواقية ، واللوالب المانعة ، اذن فما كان أولاهما أن يعمدا الى الحبوب واللوالب على الزواج ، فسيبقى القانون المطلوب الى أهدافه وهى الحد من النسل مع اباحة الزواج بدون حد .

٥ ـ ان المرأة تستطيع الانجاب عادة فيما بين الخامسة عشرة والخامسة والاربعين ، وفى هذه الثلاثين من السنين يستطيع بعض النساء انجاب العشرة من الاخلاف فما فوقها ، فاذا نحن رفعنا سن زواج الفتاة ألى العشرين فكم يكون قد وفرنا من النسل ؟ الولد أو

الولدين ؟ وتستطيع المرأة بين العشرين والخامسة والاربعين أن تأتى بالثمانية من الأولاد فما فوقها ٠

٦ ـ يذكر المحبذون للقانون أن أمم الغرب رفعت سن الزواج ، فلم لا نرفع مثلها ؟ وهنا يحذر الدكتور أحمد زكى بشدة مما وصلت اليه الحال عند هؤلاء الذين فعلوا هذا فى بلاد الغرب ، ويضرب مثلا بالسويد التى ارتفع عندها سن الزواج الى ٢٨ أو ٢٩ عند قيام الحرب العالمية الثانية ٠٠ وصل الأمر بها الى ما صار من اباحة ٠

ويحذر الدكتور أحمد زكى من انتشار ما حدث فى السويد الى غيرها نتيجة عاملين :

الاول :

هو ضغط الحياة الاقتصـــادية الحديثة ، وطول الزمن الذى يتجهز له الفتى والفتاة للتعليم فالكسب ،

الثانى :

« ما يقول به الكثير من النفسانيين فى الغرب بان اطلاق الشهوة قبل الزواج هى للنفس أشفى ، وعلى الصحة النفسية أعون » ٠ ومن أجل هذا الرأى الخطير ، وقبل ان يصلنا نحن أهل الشـــرق شره المستطير دعونا لا الى الزواج المتأخر ولكن الى الزواج المبكر يعقد حتى بين طلاب الجامعات وطالباتها ، زواج يمنع فيه النسل ، حتى تتيسر القدرة بالتعليم على كســب الرزق ، والنســـل يمنع بالوسائل الطبية المستحدثة ، وهى لاشك ناجحة مهما شكك فى أمرها المشككون » ٠

ويعرب الدكتور أحمد زكى عن سعادته عندما قرأ ان فكرته هذه قد لاقت نجاحا وانتشارا فى جامعات امريكا ، حتى ان منها

ما شمل نحو الثلث من طلابها ، ولعله سهل من أمره عندهم ان الطلاق فى حالات الشقاق صار أيسر مؤونة ٠

ويلخص الدكتور أحمد زكى مزايا النظام الذى يدعـــو اليه بخفض سن الزواج لا برفعها فى ثلاث نقاط يكتبها بالبنط الثقيل :

١ ـ شهوة جامحة اشتفت ٠

٢ ـ شرائع الله رضيت ٠

٣ ـ أنسال منعت ٠

ويعود الدكتور أحمد زكى فى « حديث الشهر يوليو ١٩٧٠ » ليتحدث عن الطعام والجنس باعتبارهما الغريزتين الكبريين فى حياة الانسان وبعد ان يتحدث فى أمر غريزة الجنس كلاما كثيرا ليس هنا موضعه يناقش نفس القضية ولكن من بداية أخرى تتصل بغريزة الجنس كغريزة ، ويقول ان المدنية الحاضرة خططت لكل شىء الا الجنس ٠٠

« وكان من بعد ترك أمر الجنس على عواهنه تصنع به ريح الزمان الهوجاء ما تشاء ان ظهرت الاباحية فى بعض الأمم التى تدعى التقدم ٠٠ » ونتجاوز وصفه للمشكلة الى رأيه فى حلها حيث يقول لو أن هؤلاء الناس نظروا ثم خططوا لوجدوا أكثر من حل حاضر ، ؟ ثم يشرح لنا ما ارتآه هو من بعد نظر فيقول ان المشكلة اليوم تكمن فى طول فترة التأهل للزواج ، وعلى الناحية الأخرى فان « اباحة اليوم حيث هى من شمال الأرض لا ترتبط هذه الاباحة بالكسب ٠ ويضع حله فى صورة تســاؤل : فماذا لو غيرنا من مفاهيمنا التقليدية وحلت العقدة بالسيف بقطع ما بين الزواج وقدرة الزوج على الكسب من رباط ، واذن يحدث الزواج فى عام مبكر من العمـــر ٠

« وستسأل من يعول » وأقول « ماداموا فى جامعة أو مدرسة فالعائل لكل منهما هو العائل القديم وهما كلاهما فى مدرسة أو جامعة ، مادام الأب رضى بالنفقة على ابنه حتى يبلغ العشرين أو الخامسة والعشرين ، فحاضره أن ينفق سواء كان ولده أعزب أو له علاقة بالزواج لا يضمهما سقف دار خاص به ، وما يقال عن الفتى يقال عن الفتاة ، ان فى الزواج المبكر منجاة » .

وستسأل من يعول الاولاد ؟ والجواب حاضر . حبس النسل اليوم فى مكنة الزوجين الى حين ! حتى المسيحيين الذين لا يجيزون العقاقير حابسا ، عندهم طريقة التوقيت والتزمين .

وهكذا يمضى الدكتور أحمد زكى يدفع الاعتراضات التى تقوم فى وجه افتراضه .

« وستسأل فيما يقول فى بعض علماء النفس من ان الأنفس على الصغر لا تدرى ما يلائمها من الأزواج ، فيؤدى الزواج الباكر الى الاخفاق ، فأقول ان علمى وخبرتى تدل على أن الأنفس اذا لم تدر ما يلائمها من زواج ، فهى هكذا تفصل على صغر وعلى كبر على السواء . على أن السن الكبيرة أفضل فى خدع صاحبها » .

وآخرون يقولون ان الجسم لايكون فى الزواج الباكر قد نما النمو الكافى لانتاج البنين والبنات اذا هم شاءوه ، وتسهلت سبله ولهؤلاء نقول ، انا لا نقول بالزواج عند الخامسة عشر أو السادسة عشرة حتى ولكن وراء ذلك بقدر مايستطيع الفتى ان يصمد على الفردية .. وهؤلاء اذكر بان العالم منذ وجد لم يعرف الا الزواج الباكر وأنتجة القرون الماضية من أجسام ، ومن لحم وعظام ومن عقول وفت لاشك بحاجات الزمان ، وكان فى الناس العمالقة وكان القوم الشداد ، وكان الذكاء وكانت الفطنة النادرة » .

ويعود الدكتور احمد زكى ليؤكد القول بانه فى غريزة الجنس لا هناءة الا بالوفاء بها فان هناءة العيش انما تكون بالاستجابة الى الغرائز ، فواضعها انما وضعها لفائدة العيش ، وهو وضعها فينا للهدى وانارة السبيل ، وعلى الانسان العاقل ان يفهم الغاية منها وان يبذل لها بمقدار ما يصل بها الى غايتها ، فاذا زاد فعليه وزر ذلك » ٠

وفى موضع آخر يرد الدكتور احمد زكى على من ناقشوه فى رأيه فقالوا له مستنكرين : وما الرأى فى منع النسل عند الولد يتزوج مبكرا ، ويقول الدكتور احمد زكى فى رده على هؤلاء : « ان المقبل على الموت اذا أعطى سبيلا للخلاص منه ٠ لا يذكر الحلال فى ذلك والحرام ، والفجور ان لذ الشباب منه أول جرعة ٠ فهو يغص بألف جرعة من بعدها ، وتبتذل المرأة خاصة من بعد ذلك فى الطريق كقشرة الموز بعد أن زال عنها لبها ، فتأخذ تدوسها الأقدام فمن أجل تجنيب الفتاة هذا المآل لا تسألنى ما الحلال فى حبس النسل هنا وما الحرام » ٠

لماذا دعا الى التناسل والتكاثر ؟

وأما دعوة أحمد زكى الأخيرة الى التناسل والتكاثر « أيها العرب تناسلوا تكاثروا حتى تملأوا البر والبحر عربا » فلم تكن تنصلا من دعوته الاولى ، و لاخروجا عن اطارها وخطها العام ، وانما كانت دعوة سياسية اقتضتها ظروف العرب الذين كثرت عندهم الخيرات كثرة هائلة بحيث زادت عن طاقتهم لا فى الانتفاع بها على الوجه الأمثل فحسب ولكن زادت عن طاقتهم فى الدفاع عنها ٠ لا مبرر هنا اذن للحد من النسل ولا للدعوة الى تنظيمه وانما يدعو الفكر العلمى النير المستقيم فى هذه الحالة الى الاستزادة من السكان باعتبارهم يمثلون القوة البشرية ٠

وينبه أحمد زكى الى حاجة الوطن العربى الى العون المستمد من القوى البشرية لسببين أولهما أن العرب ليسوا من أحب الأمم الى الأمم .. أما أوربا فعداؤها للعـــرب قديم بدأ منذ الحروب الصليبية ولم ينته بعد .. وسوء السمعة هذه الكاذبة بكل صنوفها لا يرفعها العرب عن اكتافهم الا بالشموخ والشموخ الصادق قوة . أما الأمر الثانى الذى يدعو الوطن العربى الى الاستزادة من العون المستمد من القوة البشرية فهو اسرائيل ..

يناقش أحمد زكى فى مقال مايو ١٩٧٥ قول الشاعر الذى يذهب الى ان الكرام قلة ، ويقول ان الاعتداء على القلة هنا اعتذار شاعر، فالكرام يكونون فى الأمة على القلة ، وكذلك على الكثرة .

على انه يبدو لنا أن من الأفضل قراءة أفكار الرجل فى هذه النقطة بالذات فى فقرات ثلاث :

« ان الأمة قد يكون لها مصادر طبيعية للثروة كثيرة ، ولكن ليس كالثروة البشرية ثروة ان الانسان ثروة . وهو قد لا يكون ذا قيمة كبيرة وهو خامة . ولكن قيمته هى القيمة الكبرى من بعد تصنيع » .

« ان الدعوة مؤسسة بوجه عام على العلاقة الكائنة أو التى ستكون ، بين الأرض . أى أرض وسكانها . فان زاد السكان على ما تطيقه الأرض ، فالحد وارد ذكره ، ووارد بحثه . وان قل السكان عن الأرض ، فلا معنى للحد ، ولابد للنسل ان يزيد مادامت هناك أرض صالحة هى وعاء حياة » .

« وارض العرب أكثرها الصـــحارى ، وفى اجزاء كثيرة من الصـــحارى ينزل المطر ، ولا يلبث أن ينزل الى مخازنه فى بطن الأرض . وهذه ظاهرة جديدة تعرف عليها العـــرب وأخذوا بها

يستقون ، ومن مائها يزرعون • والسعودية تضرب الأمثال الطيبة فى ذلك » •

وهكذا يستبين لنا الدافع الحقيقى وراء هذه الدعوة من احمد زكى ، هدف سياسى واجتماعى واضح لا لبس فيه يدعو اليه احمد زكى من هذا الطريق ومن طرق أخرى كالهجرة فيما بين ارجاء الوطن العربى وهو يستعرض المحاولات العربية فى هذا الصدد ، ويشير الى السودان والعراق وغير ذلك من التجارب ويقرر ان الأمر فى مسألة الهجرة فى الوطن العربى لابد من أن يعتمد على نتاج التجربة « فعندما ظهرت لاول مرة سارت مسار كل الافكار الجديدة تتلقاها الشعوب بالرفض لغرابتها ، ولأن العقل لم يتسع لدرسها ، ولأن العاطفة البادمة صدمتها فقضت عليها ، ثم يتسع الوقت للفكر ويتسع للدرس ، ويتسع لخبرة الايام ، وللثقة التى يعطيها الزمان والاطمئنان فاذا المرفوض مقبول ، واذا به لاصواب سواه ، وكذلك كانتفكرة الهجرة فى الوطن سارت من الرفضالى القبول والممارسة» وعند هذا الموضع يحذر أحمد زكى من الأثر السيىء الذى قد يحدثه تعكر العلاقات على سير مثل هذه التجارب •

وفى موضع اخر يتناول الدكتور أحمد زكى المسألة بقدر اكثر من الصراحة والوضوح ويقول ان تجربة التهجير الجماعى « هى فى رأيى ، وأنا واحد من ألف ، تجربة فيها الكثير من الريبة ، ومع هذا ادعو لها بالنجاح مادام هدفها زيادة ثروة العرب حيث الطاقة البشرية اقل مما يجب وزيادة فى الرجال الذين يدفعون عن العرب غائلة التعدى من أى طائفة من البشر جاء » •

وفى صراحة اكثر « ان الايمان بالتهجير ايمان بالوحدة العربية تكون أو لا تكون،انجاحالتهجير امتحان لامكانية الوحدة ، واخفاقه يجعلالعرب يقفون من أمر الوحدة الشاملة موقف التريث الطويل »

خاتمـــة

هكذا يتضح لنا ان الرجل لم يكن من أصحاب الافكار الجامدة، ولا الآراء المتصلبة دائما وانما كان من أصحاب العقليات الناضجة والافكار المتفتحة • وكان يدعو الى ما فيه الخير لوطنه ، يدعك الى التحديد حيث الفقر والتعاسة ، والى التزايد حيث الحاجة الى من يدافع عن خيرات أنعم الله بها على عباده العرب •

ولم يكن عالمنا يعنى بالفكرة ذاتها فحسب ، ولكنه كان معنيا أشد الاعتناء بوسائل التحقيق ، الوسائل العلمية على نحو ما ذكرنا من فضله فى هذا المجال ، وتسخيره للصحافة والاعلام فى أداء دوره الرائد فى هذا المجال ، والوسائل الاجتماعية كيف ناقشها بقلمه وفكره ودعا الى الوسيلة الأنجح •

يبقى ان نختم هذا الفصل بقوله فى ديسمبر ١٩٧٢ حديث الشهر العربى تحت عنوان « حضـــارتان عريقتان يعيش العـــربى فى ظلالهما » • « أو الرأى عندما ندرس موضوع الجنس عمليا كما درسه القوم هناك، وان نستنبط فى ظروفنا وفيما يأتلف مع تقاليدنا غير ما استنبطوا وان نخرج الشباب بجنسه من هذا الحرج الذى لاشك فيه والذى زادته المدنية الحاضرة حرجا ، بما يحفظ على الفتى والفتاة ماء الوجه ، وعفة النفس والعزة التى هى عزة الشرف غير الجريح » • فهذه هى الوسيلة التعليمية ، والوسائل التعليمية أنجح الوسائل على مر الأزمان والأجيال •

المصـــــادر :

١ – « وزير الشئون يدعو الى هجرة المصريين ويطلب تحديد النسل حيث يوجد الفقر والتعاسة » (الاخبار : ١٩٥٢/٧/٧)

٢ – « اقراص لمنع الحمل أم لتشتيت الشمل » العربى : ابريل ١٩٦٢ ٠

٣ – « ارقام تدغدغ الأفهام » « خفضوا سن الزواج لا ترفعوها » العربى : فبراير ١٩٦٦ ٠

٤ – « المسكن ٠٠ المسكن » العربى : ابريل ١٩٦٧ ٠

٥ – « الدولة الخـــيرة ترعى أبناءها من يوم يولدون الى يوم يقبرون » العربى : ديسمبر ١٩٦٨ ٠

٦ – « فقر وغنى » العربى : مارس ١٩٧٠ ٠

٧ – « الطعام والجنس » العربى : يوليو ١٩٧٠ ٠

٨ – « معركة الفقر والغنى » العربى : يوليو ١٩٧١ ٠

٩ – « الأسرة بين عصرين زراعى قديم ، وصــــناعى حديث » العربى : نوفمبر ١٩٧١ ٠

١٠ – « حضارتان عريقتان يعيش العربى فى ظلالهما » العربى : ديسمبر ١٩٧٢ ٠

١١ – « مكانة المرأة فى سائر الأمم عبر القرون » العربى : يناير ١٩٧٥ ٠

١٢ – « أيها العرب تناســـلوا تكاثروا حتى تملأوا البر والبحر عربا » العربى : مايو ١٩٧٥ ٠

البــاب الحادى عشر

آراء فى التعليم الجامعى

القمر يطلبه كل الاطفال ، ولكن الرجال تعرف ما ينال ٠

أحمد زكى

سنتناول فى هذا الباب باذن الله ، الآراء التى اســـتقر عليها استاذنا الدكتور احمد زكى فيما يتعلق بالتعليم الجامعى ، وسوف يلاحظ القارىء ان مراجعنا فى هذا الباب تغلب عليها الحداثة ، مما هو جدير بالذكر اننا عبرنا بذلك عن مصدر آرائنا ليس الا ، ويأتى هذا من حرصنا على أن نســـجل آراء الرجل الاخيرة أو ما عبرنا عنه فى الجملة الثانية من هذا الباب بعبارة « التى استقر عليها استاذنا الدكتور أحمد زكى » وليس معنى هذا ان الرجل كان دائم التغيير فى أفكاره فى هذا المجال ، ولكن مرجعه الى أن الرجل وهو جامعى أصيل ظل طيلة عمره مهتما بأمر التعليم الجامعى من جميع الزوايا ، كيف يبدأ وكيف يستمر وكيف يقوم وكيف تكون علاقته بما قبله من تعليم عام وما بعده من حياة عامة وكيف يمول وكيف يستقل وما هو المستوى الذى يجب أن يكون عليه التعليم الجامعى ذاته ، وخريجه وبأى لغة وعلى أى منهاج ، وأيهما يفضل التخصص أم التعميم ٠٠ الخ) من هذه النقاط التى سنعرض لفكره فيها وكان أحمد زكى فى رحلاته وقراءاته حريصا على أن يوفى هذه النقاط جميعا حقها من البحث والاستقصاء ٠

فاذا جاءت هذه الصفحات العشر متعرضة لكل هذه القضايا

فى هذا القدر من الايجاز فانه لابد لنا من أمرين أولهما أن نشير الى القدرة التعبيرية الهائلة فى تلك الالفاظ والعبارات التى صاغ فيها الدكتور أحمد زكى الآراء التى نعرضها له هنا بعد الانتقاء والانتخاب وثانيهما ان نشير الى أهم المقالات والأحاديث التى صنفنا منها أفكار أحمد زكى فى هذا الباب وهى :

١ ـ « الطريق السلطانى وما وراءه » الهلال : يوليو ١٩٤٧ .

٢ ـ « التعليم كم منه للثقافة وكم منه للرزق » العربى : اكتوبر ١٩٦٢ .

٣ ـ « شبابنا وثقافة العصر » العربى : يوليو ١٩٦٦ .

٤ ـ « ألف مصنع ومصنع تفتح الآن أبوابها لتصنع الرجال » العربى : اكتوبر ١٩٦٦ .

٥ ـ « جامعات الغرب مفتوحة الابواب اليوم وقد تضيق فى وجه أهل الشرق مسالكها غدا » العربى : فبراير ١٩٦٧ .

٦ ـ « المعلم كالسيارة هى من طراز ١٩٣٠ أو ١٩٥٠ » العربى . فبراير ١٩٦٨ .

٧ ـ « الدولة الخيرة ترعى ابناءها من يوم يولدون الى يوم يقبرون » العربى : ديسمبر ١٩٦٨ .

٨ ـ « الكتاب العربى : سبب التخلف الحضارى والتخلف العلمى والتكنى فى روضة أو مدرسة أو جامعة » العربى : مايو ١٩٦٩ .

٩ ـ « الجامعات بين قديمها والحديث » العربى : ١٩٧٠/٥ .

١٠ ـ « التربية كيف تمارس على التخلف والفقر » العربى : ١٩٧١/٢ .

١١ ـ « جامعة الهواء » العربى : ١٠/١٩٧١ ٠

١٢ ـ « **الجامعات فى الأمم المتخلفة » العربى** : ٥/١٩٧٢ ٠

١٣ ـ « تربية ابنك كانت تبعتك فصارت تبعة الدولة » العربى : ٦/١٩٧٢ ٠

١٤ ـ «بين التخصص والتعميم فى الدراسات الجامعية » العربى : ١٠/١٩٧٢ ٠

وليسمح لنا القارىء الآن ان نعرض عليه بنود هذا الباب :

١ ـ ضـــرورة الجــامعة :

(أ) **يؤمن أحمد زكى ان الجامعة هى أول حاجات** الاستقلال (٧٢/٥) لأنها تخرج الفئة المثقفة المختارة التى تدير رحى العيش فى الدولة الجديدة (يقصد بعد استقلالها) ويستعرض الدكتور أحمد زكى تاريخ الأمم النامية فى هذا المجال ، والظـــروف المتغيرة التى مرت بها **هذه الدول بعد خلاصها من الاستعمار** ٠

(ب) يشير الدكتور زكى الى ارتباط ديمقراطية التعليم بمسألة القوميات ويتتبع تطور هذا الارتباط فى أوروبا بعد العصور الوسطى، وأهم عباراته فى هذا المعنى (٧٢/٦) قوله : « والظاهر أن فكرة **الديمقراطية ولو أنها فكرة قديمة لم تحظ دولة** بتطبيقها ، من حيث الشمول فى الخدمات كخدمات **التعليم** الا بعد العصور الوسطى فى أوروبا الحديثة ٠

نشأت فكرة الديمقراطية بمعناها ومبناها مع فكرة الوطنية لما أخذت أوروبا تتفاضل الى أمم لها لغات خاصـــة بها ، وملوك يرعون **أمورها وفروق تفرق بين أجناسها فهذا** فرنسى وهذا بريطانى

وهذا .. **وبنشوء الدولة الوطنية نشأت فكرة اللغة القومية** ، ونشأت معها الحاجة الى التعليم وقد بدأ التعليم فى أول مرة محدودا تقوم به جمعيات خاصة وهيئات ولاسيما الهيئات الدينية ثم أصبح رويدا رويدا من بعض واجبات الدولة » .

ومن هذا المنطلق كان تأكيد الدكتور أحمـــد زكى « فبراير ١٩٦٨ » على أن التعليم اليوم حق الدولة على كل فرد فيها (لاحظ التقدمية فى فكر أحمد زكى الذى لم يتوقف عند قول القائلين ان **التعليم حق الفرد على الدولة**) . .**وأكثر من هذا** يرى الدكتور **أحمد زكى ان الواجبين الأساسيين للمجتمعات الانسانية** هما السعى للعيش **لوصل الحياة ودفع الموت وتنشئة جيل** قادم يحل محل هذا الجيل الحاضر الذى هو لابد ذاهب وذلك لكى تتصل الحياة باتصال الاجيال .

(ح) وكان الدكتور زكى يتابع بقلمه كثيرا أخبـــــار التعليم الجامعى فى الخارج ، خصوصا فى انجلترا وفى فبراير ١٩٦٧ تحدث عن رفع انجلترا لرسوم الدراســـة وبدء تنفيذ هذه الزيادات على الأجانب ثم أهاب بالعرب أن يسارعوا الى انشاء جامعاتهم « وان ينشئوها سريعا ، وان ينشـــئوها أكثر وفاء بالعتاد والرجال للقاء المستقبل الذى لن تكون فيه سوق الجامعات الأجنبية سوقا مفتوحة على مصراعيها » .

ويمضى فى تحذيره فيقول « لقد أوشكت الأبواب أن تســـد ، ومنابع العلم المفتوحة التى يغترف منها الآن من يشاء ما شاء ، لا تلبث ان يقف عندها حارس يأذن لبعض ولا يأذن لبعض وقد يكون من أسباب ذلك الولاء السياسى أو غير الولاء ان العلم سيصبح نادرا فعلى العرب ان يبنوا له صروحه » .

وينتهز الفرصة ليعبر عنسعادته بانشاء جامعة الكويت « وبهذه المناسبة أقول مرحى للكويت ان بدأت بجامعتها على خير ما تكون الجامعات ، وهى بدأتها ككل الجامعات فى الأمم النامية ، وفى جامعة القاهرة خاصة باساتذة من غير ابنائها ·· ثم يفعل الزمان فعله ويرث ذاك الجيل جيل من ابناء البلاد لاحق » ·

٢ ـ اســـتقلال الجـــامعة :

وفى مقاله عن الجامعات فى الأمم المتخلفة « يتعرض لهذه المسألة مسألة استقلال الجامعة من وجهة مختلفة تماما عن وجهات نظر الذين تناولوها من مفكرينا العرب ، فأحمد زكى يعتبر ان مشكلة الاعداد الكبيرة هى الخصـــومة الكبرى بين الجامعات والحكومات وأنها أخطر الأمور على الاستقلال : « على ان الخصومة الكبرى التى بين الجامعات والحكومة خصومة حلها مستعص على جامعة وعلى حكومة على السواء ، ذلك ضغط الحكومة على الجامعات ان تفتح أبوابها لكل من أراد أن يدخل جامعة ، ولو لم يحصل على النصاب الاوفى ، والحكومة تنزل بالمستوى الذى يجيز للطالب دخول جامعة ، لأن الشعب وراءها يطلب لابنائه‌ان يدخلوا الجامعة ، لأنها فى نظره ، هى الطريق الوحيد لحياة أفضل ، فنزول بمستوى التعليم عند دخول الجامعة يجتمع فى الجامعة بمدرسين جامعيين اسما ، وهم غير كفاة لما يتصدون له من التعليم حالان الجمع بينهما يخرج الخريجين وهم انصاف متعلمين وهؤلاء يدخلون فى مرافق الدولة يديرونها ، وهم غير أهل لها ، وتكون العاقبة خسارة جامعة شاملة ·· الشعب لابد أن يرضى ·· والجامعات لابد ان تخضع ·· والمرافق لابد ان تسوء » ·

أما عن المعنى المألوف فى مسألة استقلال الجامعات ، فأحمد زكى مطمئن تمام الاطمئنان الى أن الحكم فيه هو الزمن ، وهو

تطور المجتمع وتطور فهمه وممارسته للحرية وان كان فى نفس الوقت لا يقف مسلما ١٠٠٪ باستقلال الجامعات فى أعظم الدول تقدما ٠

« ولكن واقع الأمر ، ان الشعوب المتقدمة ، جرى فيها استقلال الجامعات مجرى سائر الحريات التى تتطلبها الديمقراطية ويتطلبها العلم والمعرفة فى هذه الحضارة العصرية القائمة ٠

فالحكومات اليوم دفعت من نفقات الجامعات أو لم تدفع لا تتدخل فى شئون الجامعات حتى تواصل النظام فى الحرم الجامعى ، واستدعى ذلك استدعاء رجال حفظ النظام ، لم يدخل فى الحرم جندى واحد الا اذا كان مدير الجامعة هو الذى استدعاه واذن له بدخوله ٠

هذا هو العرف فى الأمم المتقدمة ، ومع هذا فلابد لى من القول أننا الآن فى زمن أسهل شىء فيه العبث بالاعراف » ٠

٣ ـ أيهما أولى : التوسع فى الجامعات أم القضاء على الأمية :

طرح الدكتور أحمد زكى هذا السؤال قبل ان تطرحه الظروف والاحداث العلمية فى وطننا العربى مع الزيادة المضاعفة التى شهدتها اعداد الجامعات واعداد الطلاب فيها فى العقد الأخير (٧١/ ٨٠) ذلك أن أحمد زكى دعا فى (اكتوبر ١٩٧١) فى مقاله الافتتاحى لمجلة العربى الى انشاء جامعة الهواء على غرار تلك التى فى بريطانيا ، واستطرد فى مقاله الى مناقشة الآثار التى قد تنشأ نتيجة تنفيذ هذه الفكرة ، وأولها زيادة عدد الجامعيين مع مازلنا نعانى منه من أمية ، وقد رد الدكتور زكى على هذا التساؤل فى وضوح وقوة يبين عنهما قوله : « وسيقول قوم كيف تأذن للتعليم العالى ان يمتد هكذا، واكثر العرب أميون ، وهذا حق ، وكان المنطق يقضى بأن نزيل الأمية قبل ان نرتفع بالتعليم ونحدده ولكن اعداء العرب قائمون

من حولهم كالسباع لا يعطون التى اكثرها الخراف والنعاج ، فهى طعام لها طيب وفير ، لا يعطونها الزمن الكافى لتتطور وتتحسن احوالها وتستأثر من بعد ذلك · لهذا وجب ان نعالج الأمة العربية من طرفيها ، الطرف الناهض لنملأه علما ولنزيده ولنتسع ، والطرف المتخلف لنرفع عنه أميته ، طلائع ترتفع بأمتها وتصون وحدتها عن علم لا دجل فيه ولا خداع ، وتضرب عند الجد وتدفع الاعداء بآخر ما ابتدعه العلم من سلاح ، وطوائف فى الجانب الآخر كالنمل عددا تعينها على الخروج من وحل الجهالة التى رطمها الزمان فيه » ·

٤ ـ ماذا تضيف الدرجة الجامعية الى صاحبها :

يجيب الدكتور احمد زكى على هذا السؤال ، فيضـــرب مثلا بالحداد ، ويقول : « ولا أحسب ان هذه الدرجة ستجعل منه حدادا اكثر حدادا ، ولا أمهر فى حدادته كثيرا ، وهى لن تحوله عن حدادته الى سبيل للرزق غيرها ، فلابد فى الناس من حدادة وانما سوف تجعل منه انسانا أكثر عرفانا واوسع ادراكا ، وأقدر على التفتح للحياة ، والاستمتاع بمتع العقل والقلب فيها ، ماكانت تتهيأ له وهو على الحديد والنار ، وفوق ذلك ، واخطر من ذلك انها سوف تجعل منه لأمته ، مواطنا صالحا » ·

ويستطرد الدكتور زكى فيقول : «ان آماله هذه قد تكوناحلاما، ولكن حاضرنا ان نحلم ونحلم ونحلم نفس الأيام ان تحقق لنا حلما يكون واحدا بألف ، والذى لا يحلم ابدا ، لا يصدق له حلم ، ولا يتحقق أمله » ·

٥ ـ لابد من المستوى العالى لتعليمنا الجامعى :

يؤكد أحمد زكى فى كل المواضـــع ـ وان لم يواظب على هذا التأكيد فى مقاله الأخير ـ على اهمية العناية بمســـتوى خريجى

جامعاتنا ، وعباراته فى مقال (مايو ١٩٦٩) صريحة واضحة حادة حيث يقول : « ان لا تخــــرج الدولة جامعيين وفنيين خير من ان تخرج أنصاف جامعيين أو أنصاف فنيين ، انهم صانعو الدولة فى غدها ، ولا نريد دولة نصف مصنوعة فيها الأطباء ، ولكن أنصاف ، والمهندسون ولكن أنصـــاف ، والفزيائيون والكيميائيون والذريون ولكن أنصاف وارباع واخماس » ٠

وفى مقال (مايو ١٩٧٠) يؤكد أحمد زكى رأيه ويوضح فكرته من هذا الرأى بقوله : ان هذه المنتوجات الانسانية لا تستهلك فى عام أو عامين ٠٠ ان الطبيب الماهر باق معنا ننعم بمهارته ثلاثين عاما أو أربعين ٠٠ وكذلك الطبيب العاجز باق معنا نعانى من عجزه ثلاثين عاما أو أربعين ٠

« فالضبط والربط يجب أن يبدأ حيث يبدأ الخلق فى الجامعات ٠ الجامعات تختبر ، ولكن قبل ان تختبر يجب أن تختبر ٠ « تختبرها الأمة لتتأكد من ان النتاج الذى سوف يأتى اخيرا سيكون نتاجا بحمد الله طيبا حميدا ، وحديثا ، مواكبا لزمانه » ٠

ولهذا : وجب على الأمة العربية ان **تقوم بتقويم ماعندها اليوم من جامعات** ، كم هى وأين هى تقع من مراتب جامعات الأرض ، وعلى أى شىء نبنى تقويم جامعاتنا على كلمة من صحفى ٠ أو خبر شارد علمى ٠ أم على قرار للجنة محايدة فاحصة ، عارفة عادلة ، صادقة صديقة ، نستدعيها من أقصى الأرض ، يكون أكثر صداقتها وصدقها فيما تكشفه لنا فى جامعاتنا من نقص مع ما تذكر من جودة وإذن نسير وفى أيدينا مصابيح تهدى ٠ نرسم على ضوئها الطريق الذى نسلكه فى غد ليس كله بنور الشمس غامر » ٠

ولهذا أيضا يدعو الدكتور أحمـــد زكى ويكرر دعـــوته الى

امتحان الطبيب والمهندس والمعــلم كل ١٠ ســنوات للتأكد من أن كلا منهم لازال يلاحق العلم الجديد كلما نبت فيه فى الطريق نابت ٠٠ وهذا هو ما يعبر عنه باختصار عنوان مقاله « المعلم كالسيارة هى من طـراز ١٩٣٠ أو ١٩٥٠ ٠٠ بل ويدعو أحمد زكى الى امتحان البرامج وأساليب التعليم والاجهزة ٠

٦ ـ بين التخصص والتعميم فى الدراسات الجامعية :

ويقصـــد الدكتور بالتخصص ، ذلك الأســـلوب الذى أخذت به حديثا الجامعات الامريكية من تطعيم الدراســـات الانسـانية بالدراسات العلمية الطبيعية والعكس ٠٠ وما الى ذلك من الأساليب المستحدثة فى التعليم ٠ وقد ناقش استاذنا الدكتور زكى فى مقاله (اكتوبر ١٩٧٢) أصل التخصص وتطوره على مدى التاريخ ، وعرض لآراء القائلين بأهمية وضرورة التخصص ، وعرض لرأيه فى تطبيق هذه النظم فى جامعاتنا العربية وانتهى الى أن : « البلاد العربية لاتزال فى أول الطريق والبلاد العربية بها نحو ٧٠٪ أميون فأين نحن من الترف العقلى أو القلبى الذى لا يخطر الا على بال أمة اكتملت فيها الدراســـات الجامعية فى نواح كثيرة ٠٠ وبلغت مستويات عالية ووصلت بمعارفها الى القمر وهى تطلب المريخ ٠٠ وكثرت كذلك أموالها فهى تفيض على أهل الأرض بالمعونات التى يرضاها الله أحيانا ويرضاها الشيطان أكثر الاحيان بما تفيض ٠٠ والرفه الدراسى المقترح يكلف الدولة اموالا طائلة والدولة العربية يعد فيها الفقراء كثرة ، فقر غذاء ، وفقر كساء ، وفقر مسكن ٠ وفقر رءوس كثيرة من أهلها لم تزود بعد بالاقساط الضـــرورية للحياة الحاضرة من معارف وعلوم » ٠

وعلى الرغم من أن هذا الرأى قد يبدو متعارضا مع طموح الدكتور زكى واحلامه خصوصا فى المجال الجامعى ، وهى طموحات

تعرضنا لها بالتحليل والسرد منذ لحظات ، الا ان الحقيقة فى هذه المسألة على ما يبدو لى ان احمد زكى كان يريد للتعليم الجامعى العربى أن يمضى فى سبيله الطبيعى ، بالتقدم الذاتى ، وبالتجريب المتناسب مع ظروفه وامكاناته بعيدا عن الطفرات التى هى فى الواقع ليست من أنسب الأمور للعلم والتعليم الجامعى ٠

كان أحمد زكى يريد للتعليم الجامعى ان يرتبط بالبيئة التى هو فيها ، حتى يكون صـــادقا فى الاجيال التى يعمل عمله فيها ، ومؤثرا فى الاجيال والاعمال التى تتعامل مع هذه الاجيال ٠

وعلى الصعيد الآخر كان أحمد زكى يعتذر عن قصور امكانات التعليم بالقصور الذى فى امكانات البيئة على النحو الذى نخصص له البند التالى ٠

٧ ـ التعليم الجامعى والمجتمع :

أحمد زكى مقتنع تمام الاقتناع ان التعليم ـ حتى فى البلاد المتقدمة ـ لا يتطور بالسرعة التى يتطور بها المجتمع هناك ، وهو يرى ان من الطبيعى ان يسبق المجتمع العلم ٠

وفيما يتعلق بحـــالنا يقرر مفكرنا ان الفقر هو علة تخلفنا الكبرى فى كل جبهة ، وليس هو العلة الواحدة ، ولـــكنها العلة الأخفى بين العلل جميعا « أثر الفقر يتراءى فى كل منشط علمى ، وفى كل اقتراح نتقدم به التقدم التكنى ، ولكنه يتراءى خفيا فى أيسر الأمور التربوية وأظهرها ٠٠ فالفقر ٠٠ الفقر ! فليذكره الذاكرون عندما يجتمعون فى مؤتمرات التربية ٠٠ اجتمع فيهـــا وزراء أم خبراء أو مدرسون عاديون » ٠

« والجامعات انما تحيا بمقدار ما فى البيئة من موارد حياة ٠٠ وتموت بمقدار ٠٠ من أسباب موت » ٠

« والذى يسأل أين جامعاتنا من جامعات الغرب ٠٠ انما يسأل عن بيئتنا أين تقع من سائر هذه البيئات » ٠

نحن نحتاج الى الفنيين تخرجهم الجامعة المختلفة ، ولكن « اقتصادهم اليوم ليس فى حاجة الى تدريب خاص لمهنة خاصة بقدر ما هو فى حاجة الى رجال ذوى ذكاء وذوى فطنة ـ حتى الذكاء البالغ هم لا يطلبونه ـ ان يكون فى كل من يريدون ـ فعندهم ان صنوف الخبرة متعددة ومتغيرة ، وكثير منها لا يستدعى ذلك القدر من الذكاء الذى يقيسه علماء التربية بالمقياس المعروف عندهم بمقياس الذكاء ، فعندهم كذكاء الرأس ، ذكا ءاليد ، وذكاء العيش ، وذكاء الأذن ، وذكاء العصب فى ساعد وفى قدم حتى ذوو العاهات لهم فى التطبيق أماكن » ٠

لهذا يقرر أحمد زكى فيمايتصل بالتخطيط لحاجة المجتمع من التعليم « ان التخطيط ملىء بالظنون فيما يختص بالغد ، ولكن التخطيط لسد نقص قائم فعلا على ما تحتم الضرورات القائمة » ٠

٨ ـ التوافق بين امكانات الطالب ودراسته :

بقيت نقطة لابد للشباب ولموجهيهم من الاستفادة بقدرة أحمد زكى على ادراك أمر الحق فيها ، وهى ضرورة وضع الشاب المناسب فى المكان والمهنة المناسبين لامكاناته العقلية والتعليمية ٠٠ وهذه فقرات من رأيه فى هذا المعرض نضعها أمام الأبصار ٠

يشبه أحمد زكى فى مقاله (الهلال : ٤٨/٧) التعليم العام بالطريق السلطانى الواسع العريض ، ولكنه يوشك ان يكون له

انتهاء ، وعند الانتهاء يتفرع فروعا عدة ، يقف عندها المتخـــير حيران ، لا يدرى أيها يسلك ، وأيها أهدى الى العيش الرخيص والحياة الهانئة ٠

ويستطرد معبرا عن واقع الحياة فيقول « **لكل شخص طريق لا يطلبه ، ولكل طريق شخص لا يطلبه ، وسر النجاح فى الحياة هو ذلك التوفيق بين طالب ومطلوب ، وهو سر غامض ، من أجله النجاح فى الحياة وعر** » ٠

« خير للطالب ان يطلب التل اذا تعذر الجبل واستحال ، والقمر يطلبه كل الاطفال ولكن الرجال تعرف ما ينال ، وما لا ينال فنفسك الحكم الاول فى كل ذلك » ٠

« وأول ما توائم فى نفسك ذكاؤك العام الذى يجىء بعضه من التعليم وبعضه من الطبع ، فليست المهنة كلها تحتاج لقدر من الذكاء واحد ٠٠ واذكر دائما ان الحلاق الناجح خير ألف مرة من الطبيب الخائب ٠٠ وان النجاح فى حد ذاته متعة وهناء، وفرحة وســـرور لا يغيض منبعه أبدا » ٠

« ان وضع الشاب الصحيح فى المهنة الخاطئة ، هو ، على ما يقول المثل الأجنبى ، كوضع الخابور المدور فى الخرق المربع لا يكون للشاب منه استقرار ، ولكن يكون منه القلق ، وهو لا يشقى وحده بذلك ، ولكن أسرته وبيئته وأمته تشقى به » ٠ أ هـ ٠ أحمد زكى
وأظن أن هذه النقطة التامة بالذات قد لا تقل فى أهميتها فيما يتعلق بموضوع التعليم الجامعى عن النقاط السابقة الأخرى وان كنت قد أخرتها الى هذا المقام فيها العبرة الأولى والأخيرة ٠

الباب الثانى عشر

مفاهيم اعلاميـــة وثقافية

« وعلموا الطابعين ان الجمال قد يشترى بابخس الأثمان ·· وان الكتاب كامرأة هذا العصر أجمل ماتكون وهى فى أبسط الثياب » ·

احمد زكى

يؤمن مؤلف هذا الكتاب بضرورة الفصل بين الثقافة والاعلام، ولكنه لا يفهم هذا الفصل على أنه فصل بين متناقضات ، ولا بين أشياء ينشأ عن اجتماعها آثار للثقافة مدمرة ، أو آثار غير مرغوبة، وانما هو الفصل الذى يتيح لنا أن نركز على كل من الثقافة والاعلام فى خطط التنمية بالأسلوب المناسب لكل منهما ، وبالقدر المطلوب بل وأكثر منه ·

لهذا السبب كان فى خطة المؤلف أن يجعل من هذا الباب بابين بابا يتعلق بالرؤية الثقافية ، وبابا للمفاهيم الاعلامية ، ولكنه وجد ان تركيز أحمد زكى فى كتاباته التى تناولت الحياة الثقافية كانت على مسألة القراءة والكتاب ، وان تركيزه فى كتاباته التى تناولت المسائل الاعلامية كانت على الصحافة والاعلام الصحفى ·· المسألة اذن فى القلم ، والقلم هو جوهر الثقافة والاعلام ، وهو البؤرة التى **تلتقى فيها جميع اشعاعاتهما ، بل هو البؤرة التى تخرج منها تلك الاشعاعات ·**

والمسألة فى آراء الدكتور زكى فى هذا الشأن لا تحتاج الى كثير

من التعليق ، ولا الى أى قدر من الايضـــاح ، وبنود هذا الباب واضحة التميز لا تحتاج الى كثير من الربط ، انما ينصرف الجزء الأكبر من جهـــد المؤلف فى هذا الباب الى اعادة ترتيب الأفكار ، والخروج بالمتشابه على النحو الذى لا يجعل القارىء ينصرف بعد قراءة الباب الا بفكرة واضحة بالقدر الذى كان فيه الوضوح عنه الدكتور زكى ، فى حجم قد يكون العشر أو أقل من عشر فقرات لأحمد زكى ، هذا فضلا عن دورات ثلاث من الاختصار اضطر اليها المؤلف فى هذا الباب بالذات أكثر من غيره ·

يؤمن الدكتور زكى أن **الدعاية علم** ، كالنهر ، **تمده** بالماء ، **روافد من المعرفة شتى** : معرفة تتصل بأنفس الناس ، ما هى ، وكم هى ، وما مزاجها ، وكم سرعتها فى تقبل المعنى والخبر ، وكم هى من التشكك والحذر ، وأين هى من العلم ، وأين هى من الجهل ، وما صنع التاريخ بها ، وكم ضيع من آمالها ، وكم أحيا » ·

« وأنت تستطيع أن تصل الى الناس عن طريقين : **طريق العقل والمنطق** ، **وطريق الانفعال والعاطفة** ، وأغلب الظن انك **سوف تحتاج** الى العقل والعاطفة معا » ·

« **والدعاية فى الدين كل دين** ، دعاية تخرج عن عقل ، ودعاية تخرج عن عاطفة ، ويصل العقول منها أهل العقل فيكون الرضـا ويصل المعطوف منها أهل العاطفة فيكون الرضا ، ولقد مر بخاطرى يوما رأى خبيث عن الخرافات التى أدخلها الجهال فى سائر الأديان فقلت لنفسى ، وما ضرر ذلك اذا كان فى الخرافة احياء أمل أو طمأنينة من بعد خوف ـ وخيل الى أن بعض الفلاسفة ، حتى من المسلمين سبقونى فى هذا الرأى فيما سبقوا » ·

والرأى عندى ان الدين ، أى دين ، لا تأتلف واياه الدعاية الا أن تكون حقـــا ، أما التحبيب والتحبب فى الدين فتهريج لا يســـتقيم مع عقول تطلب حقيقة الكون الكبرى : حقيقـــة الله سبحانه » .

والدعاية فى الاناشيد الوطنية « ولكل نشيد وطنى من هذه التى فى بلاد الغرب ، ولكل سلام قومى قصة امتزجت بدماء ، اين منها اناشيدنا اناشيد الشرق تلك التى وكلنا أمرها الى قاعد منا يقعد فى حجرته ليضع لنا لحنا من عنده ، فاترا ، ماجـــورا ، وتدق به بيننا الطبول فى الاحتفالات ، فنقوم له فى غير كثير من احتفال ، اذ ليس له فى القلب صدى » .

وقد تقدمت الدعاية تقدما كبيرا فى الحرب العالمية الثانية عنها فى الاولى « حدث تحول فى دعاية الحرب من الغلو الى الاعتدال فاقتربوا بالصـــدق ما أمكن ، وعـــرف القارئون للصـــحف ، والسامعون للاذاعات من أمر هذه المصادر ما عرفوا فأقبلوا عليها، وبالطبع نجد أن الأمم مع القوة ، اقدر على الصـــدق ، وهى مع الضعف تتوارى فى الكذب ، وهى تكذب على أهلها سواء بسواء ».

والثورات تهتم كثيرا بالعـــلاقة بين الدعـــاية والتعليم « فالدعاية فى حجرات الدراسة وبرامج التعليم هى انجح الدعاية، وتستوى فى استهداف ذلك ثورة اليمين ، وثورة اليسار » ، « وأول العلوم ملاءمة للدعاية ، الدروس التى ننعتها بالأدبية ، وأسرعها استجابة علم التاريخ ، فصاحب الدعوة يستطيع ان يبدل فيه ، فيثبت ما ليس فيه ، ويحذف مما فيه ، وفقا للدعوة التى يريد ، ووفقا للأهواء العاطفية التى يريد أن يزرعها فى الطلاب » .

« وان يكن التعليم الرسمى بين الحوائط الأربعة يتخذ وسيلة

للدعاية ، فالتعليم الطليق وسيلة أفعل وأوسع دائرة وابعد مدى » يقصـــد الصحف والاذاعات والتليفزيون « ومن اجل هذا احتوته على الأخص الحكومات التى لها فى الدعاية أهداف تســـتهدفها ، ومذاهب تشيعها وتنشرها » .

« **وباحتواء الحكومة كلا النوعين : التعليم والاعلام (التعليم الطليق) « تستطيع اذ هى أرادت ان تخلق الانسان الذى تريد ، ونحن فى العصر الصناعى نصنع الخامات المعدنية ، وكذلك نستطيع اذا أردنا أن نصنع الخامة الانسانية ، فننتج منها الخراف والأسود، والحمائم والصقور ، وما لم يخطر ولا خطر ببال احد »** .

ان الاعلام من العلم ، والمدارس والجــامعات تعطى العلم والدنيا تعطى العلم، والاذاعة **والتلفاز جامعتان عظيمتان يظل يستمد منهما تارك الجامعة بعد تركها** ، علما وأدبا وفنا ، وخبرة حياة ، ليس شىء منها من الصـــنف الذى تعطيه المدارس والجـــامعات عادة » .

« **ان أجمل شىء فى الحضـــارة الحاضـــرة « العلم والمعرفة والاستنارة اجمـــالا ، وأخطر ما فى العلم والمعرفة والاســـتنارة مصدرها ، ومن أخطر هذه المصـــادر، مصـــدر الكلمة المذاعة ، والصورة المذاعة ، بهما تخلق خلقا جديدا ، وبهما تتغير مقادير الشعوب »** .

« **الرأى العام صار يصنع كما تصنع البضائع** ، بالشكل الذى يريدون ، كما يحيل الخزاف صلصاله ، فهو يصـــنع منه مزهرة لعطر ، أو مبولة لطفل .. » « وهو لا يمكن أن يعمم وقد نشأ الناس أمزجة ومشارب شتى ، وليس كل فرد فى جماعة بقادر على ابداء رأى ، وقد يستطيعه الفرد القادر ولكنه يبنيه على الخبر الكاذب » .

« انما هى الصحف تمارس لأممها ما يمارسه الطبيب النفسانى الذى يحاول أن يذهب بالقلق عن مريضه ، فأحيانا هو بالعقاقير المسكنة يهدئه ، وأحيانا هو يعطيه حقنة من انسولين تصدقه ، أو لعلها شحنة من كهرباء تهز كيانه » .

ويذهب الدكتور زكى فى تقدير دور الاعـــلام الى الحد الذى يجعله أخطر عامل يهدد بقيام حرب عالمية جديدة « والرأى عندى أنه والحرب بالكلم قد وقفت عند هذا الحد أنه لن تنطلق قنبلة ذرية أو غير ذرية الا من بعد مفاوضة . هذا اذا حبست الصحافة فى كل البلاد ألســنتها ، وكظمت ما فى صدرها وســكت كذلك كلاب الحرب ، وكفوا عن نباح لا يجنى منه الموقف الا شرا .

واذا اراد القارىء ان يطالع رأى أحمد زكى فى حرية الصحافة فى أثناء الحرب .. فليرجع الى الباب الثانى من هذا الكتاب حيث المفكر الذى يكبح جماح نفسه .

ونحن فى البلاد العــربية فى حاجة ماســـة الى اعلام فعال بقضيتنا ، هذا لاشك فيه ، ولكننا « أحوج الى اعلام عربى فى البلاد العربية نفسها » .

وأحمد زكى يعتقد « ان رجل الاعلام غير رجل الشرطة ، وغير رجل المخابرات ، رجل الشرطة ورجل المخابرات يجب ان تتوفر فيهما كفايات كبيرة ، ولكن لتظل فى الظلام محجوبة ، أما رجل الاعلام فمصباح نصفه ليشع بنوره ، هكذا اعلانا حيثما حل » .

وهو يأسف لهؤلاء الصحفيين الشبان « الذين يكتبون اكثر مما يقرءون » .

وحرية الصحافة « انما هى حرية واحدة من حريات عشرات نعرفها فى هذا العيش الحاضر ، وحرية الصحافة انما هى معنى

متفرع من معانى الحريات عامة ، وبقدر ما يكون فى الناس من ايمان بمعانى الحريات الأصـــيلة يكون ايمان بالفروع ، والايمان بالحريات ، لا يكفى وانما لابد مع الايمان من ممارسة » ٠

والجانب الآخر من القضية لا يتركه أحمد زكى : « والذين يتحدثون عن رقابة الحكومات على الصحف ، ينسون ، ان هناك رقابة مثلها توازنها ، تلك رقابة الصحف على الحكومات » ٠

« ان الصـــحيفة تأتى للناس بالاخبار من داخل البلاد ومن خارجها ، وتنشر فى الناس الرأى ، وهو رأى فيما تجرى به الايام من أحداث ، ومن أمس احداث اليوم بالناس هى أحداث تتأثر أشد التأثر بعمل الحكومات ، لاسيما بعد التطور الكبير الذى طرأ على واجبات الحكومات بعد قلاقل القرنين الماضـــيين ، فالصـــحافة أصبحت اليوم ، قائمة برقابة على الحكومات لعلها أخطر من رقابة الحكومات على الصحف ٠٠ ولكن من عجيب أمر هذه الرقابة ان لا يتحدث عنها من الكتاب غير قليلين ٠

وهناك معنيان لحرية الصحافة والنشـــر عامة ، أحدهما هو الأشهر ، وهو الأوضح وهو حرية الصحافة فى أن تنشر ما تشاء ، لأن الخطأ التاريخى الأكبر كان فى كبت الحكومات حرية الصحافة ، وعلى زعم أن صوت الصحف هو صوت الشعب ، فهذا الكبت انما كان كبت حرية الشعب أن يقول ما يقول » ٠

« أما المعنى الآخر الأخفى فهو محافظة الصـــحف على حـــرية الشعوب أفرادا وهيئات ، فلا تنال أحدا بسوء اعتمادا على مالها من قوة هى فى آخر الأمر مستمدة من الشعوب » ٠

« وقد نضـــيف الى هذين المعنيين معنى ثالثا ، وهو محافظة الصحف على حرية الحكومات ، فالحكومة التى يقيمها الشعب على

الأسس الديمقراطية من حقها ان تنال حريتها فى القول والعمل فلا تهاجم افتراء وادعاء ·· حتى من معركة قائمة ·· »

أما الصحافة فى البلاد الواقعة تحت الحكم الكلى (الشمولى) وهو الواقع الذى عاشته معظم البلاد العربية والنامية ولايزال أغلبها يعيشه : « والصحافة تحت هذا الحكم جزء منه ، والصحفيون عندئذ موظفون فى الدولة ، وموظف الدولة مطيع ·· لهذا لا أرى وجها للذين يلومون رجال الصحافة فيما كانوا صنعوا وهم غير أحرار ، انه لوم غير جائز الا اذا جاز لوم سائق القاطرة أو ضابط الشرطة ذلك أنهم جميعا ضربوا على نغمة واحدة قادها رئيس الجوقة الموسيقى ، وفى يمناه عصا القيادة ، ومن ورائه « مسرور » صاحب نطع الرشيد وسيفه ، وويل لمن خرج عن الصف فضرب نشازا » ·

« ذلك أن الحريات أخذ وعطاء ، وميزانها العدل بين شعب وصحافة وحكومة فى الاحوال السوية ، والاسراف فى اعطاء الحريات تبذير ، وكل تبذير مفسدة » ·

وهناك متاعب الكاتب من جهل الشعوب « الشعوب كالقطط تنتظر منك أن تمر بكفك مرا خفيفا على شعرها فى اتجاه واحد ·· فاذا أنت غيرت هذا الاتجاه ذالك من مخالبها الشيء الكثير » ·

وفى مسألة الرقابة على الصحف والرقيب : « الفكر لابد له من ضابط ، وخير ضابط للفكر كتابه ومن الكتاب من لا يقدر تبعة ما يكتب ·· فيكون كالفرد فى المجتمع الذى يعمل ما يشاء على هواه ، ولا يقدر تبعة ذلك ، فيقف له رجل الشرطة بالمرصاد » ·

والذى يشكوه الكتاب ، والصحف والكتب « ليس هو قيام الرقابة ، ولكن مقدار ما تعطيه الرقابة لحرية العمل وحرية الفكر والكتابة من رحابة » ·

الحلال بين والحرام بين ، ولكن الأمر يختلف من رقيب لآخر ، وكثير من الرقباء فيهم كثير من سعة الفكر ، والكثير من النبل ، واذن تكون الشكوى ليست من هؤلاء ·· ومن الرقباء القليل الذى لا يجيز فيما يقرأ الا الذى يرضاه هو رأيا ·· وهذا أخطر شىء يكون فى الرقابة » ·

« والرقيب خادم دولة ، وعليه واجب عسير ، ولكنه من أغرب الواجبات ، ذلك أن التفريط فيه خير من الافراط ، فالتفريط فيه بذل من حرية ، والافراط حجر وكبت وكتم أنفاس » ·

وفيما يتعلق بالرقابة فى بلادنا : « لابد من أن اعترف عن تجربة ، انى رأيت عوامل الشر فى البلد المتخلف اقوى من عوامل الخير ، وأهل الحق أضعف من أهل الباطل ، وأقل علما ، وأقل فطانة ، وأقل مالا ، ومنهم من فتنه فحيح الافاعى ، وفتنته ملاسة ظهورها ، وانسياب حركاتها ، ونقوش فى جلودها والوان ، فراح يرقص رقصاتها على أنغام من عمل الشيطان ·· ان الشعوب العربية لو درت ما يريد أهل الاحقاد من زعماء الأرض بها لعز نومها ، ولما استطاع ان يعبث بالوحدة العربية اليوم عابث من بينها » ·

هذا عن ما بين الحكومات والصحافة ، والصحافة والحكومات، والشعوب والصحافة ، والصحافة والشعوب ، والرقابة والصحافة فماذا عن ما بين الكتاب بعضهم والبعض الآخر من آداب الجدل «ان التزام موضوع النقاش ، والحرص فيه على قواعد الجدل الصحيحة ، والبعد به عن الاعيب الجدل المعروفة ، واجب كل كاتب عربى فى موضوع مصيرى كالموضوع الذى نحن فيه ، ونحن أعجز ما نكون فى تكوين رأى فيه ، معطيات الرأى ليست لدينا ، بل لدى الحكومات وهى لا تفشيها » ·

«من نقاد العرب من لايعرف الجدل الا اشتباكا واعتراكا ومشادة تنتهى بالقذف بالاعراض وان أنت اختلفت معهم فى سياسة فأنت المنحرف المارق ، وان أنت اختلفت معهم فى أمر دينى ، فأنت الزنديق الكافر ، وان أنت اختلفت معهم فى موضوع خلقى ، فأنت المتفسخ أيسر وأكثر قبولا عند الجماهير من تجريح موضوع الجدال » ٠

ان العادة جرت على رمى صاحب الرأى بالحجر أولا ، ثم رمى رأيه ، فان هم قتلوا الرأى فيها ،والا فلا ، ففى قتل الرجل قتل للرأى ، وفى هذا الفناء كل الفناء » ٠

هذا مع حقيقة لابد منها ، وهى ذلك الجفاء الذى بين أحمد زكى وبين النقاش لأن « النقاش يهدف عـــادة الى تبرير غايات مرسومة لا الى كشف حقائق غير معلومة » ٠

وماذا عن الكتاب : « لا يشك أحد فى ان الأمية متفشـــية فى الدول العربية مجتمعة ، فالكثرة الكبرى لا تقرأ ، وليس كل من عك الخط بقارىء ، وليس كل من خرج من أمية بقارىء كتاب » ٠

« عودوا الناس على الكتاب الجميل مظهرا ، الجميل مخبراً ، وعودوهم على ان يكبروا الجمال ، ومع هذا أن ينكروا الترف فى الكتاب المشرف ، وعلموا الطابعين أن الجمال بأبخس الأثمان ٠٠ وان الكتاب كامرأة هذا العصر اجمل ما تكون وهى فى أبســط الثياب » ٠

وماذا عن الجوهر : « يجب أن يكون الى جانب الكتاب الخاطف الكتاب غير الخاطف ، الكتاب المتئد ٠٠ الكتاب العميق ، وأن يكون الكتاب الخاطف لطبقة من طبقات الديمقراطية هى من حيث الثقافة

دنيا ٠٠ يجب أن يكون الكتاب (بل الكتب) ذات الثقل والوزن لطبقات الديمقراطية التى هى فى الثقافة عليا ، والأخرى التى هى بين بين ، فالناس فى طبقات الفكر عدة ، وكلها تجوع وتظمأ ، وكلها تطلب الرى والشبع ٠

ويصف الكتب الشائعة اليوم فيقول : « اكثر هذه الكتب لا عمق فيه ٠ انها الكتب الضحلة التى هى من الضحالة بحيث اذا سرت فيها لم تحتج الى أن ترفع ثيابك عن مائها رفعا كبيرا ، وقد تجد مع الضحالة الطين ، والذين كتبوا انما كتبوها حفظا ، واذا أنت وزنتها بميزان العلم شالت ٠

ولابد ان نهىء من كتبنا العربية مصدرا لما هى فيه من علم ، ولا يكون ذلك الا بالفهرسة ، وهو منهج حرص عليه أحمد زكى فى الكتب التى أشرف على ترجمتها مما اخرجته فرانكلين ، « وماسبق من تآليف عربية لا يعاد طبعه الا وقد استكمل **فهرســه الهجائى** ، كما حدث مع الاغانى ، والأمالى ، والحيوان ، والعقد الفــــريد والجمهرة ، وعيون الاخبار ، ومعجم البلدان ، ومعجم الأدباء ، والمسالك والممالك للمقريزى ، والنجوم الزاهرة فى اخبار مصـــــر والقاهرة » ٠ وبقى «نهاية الأرب» أكثر من ٣٠ جزءا (وصبح الاعشى» و « الفهرس الابجدى فى آخر الكتاب الافرنجى كالذيل للقط يولد به خلقة ، ونتبع وما أحرانا أن نتبع والمتبوع صالح » ٠ وها نحن قد وصلنا الى موضع الذيل ٠

المصـــــادر :

١ ــ « قصة العربى كيف نشأ » العربى : ١٩٥٩/٨ ٠

٢ ــ « الصحافة : انحرافات تذهب بسمو الرسالة » العـربى : ١٩٦١/٤ ٠

٣ ــ « حرب أم سلام » العربى : ١٩٦١/١٠ ٠

٤ ــ « يومان : يوم للاعلام ، ويوم للوقاية من العمى » العربى : يونيو ١٩٦٧ ٠

٥ ــ « الرأى العام : صار بضاعة تصنع فى الناس » العربى سبتمبر ١٩٦٧ ٠

٦ ــ « البروباجندة : لفظ برىء صاف كالماء فى الزجاج ، تدخله السياسة فيتلون » لاعربى : ديسمبر ١٩٦٧ ٠

٧ ــ « القبعة تغيرت وظل الرأس واحدا ، شهر انتظار واصطبار وترقب » العربى : ابريل ١٩٦٩ ٠

٨ ــ « الكتاب العربى : سبب التخلف الحضارى والتخلف العلمى والتكنى فى روضة أو مدرســـة أو جامعة » العربى : مايو ١٩٦٩ ٠

٩ ــ « ١١ عاما من حياة العربى » العربى : يناير ١٩٧٠ ٠

١٠ ــ « هذا شهر حزيران » العربى : يونيو ١٩٧٠ ٠

١١ ــ « اسموه اعلانا ، وما هو الا مواصلات بين أرواح وافهام من بعد مواصلات بين اجسام وأجسام » العربى : ديسمبر ١٩٧١ ٠

١٢ ـ « عصر الضياع .. أنها حيرة الشباب فى كل عصـــر » العربى : يناير ١٩٧٢ .

١٣ ـ « حرية الصحافة » العربى : مارس ١٩٧٢ .

١٤ ـ « الكتاب العربى بين أمية فاشية ، وقرصـــنة باغية » العربى : ابريل ١٩٧٢ .

١٥ ـ « للجدل آداب لابد من احيائها » العربى : فبراير ١٩٧٣ .

١٦ ـ « الدعوة ، الدعاية ، الاعـــلام ، البروباجندة » العربى : مارس ١٩٧٣ .

١٧ ـ « حرية الفكر فى سلام وفى حرب » العربى : مايو ١٩٧٣ .

١٨ ـ « اختلاف الرأى فى سبيل الخير غير اختلاف الرأى عن خبث ومكر » العربى : ابريل ١٩٧٤ .

الجــزء الثــالث

ادب احمــد زكي



كان الدكتور أحمد زكى رحمه الله كاتبا غزير الانتاج ، وكانت كتابته فى العلم وفى غير العلم نموذجا رائعا للكتابة الأدبية التى تعتمد على المعانى فى جوهرها ، وعلى البيان فى عرضها ، تستعين بالبديع على بيان المعانى ومعانى البيان ٠

وليس من شأننا هنا أن نحصى للقارىء عدد مقالات الدكتور زكى لنثبت له مدى غزارة انتاج الرجل ، ولكن الجزء الأخير من هذا الكتاب « الببلوجرافيا » سوف يقوم بهذا الجهد خير قيام وسيجد القارىء فيه القوائم الطوال تلو الطوال الأخرى تحاول أن تحصر انتاج الرجل فلا تجد الى ذلك سبيلا ٠

على أن المؤلف لايزال يعتقد أن تقدير المرء (عالما أو أديبا أو سياسيا) لا يقاس بمقدار ما انتج ، ولا بنوعية هذا الانتاج فحسب وانما ينبغى أن يقاس الكم والكيف (المقدار والنوعية) فى ظل المقارنة مع المعاصرين ، فاذا كان الحال مع أحمد زكى وجب أن ننظر اليه ضمن نظرة أكثر شمولا تحيط بالآثار الأدبية والعلمية والفكرية لمعاصريه ٠٠ وقد نظر المؤلف هذه النظرة يوازن بين أحمد زكى واعلام المعاصرين فانتهى الى النقاط التالية :

أولا : ففى المجال العلمى كان الدكتور زكى مع مشرفة باشا علمين خفاقين من اعلام العلم الحديث فى مصر ، وكان الرجلان يؤمنان بدورهما الرائد ، ويريان أن الكتـابة للجماهير من الواجب عليهما ، وقد اتيح للدكتور زكى أن يعيش بعد وفاة مشـرفة ربع قرن وشهور ، فلا محل للمقارنة بين الكميات الكبيرة للدكتور زكى وبين الآثار القليلة نسبيا للدكتور مشرفة ، ولا أظن أن المتوسط الحسابى يغنى فى هذا ، فقد كانت المعدلات مختلفة عاما بعد عام ، عند كل من العلمين ، وليس هذا - مع هذا كله مما يعنينا - انما يهمنا ان نركز على طبيعة تلك الانتاجات الفكرية لكل منهما ، فعلى حين كان الدكتور زكى يوجه الشطر الأكبر من اهتمامه الى تبسيط الثقافة العلمية ، وعرض العلوم الطبيعية على الناس ، والبحث والتنقيب عن تلك الموضوعات التى تحتمل هذا العرض ، فان الدكتور مشرفة كان معنيا بالكتابة فى القضايا العلمية الكبرى التى ترتبط بعلاقات العلم بالحياة والدين والاخـلاق والقومية واللغة العلمية والصناعة والبحث العلمى والحياة العامة .

وليس فى هذا غرابة اذا ما تأملنا فى المواقع الوظيفية التى شغلها الاستاذان ، فأحمد زكى يلى أمر الجامعة والتعليم لينظم العلاقة بين العلم والمجتمع ، والتطبيق العلمى فى الحياة العامة فى مصلحة الكيمياء ،وفى مصلحة الصناعة ، وفى مجلس فؤاد الأول الأهلى للبحوث ، فكأنما كان يتمم واجبه العلمى الذى تأهل له بالشرح والتحليل ، وهو فى كتاباته كأنما يشرح لطلبة أوسع عددا ، ويشرح فى عبارات أبقى على الزمان .

على حين كان الدكتور مشرفة يخرج تلاميذه فى كلية العلوم التى ظل استاذا فيها وعميدا لها من يوم افتتاحها والى أن انتقل الى الحياة الآخرة ، وكان له حظ المشاركة فى اللجان والمجالس التى

تنظم تلك العلاقات العلمية ، ولكنه لم يكن سعيدا بما تنتهى اليه تلك اللجان مع طبيعة البطء التى تسود أعمالها ، ولهذا فانه كان يخلق الرأى العام ويوقظ الرأى الخاص بأفكاره وآرائه ·

وقد لا تكون هذه النظرة الى طبيعة الفـــروق بين الكاتبتين كافية لتفسير الموقف مائة فى المائة ، ولكنها على كل حال تستطيع أن تلقى لنا الضوء على أكثر من خمسة وسبعين فى المائة منه ·

أما الجوانب الأخرى لهذه القضية فقد تعود الى انشـــغال الدكتور مشرفة فى وضع الكتب المدرسية العديدة التى لاتزال تمثل المرجع الأول فى الرياضيات بكافة فروعها على حين لم تكن علوم الكيمياء قد لاقت ذلك الاهتمام الواسع فى مراحل التعليم العام حتى والى حين وفاة الدكتور زكى ·

وقد تعود أيضا ، بل أنها بالتأكيد تعود ، الى تلك القـــدرة الهائلة التى كانت للدكتور زكى فى الاستيعاب والتحليل والشرح على هذا المستوى العام من الثقافة العلمية وتاريخ العلم للجماهير على حين كان الدكتور مشرفة مشغولا ومأخوذا بتفســـير وفهم التطور الذى حدث للعلوم فيما بين القرنين التاسع عشر والعشرين، وفيما قبل النسبية وبعدها ·

ومع هذا كله ، ومع غيره فانك لا تستطيع الا أن تثبت هذه الطبيعة المتشابهة صدقا ، ورقة ، وروعة بيان ، دقة وصف ، ونقاء قلم ، وبعدا عن الأغراض ، والتزاما بالحقيقة مهما كانت عند كل من الرجلين ·

ولا يخفى المؤلف أنه قبل ان يكتب هذا الباب راجع ما كتبه من قبل فى الباب الخاص بقدرات مشرفة البيانية فى كتابه « مشرفة

بين الذرة والذروة » فوجد نفسه فى موقف لا يحسد عليه حين ادرك أنه لو تناول أحمد زكى من الزوايا التى تناول بها قدرات مشرفة البيانية لجاء هذا الباب صورة أخرى من الباب الذى كتبه من قبل عن مشرفة ، ولهذا أخذ المؤلف نفسه بمنهج آخر فى تناول الدكتور زكى ، يتلاءم مع الجوانب الأخرى فى الدكتور زكى ٠

ثانيا : وفى مجال الكتابة عموما فانه لا يسعنا مع احترامنا للكاتب الكبير الاستاذ العقاد ولعميد الأدب العربى الدكتور طه حسين الا أن نسأل : أيهما كان أجدى على الثقافة العربية ؟ تلك المقالات التى كتباها فى تأييد هذا الحزب أو ذاك ذلك الزعيم أو مهاجمته ٠ أم تلك التى كتبها الدكتور زكى فى قصة اختراع ، أو شرح دورة حياة ، أو مكافحة ميكروب أو ترسيخ مفهوم علمى ، أو تبسيط فهم صناعة من الصناعات ٠

قلت الثقافة العربية فى سؤالى ، خروجا بالقارىء الى الاقرار بفضل الدكتور زكى فى هذه الناحية ، ولا أظن الأمر يختلف كثيرا اذا ما قلت الأدب العربى ، غير أنى فى هذه اللحظة سأواجه بالذين يقولون بفضل المعارك الأدبية ، ولكنى اعتقد أنه ان كان للمعارك الأدبية أثر ايجابى ، فان هذه الايجابية تتضاعف اذا جاءت المعارك بعد مستوى من التقدم الفكرى والسياسى لا قبل هذا التقدم الذى لا يقوم ولن يقوم الا على العلم ٠

والمعارك شأنها شأن كل عناصر الحضارة سائرة الى التقدم مع مرور الزمن ومرور العلم ٠٠ ولهذا فانا لن نجد حرجا من أن نقول ان فضل أحمد زكى ومشرفة وقرنائهما على الأدب العربى بما كتبوا من مقالات علمية ، أضافت الى أدب العربية وقاموسها اللغوى مايفوق فضل اعلام الكتاب فى مقالاتهم السياسية التى تركت العقول غير الناضجة فى حالة تشكك لا تقبل لها بديلا ٠

ثالثا : على الصعيد الفكرى لا نستطيع أن نضع أحمد زكى من ناحيةكونه فيلسوفا فى المرتبة السامقة التىنضعفيها الدكتور كامل حسين مثلا ، ولكننا مع ذلك لانستطيع ان ننكر أن السبب فى هذا كان أنبل من الغاية ذاتها .

ذلك أن الفكر الذى أفرزه الدكتور زكى لمجتمعه لم يكن من ذلك النوع الفلسفى دقيق الفهم ، غزير المعانى والنتائج والمقدمات على النحو الذى نلقاه مثلا فى « التحليل البيولوجى للتاريخ » أو « وحدة المعرفة » أو « الوادى المقدس » ، ولكنه كان من ذلك النوع الذى يرتبط بمرحلة محدودة من الزمن هى الحاضر الذى عشناه والمستقبل القريب الذى نؤمله ، ولهذا كانت كتابات الدكتور زكى فى الجانب الحيوى من الحياة متماثلا فى ملاحقة الأحداث والأزمات العـــربية والدولية وخاصة أزمة فلسطين ، والظواهر الاجتماعية والمشكلات الناجمة عن التحولات .. الخ) ســواء فى هذا مقالاته فى الهلال وفى افتتاحيات العربى .

لهذا كان الدكتور زكى مصلحا ، وكانت له فلسفة فى الاصلاح، وكان اصلاحه يستمد معظم جوانبه من الفلسفة ، ولهذا كان قولنا انه لم يكن فيلســوفا من أصحاب الفلسفات العميقة ، لأنه اتخذ الفلسفة سبيلا الى الاصـــلاح والعلاج ، وليس على الطبيب الذى يعالج الحالات البسيطة أن يستعمل المركبات الدوائية المعقدة التى لا حاجة اليها ، وهكذا كانت الفلسفة التى اتخذها أحمد زكى سبيلا الى الاصلاح ، ولو اتخذ الفلسفة سبيلا الى الفلسفة لنبغ وبرز فى هذا المجال ، ولكن السبب فى هذا كأن كما قلنا أنبل من الغاية نفسها .

وأنا لا أدافع عن الدكتور أحمد زكى بهذا ، فان كلامى نفسه يقول انه فى هذه الناحية أعظم من كل دفاع ، ولكنى أبغى توضيح حقيقة أرادنى الكثيرون على أن أوضحها لهم ولغيرهم حين وجدوا

من فلسفة الدكتور كامل حسين قمة ليس الى المقارنة بها من سبيل، وسألوا هلا كان عند الدكتور مشرفة من هذا النوع ، ولا آظنهم سوف يجدون من هذا النوع عند الدكتور زكى ، وليس فى هذا ما يقلل قدر فلسفة مشرفة أو فلسفة أحمد زكى أو فلسفة على ابراهيم كما أنه ليس مقللا لقدر كامل حسين الا يجدوا عنده من النوع الذى افاض فيه الدكتور زكى تبسيطا للثقافة العلمية وتفكيرا بالعلم فى نواحى الحياة الاجتماعية ذلك أن السبب فى هذا واكرر أن السبب كان ايضا انبل من الغاية نفسها ·

وهكذا يتضح لنا الى أى حد كان الدكتور زكى فى عصره الزاهر وبين هؤلاء الأقطاب الأربعة ، ولا أظن أننا فى حاجة الى أن نقارنه بعد ذلك ببقية الاقطاب ، الا اذا ذكرنا له من الفضل بانشائه العربى ما يوازى فضل صديقيه الكبيرين أحمد حسن الزيات بالرسالة وأحمدأمين بالثقافة،فضل نشر الثقافة بالصحافةوان تكون هذه الثقافة ذات رسالة عليا وأن تمتد آثارها ما امتد اللسان العربى وأن تستقى مواردها من كل منهل ، وفى هذه الأخيرة فان أحمد زكى فاق الأحمدين الآخرين ·

ومع أن ترجمة الآثار الأدبية ليست من الآثار التى يضع التفاضل فيها صاحب الفضل فى الصف الأول ، الا اننا مع ذلك لا نستطيع أن نغض النظر عن فضل الدكتور زكى حين ترجم « غادة الكاميليا» و «جان دارك» وأعتقد أن هذا الفضل يضاف الى الدكتور احمدزكى مع افضالأخرى فىنهاية القائمةالتى وضعته فى الصف الاول بين كتابنا الكبار، وأحمد زكى فى قصصه ليس رجل العربية الاول ، ولكنه مع ذلك من رجالها الأوائل ، وانى لأعجب لأولئك الذين ذهبوا يبحثون عن ريادة القصة القصيرة كيف يغفلون الاشارة اليه والى قصص « بين المسموع والمقروء » ، غير أن عجبى هذا يتلاشى

عندما أجد الببليوجرافيات المصرية للقصة تغفل قصص الدكتور زكى وكأنه كان واجبا عليه حين نشر هذه القصص فى الدوريات أو فى الكتاب أن يكتب قبل عنوان القصة أنها قصة حتى لا يذهب عنها الببليوجرافيون وهم يظنون أنها مقال ، لأنهم لم يعرفوا للرجل أياديه فى هذا المجال .

وسوف نتناول فى هذا الباب بعض القصص بشىء من التفصيل والتحليل والنقد ، ولكننا مع ذلك نشير الآن اشارة عابرة الى بقية القصص التى لن يتناولها هذا الباب بالتفصيل على نحو يعطى الهيكل العام فى القصة ، والهياكل الخاصة الأخرى التى نود لفت النظر اليها بما يتسق والفكرة من هذا الباب .

فقصة « بيوت مسكونة : تحدثنا عن أن السمعة بين الناس وطيب الأحاديث لها علاقات وثيقة بالكسب ولها روابط متينة بالحب، وهذا هو ما يحدث فى البيوت ، حين يشتهر عنها أنها مسكونة بالعفاريت ، عندئذ تسوء السمعة ، ويقل القدر ، ويقل الأجر ، وهذا ما حدث مع بطل القصة الذى لم يدرك من التجارة غير عبارة ساعدته على أن يكسب ما لم يكسبه أمهر التجار ، اذ آمن بقول كتب الاقتصاد « أقبل على الشراء اذا أحجم الناس ، وأحجم اذا أقبل الناس » ، فكان هذا المدرس يشترى البيت الذى ساءت سمعته بثمن بخس ثم يعيش فيه حتى ينسى الناس ويبيعه بالثمن المضاعف، وهكذا تاجر بغفلة الناس حتى أثرى .

ولكن النهاية أن جاء زمن اشتدت فيه أزمة المساكن فأصبح الاحجام عن البيوت المسكونة بالعفاريت ترفا لا تطيق أزمة السكن وعبارة أحمد زكى فى هذا فى نهاية القصة رائعة اذ يقول « والواقع ان الايمان بالعفاريت ترف لا يسوغ وهذا الضيق قائم » .

وأما الاسكافى الذى ملأ سمع الدنيا فى ليلة فقصة ألمانى بائس طاردته الشرطة بعد السجن حتى يئس ، فاحتال على عمدة احدى البلاد وذهب فى لبس الحرس الامبراطورى وقد تقمص شـــخصية ضباط هذا الحرس ، وفعل مـــا فعل من خداع طويل ، قامت له الدنيا فى اليوم التالى ، استغل مكره وفكاهته وخياله الخصيب فى فعلته التى هزأ بها تلك الروح الالمانية تهـــزيئا لا يقدر عليه مائة كاتب خطيب ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ٠

أما ساعات الحرج على المسارح فليست قصة قصيرة وانما هى اقصوصات تدور حول هذا الموضوع ، ويقدم الدكتور احمد زكى بمقدمة عن الذاكرة وقوتها ثم يذكر « أن أحرج من تحرج الذاكرة من الرجال والنســـاء ، هم رجـــال المســـرح ، فالممثل ليس من صفاته أن يحسن التمثيل وكفى ، بل لابد له من الذاكرة ، وليست الذاكرة ذاكرة ألفاظ وجمل وسطور فحسب، بل لابد له من ان يذكر أين يبدأ وأين ينتهى ٠ ويعسر هذا عليه خاصة فى المحاورة والمداولة لاســـيما ان كانت بين أكثر من اثنين ٠ وعلى الممثل فوق ذلك أن يذكر فى أى مكان من المسرح ينطق بما ينطق ويمضى الدكتور زكى فيروى لنا بعض الطرائف فى هذا الصـــدد للممثل « فل باكر » فى رواية « الابن المسرف » وللممثل « روبرب جليكار » حين ســـقطت فردة شاربه اليمين والممثلة « ييجى ريان » حين كتبت أدلتها على ظاهر الســـتار الأول فلما غيروا المنظر رفعوا الســـتار الأول الى الســـقف ٠٠٠٠ الخ) ٠

يختم الدكتور زكى هذا الموضوع بقوله « ان اللباقة وحضور الذهن ، ضرورتان لازمتان لأدوار المسارح ، وهما كذلك لازمتان لأدوار الحياة ، فكم خلصت الكلمة الواحدة ، أو الحركة الواحدة . أو الفعلة الواحدة ، من مواقف ، وكم دفعت من مكاره » ٠

وقصة « فأل البيت الجديد » تريد أن تضرب لنا مثلا عاليا رفيعا فى تربية الابناء ، ومعالجة أمور الحياة لخصه أحمد زكى فى قوله « استمتعوا بأولادكم ما بقوا تحت سقفكم ، ان الاولاد كالافراخ ، لا تبقى فى عشها الأول الا ريثما تنبت أجنحتها فتشيل ، ثم لا يبقى لكم منها غير الذكرى » ، ذلك أن أسرة من أبوين وولدين انتقلت الى بيت جديد ، لم يكن فيه عيب الا الخـــلاف الدائب بينهم بين الزوج وزوجه والولد وأخته ، فلما أخذوا يبدون تاملاتهم فى حسن البيت وجماله وقفوا عن كلمة لولا يشيرون بها الى ما يتهمونه به بعضهم بعضا وما يلحظانه من ازدياد ولدهما وبنتهما على الأيام سوءا رغم ما يغمرانهما من رعاية ولكن الزوجة تلفتت لتقول : نحن بئس الأبوان ، فلا مراوغة بعد اليوم ولا مداورة ، اننا نرى ما فى ولدينا من عيوب ، فنحاول أن نصلحها وننسى ما نحن فيه ، كيف نصـــلح عيوبهما ، وعيوبنا قائمة تقـــول لهم بمثل هذا فليقتد المقتدون ، اننا جميعا حساسون ، ونحن متركزون أكثر التركز على أنفسنا ، لا يهمنا الا همها وحدها ولا نطلب الراحة الا لها • انا نعمل أفرادا ، ونحن فرقة تعمل بروح الفرد لا بروح الجماعة ، روح التسامح والتناصح والتعاون ، فهل بعد ما نحن فيه نعجب ان يكون أولادنا ما نرى ، انا نجنى عليهم ، فالبدار البدار يا عزيزى لنعطى لهم قدوة أصـــلح ، ومثلا انبل مما يجب ان يكون عليه الناس ، والوقت الباقى قليل ، فما هى غير سنوات حتى يذهب ابنك عنك ، وتذهب ابنتى ، ان الاولاد أفراخ لا تبقى فى عشها الأول الا ريثما تنبت أجنحتها فتشيل •• وأثر هذا الخطاب فى الزوج لأنه خرج من القلب •• ومضى الزوج والزوجة يقولان : لم لا نبدأ من جديد فى هذا البيت الجديد • لم لا نضبط أمزجتنا ونلجم انفعالاتنا على وفق مزاجه ، وهو مزاج لطيف خفيف •• ومضت القصة تروى ماحدث بعد ذلك من ضروب التعاون والايثار والسبق الى العمل ، وما كان من أثر ذلك على ولديهما •• ولم يكن النجاح بالأمر السهل ، ولكنه يحتاج الى مران ، وهذا ما استغرق بقية القصة •

أما « **القصاصة العمياء** » فسيدة ذهب عنها أولادها واحدة بعد أخرى فذهبت تعيش مع أخت لها· وعاشت سنوات حتى بلغت عامها التاسع والخمسين فجاءها ابن أخ لها يزورها وكان طفلا فأراعها لقد ذكرت بزيارته عهدها القديم بالاطفال ، وما كان لها بهم من انس ، وما كان لهم بها من أنس ، فقد ظلت تعمل مدرسة خمسة عشر عاما ، أما الآن ، فماذا يجد الطفل فى امرأة عمياء ! ثم خطر لها أن تروح عنه بقصص تحكيها له مما وعت الذاكرة ، ولم يلبث هذا ان جاء بصاحب له ثم زادوا الى عشرة ثم كثر الزحام حتى شكا الجيران الى عمدة البلدة من زئاط الأطفال ، وطلبها العمدة ، وطلب اليها أن تكف عن الحكايات فى هذا الموضع ولكن لكى تتولى المهمة فى الحديقة العامة ، قالت السيدة : من أين لى أن أعلم أن الاطفال يرغبوننى أن أقص عليهم ، قال العمدة ياعزيزتى البلهاء : كيف ترين فى شىء يطلبه ألف صبى وصبية أهم يرغبون فيه أم عنه ؟ ان تحت يدى الآن التماسا وقعه ألف صبى وصبية يطلبون أن تستمرى فى قصصك هذا ·

وأما « **محنة كبرى** » فقصة أقدار ، وما أعجب الأقدار ، ثلاثة رجال يهبطون وادى الموت حيث تتقطع بهم أسباب الحياة ، فلايكون لأحد منهم أمل فى عودة ، ثم يأخذون يضربون فى مجاهل الفناء أحد عشر نهارا ، واحدى عشرة ليلة ، يذكرهم النهار بالحياة وصحوتها ويذكرهم الليل بالقبور وظلمتها ، ثم يقضى لهم آخر الأمر أن لا يعبر هذا الوادى فيجوز الى الحياة والاحياء مرة أخرى غير واحد منهم ، ليس بأقواهم وليس بأكثرهم تمرسا بنوائب الزمان وهو يجوز هذا الوادى ليحكى ما جرى ، وتمضى القصة (أو الحكاية) تروى وتصف على نحو شيق ما يمكن ان يجرى للانسان عندما يلقى الموت صريحا لا شبهة فيه ·

أما « **بيت من طين** » فبيت بنى فى الهند ، فى منطقة تقع قرب

خط الاستواء حيث التفاوت الشديد فى درجات الحرارة بين الفصول، وبين الليل والنهار ، وحيث النمل الأبيض الذى يأكل مائدة من الخشب فى ليلة واحدة ، بناه أهل قرية بأكملها (استعملهم المقاول لذلك) لسيدة أمريكية جاءت من حيث ناطحات السحاب ·· ويمضى الدكتور زكى فى تفاصيل بناء البيت مرحلة مرحلة على نحو أحرى به ان يكون الحديث عنه أدب الرحلات ، ولكنه يختم القصة بقوله : « وعاشت السيدة فى المنزل سنين خالت فى أثنائها أن المنزل يزداد جودة ، وسألت أهل الناحية كم يبقى مثل هذا البيت · قالوا : اذا ولد فيه الطفل استطاع أن يستظل بسقفه حتى يرى أبناءه وأحفاده واحفاد احفاده ·

ثم يقول أحمد زكى « بارك لله لها فيه ، وبارك الله لكل مصرى يستطيع أن يجعل من بيوت مصر ، وهى من طين ، بيوتا من الجودة بحيث تستطيع ان تسكنها ، على استمتاع ، سيدة تأتى من حيث المنازل تنطح السحاب » ·

ونمضى بعد هذا كله لنقرأ مع الدكتور أحمد زكى فى « **تضحك والأحزان ملء جلدها** » قصة زوجين سكنا الى بعضهما وسكنا فى ضاحية هادئة من ضواحى العاصمة ، وكانا سعيدين فى حياتهما ، سعيدين بالرضا بما هم فيه ، وبأنه ليس لهما آمال تقض المضاجع ·· ولكن الزمن لا يسكت دائما حتى عمن عنه يسكتون ، ولايترك حتى اولئك الذين بالقناعة تركوه وارتضوه قسمتهم فيه · فقد جاء السيدة سرطان الثدى فتركها « قلقة مرتاعة » ، وكان زوجها أشد قلقا واشد ارتياعا لأنه كان ذا حس مرهف ، وزاد حسهما بالمصيبة التى نزلت ، وبأعقابها التى لاتفتأ تتهددها ، أنهما عاشا منطويين على نفسيهما ، ففى صلتهما الواحدة تركزت لذة الحياة ، وبين حيطان بيتهما الصغير اجتمعت مفارق العيش ، فلم يكن لهما

خارج هذه الحيطان صلات وثيقة ، ولم يكن لهما أصحاب وثاق ، وذهبت آثار المرض اللعين مع مضى الزمان ولكنه عاد الى الظهور مرة ثانية ، وكتمت الزوجة الخبر عن زوجها « واحتفظت بسرها طويلا حتى ثقل عليها الداء ، فأخذ وجهها يصفر ، وجسمها ينحل ، وقوتها تقل ، وهى تغالب كل هذا ، وأخذت تضحك وتخرج كعهدها القديم ولكن زوجها لم يلبث أن أدرك ان شيئا ما قد اختل ، وخطر بباله ان البلوى قد عادت ، فأشـــار على زوجته ان ترى الطبيب ، فضحكت الزوجة من تلك المشورة · قالت : وما حاجة امرأة صحيحة سليمة مثلى ان ترى الطبيب ، وزادت مخاوف الزوج فأصر على أن يذهبا ، وذهبا ، وأدرك الطبيب أنه الموت المحتوم ولكنه لم يرد أن يسود أيامها الباقية وأيام زوجها معها ·

وأخذت صحتها بمضى الأيام فى الهبوط، وعجب زوجها، واعتزما أن يريا جراحا فى العاصمة ، وذهبت اليه وحدها ، وكان اليوم يوم عيد ميلاد زوجها ، فلم يذهب الى العمل بدعوى أنه عيد ميلاده ، والواقع أنه لم يذهب لشدة قلقه ·· وظل قلقا طول اليوم يذرع الشارع جيئة وذهابا ، ويضرب بقطعة الفضة يستلهم الخبر ·· وكانت الزوجة قد لقيت الجراح وعرفت منه بعد الحاح أنه الموت والموت القريب ، فلما لقيت زوجها قالت له ان الحال طيب ، فضمها فى الشارع ، ونسى أين هو فرقص ·

وتدخل الزوجة الى بيتها فتقترح على زوجها أن تدعو الجيران والاحبـــاب الى بعض الطعـــام وبعض الشـــراب احتفالا بعيـد ميلاده ، فيقول بل احتفالا بهنائتنا ، ويحضر الجيران فيكون طعام ويكون شراب ، ويكون ضحك وتكون نكات ، ويضـــحك الزوج ، ويشربون الانخاب لصحة زوجته ·

ويصبح الصـــباح فتخبره الخبر اللعين · لقد عز عليها أن تحزنه فى آخر عيد للميلاد يجمعها ·

لماذا هذه النهاية الحزينة يا استاذنا الدكتور زكى ، ألم يكن أخف منها أن تقول وماتت بعد أسبوع ، ؟ على استاذنا الدكتور زكى فقال : ومن أدراك أنى أبحث عن النهايات الحقيقية ؟

ساعة فى قطار : تحكى عن ساعة قضاها الدكتور زكى فى قطار ، ولا لزوم للقطار هنا فى سبكة القصة الا أنه كان حر الجو ، فكشف جندى أجنبى جلس أمام الدكتور زكى عن صدره ، يزيد مساحة المعروض من صدره ، وعجب الدكتور زكى وصديقه الذى جلس لجواره لهذه اللوحة المرسومة بالوشم على صدر الجندى ، وأخذوا يتأملون ، ثم سألوه أصنعه فى لندن فقال : لا ، أنه فى المحيط الهادى فلن تجد فى الدنيا وشامة كوشامه ·· ومضى الدكتور أحمد زكى يحكى على لسانه وعلى لسان الجندى فى أمر الوشم ما حكى من تاريخه ·· على اننا نختار لمتعة القارىء فى شأن الوشم ما رواه أحمد زكى من أن سفاحا فرنسيا كان يقتل القتيل ولا يلبث أن يشم اسمه على جلده ، ويشم تاريخ فعلته ، وعلم أنه لابد صائر الى المشنقة فوشم خطا على عنقه ، وكتب بالوشم تحته : أيها الجلاد · اشنق هنا ·

ثم ان أحمد زكى قال للجندى مباسطا : فهل توصى بهذا الجلد الجميل الذى فوق صدرك لأحد من بعدك ؟ انه قطعة من قطع الفن ذات بال ، فابتسم متعجبا وقال : وما نفع ذلك فقال الدكتور زكى : لقد وقعت مرة فى معرض على كتاب عليه جلدة بها وشم جميل ، فسألت أمين المعرض عنها فعلمت منه أنها جلدة انسان دبغوها ، ثم الى هذا أصاروها ، قال ضاحكا : والله لن أضن على أحد بالذى أجود به للدود ، على شريطة أن أعلم ما الذى سيصنعونه فى كتاب هذه جلدته · « قلت : شعر جميل يحكى عن أفراح القلوب أحيانا ، وعن أحزانها أحيانا » قال : أما هذا فنعم فهل لديك الوثيقة فأمضيها الآن · قلت دون هذا العمر الطويل ان شاء الله وكان قد

بلغ القطار غايتنا منه فودعنا ونزلنا » لماذا هذه النهاية التى افتعل فيها المصادفة على نحو المقامات الحريرية ؟ لعلها الفورمة التقليدية لذلك الزمان ولغير ذلك الزمان لم يجد أحمد زكى بدا ولا بأسا من اتباعها ، ولو تركها لكان خيرا وأولى ٠

أما « حضرية فى أقصى الريف » فليست الا قصة فتاة نشأت فى عاصمة ثم ذهبت فعاشت فى ريف من أقاصى البلاد ، وتمضى القصة تعقد المقارنات فى تأمل بين الحياتين وكيف رضيتها صاحبتها وتأقلمت عليها وسعدت بها ٠

وأما الصيدلى الذى تدور حوله قصة « من الناس والى الناس » فقد قضى من حياته خمسين عاما فى هذه المهنة ٠٠ والدكتور أحمد زكى يسأله فى أول القصة :

ألم يسأم العمل فى هذه الصناعة الواحدة طول هذه المدة ، فقال : ان صناعة الصيدلة لا تسئم ابدا ، ولا يمكن أن ان تسئم ابدا، فأنت تقعد منها على مرقب من الحياة ، يمر بك الناس وأنت ثابت ، تتفرج بموكبهم الذى لا ينتهى ، وتوثقت بينى وبين الناس من وراء منضدتى هذه صداقات تتجدد لذتها كل يوم ، وتسر أخبارها أو تسىء ، ولكنها دائما تثير الهم ، ومن أثير همه لم يفقد الرغبة فى الحياة أبدا ، ولم يزهد فى العمل ولو أتعب أبدا ٠

والمسألة بسيطة ذلك ان الصيدلانى فى البلد الصغير ليس ساكب سوائل فحسب ولا طاحن أخلاط وعقاقير فحسب وانما هو رجل قبل كل شىء ومستمع وناصح على كل حال ، يأتيه الناس يتحدثون عن آلامهم ، وعن أطفالهم وعن زوج سكير وكلب مريض ، والفقراء يختصرون الطريق فلا يذهبون الى الطبيب ، ولكن يجيئون الصيدلانى ، وعليه أن يشخص الداء وينصح بالدواء ٠

وهكذا كان صاحبنا بل كان أكثر من ذلك ، وقصـــته التى يرويها لنا الدكتور أحمد زكى تحكى لنا أمثلة من الواقع الذى قابله فى الحياة ، انقاذ أم أرادت الانتحار ، وهى اليوم ـ جدة ، ولم يكن يغضب أحدا لأنه كان يعتقد أن الذى يضيع الحرص يضيع الكرم ومع أن ثروته تعد بمئات الالوف فلا تكاد تجد فى المدينة شيئا حسنا الا وله نصيب فيه : فى الحدائق ، والمدارس والمكتبة ومؤســـسة لاقراض الفقراء ٠ وحين جاءت الانتخـابات ذهب اليه الســكان فحملوه على ترشيح نفسه نائبا ، ففعل ، فلما كان فى مجلس تبينت له فيه الريبة من النقاش الذى كان فيه قام فى المجلس وقال لاعضائه : أنا لا أدرى أين أزمعتم أن تختبئوا بعد هذا ، أما أنا فلم أعــــتزم اختباء ، واريد أن أعيش بين أهل بلدى أنظــــر اليهم ملء عينى وينظرون ٠ وأخفق المتآمرون ذكر أحمد زكى كل هذا بعد ما جاءه الخبر ـ منذ أيام ـ بأنه مات ، وهذه القصة لا تهدف تمجيد صيدلى بعينه أو عرض قصة كفاح انما أراد أحمد زكى بهذه القصة تلك العبرة التى وصفها صريحة واضحة فى نهايتها حين قال : « فرحمه الله رحمة واسعة ، ورحم أمثاله من تجار يحرصون ويجمعون ، فى غــــير نفاق ، ويجمعـــون لينفقوا من بعد ذلك فى وجــــوه الخير عامة ، وعلى ذوى الحاجات خاصة أن الذى يجمعونه ، من الناس والى الناس ! هل عـــرفت اذن ما هو هذا الذى من الناس والى الناس ؟

وفى « لابد لها من أنف جديد » يروى لنا الدكتور أحمد زكى قصة فتاة ، كان لها أنف طويل وكان هذا يضايقها ، الناس تضحك عليه ، فضحكت هى الأخرى عليه تدارى ضـــحك الناس ، فكانوا يطلبونها لاضحاكهم ، فاستاءت أن تكون كمضـــحك الملك ٠ وكانت تحاول تصـــغيره بربطه فى الليل ، فلم يكن يطاوعها ٠ ثم دخلت مدرسة التمريض وتخرجت ، وسر المرضى بروحها الجميلة التى

واتتها من طفولتها (الضـــاحكة) · ثم كان أن طلب أحد هؤلاء المرضى الناقهين يدها ·

عندئذ ذهب ما كان بها من تردد فى أن تجرى عملية جراحية لتجميل أنفها « كان يمنعها من ذلك فيما يمنع خشية أن يقول الناس انها انما تطلب الزوج ، أما الآن ، وزوجها فى يدها ، فهى انما تطلب الأنف ، تطلبه لتكون جميلة ــ جذابة وليس فى هذا المطلب ما يشين · انه مطلب يطلبه النســـاء جميعا والرجال · ولو قالوا غير هذا لكذبوا » ·

« وما ذنب زوجى القاه بهذا الأنف ، وهو زوج حبيب ودود كريم » ·

وذهبت فاستشارت طبيبها وأعطاها أسماء الجراحين ، وأعطاها الجراح الذى اختارته لقربه الى منزلها نماذج تختار ، واختارت ، وراجعها فى الاختيار ، وتمت العملية ، ووصف أحمد زكى العملية وصفا دقيقا على عادته ، وما بعد العملية بيوم ويومين وبأسبوع وبأسبوعين وبأربعة شهور ·

وعند ختام الأسبوع الثانى عشر أخبرها الجراح أنه لن يكون بوجهها تغير بعد الذى كان ، وأرسلها الى رسامه ليأخذ صورتها من جديد ، قال انه يحتاجها لبحث هو ناشره فى مجلة طبية ·

واستراحت أخيرا من بعد عناء ، ولاشك استراح زوجها ·

وكان دليل تغير وجهها الى ما هو أحسن أنها خرجت من بعد ذلك ، فصفر لها فى الطريق صافر يريد مغازلتها · وهو حادث لم يحدث لها أبدا · فعرفت وعرف زوجها من هذا الصـــفير ، ان الجراحة نجحت والحمد لله ·

و « الجنة التى وعد الصابرون » جنة فى الدنيا لا فى الآخرة

وهى تحكى قصة زوج اشترى جزيرة فى البحر ، مهجورة ، وجهز بيته فيها ، وأخذ زوجه اليها ، وولدا هناك وعاشوا جميعا ٠٠ كيف كانت حياة الوحدة عظيمة ٠

« وعلما من ذلك أن الناس على الزحام تسوء اخلاقهم وتخبث نياتهم ، ولـــكنهم على التفرقة ، وعلى الوحدة ، وفى اختـلاتهم بالطبيعة ، بدءوا بعدا وفكرا ، لا يبقى فى أنفسهم مكان تشـــغله الأحقاد وتملأه المخابث » ٠

وتصور لنا قصة « يوم مات أبوها » فتاة جلست فى ليلة تتذكر يوما كان من عشرين عاما ، يوم مات أبوها ، وهو لم يمت موتة طبيعية ، وانما أعدم ، لأنه قتل عاملا فى الميناء ٠ كانت الفتاة يوم وقع هذا الحادث فى الثالثة عشرة من عمرها ٠ وكانت اختاها فى العاشرة والثانية ، والقصة لاتصور لنا الا حال هذه الأسرة فى ظل عائلها متعهد السفن ، يشحنها ويفرغها لا يغيب عن البيت الا ثلاثة أيام كل ثلاثة أشهر ٠٠ وكان للاسرة حظ من السعادة بأبيهم لابأس به ، كان يكسب ، وكان ينفق ، وكان له قلب رحيم ، ومزاج ، على غير السكر محبب جميل ٠ ولكن حدث ما حدث وقتل الرجل رجلا فى الميناء ، وجاء الخال ، وذهبت الأم ، وسجن الزوج ، وزار البنات أباهن فى السجن ، فلاطفهن ، وضحك معهن ، ولما غادرن لاحظن أن عينيه غاصت بالدموع ، وطلب الا يراهن بعد ذلك ٠ ثم حكم عليه بالاعدام ، وكان بين الحكم وتنفيذه خمسة أسابيع مرت سريعة ، وتحدد اعدام الأب فى الساعة العاشرة مساء ٠ وجاء ذلك اليوم ، وبقى الخال والخالة مع الأم فى المطبخ ، وذهبت البنات بالأمر فجلسن فى الصالون ٠ حتى كانت العاشرة الا ربعا ، « وبغتة صرخت الأم وصاحت» : « أى زوجى العزيز ! ماذا يصنعون بك الآن » وخرجت من المطبخ فزعة الى الصالون الى الابن الأصغر فرفعته الى صدرها والى النافذة اتجهت ورأت كبرى البنات ماذا تصنع الأم بنفسها وبأخيها الصغير ، ولكنها لم تفعل شيئا ٠ لقد تسمرت رجلاها فى

الأرض فلم تستطع حراكا ، فهى لم تذهب حتى الى النافذة لترى ماذا جرى وهى لم تصرخ ولم تستغث وهى لم تبك ·· وسمعت شيئا يرن فى أذنها ·· ان الساعة ·· تدق ·· أنها تدق العاشرة » ·

وقصة « **طمأنينة** » قصة من أروع القصص النفسى ، لا التى تصور عقدا نفسية ، ولا التى تقوم على مثل هذه العقد ، ولكنها من ذلك النوع الذى صور نفسيات طريفة ، فهذا رجل فى الثالثة والخمسين ذهب الى جراح كبير والقصة تحكى لنا ما دار بينه وبين الجراح من حوار ، الجراح يبحث عن شىء غير طبيعى فى كل جسم الرجل فلا يجد ، ويعاود فلا يجد ، ويستخدم كل الوسائل (فامتحن قلبه ، ونظر فى عينيه ، وقاس ضغط دمه ، وجس كليتيه وكبده ، ودغدغ باطن قدميه ، ودق على ركبتيه بمطرقة فارتاح المريض لكل هذا ، وعندما طلب اليه أن يلبس ملابسه بان عليه كأنه يتلكأ ، بان عليه كأنه يريد من هذا الفحص مزيدا للغبطة التى وجدها فيه ، فلم يجد الجراح الكبير بدا من أن يصارح المريض أن لا شىء فيه على الاطلاق مع أن سلامته فى مثل هذا السن سلامة نادرة ·

هنا قال المريض : اذاً فأنت ترى رأى الطبيب فلان ؟ قال : نعم، قال ورأى وفلان وفلان وعد أسماء خمسة من الأطباء وثلاثة من الجراحين ، واثنين من النفسانين وكلهم من مشاهير الرجال ، فسأله الجراح هل رأى كل هؤلاء وأجابه المريض : وكلهم أمن على مثل ما تقول ، ولكن قل لى ما رأيك فى الدكتور فلان ؟ قال الجراح : انه خير من أنجب الطب من الأطباء ولكن هل أنت قاصده أيضا قال نعم ·· واستشاط الجراح من هذا المريض الذى يهدر وقت الأطباء اهدارا ولكن صاحبنا صمد لغضبة الجراح ولم تفارقه ابتسامته وقال : قد يكون هذا ، ولكنى رجل بلغ الثالثة والخمسين ، وهى سن يأخذ الرجال عندها فى الهبوط ، وانى واجد سرورا عظيما

كلما قال لى طبيب كبير ان صحتى على خير ما يرام · انها طمانينة كبيرة تساوى اضعاف ما أدفع فيها من مال ، مرة كل شهرين ·

قال هذا وهو يأخذ سبيله الى الباب ، وعلى فمه ابتسامة فوز ، وعلى وجه الطبيب دهشة وغيظ ·

« **شكرا لك يا جدتى** » هذه هى العبارة التى قالتها لأحمد زكى وصحبه عازفة من أبرع العازفات على البيانو ، حين شكروا لها عزفها فقالت انما الشكر لجدتها ، وقصة ذلك أن جدتها كانت تستمع اليها وهى طفلة فى الرابعة أو الخامسة من عمرها ، وكانت تأخذ تعزف لها « فتارة خفقا ، وتارة موجا ، وتارة عاصفة بالموسيقى ، فأنصت وأنا ذاهلة عن نفسى ، وقد علمت من بعد ذلك انى كنت فى عداد القلائل الذين كانت جدتى تعزف لهم عن طيب خاطر ، وتلمع عيناها أحيانا فتدق الأوتار يجرى بالرعدة فى نقار ظهرى ، ثم هى تدق دقا خفيفا فتقربنى بالاحلام » ·· ثم أنها أوصت صغيرتها أن تتعلم الموسيقى وان تخصص لها وقتا يوميا للدرس ، ولم يكن من عادة المدرسين الا ان يعطوا درسا واحدا فى الأسبوع ، وبعد اسبوعين من هذه النصيحة أصابتها السكتة المخية ، وانصرفت الفتاة ، فلم تعد الا بعد شهر ، كانت أمها ووالدها وعمها عند جدتها ، فوجدوها لا تفتأ تلعب بأصابعها على الفراش كما تلعب على البيانو وتنظر اليهم ، فظنوا أنها ربما تعنيها فأتوا بها اليها ، فلما رأتها انشرحت وأخذت تلعب على الفراش كأن من تحته مفاتيح البيانو ، ففهمت صاحبتنا ، ونزلت الى حجرة الجلوس ، فعزفت على البيانو وعادت ، فرأت جدتها تعد بأصابعها ثلاثا ثم ثلاثا ، « فعلمت أنها تذكرنى بالدروس الثلاثة التى اوصتنى بها ، فهززت رأسى بنعم ، فابتسمت عيناها لما تعذر أن يبتسم وجهها ، ثم حدث شىء عجيب ، جاءت قصفة من الريح فتحت جانبا من النافذة خلت منه أشعة الشمس فأضاءت وجهها ، وعند ذلك اغمضت جدتى عينيها » وجاءت الأم فاكتشفت وفاة الجدة · ويقارن لنا أحمد زكى

على لسان بطلة القصة بين جانبين مختلفين جدا لاختلاف فى موقفهما ذات اليوم حيث تقول « لقد افتقدت فى ذلك اليوم شيئا على بساطته عظيما ، وكسبت كذلك شيئا على بساطته عظيما ، عزما أن أعمل وأعمل وأعمل ، وأعمل فى جد لاينى ، وكسبت شيئا آخر خيرا من هذا وهذا ، أحسست أنى عرفت أين ذهبت جدتى ، ولا شىء أكثر من هذا ، ومن يومها وأنا أود أن أذهب حيث ذهبت .لهذا ، ولكثير من مثل هذا ، شكرا لك يا جدتى » !

وفى « **حتى الحيوانات منها المجنون** » يروى أحد عمال حديقة الحيوان للدكتور زكى صـــــورا من الجنون الحيوانى التى أدركها بحكم مهنته ، ورحلاته فى افريقيا .

هذا عن قصص « بين المســـموع والمقروء » التى لن نتناولها بالتفصيل فيما بعد ، على أن للدكتور زكى عددا آخر من القصص المنشورة ضمن منشوراته فى المجلات ، منها (المطلقة) (الهلال : ٤٩/٧) وهى قصة قصيرة تتناول فى تحليل عميق لحظة الطلاق وشعور المطلقة عندها ، « وصاحت صيحة أخيرة : بالله كل الاحزان الا حزنى هذا ، وكل الوجائع الا وجيعتى هذه ، ويزيد فى وجيعتى أنها من صنع يدى . فأنر لى الطريق يارب الأنوار جميعا . ارفع فتيلا فى سراجى ليخرج منه النور ساطعا ، فقد عمشـــت عينى ، واختلطت عليها المسالك » .

كل هذا الذى عرفنا له غير القصص العلمية التى روى فيها أحمد زكى أبرز النقاط التى تحول عندها مســـار العلم الطبيعى والبيولوجى من قبل ان يترجم كتاب العلامة الكبير (كونانت) عن المواقف الحاسمة فى تاريخ العلم أو كتاب استاذه (جاف) عن قصة الكيمياء .

وان كانت هذه القصص قد جاءت بعد ترجمته قصة الميكروب على صفحات الرسالة على مدى سنوات متصلة .

أما أدب الرحلات عند الدكتور زكى ، فلم يكن من الغايات التى رمى اليها ، وأبلغ دليل على ذلك أنه لو كان من الغايات لكتب لنا الدكتور زكى فى هذا المجال أضعافا مضاعفة من واقع رحـــلاته العديدة والممتدة التى كان لا يفتأ يقوم بها ·

ولكن الدكتور زكى مع هذا لم يحرمنا من الكتابة عن رحلاته العلمية ، وقد ضمن هذه الكتابات فى تقريره عن مجلس فؤاد الأول الاهلى للبحوث ماضيه وحاضره ومستقبله ·

وكتب فى المصور سنتى ٥١ ، ١٩٥٢ عن رحلاته الى المانيا وباكستان والهند كتابات منها «الالمان كالقطط لهم سبعة أرواح » ، « باكستان أمة بنيت بين يوم وليلة » ، « الهند بعد باكستان » ·

أما بلاد الله المكرمة فى الحجاز ، فقد شد اليها الدكتور أحمد زكى الرحال أكثر من مرة ، وكتب لنا فيها ما سنعود اليه بالنظر بعد قليل ·

وقد فصلنا القول فى أمر هذه الرحلات فى الجزء الأول من هذا الكتاب ·

انما يعنينا الآن هو أن نلتفت الى عـــلاقة أحمد زكى ببلاد الانجليز ، التى تزوج منها ، وكان على صلة مستمرة بالسفر اليها ، وكتب عنها الكثير ، وبخاصة تحت عنوان لندن فى الصيف ما نشره فى العربى (١٠/٦٤) ، (٨ /٦٦) ، (٩/٦٨) ، (٩/٧١) ، وقبل هذا (٩/٤٧) ، (١٠/٤٧) ·

وقد فصل الدكتور زكى فى آخر هذه المقالات (٩/٧١) الاجابة على هذا السؤال (لماذا لندن بالذات) ، فى أول مقاله · ولـــكن

العبارة التى تعبر عن هذا المعنى فى أبلغ صورة ليست تلك الفقرة من مقال ١٩٧١ ولكنها عبارة فى مقــــال للدكتور أحمد زكى سنة ١٩٤١ من مقال سنقتطف منه فقرات طوالا يصف فيها تحرك القطار من لندن فيقول (فتحرك القطار فمشى دبيبا ثم خببيا ، ثم انطلق مسرعا الى العراء الواسع فلم يبلغه الا بعد حين طويل • فقلت : الى اللقاء فى لندن **لقاء غريب ما سلم حتى ودع •• غريب أشعت فى نفسه الاجلال والاكبار لها الحب والهيام** • فحب المدن غير حب العذارى ، لا تقتل فيه النظرة العابرة الأولى •

هنا جوهر علاقة أحمد زكى وتقديره للندن اجــــلال واكبار ، لا حب وهيام •

ومن هنا يبدأ الخيط الأول الذى نستطيع معه أن نفهم طبيعة ادب الرحلات عند أحمد زكى فهو أدب تقديرى ان صح هذا التعبير يبحث عن أســــباب العظمة المبهرة أو الباهرة قبل أن يصف هذه العظمة ، أنظر الى عبارته فى وصف لندن حين يقول « وعشت فى هذا البلد ما يقرب من عقد من الزمان لم أر فيه مظهر الفاقة المدقعة أبدا لأنى لم أر **مظهر الكسل الفاحش أبدا** » •

أدب الرحلات عند أحمد زكى ادب تحليلى قبل أن يكون أدبا وصفيا ، وهو نقد علمى قبل ان يكون نقدا انطباعيا وهو يرتفع بعقل قارئه الى مستوى التقدم ، قبل ان يرفع خياله الى طائرة يركبها الى البلد الموصوف •

وأحمد زكى يتحدث كثيرا عن بلاد الانجليز ، وعن الانجليز وهو يصرح بهذا فى أول ما أدركت له من مقالات فى هذه الناحية **فيقول فى نهاية حديثه :**

« ان حديث هذه البلاد حديث طويل ، وما أفدته منها عديد كثير · وحسبى منها سنوات قاربت العشر قضيتها بين الحقيقة والخيال ، بين اليقظة والاحلام · وهى احلام برئت منها على اثر دقة عنيفة دقها رجل على رأسى · جاءتنى هذه الدقة وأنا على الباخرة أهم بالنزول الى أرض بلدى · وجاءتنى على رأسى من الوراء فتلفت خلفى ، فاذا بالدقة من صندوق عظيم حمله حمال ، ووجدت الحمال يزعق فى وجهى : « أنت أعمى ؟ أعيناك مفتوحة ؟ الا ترى ؟ » فقلت فى نفسى : « لا والله لم تكن مفتوحة ، ولكنها فتحت الآن » · ومضى الآن على عودتى سنوات ، ولا أزال أحسب ان الصناديق لاتزال تدق رءوس الرجال ، وتدفعها من الخلف ·

عبارة أخرى لا أظننى أستطيع أن أحرم منها القارىء بدعوى الاختصار ، لأنها تبلور أدق وأروع آراء الدكتور زكى فى بلاد الانجليز حين يقول فى مقاله : « على ضفة التايمز » الهلال ١٩٤٧/١٠ :

« انجلترا بلد يتلبد جوه كثيرا ، ولكنه يصحو من بعد غيام ، وقد عود هذا أهلها ان يطلبوا الصحو دائما اذا تلبد وجه الحياة وتجهم ·

والموضوع من تلك الموضوعات التى تتناول لندن وغير لندن من بلاد الانجليز أو غير بلاد الانجليز لا يقف عند فكرة واحدة يناقشها وانما هى كاميرا سينمائية تركز على أبرز الاحداث فى البلد وحضارته وتحولاته الاجتماعية ·· فمن حديث عن أزمة الأجور الى معاشات التقاعد ، الى انخفاض قيمة النقد ، الى التغيير فى الاوراق النقدية : الجنيه وشلناته ، الى الحياة الاجتماعية والاطباء الى الحياة السياسية والديمقراطية ، الى الحضارات وعلاقاتها ببعض ، الى الطريق والمرور الى أزمات السكن وهكذا ·· وفى

مواضع أخرى بين حال البلاد قبل الحرب الثانية وبعدها ، وتعدادات السياحات ، وآثار التقدم العلمى والتكنى والصناعى والاقتصادى، وأوضاع اساتذة الجامعات ·

أما الوصف فى أدب الرحلات عند الدكتور زكى فيأتى فى المحل الثانى ، ولكننا مع ذلك لا نعدم نماذج رائعة للوصف الدقيق الذى عودنا عليه أديبنا الكبير ، وانظر الى هذه الصور الثلاث ، الأولى يصف فيها الورد على ضفة التايمز فيقول « والورد مالت علينا أغصانه من فوق شجرة كانت وراءها ، أمالتها ريح رخاء فيها من البرودة ما ينعس ولا يرعش ، والورد على التايمز أجمل منه على غير التايمز لأنه أعز وأنضر » ·

والصورة الثانية لأحمد زكى ورفاقه وهم يحرمون :

« واقبل الصباح فصحونا ، وأفطرنا واستحممنا ، ولم نلبس من بعد استحمام ثيابا · ان الذى يلقى الله ليس فى حاجة الى ثياب · كان علينا أن نلقاه فى جلودنا كما خلقنا الله · انه الاحرام · وفى لفائف من القطن أحرمنا ، ثوبا درنا به حول السيقان والبطون، وثوبا درنا به حول الصدور والظهور · وركبنا السيارات فأخذت تخطف بنا الأرض خطفا بين تلال سوداء ووديان من رمال الصحراء صفراء ، وتنبسط الأرض انبساطا عظيما فأنظر الى السماء أقول يارب أين الماء · وذكرت قول ابراهيم : « ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » ·

والصورة الثالثة تصور السير فى الليل فى ساعات السحر الى المسجد فى بلاد الاسلام المقدسة :

« ألا ما أحلى السير فى ظلام الفجر والناس نيام ، والحوانيت مغلقة ، والطرقات فارغة وبصيص النور يشع من هنا وهنا على غير سالك طريق ، ونجوم السماء تطل من السماء ساكنة فتزيد فى سكون الأرض » .

هذا وقد ذهب الدكتور الى الاراضى المقدسة غير مرة ، وكتب عنها كثيرا الهلال (٣/٥٤) ، (٨/٥٥) فى العربى بعد ذلك كثير .

بقى أن نشير الى هذه الناحية من شخصية احمد زكى الرحالة الذى كان يقضى الصيف فى الترحال ، بينما هو ميال الى الوحدة ، وقد يكون القارىء أدرك هذا الخلق منه فى الجزء الأول من هذا الكتاب لكننا هنا نضع أمام القارىء نصوصا كتبها احمد زكى فى « الجنة التى وعد الصابرون » يعبر فيها عن هذه الناحية من خلقه، حلمه أن يعيش فى وحدة :

« فهذا حلمى الذى حلمته » تحقق لغيرى ، ولكنه حلم لايزال حيا ، وهو رغيبة لا أزال احتفظ بها من نفسى حيث المرء بالآمال ، وهى أمنية ارتد اليها دائما كلما ساء الحال » « وأخذت أتحدث الى نفسى ، وتتحدث نفسى الى ، عما يكون لى فيها ، أنا وزوجى من حياة ثانية ، نبدأ فيها دنيا جديدة ، تكون بعد مغادرة دنيا الناس ، أشبه « بالجنة التى وعد الصابرون » .

ولأحمد زكى بعض الآثار فى أدب التراجم ، خاصة مع اولئك الذين كان يبدى اعجابه فى بعض أمرهم ، وله كلمة رائعة عن لطفى السيد حين مات وأخرى فى نهرو .

ويذهب الدكتور زكى فى تراجمه الى تأكيد الصفة البارزة فيمن يترجم عنهم ، وقد لا تكون هذه الصفة البارزة هى ما برز عند

الناس ، ذلك أن لأحمد زكى مقياسا خاصا فى قياس العظمات يختلف كثيرا عن معدلات القياس الجماهيرية ٠

أما التراجم « الرسمية » فقد حفظت لنا منها مجلة الهلال مقالا لأحمد زكى فى عدد خاص عن « ابراهيم باشا » وهو لا يخلو من طرافة رائعة حين تجد أحمد زكى يلتفت الى النقطة الأولى فى حياة ابراهيم وهى وجوده وتزامنه مع عهد أبيه محمد على باشا الكبير فلم يحس به منفردا ٠ وفى هذا المعنى يقول الدكتور زكى « حق لابراهيم ان يشتكى من أبيه ، مثل اشتكاء القمر من الشمس ، فقد شاء القدر أن يطلع ابراهيم فى سماء مصر فى الوقت الذى طلع فيه أبوه فى سمائها وشاء القدر ان يهبط ابراهيم من سماء مصر ، بل بالموت من كل سماء قبل أن يهبط أبوه بالموت منها ٠

ويفرق الدكتور زكى بين العاهلين خير تفريق يمس فيه أبرز وجوه الاختلاف فى أعماقها لا فى ظواهرها على نحو ممتع لابد لمحبى الثقافة والمتأملين فى التاريخ ان يرجعوا اليه فى عدد الهلال (نوفمبر ١٩٤٨) ٠

وأحمد زكى لا يخطىء المدخل الى تقدير الشخصية ، اسمع له فى مقاله عن ويلز حين يتعرض لقصة زواجه وما يوجهه الناس من انتقادات حولها فيقول : « وما كان نبيا وماجاز له أن يكون ٠ كان صاحب رسالة كريمة ، فلبنات أفكاره يجب أن يتوجه البحث والتاريخ لمن أراد بحثا وتاريخا أما ما جرى لشخصه فى الحياة ، فلا خطـر له فى ذاته الا بالقـــدر الذى يتصـــل بالفكر ويؤثر فى الانتاج » ٠

هل لنا أن نعود بعد ذلك كله الى أسلوب أحمد زكى لنشير فى سرعة الى تطوره مع الزمن من دقة اللفظ الى سلاسة اللغة ، ومن

احـــكام اللفظ الى تعبيرية اللفظ ومن تقليدية التركيب الى دقــة التركيب ·· هذه الأمور الثلاثة تعطينا المؤشر الواضح عن طبيعة الزمن فى أسلوب أحمد زكى · ونعم الطبيعة ، ونعم التقدم · أما الرصانة فهى فيه بادىء ذى بدء ، وعودا على بدء ، والجمال فيه جمال الشباب ثم جمال الشيخوخة ، والعلم فيه علم الشاب المحصل وعلم العالم الشيخ المحنك ولكننا مع هذا نحب أن نطلع القارىء على بعض فقرات من مقال الدكتور زكى « ماذا أفدت من الانجليز » الذى كتبهقبل وفاته بخمس وثلاثينعاما ثم نتركللقارىء ـ اختصارا ـ أن يعود الى مقال من أحدث مقالات الدكتور فى مجلة العربى ·

وهاك بعض فقرات من مقال الدكتور زكى :

« كنت فى القطار انتظر تحركه · وكان مقعدى فيه وثيرا ، ومس هواؤه وجهى ويدى دافئا لذيذا · وزاد فى لذاذته تلك النظرات التى كنت ألقيها عبر النوافذ المغلقة لاستشرف ما وراءها فيحجبه عنى بخار متكاثف على زجاجها يحدث عما وراءه من برد قارس شديد ·· ومددت يدى امسح زجاجها فتبينت فى الضباب الســـائد اشباح الرائحين والغادين من رجال ونساء وعمال يســـيرون فى اختلاط ، وزئاط فى هذا الجو المعتم البليل ، وقد زاد البرد فى وزن ملابسهم كما زاد فى سرعة خطاهم · وكان الوقت ضحى ومع هذا أنارت المصابيح فى سماء المحطة الفسيحة · وجاءت فتيات حسناوات فى ملابس واحدة تشق طريقها بين الناس ، وتجر أمامها عربات خفيفة عليها الفناجين والفطائر وقد تصاعد بخار الشاى من أباريقه فسطعت نفحاته فى العين بأحسن مما تسطع فى الأنوف · وصـــفر الصافر فتحرك القطار فمشى دبيبا ، ثم خبيبا ، ثم انطلق مسرعا الى العراء الواسع فلم يبلغه الا بعد حين طويل · فقلت : الى اللقاء بالندن ، لقاء غريب ما سلم حتى ودع · غريب أشعث فى نفســـه

الاجلال والاكبار لا الحب والهيام ، فحب المدن غير حب العذارى ، لا تقتل فيه النظرة العابرة الاولى » ٠

« ومضت بنا فى القطار الساعة تلو الساعة ونحن نتجه شمالا الى الريف ٠ وأخذت أبحث عن هذا الريف فيما انكشف من الأفق فلم أجد شجرة قائمة أو عود نبت يهتز ٠ ووجدت الطبيعة قد تعرت من كل شىء ، والأرض قد نزلت عليها عناصر الاجواء القاسية كما ينزل الجرد فمسحتها مسحا من كل أخضر ، فتراءت واحدة اللون سوداء تتقسمها أسيجة كثيرة متلاقية كرقعة الشطرنج ، تقوم عليها لتحرس غير محروس وتخفر شيئا غير موجود ٠ فكانت كأرض عاد وثمود ٠ وانتصف النهار واكتهل ولم تظهر للشمس شعاعة ٠ وخيم الظلام عصرا فحسبت بالساعة خللا ٠ فقلت فى نفسى هذا بلد القحط والبرد والظلام لا يعيش فيه وخوم كسلان » ٠

« فهذا ما تعلمته فى هذا البلد الكبير ٠ بل هو أجل ما تعلمته : العمل وقدسيته العمل الكامل الشامل الذى يتجه اليه المرء بقلبه ثمنا لقوته وأداء لواجب حياته ٠ العمل الذى يستغرق أكثر ساعات النهار ٠ العمل الذى لا يأذن فى العام الا باجازة تتراوح بين الأسبوعين والأربعة ٠ العمل الذى يشترك فيه من السكان الجنسان فيصبح به انتاج الأمة انتاجين ، وثروتها ثروتين ٠ العمل الذى لا يطلب الكفاف ، بل ما وراء الكفاف ليرتفع بالعيش عن مستوى البهائم ٠ العمل الذى أساسه « ذل من قنع وعز من طمع » ٠ العمل الذى يقوم به صاحبه دفاعا عن أسرته فى تنافس الأسر ، ودفاعا عن أمته فى تنافس الأمم ٠ العمل الذى هو مطمح الرجولة والأنوثة على السواء ، مطمع الانسان الذى يستكمل به كونه ويؤدى به رسالته فى هذا الوجود على ابتهام الغاية واحتجاب الغيب » ٠

« والعمل الكثير المتلاحق على هذه الصورة العامة لابد له من النظام ، فتعلمنا الى جانب العمل النظام ٠٠ تعلمناه فى المنزل ،

متابعة لأهل المنزل فى قيامهم وقعودهم وطعامهم وخروجهم ودخولهم وتعلمناه فى الجامعة ، مسايرة لأهل الجامعة فى الدرس والرياضة والحفلات • وفى الملاهى تعلمنا الوقوف على الابواب فى الطوابير ووقف فيها معنا الكبير والصغير • وتعلمنا وقوفها عند أعتاب الترامات ومواقف السيارات ونوافذ التذاكر فى المحطات • والبيئة المنتظمة ينظم من يدخل فيها غصباً خشية أن تفوته القافلة ، ثم يصبح الغصب عادة سهلة • ومع النظام تعلمنا قراءة الساعات . نقرأ عقاربها الكبرى بمثل ما نقرأ عقاربها الصغرى ، ونعنى بالدقائق عنايتنا بالساعات ، وذلك فى تقدير الزمن وانفاقه وفى تحديد المواعيد والبر بها » •

والعمل يقتضى حسن المعاملة ، فتعلمنا حسن المعاملة وآداب اللياقة • فالاحسان يشكر ولو جاء من خادم يؤجر • والاساءة يعتذر عنها ولو الى أفاق فقير • ولكل كتاب جواب ••• وساعد على حسن المعاملة تقارب ما بين الافهام فى بلد ديمقراطى عمه التعليم • والتعليم يعرف المرء قدر نفسه وقدر غيره ، فهو لا يبالغ فى تناسيها • والتعليم اذا عم واستمر الأحقاب ساوى بين الطبقات من الوجهات الاقتصادية تساويا كبيرا • وعلى هذا التساوى ، أو ان شئت التقارب فى الماديات ، والتقارب فى العقليات ، تقوم الديمقراطيات ، الا فهى دكتاتوريات متشعبة الرءوس تتزيا بزى الديمقراطية لأنه زى جميل خداع يسهل على الطغاة قيادة الأمور • ففى هذا البلد الذى نصف صغرت الطبقة الفقيرة الجاهلة التى ينعتونها بالدنيا صغرا نسبيا كبيرا وصغرت الطبقة الغنية صغرا نسبيا كثيرا • وتضخمت الطبقات المتوسطة تضخما عظيما كما تتضخم نواة الخلية فتملؤها • فعلى هذه النواة الضخمة ، على هذه القاعدة العريضة قام صرح الحكم وصرح النظام وصرح الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فلم يكن من المستطاع الا

أن يكون صرحا شعبيا دستوريا • وكان على ضخامته فيه اتزان لاتســـاع قاعدته ، فلم يخشوا عليه العوادى • وامنوا عليه فلم يعنوا بوصفه وتحديده بألوف المواد ومئات القوانين ، حتى القوانين التى تصفه اختاروا لها الثوب الفضفاض الذى يتسع لآراء كثيرة مما تحتمله الرءوس العاقلة فى الظـــروف المتغيرة الكثيرة • وقد يجدون فى هذا الصرح الضخم على الزمن تصدعا فلا يرتاعون له ، وانما يجمعون له المعاول والفئوس ليصلحوه فى تؤده على أسلوب الزمان الجديد بما لا يتنافر كثيرا مع الاسلوب العام للبناء القديم • ويسهل عليهم اصلاحه لأنهم هم بانوه » •

يدرك أحمد زكى أن صياغة المقال لابد أن تعتمد على التنويع ، خصوصا اذا كان فى المقال بعض الوحدات المتكررة ، لهذا فهو لا يمضى على نمط واحد فى مقاله ، وانما يتنقل بين الوسائل المختلفة التى تعينه على بلوغ غايته •

وأحمد زكى يدرك هذا الخلق من أول ما بدأ الـــكتابة ، كما ادركت الآن ياسيدى القارىء من تلك الفقرات الطويلة ، ولكنه يزداد قدرة على تحقيق هذا التنويع مع الزمن •

وهو فى هذه التنويعات لا يخطىء اختيار القالب للفكرة ، بحيث يظهر براعة أخـــرى فى التوفيق بين الفكرة وقالبها ، أو الفقــرة وقائلها •

وقد كان فى نية المؤلف ــ بل فى مسوداته ــ أن يعرض للقارىء أمثلة من هذه القدرة لأحمد زكى ثم وجد ان ترك الأمور كما هى والاشارة اليها فى المقالات بعد هذا التنبيه خير وأولى ، اختصـــارا وتقديرا •

وقد يؤخذ على أحمد زكى افراطه فى الاطنـــاب فى كثير من الاحيان، وبخاصة فى تفسيره للموضوعات العلمية ، والواقع أن مرجع هذا الى طبيعة المعلم فى الرجل ، تلك الطبيعة التى تحمل صاحبها على أن يبذل الجهد والجهد حتى يصل الى افهام أدنى المتلقين عنه ، فى الوقت الذى يبين فيه الآخرون عن ضيقهم لهذا الوقت الضائع ٠

وعبارة أحمد زكى واضحة ، فان لم تكن واضـــحة للوهلة الأولى ، فهى واضحة من اللحظة الثانية ، وكل عباراته لا تحتاج لحظة ثالثة كى تتضح عندها ٠

أما لماذا كانت بعض هذه العبارات أوضح فى الثانية من دون الأولى ، فذلك راجع الى طبيعة أخرى فى أســـلوبه فى اســتعماله للالفاظ ، فقد يكون اللفظ غريبا أتى به أحمد زكى ليطبعه على ألسنة الناس ، وقد يكون اللفظ مما يعبر عن معنى أو ذات غريب على أفهام الناس يقــــرءونه عند أحمد زكى للمرة الاولى فى قراءاتهم ، فتكون الغرابة عندئذ غرابة العلم الجديد وهكذا ، الا اننا مع ذلك كله لا نستطيع ان ننكر نسبة لا يستهان بها من غرابة الأسلوب أو قل اختلاف الأســـلوب قد نتعرض لها بشىء من التفصيل فى موضع آخـــــــر ٠

وأحمد زكى يدقق فى اختيار العناوين التى يضعها لمقالاته ، وهو لا يلزم نفسه بعدد للكلمات لا يتعداه العنوان ، وان كان مع ذلك يدرك أهمية الاختصار فى العنوان لهذا تجده فى الفهرس (سواء فهرس العدد أو فهرس العام) يختصر العنوان الطويل ٠

والاثارة فى عنوان أحمد زكى اثارة صادقة لأنها تحمل الشىء المثير من الموجود فعلا ، على عكس الاثارة الكاذبة التى تشد المرء الى شىء « حتى اذا جاءه لم يجده شيئا » ٠

ومع تطور الزمن وأخذه بتكنيك العصر أخذ أحمد زكى نفسه يضع العناوين الفرعية فى مقالاته فى مجلة العربى ، وهذه أيضـــا كانت خير تعبير عن الفكرة التى عنونت لها ٠

وأحمد زكى من قمم التصوير فى أدبنا العربى الحديث ، اذا تناول الحواس والمشاعر والأمور الدقيقة والماديات على ماديتها ، أما تصويره للمرأة فى كتاباته فليس فيه هذا العمق الذى تجده عند آخرين من رواد القصص والمسرحيات ، انما هو تصوير نابع من الحواس الخـــارجية ان جاز هذا التعبير انظر الى عباراته حين يصف النســـاء الذين رآهم فيقول : « رأيت الحواجب مزججة ، ورموش العيون مسودة، والخدود موردة، والشفاه معنبة، والصدور تزينها العقود وتزينها النهود ، وعلى المعاصم أسوار ، وعلى الأصابع جواهر ٠٠ دمية حقا من بعد دمية من بعد أخرى تطلب اللاعب فمن يلعب بها » ؟ أسلوب لا يزيد عن وصـــف فتى يصـــف النســاء لأخته الصغرى بعد حفل سهرة ٠

ولكن انظر معى الى هذه الصور التجسيدية الرائعة ، وتكاملها حين يصف الشباب الذى يتمناه للشباب فى قطعة « يعجبنى الشباب » فيقول :

« يعجبنى الشباب اذا هو استقام واستطال ، ثم انفتل ، عضل مشدوه يستطيع أن يرتخى ، وذراع ممدودة تستطيع أن تنطوى ، ورأس مرفوع ، وصدر مفتوح يستقبل الريح باردة ، ويستقبلها لا فحة ، وظهر عريض يحمل الاثقال ابتســـاما وقدم ككرة المطاط لا تمس الأرض حتى ترد عنها ، ومفاصل كمفاصل الفولاذ أغرقت فى الزيت ، جسم صحيح سليم كالدينار ، اذا ضربته على الرخام رن ، له متانة الحديد ، وليس به مسه » ٠

وسوف نستعرض مع القارىء فى باب خاص ـ سبق هذا ـ التصوير البيانى فى قصص الدكتور أحمد زكى حيث تركز على عدد من القصص التى كتبها أحمد زكى ووجدنا فيها الناحية التصويرية غالبة عليها ، وليس هذا الباب ببعيد ، ولكننا لم نر له أو لما فيه أن يقطع تواصل أفكار القارىء هنا حين يقرأ خصائص أدب أحمد زكى ·

ويستشهد الدكتور أحمد زكى بالشعر كثيرا ، ولكنه لا يأتى به الا فى موضعه الأمثل حتى انك تجد فى نفسك اعجابا بهذه القدرة على التوفيق بين المعنى والبيت الذى استشهد به له يفوق اعجابك بالبيت أو بالمعنى ، وليس هذا الا صورة من صور **التواؤم العقلى الطبيعى** الذى كان فى عقل أديبنا ·

وأقول التواؤم العقلى الطبيعى لأنه لم يات نتيجة جهد بين بذله الدكتور زكى من أجله فى أى وقت من أوقات حياته ، وانما جاء نتيجة كل الجهد الذى بذله أحمد زكى طيلة حياته فى تكوين شخصيته وعقليته والاتساع بمداركها حتى توافقت مع الكون الذى خلقه الله متوافقا بطبيعة الحال ·

وكان الدكتور زكى قد صرح فى أحد أحاديثه ان أكثر استشهاداته الشعرية من قول المتنبى ، ولكننا بعد النظر فى كتابات عالمنا ، وجدنا أن قوله السابق يحتاج الى النظر ·

ولكن هذا لا يمنعنا من النظر فى طبيعة هذا التوافق الذى وجده أحمد زكى من نفسه مع شعر المتنبى ، والاجابة عن هذا السؤال قد تحتاج الليالى الطوال فأحمد زكى رجل متواضع ، وما هكذا كان المتنبى ، وأحمد زكى نال ما تمنى من غير ارهاق لنفسيته ، على حين أن المتنبى لم ينل ما تمنى حتى بعد أن أرهق نفسه ، وبعدها ارهقت نفسيته حتى كان منه ما يعرفه قراء العربية أجمعون ، وأحمد

زكى رجل مدقق ، والمتنبى رجل كان يطلق القول على عواهنه وعلى قوانينه ـ ان جاز هذا التعبير ·· وهكذا ، ولو أننا ذهبنا نبحث الأمر من هذه الوجهة وهذا المنطق ما أدركنا من الصواب شيئا ، انما يتأتى لنا فهم هذه المسألة على الوجه الأكمل اذا اتخذنا لها مدخلا آخر فنجيب عن سؤال محدد « بأى شعر المتنبى أعجب أحمد زكى واستشهد ؟ شعر الحكم ! ولم يكن فى العربية على ما نظن أنسب للمعانى التى استشهد فيها أحمد زكى بالمتنبى من المتنبى ·

على أن هذا لا يعنى أن أحمد زكى قد استشهد بالمتنبى استشهاد المضطر ، فقد كان الرجل يحب المتنبى لاشك فى ذلك ، ولا غرابة فى هذا أيضا ، لأنه من البديهى أن الحب والاعجاب بالشاعر لا يستلزم توافق الطباع ·· بل قد يكون العكس هو الأقرب الى الوقوع ·

لاشك كان أحمد زكى يميل الى الحكمة ، وكان رحمه الله يعرف فى نفسه هذا ، وقد وجدنا فى تحليل نصوصه كثيرا من الشواهد ، لعل أبرزها ما كان فى مقدمة مقـــاله « قلوب كبيرة » حين يقول : « فى العصـــر الاغريقى رأى الناس حكيما من حكمائهم يمشى فى الطريق وهو يحمل مصباحا ، والمصـــباح يضىء ، فسألوه ماذا يصنع والشمس طالعة ؟ فقال : أبحث عن رجل ، وأنا بدورى قضيت أشـــهرا أبحث عن رجـــل ، عن رجـــل ذى قلب كبير وقد وجد أحمد زكى فى النهاية رجالا لا رجل ، ولهذا فانه ليس بمستغرب ما كان أحمد زكى يفعل بأسلوبه فى أحايين كثيرة حتى يصوغ منه حكما باقية على الزمان ·

ولم تكن حكم أحمد زكى ينقصها المعنى السامى أو النبيل أو الجميل أو الدقيق أو غيره من ضروب المعانى التى تستأهل الحكم ، ولكن الدكتور زكى كان يريد لهذه المعانى التى عرضها أن تبقى فى

عبارات مصاغة على النحو الذى تصاغ فيه الحكم ، لهذا كان أحمد زكى حريصا فى أحايين كثيرة على هذه الصياغة ٠

ووسائل أحمد زكى فى صياغة عبارات الخلود متعددة ، منها أساليب القصر ، والحق أنى أحس أن أساليب القصر هذه كانت كثيرا ما تتعب ضمير أحمد زكى ، وهو العالم الذى يعلم أن لا وجود للحقائق المطلقة ، وكان ضميره كثيرا ما يحرك قلمه ليضع جملة اعتراضية عقب هذه الأساليب بل أحيانا فى وسطها ، **فيذهب بالصياغة التقليدية للحكمة ، ولكن تبقى الحكمة أحكم مما كانت ٠**

وأحمد زكى يحب الشعر وهو يقول فى ذلك « ولم أجد كالشعر مخرجا من ضيق ، وكاسرا لقيد ، ومحطما للأسوار ، ولم أر مثله جناحا يحملك بعيدا عن بيئة لا تلذ ، ووجود لا يحمد ، والحقيقة المرة أو ما يتراءى أنه الحقيقة المرة ، تطيب فيه وتحلو ، ذلك ان عبارة الخيال والخداع والكذاب ، وبها تجلس على عرش كسرى ، وتتزوج ابنة فرعون ويكون لك مال قارون ، أو هو يعزف بك عن هذا ويخيل لك فترى مائدة فى رغيف ، وموسيقى الدنيا فى صوت وترى النعيم أطيب النعيم فى فقر ٠

وأحمد ز كى فى أسلوبه يبين عن تأثر واضح باللغات التى اجادها ، وتكراره للضمائر يعطيك مؤشرا قويا على التأثر بالأدب الانجليزى ، على حين تأخذ الانطباع بتأثره بالالمانية من تكرار حروف الجر مع كل مجرور ، ومغايرتها ، وتكرا رالمفاعيل والترتيب بينها وهذا ما يدركه المؤلف على سبيل الاجمال ، وان كان يظن نفسه مشوقا الى ابراز دراسة موسعة فى هذا الموضوع بالذات فيما بعد ٠

وكان أحمد زكى يحب شو ، ويعجب به ، وكان سعيدا أن

عاصره فى انجلترا ، وفى مقدمة ترجمته لمسرحية جان دارك قال أحمد زكى عن شو « حضرته خطيبا وسمعته مجادلا ، وقضيت عقدا من الدهر فى بلده وبين قومه فلم أجد بينهم اسما فى عالم الأدب والسياسة ترهف له الآذان كاسمه ، ولا جدلا يهرع الناس لحضوره كجدله ، ولا لسانا أقنع فى النقاش وألذع فى الجواب كلسانه ، ولا فكاهة تنم عن صاحبها كفكاهته ... » .

أما غلبة روح العلم على أسلوب الدكتور زكى فأمر جلى ، وروح العلم لا تغلب على روح أدب الدكتور زكى فحسب ، ولكنها تتجلى فى بناء المقال ، وسنفرد فقرات لهذه الناحية ، وتتجلى فى التدقيق والأخذ بالمحترزات ، وتتجلى فى التخريج استدلاليا كان أو استنباطيا ، وتتجلى قبل ذلك فى بدء الدكتور أحمد زكى بالتعريفات حتى فى ثنايا الموضوعات ، وعلى الرغم من أن الأمر فى ظاهره قد لا يحتاجه ، حتى « الموسى » يتعرض الدكتور زكى لتعريفه فى قطعة « خواطر .. عند الحلاق » فيقول : « وهل تدرى ما الموسى ؟ انه ليس موسى الكليم ،وانه ليس بسكين وليس بساطور ، ولا هو بسيف ، انه شىء ذو شفرة تطاطىء لها اقررا بالسبق شفرات السكاكين والسواطير والسيوف . جرة واحدة من يد الحلاق لا يتحرك لخفتها ونعومتها ونظافتها حتى الهواء ، يحركها فى هذه الرقبة التى أمسك بها بشماله ، وأعمل فيها الموسى بيمينه . الخ) .

أما المقارنات التى تأتى على قلم الدكتور زكى فتذكرنا فى سرعة بمقارنات كتب العلوم سواء كانت فى جداول أو فى سطور ، وما دمنا فى ذكر الموس، فلنذكر قول أحمد زكى يصف الموسى لو أصاب رأس الانسان فأدماها بدلا من أن يؤدى وظيفته المعهودة منه عند الحلاق، هنا يفرق أحمد زكى بين الحالين بوصف الطريق الذى ساره الموسى فى عبارة أقرب الى علم الطب الشرعى حين يقول « هذا السلاح الذى

خرج مرة عن عادته ، فجرى فى الجلد قائما غائرا وقد عود الناس أن يجرى عليه زاحفا » ٠

فى أدب الدكتور زكى وقصصه بعض الظواهر التى تنتظمها ظاهرة أكبريمكن لنا أن نسميها بالظاهرة الطبية ٠ أما تلك الظواهر الجزئية فثلاثة : هى الصور واللوحات الطبية التى يتضمنها أدب الدكتور زكى على نحو رائع سواء فى المقالات أو القصص ، وسواء فى التشبيهات أو التجريدات وقد أشرنا الى كثير من هذه الصور واللوحات فى موضعها ٠

وثانية هذه الظواهر الجزئية : اهتمامه بأمر الاطباء وضرورة العناية بتعليمهم وتدريبهم ، وتصويره لأحوالهم ، وروايته للقصص على ألسنتهم ، وتكراره الأخذ من مجالهم ٠

وثالثة هذه الظواهر : تلك الآداب من قصص ومقالات تتعلق بالطب وترتبط به وبالأطباء على النحو الذى سنسرده للقارىء بعد قليل ٠

وقبل أن نحقق المسألة التقليدية هل كان يتمنى أن يكون طبيبا أم لا ؟ يجدر بنا أن نشير الى الجانب المضىء فى شخصية العالم الفحل الذى كان يحترم الطب ويؤمن بفوائده بل يحرص على أن يتناول الحديث كشوفه واختراعاته بقلمه وبقلمه هو فى مجلة الهلال لعهد قصير ثم فى مجلة العربى لزمن ممتد حتى اعتلت صحته عن القيام بهذا الواجب على النحو الرائع الذى داوم عليه ٠

أكثر من هذا كان الدكتور زكى يتولى صياغة الاجابة عن أسئلة القراء واستشاراتهم فى المجال الطبى والعلاجى والأمراض ٠

وانظر معى الى أحمد زكى فى قصة « لابد لها من أنف جديد » حين يروى فيقول : « وحذرها الطبيب من أن الأنف المطلوب لا يخرج دائما كما يود صاحبه ، ويود الجراح ، ولكنه طمأنها مع هذا بأنه عدل المئات من الأنوف ولم يفلت من يده غير أنف واحد ، ذلك لأن تركيب عظامه كان بعد القطع غير ما قدر » وهنا يأبى عطف أحمد زكى على الطب وتقدمه الا أن يقلب الآية فيستطرد قائلا على لسان الجراح : « ومع هذا فهذا الأنف الواحد خرج ، لا على الصورة التى اعتزمها ، ولكن على صورة خير مما كان اعتزم » .

واذن لا محل هنا الآن لأن نبحث فى اجابة السؤال الذى أجلنا الاجابة عليه الى حين اكتشفنا قبل أن ينتهى حينه أن الرجل كان نبيلا فى مواقفه من الطب والاطباء .

ويعـــبر الدكتور أحمد زكى عن أن الطبيب كثير الاتصـــال بالناس ، بل هو أمسهم بحياتهم وهو فى مقدمة قصة « خطاب ياليته وصل » يقول : « خطر لى أن اسائل نفسى : أى الرجال اكثر مساسا بالناس ، وأيهم أدور فى عمل يومه على وجوه الخلق وذكرت المعلم ، وذكرت المحامى وصاحب القضاء ، وذكرت المهندس ورب الأعمال فى بؤرة المدينة ، وهى تعج بالحياة ، فلم أجد من بين هؤلاء جميعا رجـــلا كالطبيب الناجح تمر بين يديه طائفة من أرباب الحاجات والعاهات وتستمهل عند سمعه وبصره ، وتأخذ من حديثه ويأخذ من حديثها ما يكفى لاثبات صورهم فى صحيفة ذكراه » .

واذن فهل لنا ان نســـرد الآن للقارىء بعض ملامح الظاهرة الثالثة من الظواهر الطبيـــة فى ادب الدكتور زكى متخـــذين من مجموعة « بين المسموع والمقروء » عينة للبحث :

١ ــ فقصة « دينار » يرويها طبيب شيخ .

٢ ـ وقصة « قطعة من الفن رائعة » تحدث لطبيب ، وقطعة الفن هدية تتعقبه ٠

٣ ـ وقصة « خشيته الأولى » تدور أحداثها وبطلها طبيب شاب سأله أحمد زكى : « ومع هذا الاعتداد بالنفس ، ألا تأتيك الخشية أبدا » ، فقال : أن الطبيب الذى لا يخشى أبدا ، ولا يخاف أبدا ، ولا تأتيه الريبة أحيانا فيما يصنع ، فالحذر فيما يصنع ، ليس من الطب فى شىء ٠٠ فقال أحمد زكى : حدثنى عن بعض ما جاءتك الخشية فيه ، فمضى الطبيب يحكى له القصة التى عرضناها ونقدناها فى « قصص المصادفات » ٠

٤ ـ وقصة « شعاع فى ظلام » ترينا كيف يكون علاج المعوقين على نحو انسانى رائع ٠٠ وصحيح أن المعالجة لم تكن طبية ، ولكن الجانب الانسانى فى العلاج يقرب القصة من ظاهرتنا ٠

٥ ـ وقصته « خطاب ياليته وصل » يرويها طبيب عن حادثة وقعت تحت سمعه وبصره ، ولفتاة أجرى لها عملية وأشرف على علاجها ٠

٦ ـ « القصاصة العمياء » لعماها قصة ، فقد كانت لها عين واحدة تبصر بها ، فكانت حريصة عليها ، ثم احمرت فذهبت الى الطبيب وكان ضعيف البصر ، فحدق فى عينيها ، ثم أخذ يتحسس بيده على الرف يطلب زجاجة دواء ، وهو يقول لها : لابد أن تحرصى كل حرص على هذه العين ، وأنت مهما صنعت فلن تبلغى بالحرص عليها الغاية ، وفتح الزجاجة ، وأخذ منها بالقطارة بعض ما فيها ، وأمال رأسها الى الخلف وفتح العين وقطر فيها ، فكأنما صب فيها جمرات ٠٠ لقد تحسس يطلب الزجاجة التى عليها اسم « ارجيرول » فوقع على الزجاجة التى عليها اسم « ارجنت » وكان الأخير محلولا

مركزا من أزوتات الفضة حارقا · حرق عينها فتحرقت به ، وظلت تتحرق به عشـــرة أعوام انتهت بانطفاء نورها ، وزال ألم العين بزوال نورها ·

٧ ـ وقصة « تضـــحك والاحزان ملء جلدها » تدور بعض فصولها عند الأطباء الذين يكشفون على بطلة القصـــة ، فأولهما يعالجها فى المرة الأولى من السرطان ، ثم هو فى المرة الثانية يخفى عنها النبأ لأنه عرف أنها على وشك الموت مما بها منه فلم يرد أن يسود أيامها الباقية وأيام زوجها معها ·· أما الجراح الثانى الذى تذهب اليه بعد أن شكت فيما طمأنها عليه الأول ، فيجم ساعة لما وجده بها ، ولكنه ينكر ، ولاتزال به حتى يخبرها الأمر ·

٨ ـ وقصة « من الناس والى الناس » هى قصة صيدلى فى بلد صغير ، كان له شأن كبير ·

٩ ـ وقصة « تسعة تصيب ، وعاشرة تخيب » هى قصة طبيب شاب ، ابتلى فى زوجه ، فتوفيت وهو يجرى لها عملية جراحية ·

١٠ ـ وبطلة قصة « لابد لها من أنف جديد » فتاة عانت من كبر أنفها ،ثم درست التمريض ، وعملت ممرضة ، ثم طلبت يدها ، فذهبت وأجرت عملية تجميل لأنفها على يد جـــراح من جـراحى التجميل ·

١١ ـ وقصة « طمانينة » تحكى عن نوع من المرضـــى متعب للأطباء ، اولئك الذين لا هم لهم الا ان يســـتشيروا أكبر عدد من الأطباء فى سبيل زيادة الاطمئنان على أنهم خلو من الأمراض ، وهم فى ذلك يرهقون الطبيب ويستغلون وقته ، ظانين ان هذا حق مكتسب لهم بأموالهم ·

١٢ ـ أما « نزل الستار » فقصة مريض أصابه العمى ، ثم عاد اليه البصر بعملية جراحية اصابتها نكسات بعدها ، وتزيد معركة الطب والاطباءاقرارا · أنها معجزة من معجزات الجراحة يجب الا تخيب ، لا من أجل الراحة فحسب ولكن من أجل الطب والاطباء ·

١٣ ـ « انه قضاء الله » تدور الخاتمة فى المستشفى حيث يكتشف الطبيب ان المريضة التى حملوها اليه للاسعاف مفارقة الحياة لاشك ، فينبىء النائب بذلك ليأخذ أقوالها قبل ذهاب الروح منها أما ماذا كانت هذه الاقوال فاقرأ عنها فى الدراما ·

من القصص السياسى

تعرضنا فى الجزء الثانى من هذا الكتاب للناحية السياسية فى فكر الدكتور زكى وقد افضنا فيها القول على نحو من آراء الرجل ومواقفه وتعليقاته على المدى الطويل الذى كتب فيـــه فى أمور السياسية ٠

وليس من شأن هذا الباب أن يتناول هذه الأفكار ، قد يكون من شأنه أن يصف تناول أحمد زكى لهذه الأمور فيقول انه كان تناولا موضوعيا ذكيا يغلب الفكرة على الأسلوب ، والجوهر على القالب ، وهو قول وان كان من باب الســـهل الممتنع الا أنه فعلا لا يحتاج الى مزيد من التوضيح أو التعليق ، فقد كان أحمد زكى وقلمه هكذا ٠

انما يعنينا فى هذا الباب بصفة أساسية أن نعرض بشىء من التلخيص والتعليق لاثنتين من قصص الدكتور زكى فى مجموعة « بين المسموع والمقروء » أولاهما يهزأ فيها الدكتور زكى بديمقراطية الاجتماعات والشكليات على نحو يتبدى من تصويره لجلسة من جلسات الأمن وثانيتهما يروى فيها أحمد زكى قصة الرأى الحـــر كيف يجر على صاحبه المتاعب فى حياته ، وعلى أنصاره بعـــده مماته ، وكيف تنتقض الارادات السياسية وكيف تنعقد ٠

فأما الجلسة الأولى فقد صور فيها جلسة مجلس الأمن الدولى لعام ١٩٥٧ ، وقد عطس مندوب روســـى فطلب الكلمة ، وطالب باغلاق المنور الذى فوق المدخل الشرقى للمجلس لأنه يدخل منـــه تيار هواء بارد يناله فى ظهره ٠

ويمضى الدكتور زكى بأسلوب ساخر يعرض طبيعة المناقشات البيزنطية التى تدور فى اجتماعات مجلس الأمن على أشياء لا علاقة لها بالمصلحة العامة ـ بل الواقع ، تلك التى لا تستمد وجودها من الحقائق السياسية ولكن من التحزبات السياسية ، انما هى اجراءات شكلية ، والتعصب قبل ذلك بين الكتلتين الشرقية والغربية واضح ظاهر للعيان فى الأمور ، وهذا رئيس المجلس يرد على المندوب الروسى فيقول : انه لا مانع الا اذا كان هناك معارض · فيرد مندوب الولايات المتحدة انه لا بد له من وقت يشاور فيه حكومته ويرجع اليها فى هذا الأمر الذى لم يتح لها وقت كاف لدراسته · واحتج على الطلب بأنه من جانب واحد ، وهذا لا يصح عنده ، ويتمادى فى هذه الناحية فيرد على مندوب روسيا احساسه ويقول : هل نقبل هذا القول لمجرد أن أحد الأعضاء قاله · انى أقول عن نفسى انى لا أحس تيارا فى ظهرى ولا فى وجهى ·

ويتكلم مندوب بريطانيا معززا الرأى الأمريكى ويطلب على عادة الانجليز تأجيل النظر فى الطلب الى يونيو أو يوليو فلعله فى هذه الأثناء يكون الجو قد تحسن ·

ويرد مندوب بولندا ، ويعلن باسم حكومته انه يحس مثلما أحس مندوب روسيا !! ويستشهد على صحة كلامهما بقصاصة من النيويورك تايمز ·

وتكلم مندوب هولندا ، وكان من رجال البنوك ، فقرر للاعضاء أن الحقوق التى تعطى على انها شخصية تناقض طبيعة عمل البنوك ، ودستور هيئة الأمم ·

ويؤكد مندوب بولندا أن الأمر ليس فرديا ، فيرد مندوب استراليا مقترحا تأليف لجنة تحقيق تباشر أعمالها فى بحر أسبوع ·

هنا يعلن مندوب روسيا انسحابه من الجلسة ، وينتظر حتى تترجم كلمته ثم يخرج ولا يلبث أن يعود ، ويقول انه أحس بتحسن الجو ، ومن أجل هذا يستردالطلب ·

ولكن المندوب الامريكى يعترض بأن الشىء الذى يدخل نطاق أعمال المجلس لا بد أن يبقى قائما حتى يتصرف المجلس فيه ، ولهذا فان محاولة الروس اخراج الموضوع من دائرة النقاش عمــل من جانب واحد ·

ويمضى المندوب البريطانى ليؤكد المعنى الأمريكى ، وتمضى المسألة فى نقاش على النحو الذى عليه فى المرة الأولى لا يحسمها الا جرس دق ليروض أعضاء المجلس على ما يصنعون اذا ما شب حريق فى المجلس وعند دق الجرس هرول الجميع الى الخروج ، وبخروجهم انفض المجلس ·

هكذا يختتم أحمد زكى حكايته الساخرة « العطسة التى هزت العالم » التى يبدى بها من العناية ما جعله يضعها فى أول كتابه « بين المسموع والمقروء » ثم يعقب دكتور زكى بعد النهاية على حكايته ـ على عادة المذكرات الرسمية ـ « طبق الأصــــل · من محضر مجلس الأمن » ·

هذه الحكاية صاغها قلم أحمد زكى ولكنها ليست من الخيال فى شىء كثير ، فهى تعبر أولا عن عقيدة أحمد زكى ، وتعبر ثانيا عن طبيعة البيزنطيات فى كثير من المجالس التى تزعم أو تعتقــــد أنها تسلك بهذا الأسلوب أسلوبا ديمقراطيا شكلا وموضوعا ·

والواقع ـ كما قدمنا فى موضوع سابق ـ أن أحمد زكى كان متبرما أشد التبرم من هذا الفهم وتلك الممارسة للديمقراطية على النحو الذى بيناه من قبل فى الباب الخاص بفكره السياسى ·

ومن ناحية أخرى كان هذا هو جوهر رأى أحمـــد زكى فى طبيعة عمل واجتماعات مجلس الأمن الدولى ٠

ولهذا جاء تعبيرنا فى نقد الحكاية ، وترتيبنا لما هدفت اليـه على النحو الذى جعل التعبير عن عقيدة أحمد زكى السيـــاسية هدفها الأول ، والتعبير عن طبيعة مناقشات مجلس الأمن ، هدفها الثانى ، وقد تبين للقارىء بما لا يقبل الشك الى أى حـــد نجح أحمد زكى فى الوصول به الى هدفه الأول ، ولعل أفضل الوسائل التى ساعدته على ذلك هى تحقيقه للهدف الثانى من دقة التصوير ، وروعة التعبير ، وسلامة الحوار واتســاقه مع ما هو معروف من مواقف هذه الدول والكتل وطبائع المناقشات السياسية على مثل هذا المستوى ٠

ولعل نجاح عالمنا فى استخدام وسيلته الى هـــدفه الأول ٠ تلك الوسيلة التى هى فى الوقت نفسه الهدف الثانى ، يظهر للكثيرين على نحو يتبين منه أن الهدف الثانى وهو وصف طبيعة المناقشات كان هدفه الأوحد ٠ ولكن الذى يدرس الفكر السياسى للرجل لاشك يوافقنا تمام الموافقة الى ما ذهبنا اليه من أن المسألة كانت تهدف فى المقام الأول الى بيان فكرة الرجل وموقفه وهو « السخرية من هذه الديمقراطيات المريضة أو المزيفة » ٠

هذه هى الفكرة وجاء بعدها التعبير قمة ، فجلاها ، بما فيه من روعة تعبيرية حتى ليكاد الناقد يظن الروعة نجاحا فى الوصف والبيان فحسب ، وفى الواقع ان هذا ليس الا وسيلة الى المعنى السياسى الكبير وأظن أن فهم هذا ليس بالصعب !

وأكرر هنا « ليس أعظم من أن تكون وسيلة المرء الى الغاية النبيلة وسيلة عظيمة » ٠

أما القصة الثانية فتجمع بين الفهم السياسى والتاريخ ، ولكن التاريخ الذى فيها ليس الا عامل الزمن « والنمو الزمنى » الذى لا بد منه للقصة ، ولكنه من التاريخ ، وهنا تكتسب القصة شيئا يخرج بها الى نطاق التاريخ حين يكون لها به نصيب من الأحداث التى دخلت التاريخ ٠

قصة « منعوه أن يدخلها دما ولحما فدخلها عظاما » تدور حول كاتب يدعى « توماس بين » وهو كاتب انجليزى حر ، نشأ فى بلاده ، ثم هاجر الى أمريكا ، وأسهم فى حركة تحريرها ، وصحب أقرانه الى النصر على أمته ، واستخدم قلمه فى الثورة ، ثم قامت الثورة الفرنسية فنشر فى نصرتها كتابا خشيت انجلترا أثره ، فخاصمت بسببه ابنها الذى ثار عليها من قبل مع الأمريكان ، وقبض عليه ، ولكنه هرب الى فرنسا الثائرة ، وولته من أمورها عظيما ، ثم جرى قلمه بالذى ساء فرنسا ، فلم يكن له مخلص الا الهرب ، ولكن الى أين ؟ الى أمريكا ولكنه كان يكتب ينتقد وشنجطن ففقد حب أمريكا ، فلما عاد اليها لم يحتفل به أحد ، ومات ودفن بالقرب من نيويورك ٠

وبعد عشر سنوات من موته سمع أحد الانجليز المعجبين به ــ وكان اسمه « كوبيت » أن الأمريكيين بدءوا يعبثون بالقبر فيرفعون أحجاره ، ويقتلعون أخشابه ، ويقطعون فروع شجره ، ويحتفظون بكل ذلك ذكرى للرجل الذى كسب غضب الأمم من بعد ما كسب عطفها وحبها ٠

هنا ثارت حمية « كوبيت » وهاله أن يجد انجليزيا حرا من بنى جلدته وأهل مذهبه يسىء الناس الى ذكراه كل هذه الاساءات ، ورأى ان كانت الحكومة الانجليزية قد أبت على الرجل العظيم

« بين » أن يدخل انجلترا دما ولحما ، فهو والله لعامل على ان يدخلها عظاما ٠

وهكذا ذهب « كوبيت » الى نيوروشيل حيث دفن « بين »وقضى فيها بعض الأيام حتى وضع خطته ، واستطاع أن يخرج بالتابوت الذى دفن فيه « بين » الى نيويورك ثم عبر المحيط الى انجلترا ، واستطاع أن يمر بجثة « بين » من جمرك ليفربول ، وأن يصل الى بيته فى قرية بالقرب من منشستر ، ثم دعا أصحابه الى حفل أقامه ، فلما انتهوا من الحفل ، قام فيهم خطيبا يخبرهم بما فعل ، ويطلب اليهم أن يساعدوه بالمال على اقامة ضريح لائق بالكاتب العظيم، ولكنهم استنكروا عليه أن يفعل هذا أو أن يشاركوه ، فقد كان اسم « بين » يومها فى انجلترا اسما كريها يتصل بمعنى الخيانة لوطنه، وهو عندهم متطرف فى التحرر لم يرضه حتى الأحرار ، وفشلت كل محاولات « كوبيت » فى اقناع الرجل الانجليزى برأيه ، وأغراه الناس بدفن العظام فأبى ، وطلب اليه الأمريكان أن يعود بالعظام الى أمريكا وبقيت الجثة فى حجرة نومه الى أن صار هو جثة ثانية ، وصارت الجثة الى ابنه الأكبر فنقلها الى مخزن من الخشب فى ظاهر الدار اذ لم يكن لصحابها ما أكن والده ٠

وفى عام ١٨٣٦ أفلس هذا الولد الأكبر ، وبيع متاعه بالمزاد، وزايد على الجثة أحد الناس فنالها ، وأعطاها لعامل ليدفنهـــا ، ولكنه لم يفعل ، وبقيت فى بيت هذا العامل ثلاثة عشر عاما ، وجدت بعدها ، لغير ما سبب فى مخزن للاثاثات القديمة ، بالدار رقم ١٣ بميدان بدفورد بلندن ، ثم اختفت بعد ذلك بأشهر ، وقيل بعدها ان الجثة اشتراها طالب طب ، ولكن لم يدر أحد على التحقيق مآلها ٠

الى هنا انتهت قصة جثة الكاتب الحر ، والهدف منها واضح أشد الوضوح حتى فى اخراجها الصحفى عندما نشرها أحمد زكى،

ووضع اطارا بارزا كان كثيرا ما يضعه فى وسط مقالاته ، كتب فيه الهدف بصراحة ، فقال « من الكتاب من يكتب فيشقى بقلمـــه ، ومنهم من يطلب فسحة الأفق للناس ، فينتهى بأن تضيق به الأرض ، والناس » وسبحان الله فى أمر الحرية ·

انما يهمنا كذلك أن ننبه هنا الى أن الدكتور زكى لم يورد عبارة الاطار هذه فى متن قصته ، وكأنما أرادها خلوا من الموعظة المباشرة ، ثم انتابه الشك فى ألا يفهم البعض المغزى ، أو كأنه أراد أن يعبر عن المغزى فى عبارات حكيمة محكمة (وهذا هو الأرجح) فوضع هذه العبارة فى هذا الاطار ، مع انها ليست من المتن على غير عادته التى جرت بأن تكون عبارة الاطار من ضمن المقـــال أو القصة ·

ولكن ما هو مصدر هذا الشك الذى قد يكون ارتاب أحمد زكى من أن يحملوا القصة على مغزى آخر ، قد يكون مرجعه الى أن عنوانها « منعوه أن يدخلها دما ولحما ، فدخلها عظاما » يعبر فى سرعة عن المغزى الظاهرى أو عن وجه الغرابة أو الحكاية فى القصة · انظر الى عبارات أحمد زكى فى تصـــوير حيرة رجال الجمارك فى ميناء ليفربول حين يقول : « وبلغت الجثة ليفربول فىنوفمبر عام ١٩١٨ ، وما عرف رجال الجمـــرك بالذى وقع فى أيديهم ، حتى حاروا فى أمرهم ، ان « بين » قد حرمت الأوامر الصادرة منذ سنين دخوله انجلترا حيا ، فهل هى لا تزال تحرم دخوله اياها ميتا ؟ » ·

« واغرى كوبيت رجال الجمرك ، فاقتنعـــوا بأن الميت غير الحى ، وأن اللسان الذى خشوه قد تآكل ، واليد التى خافوها قد تفتت ، وأن القلم الذى هابوه قد تهشم » ·

وهذا هو المعنى الذى قصد اليه عنوان القصة ٠

بقى أن نشير الآن الى أن أحمد زكى لم يسرد القصة كمـــا قصصناها هنا قص موضوع على ترتيب تاريخى ، وعرض جاف ، ولكنه صاغها ، بقدرته الأدبية ، على نحو الترتيب القصصى البديع المشوق بدءا بوصف قبر على قارعة الطريق ٠٠ مر عليه فلاح فى ليلة من ليالى اكتوبر الباردة عام ١٨١٩ ، فرأى أضواء صفراء تخرج منها ، وسمع صوتا كصـــوت الفئوس ، تضـــرب فى أرض جامدة ذات حصى ، « ومشى خفيفا على أنامله ، فزاد من المقبرة اقترابا ، انها عربة عند الباب يجرها حصانان ، وقفا ينفخان هواء الليل البليل نفخا ، ويضربان بالاعراف ، ودفعـه الشوق الى أن يعرف فوق ما عرف ، فخطا نحو الموضع خطوات خفيفة جريئة أخرى ، ونظر فهاله ما رأى انهما رجلان قد حفرا القبر ٠٠ الخ » وجرى الى العمدة فأخبره وجرى العمدة يحاول أن يلحق بما خرج من قريته ، ولكن هيهات فان عظام « بين » كانت فى عرض البحر الى حيث لم تسترح ٠

ادب المصـــادفات

ليس مما يعيب أحمد زكى ولا أمثاله من الأدباء الكبار فى مرحلة النهضة أن تكون المصادفات من الصبغ الغالبة على اعمالهم القصصية التى يبدءون بها القصة فى الأدب العربى أو فى غيره من الآداب التى دخلت اليها القصة بعد نهضتها فى آداب أخرى ٠

انما ينبغى على الناقد ان يمحص الدرجة التى فيها الصدفة الدور فى حل العقدة أو سلسلة الأحداث أو النمو الزمنى ، ومقدار ذلك كله من الفن والادراك الفنى السليم لمقومات العمل الفنى ٠

ومثل هذا التمحيص لا يتأتى للنـــاقد أن يوصله الى قارئه الا بعد عرض القصة على النحو الذى لا يذهب بجمالها من أجـل ابراز قدرة صاحبها ، بل ان هذه القـــدرة لن تتجلى بمعزل عن الجمال الفنى الذى هو أروع صور العمل الفنى ٠

سنستعرض هنا أربع قصص لأحمد زكى لعبت المصادفة فيها دورا كبيرا حتى غلب على القصة طابعها ، أولها قصة وفاء متبادل يريد أن يكمل فيذهب بما يريد أن يكمله ، ويحث هذا على الجانبين بين الزوج والزوجة حبيبته ، وهذه قصة « تنافس الأحبـــاب » أما قصة خشيته الأولى فقصة طبيبتزوجأول من عالجمنالانتحار، وأما قصة « تسعة تصيب وعاشرة تخيب » فقصة طبيب آخر يذهب قدره فى العملية العاشرة بما أثبتته قدرته من نجاح فى التســـعة السابقة ، وأما الرابعة فقصة هدية يأبى المهدى اليه الاحتفاظ بها، وتدور تهدى من صديق الى صديق حتى تذهب السوق فيشتريها المهدى الأول ليعود بها الى الطبيبة وهو فرح ان احضر ما يكمـل الهدية زوجا من التماثيل ، وهذه هى قصة « قطعة من الفن رائعة»٠

١

أما «تنفس الأحباب» فقصة زوجين حبيبين ، وتقع أحداثهـا كلها فى ليلة العيد ، قامت الزوجة الى صندوق صغير ادخرت فيه ما استطاعت من نفقة طعام العام ، وأخذت تعد ما ادخرته لهـذا اليوم الذى كانت تحلم به رمزا للمحبة ، وعنوانا للاعجاب ، فلم تجد الا مائة وعشرين قرشا كلها قروش وأنصاف قروش ٠

وداخلها الهم ، وصعد الدمع الى عينيها ، وقامت الى المرآة تنظر الى وجهها فيه ، لقد تغير وجهها ، وانما كانت تقصـــد الى شعرها ، وحلت شعرها ، ومشطته ، فانسدل على كتفيها انسدالا، واستطال ، ورشته فلمع ثم جمعته وقصعته ، ووضعته حيث كان أول الأمر ، ونزلت مسرعة بعد تردد ، ووقفت عند دكان كتب عليـــه « مدام سمسون » عندها كل ما يصنع من شعر واستجمعت قواها، ودخلت فعرضت على مدام سمسون شعرها، وفحصته السيدة الخبيرة بالشعر ، وقالت : خمسة جنيهات ، فقالت الفتاة : اعطينيها وأسرعى، وأخذت صاحبتنا الجنيهات الخمسة ، ومضت تبحث فى واجهات المحلات عن الهدية المناسبة التى تقدمها لزوجها فى العيد السعيد٠

وما زالت فى حيرة بين هذا وذاك حتى استقر رأيها على أن تشترى له سوارا جميلا لساعة يده ، فقد كانت ساعة يد جميلة ، قيمة حقا ، ورثها عن أبيه ، ولكن حزامها وكان من جلد أسود بلى وكاد ينقطع ، ويضطر زوجها أحيانا الى النظر فى ساعته وهو فى الناس ، فيختلس اليها النظر اختلاسا « فسوار من بلاتين،ولوقشرة، لا بد واقع من نفسه أحسن موقع ، وعندها سوف يستطيع الزوج أن يبرز ساعته للملأ فى غير استحياء ٠٠ جمال فى الســـاعة العتيقة ، وجمال فى سوارها ٠

وعادت الزوجة ، الى البيت ، وأحمت مكواة شعرها ، ثم دارت على ما بقى من شعرها القليل تكويه خصلة قصيرة من بعد خصلة، وأخذت تنتظر زوجها ، ودخل فاذا عيناه تتعلقان برأس صاحبته ، وتعلقتا به طويلا ، وانتفضت الزوجة المسكينة من مكانها تريد أن تقرأ فى وجهه ما خط فيه ، فلم تقرأ شيئا واضحا ، لم يكن ما قرأته فيه غضبا ، ولا دهشة ، ولافزعا ، ولا حتى عدم رضا ، لم تقرأ فى وجهه شيئا توقعته قط فصـــــاحت به : عزيزى ، لا تنظـر الى هكذا ، لم تكن لى مندوحة من قص شعرى ، ولقد قصصته وبعته لأشترى لك هدية فقل لى كل عام وأنت بخير ، وابتسم لى ، ولنفرح معا ٠٠ قال الزوج وهو فى ريبة مما سمع : أنت قصصت شعرك، قالت الزوجة وهى فى ضيق : نعم قصصته أفكنت تحبنى من أجـل شعرى وحده ٠٠ والزوج يقول وكأنه فى غيبوبة : ـ وبعته من بعد ذلك ، قالت الزوجة : نعم بعته من أجلك ، وانى أحبك بعدد شعراته فقل لى : انى فعلت خيرا ، ولكن الشاب يخرج من ذهوله ويضـــم اليه زوجته ، ثم يخرج من جيبه شيئا ملفوفا يدفعه اليها وهو يقول: لا يا حبيبتى ليس شىء من شعر أو غير شعر ، يستطيع أن يؤثر فى حبى لك مثقال ذرة ، ولكن دونك هذه الرابطة ، وعندئذ تعلمين لأى شىء أذهلنى حديث الشعر أول وهلة ٠٠٠ وفكت الزوجةالربطة فى سرعة فما رأتها حتى اندفعت فى البكاء ، كانت صندوقا فيه تلك المجموعة الغالية من الأمشاط التى صنعت من سن الفيل النادر ، وعلى جوانبها بريق الجوهر ، تلك المجموعة التى طالما رأتها فى نوافذالمخازن واشتاقتها وتمنتها،٠٠٠ وضمت الأمشاط الىصدرها، ونظرت الى زوجها من خلال الدموع ، وقالت : «انشعرى يا عزيزى ينمو سريعا ، فلا يهمك » ٠

وتذكرت هديتها اليه ، وبســـطت سوار الساعة على كفها ، ومدت يدها اليه تقول : هذا لساعتك الجميلة يا عزيزى ٠٠ هات

ساعتك هات لأرى كيف تكون على رسغك بهذا السوار قال الزوج الشاب وهو يقهقه استغراقا ، وقد وضع يده اليسرى ، حيث اعتاد أن يحمل ساعتــه ، وراء ظهره دعينا من الهــدايا وذكرها الآن يا عزيزتى ٠ أو فاعلمى الآن ما أنت لا بد عالمته ، انى بعت الساعة لأشترى لك هذه الأمشاط !!

لابد أن نشير هنا الى أن البطل والبطلة ــ وهما كل شخصيات القصة اللهم الا اذا أضفنا مدام سمسون ــ مثلان رائعان فى التضحية ولكن يبدو أن أحمد زكى وهو نصير المرأة يأبى الا أن يجعل تضحية المرأة أعظم ، فهى تضحى بجزء منها ، بشعرها ، أحد أســـباب أنوثتها ، وجمالها ولا محل للقول بأنها ضحت بما الى عودته سبيل حين ينمو فى حين ضحى الزوج بساعته الى الأبد ، ذلك أن العواطف تقاس بالعواطف ، ولا تقاس بالماديات ٠

وفى الغالب ان القارىء أحس بأننا فى عرضنا اختصرنا الجزء الأكبر من النصف الأول من القصـــة فى حين اختصرنا من نصفها الثانى جزأه الأقل ، انما أردنا بذلك تأجيل هذا الجزء الأول الى حيث نسبقه هنا بالاشارة الى أن عالمنا الجليل لم يجعـــل الامر عواطف مطلقة تتحكم فى أصحابها ، وانما أبرز الدوافع ،والدوافع المناقضة ، أنظر اليه فى تصويره للزوجة وقد عادت بالسوار الى البيت ، وقد صارت بلا شعر ، « وعادت الزوجـــة الى البيت ، وما كادت تدخله حتى أحست أن الوعى الذى كان فارقها بعضه ، وهى خارج المنزل قد بدأ يعود ، وعادت الرزانة تحل محل الخفة، والنظر فى العواقب أخذ يشتد ، لهذا قامت توا الى مكواة شعرها، فأحمتها ، ثم دارت على ما بقى من شعرها القليل تكويه خصـــلة قصيرة من بعد خصلة ، ولما فرغت تراءى رأسهـــا كرأس الفتى تموج شعره ، وظهر الخبث فى عينه » ٠

« ونظرت الى نفسها فى المرآة فهالها ما رأت ، وهالها ما يكون من أمر زوجها اذا هو رآها ، ولكن ماذا كانت تصنع غير ذلك . والصندوق ليس به الا عشرون ومائة قرش ، والعيد ليس بينها وبينه غير يوم » .

وأخيرا هذه اللوحة الصغيرة التى تعبر عن لحظة ترقب الحبيب للحبيب « ودقت الساعة السابعة مساء ، موعد حضور زوجها من عمله ، والشاى كان جاهزا ماؤه فوق النار وجزلتا اللحم كانتا حاضرتين تنتظران النضج والتحمير ، وبغتة تسمع وقع أقدامه على درجات السلم السفلى ، رويدا يقترب وقع الأقدام، واصفر وجهها بعض اصفرار ، ولكنها عادت فامتلكت قواها،وانفتح الباب ودخل الزوج ·· يا للمسكين ، ويا لمظهره ! لم يكن عدا بعد الثانية والعشرين من عمره ، ولكن ظهر عليه أنه يحمل هم الدنيا ! انه تنافس الأحباب .

أما القصة الثانية من أدب المصادفت **«مصادفة سعيدة»** كتبها أحمد زكى من ثلث قرن أو يزيد ، ولو كتبها اليوم لقلنا انها للسينما المصرية ، فهى مع شىء من المط البسيط تصلح فيلما جميلا .

هذا طبيب شاب يسأله أحمد زكى عن الخشية فى الطبويتطرق الحديث الى خشية ذلك الطبيب الأولى ، فيروى له الطبيب أنه كان طبيبا بادئا يتدرب على العمل فى المستشفى ودق التليفون فىالرابعة صباحا ، فاذا سائق النقالة يطلب اليه أن ينزل على عجل الى حجرة الحوادث . ولم يشأ صاحبنا أن يوقظ زميله الطبيب الآخر ،وأحس بالثقة فى نفسه ، وأخذت السيارة تنهب الشوارع نهبا حتى اذا كانوا فى الطريق وخلا الطبيب الى نفسه بعد الذكريات التى مرت بخاطره سأل سائق الاسعاف عن الحادث الذى هم ذاهبان اليه ، فأخبره انها فتاة انتحرت باطلاق غاز الاستصباح فى حجرتها ،

وعقب السائق بأنه على ما يظن حب خاب ، ونزل من السيارة فحدجته الأعين ، واذا بصوت رجـــل من رجال البوليس يقـــول اتبعنى يا دكتور ٠

وبلغ الطبيب الحجرة فأمر بفتح النوافذ ، وصاح بمن فيهـا أن يخرجوا ، وَاختبر النبض فوجده سريعا مضطربا ، وتمتم بالذى رأى ، وأخرج من حقيبته حقنة كورامين ، وحقنها فى الوريد ، فتحسن نفسها ، وهبط نبضها الى مائة وأمر الشرطى أن ينزل فيأتى باسطوانة الأكسجين ٠٠ وجاء الأكسجين وأنشقها اياه حتى افاقت، وفتحت عينيها ونظر لها فكأنما نظر لأول مرة فرأى فتاة جميلة فى العشرين من عمرها ، شعر كالذهب وشفة كالعناب ، وعين فاتنة ، فقال لها أهلا ٠٠ وغمز لها بجانب عينيه مداعبا ، ثم طلب الى رجال الشرطة اعطائها أكسجينا لمدة نصف ساعة تنقل بعدها للمستشفى لتبقى زمنا تحت الرعاية ، وعاد صاحبنا الى المستشفى ، وقد نسى الى الأبد ما كان من أمر القلق والخوف الذى ساوره فى طريقه الى الحـــالة ٠

ولكن ماذا كان أمر الفتاة ؟ هكذا سأل احمد زكى قال الطبيب: كان من أمرها انى تزوجتها ٠ انها أم ولدى !!

هل أدرك القارئ الآن لماذا كنا نحرص على الاختصار فى سرد وصف الاجراءات الطبية ولكننا مع ذلك لم نصرح له بنتيجة الصـــدفة ٠

ونستطيع أن نجزم مع القارئ بأن المصادفة فى هذه القصة ليس لها علاقة بالفن القصصى من قريب أو من بعيد ، كل ما فى الأمر انها شئ طريف فى قصة طريفة وهكذا الجانب الوحيد المضئ الباقى فى السينما المصرية !

ولهذا فاننا على الرغم من وضع هذه القصة فى أدب المصادفات الا اننا سنتناول فيها جوانب أخرى أجدر بالتناول من حيث بذل فيها أحمد زكى من قلمه وفكره فى اجادة تستحق لفت النظر اليها للتعلم منهـــا ٠

انظر معى الى هذه اللوحة التى يصـــور لنا فيها أحمد زكى نفسية الطبيب حين كانت السيارة التى تقله ف الطريق لاسعـــاف المريضة ، وهى لوحة تعبر لنا عن قدرة ادراك الأحاسيس النفسية الدقيقة ، وهى أولى قدرات الأديب التصويرى على ما أظن ٠

« وأخذت السيارة تنهب الشوارع نهبا الى حيث ينتظر منى الاسعاف ، فأحسست أنى بعد بضع سنوات قضيتها فى التلمـــذة قد صرت فى تلك الساعة طبيبا كاملا ، فأنا وحدى ولا طبيب معى، يشرف على ويساعد وينفذ ، ويصحح الأخطاء ، فالصـــواب الآن صوابى والخطأ خطئى » ٠

« كانوا فى مدرسة الطب يراقبوننا مراقبة الأم أطفالها ، حتى لا نجرى سريعا فنقع كما تقع الاطفال ، فكان احساسنا واحـــدا لا يختلف ، اذا ربطنا اصبعا جريحا أو فككنا خيطـــا ، فمن فوق أكتافنا كان يطل علينا دائما طبيب له سن وله حكمة ، يقول : نعم هكذا ٠ أو لا : ليس هكذا » ٠

« ان الذى يعتمد دائما على عكازه ، يقلقه أكبر القلق أن يمد اليها يده ذات يوم فلا يجدها » ٠

« وقد أقلقنى خروجى الى هذا الحـــدث الأول ، وخروجى بلا زميل ، اكبر القلق ولكن ما أسرع ما لبث الثقة الهاربة عندما ناديتها من أعماق نفسى ، وألهانى عما كان يعاودنى من خـــوف

كسرنا كل قوانين المرور المعروفة فى الطرقات ، فالسيارة قد أطلقنا لسرعتها العنان ، والضوء الأحمر الذى يسد الطريق لم نعبأ به ، وذلك على مرأى السيارات جميعا ، وكانت كثيرة ف ذاك الصباح على غير عادة ، وهى تتخلى فجأة كلما بلغناها لتخلى لنا السبيل » ٠

وفى موضع آخر يصف حالته بعد أن عرف طبيعة الحالة :

« وعندئذ قلت لنفسى : لا حاجة الى الهلع ٠ وسألتها أن تهدأ ، فليس هذا الصباح آخر صباح فى الدنيا ، وأخذت على برود مصطنع استذكر تركيب هذا الغاز وأثره فى التنفس ، وفى الدورة الدموية ، وكل هذا جاءنى على عجل وأخذت أنظر بعد ذلك فى طريقة العلاج ٠ فى الطريقة المثلى » ٠

ومن ادب المصادفات أيضا « قصة تسعة تصيب ، وعاشرة تخيب ، وهى قصة طبيب قضى سنوات فى الكلية محمودا مقدرا وتخرج ، ونال زمالة الجراحين بلندن ، ثم شاء القدر أن يعمل فى عاصمة من عواصم الريف ، وعلى الرغم من أنه ساعد طيلة تلمذته فى جراحات كبيرة ، الا أنه لم يقم فى الريف بجراحة ذات بال (تستأهل أن يباشرها زميل من كلية الجراحين بلندن) فكان من ذلك أن نسى الجراحة على توالى السنين ٠

وأحب ، وتزوج ، وأحبته ، وكان أكبر اعجابها به ، فهو مخلص وجميل وعالم وعاشا سعداء ، ولا فائدة فى أن نطيل فى وصف سعادتهما ، انما يهمنا الحادث الذى تتطور عنده القصة ، والمسألة بسيطة ، جاءتها الزائدة الدودية ـ بسيطة ، لا بد من جراحة ، ويختار الزوج الجراح ، ولكنها تأبى الا أن يقوم هو بالجراحة « زوجها العبقرى هو وحده القمين بها ، وهى لن تثق

بأحد سواه ، ثم ما فائدة المهارة والعلم والفن اذا لم يبذلهما الرجل لزوجته أول باذل » ٠

ويصور لنا أحمد زكى فى عبارات بليغة العوامل التى تنازعت نفس الشيطان حتى جعلته يقتنع بأن يقوم هو بالعملية « وعقد اطراؤها اياه لسانه فلم يقل لها ان مجرد فكرة اجرائه العملية تصيب رأسه بدوار ، وقلبه بخور ، ومعدته بالغثيان ، وذهب تملقها اياه بالبقية الباقية فيه من بصيرة ، فاعتزم أن يقوم بها ، وزاد فى دفعه ما قد يثيره اجراؤها فى البلدة من أثر محمود ، فلا شك أن الناس سيقولون هذا هو جراح ماهر وثق كل الثقة بنفسه ، فلم يتردد فى اجرائها حتى على زوجته ، وعدا هذا ، فمساعده فى اجرائها سيكون زميله طبيب البلدة ، ولا شك أنه سيزداد به اعجابا عندما يراه يقلب أحدث ما عرف الطب من أداة للجراحة فى خفة ولباقة أصبع ، ثم ثقة زوجته به لا بد أن يحتفظ بها ، وايمانها بمهارته لا بد أن يحققه ، ونسى أن هذه أول عملية « كبرى » جاءته فى حياته الريفية » ٠

من أين جاءت خيبة العاشرة اذن ، وليس فى عملية الزائدة هذا الخطر الكبير ٠٠ « ولكن ما بلغ من الجرح غوره حتى ظهر له ما لم يكن فى الحسبان ، ظهرت له أنسجة ملتحمة مختلطة لا يبين بعضها من بعض ، ولم يكن قرأ عن شىء كهذا أبدا انها الحالة العاشرة ، الحالة المعقدة هى التى تراءت له الساعة على غير انتظار فأخذه القلق ، ثم أخذه الخوف » وهكذا كانت المصادفة السيئة التى ذهبت بروح الزوجة الحبيبة على يد زوجها زميل كلية الجراحين الملكية بلندن فى مأساة ميلودرامية ٠

وقد يكون هذا مبررا لأن نذهب بهذه القصة الى موضع آخر يتناول الدراما فى أدب أحمد زكى ٠ ولكنى أعتقد أن العبرة فى

الدراما أو فى الفانتازيا أو غير الفانتازيا حين نصـــف القصـص بالتوظيف ، والدراما هنا صدفة درامية وليست بالدراما الفانتازية ٠

كانت القصة الاولى من أدب المصادفات مصادفة مؤلمة ،وكانت الثانية سعيدة وكانت الثالثة ميلودرامية والرابعة اذن على هـذا الترتيب التبادلى فيها فرح ومرح ، ولكن أى فرح وأى مرح ٠

فهذا صبى قد ذهب الى الطبيب بقطعة رائعة من الفن ، هدية من والدته الى الطبيب صاحب الفضل فى انقاذ حياته ، والصبى ووالدته فقيران ، ولم يكن أمامها من سبيل لرد جميل الطبيب الا هذه القطعة من البرونز التى خلفها أبو الصبى ، « كان شمعدانا ، حمل الشمع فيه فتاتان ، سترتا جسميهما بمثل ما سترت أمنـــا حواء ، كانتا عاريتين عرى الوليد ، وابتسمتا للناظر ابتســـامة الخبث ، (استمتع معى هنا بالوصف لتوفر الوقت فى اعادة لفت النظر اليه عند التعليق) والحمد لله أن كان من واجبهما حمـــل الشمعة فاســتقامتا ، اذ لولا ذلك لانثنتا ، فخجل الواصـــف عند الوصف فلم يصف » ٠

وهنا كانت العقدة فقد استحى الطبيب ان يحتفظ بمثل هـــذا (الشىء) فى عيادته لأنه ليس بالشىء الذى تسيغه التقاليد وتبش له الآداب « لأن الشيطان نفسه ما كان يستطيع أن يبدع شيئا ألعن من هذا » ٠

وارتاع الصبى من رأى الطبيب فى الفن ، وأخذ يقنعه فيصف ما فى التمثال من فن ولكن الطبيب لا يجيبه الا بقوله : « اعلم هذا يا بنى ، ولكنى رجل متزوج ، ولى أطفـــال يروحـون فى البيت ويجيئون ، ومرضاى بينهم نساء كثيرات ، ولا يزال الفتى يلح على

الطبيب فى الاقناع ، ويتأسف له من انه لم يحضر له لهذا الشمعدان أخا ، لأن العادة أن تجرى الشمعدانات اثنين ، وما زال الصبى على هذا الحال من الاقناع ، حتى أيقن الطبيب أن مثل هذا الصبى لا ينفع معه الجدل ، فأخذ التمثال منه ، وشكره على هديته ، وطلب اليه أن يبلغ والدته هى الأخرى شكره ٠

هل انتهت القصة هنا ، لا ولكنها بدأت وهذا ما يجعل منها قصة جيدة الحبكة الى الحد الذى يبلغ بحبكة القصة حد الجودة ٠

وأخذ الدكتور يتأمل التمثال وهو يحك رأسه ويقول لنفسه « **أما الجمال فلا شك فيه ، حرام أن أرمى به أو أن أدقه فأفنيه ، ولكنى كذلك لا يمكننى أن أبقيه** » ٠

وأخيرا خطر له أن يهديه الى محاميه ، وكان صديقا له ، وهو الى ذلك مدين له بخدمات قدمها له على سبيل الصداقة ، وكان هذا المحامى أعزب ، مفراحا عرف الدنيا ، لما وصل اليه بالتمثال ليهديه له ، أخذ المحامى بروعة التمثال ، وأخذ يصف جماله ٠ ٠ ولكنه ما أتم قوله حتى اعتذر عن قوله وطلب الى صديقه الطبيب أن يأخذه معه ، فدهش الطبيب من تصرف صاحبه وسأله عن سر ذلك فقال المحامى « لأن أمى تزورنى هنا ، وعندى زبائنى ، اذا اكتشفوا مثل هذا عندى يحتقروننى ، وانهن ٠٠ » ٠ وهنا سارع الطبيب يحرج محاميه حتى يقبل الهدية ٠

وما خرج الطبيب حتى أخذ المحامى يتفحص التمثال عن قرب ويقول : تمثال جميل حقا ٠٠ وحرام أن أرمى به ، ومحال أن أحتفظ به ، ولكن لا ٠٠ فلأتخلص منه باهدائه الى الممثل الكوميدى فلان صديقى ٠ ان هذا المهذار هو أولى الناس بالاحتفاظ بمثل هذا التمثال ٠

وما عتم المساء حتى كان المحامى قد بلغ دار التمثيل ، وذهب الى حجرة الممثل فى الدار ، وأهداه اياه ، وأخذت الحجرة طول المساء ترن بالذى ينطلق فيها من ضحك الرجال ، فما دخل رجل ورأى التمثال حتى انضم الى زمرة الضاحكين · وتأتى الممثلة بعد الممثلة الى باب الحجرة فتدقه ، فيصبح بها الممثل الفكه : لا لا لا تدخلى بالله عليك ، فانى عار لم ألبس بعد ثيابى ·

وما انصرف الرجال حتى أخذ الممثـــل ينظر الى التمثـــال ويتساءل ، ماذا يصنع به ؟ وتأتى الاجابة هنا مختلفة عن النتيجة التى توصل اليها صاحباه من قبل ، (والا كانت صدفا مكررة ، ونمطية مملة) · وقال : صاحب الماكياج : تبيعه ، والاجابة هنا جاءت على لسان البيكادير وكأنما اختاره أحمد زكى من بين رجال المسرح بالذات ليضع على لسانه الاجابة التى هى أنسب ما تأتى اذا ما أتت من الرجل الذى لا يفتأ يغير ·

واتبع الممثل نصيحة صاحبه ، وباع التمثال · فماذا حـــدث بعد ذلك ؟ هل انتهت القصة بخروج التحفة من أيديهم الى سوق الفن ، لا لأن النهاية عنـــدئذ لا تكون رائعة بروعة نهـــايات أحمد زكى ·

وانما « فى صبيحة اليوم التالى كان الطبيب فى حجرة الدواء يمزج شيئا منه ، واذا بالباب يفتح فى عنف ، واذا بالصبى فزع مهتاج لا يكاد يأخذ أنفاسه وفى يده شىء ملفف فى ورق قال :

« يا دكتور أتدرى ماذا صنعت ! افرح ! افرح معى ومع أمى، فقد وجدنا للتمثال أخا هو هذا ·· وأخذ يسرد ما قاله من قبل فى فضل الدكتور عليه وهو وحيد أمه · وذهب بالتمثال فوضعه على المنضدة ، وفتح الطبيب عينيه وسعهما ، وفتح فاه ، كأنه أراد أن يقول شيئا ، ولكنه لم ينطق بكلمة » ·

الدراما فى قصص الدكتور زكى

الدراما فى أدب الدكتور أحمد زكى القصصى ، دراما حب ، حب لا ينال نهايته التى يرجوها ، أو حب لا ينتظر المصير الذى كان يعلقه على الاحداث لكى تجلب له السعادة التى يبتغيها ·

وهذا الباب يعرض لنا أربعة من هاتيك القصص ، أولها قصة « خطاب يا ليته وصل » ولو وصل ذلك الخطاب لأنقذ البطلة من أقسى النهايات الدرامية وهى الموت · والقصة الثانية تحمل أيضا كلمة التمنى ليت فى عنوانها « يا ليته درى » ولو درى البطل حقيقة ما فعله حين انتحر ما أقبل على الانتحار الذى ظن فيه مكسبا لعائلته التى أحبها وأراد به أن يبرهن على حبه لها ·

أما القصة الثالثة فقصة زوجة لا تدرى هل تزوجت عن حب أم لا ، ولكنها تدرى أنها أحبت من تزوجت وعملت بالحب على اسعاد من أنجبت على الزغم من ذهاب كل المقومات التى تدفع الى هذا الحب أو بعضه ، ولا يزال بها الأمر على هذا حتى يذهب هذا الحب بحياتها على يد زوجها فتأبى وهى تلفظ أنفاسها أن يؤخذ بجريرة ما فعله بها وتقول « انه قضاء الله » وهذا هو عنوان القصة ·

أما القصة الرابعة فقصة فتاة « غنت فى أسمالها » فلم يغنها الغناء ولا أغناها ، ولكنه ذهب بها من فاقة الى فاقة ، ومن أسمال الى أسمال ، حتى ذهبت الى الآخرة قبل أن تغنى ، وذهبت وهى لا تزال فى الأسمال ·

١

أما القصة الأولى فيرويها أحمد زكى عن طبيب شيخ ، أخذ يذكر له ما يذكر من الذكريات ··· كانت امرأة فاتت العشرين من عمرها ، قليلة الجسم ، رقيقة البنية ، جميلة ، ناعمة البشرة ، مستطيلة الوجه ، عيناها زرقاوتين ، وفمها صغير حساس ، لكن فيه قوة العزم واضحة ،هادئة النفس ، بطيئة الخطى ·

وجاءت الفتاة صاحبنا الدكتور فى وقت مخصص لزيارة المرضى ، ولم يكن معها خطاب من طبيبها (على عادة النظام الانجليزى) يوصى بها ، واعتذرت عن ذلك بأنه ليس لها طبيب وانها جاءت الى لندن من أقصى شمال انجلترا توا ، وقالت انها تعلم ما بها ، وانها تود أن يجرى لها الطبيب الجراحة · وفحصها الطبيب ، وأخبرها أنها جراحة خطرة ، وقد لا تكون حاسمة ، ولكنها ان نجحت كان لها البرء الكامل فلم تتردد ، لقد انعقد عزمها على أن تتحدى الداء ، وكفى ، وسأل عن أبويها فقالت انها يتيمة الأم والأب ولا أقارب لها ولا أصدقاء ··· ولم يزل الطبيب بها يلح عليها فى أن يحضر عمليتها رجل أو امرأة « يعرف عنك ويعنى بك » ، بل يشترط عليها ذلك ، حتى وافقت أخيرا على أن تأتى بامرأة عجوز ذات قرابة بعيدة بها ·

وأخذ الطبيب ينظر الى هيئة الفتاة ، وقد جلست على هيئة لا تنم عن حالها ، وهو يتأمل هذا النزق الذى ابدته ويبحث عن سببه ، أيأس ؟ « وكل الذى بان لى فى حيرة هذا الخفاء انها كانت ترفع يدها الى صدرها تمس فيه من حين الى حين دبوسا من ماس، كأنما تستمد منه الصبر والايمان » ·

« وأجريت الجراحة فنجحت على غير كبير انتظار ، ونجحت نجاحا تاما ، ولم يعقبها ارتفاع فى حرارة ، ولا تعقيد كائنا ما كان،

وأخذ الجرح يلتئم التئاما سهلا ، ولكن برغم هذا أخذت حالة المريضة تسوء يوما بعد يوم ، فقد جاءها قلق نفسانى شديد ، وذهبت عنها الرغبة فى الحياة وصمتت فلم تجب عن أى سؤال بغير نعم أو لا • ورضيت كل أنواع العلاج ، ولكن فى غير مبالاة » •

وتتبع الدكتور سبب قلق مريضته ، فعلم أنها فى انتظـــار شىء، تطلبه فلايجىء، كان خطابا أخذت تنتظره دون جدوى، فكانت تنظر الى الباب ، والى خطوة على السلم •• « وهل رأى خطابا فى بهو الدار ؟ وكم مرة ياتى البريد فى اليوم ؟ وهل هو ياتى دائما فى ميعاده ؟ وهل حدث حادث للقطار ؟ وهل يجوز على الخطابات أن تضيع فى الطريق ؟ » •

وأخذ الدكتور يسأل المرضات ، فلم يعرف أحد عن هـــذا الخطاب شيئا • ثم سأل : هل كتبت هى كتابا لأحد ؟ فكان الجواب: لا ، الا خطابا كتبته قبل اجراء الجراحة مباشرة « وحرصت على أن تضعه فى الصندوق بيدها ، فلم يدر أحد الى من كتبت » •

والح عليها الترقب ، وثقل عليها اليأس حتى صار داء ، فلم تعد تنام الا بالمورفين ، وجاءها بطبيب نفسانى لعله يعين ، فما أعان شيئا •

وهكذا حتى جاءتها النهاية ، انظر الى الصورة المعبرة التى يصف بها أحمد زكى النهاية على لسان الطبيب : « وزادت الحالة سوءا ، وظهر انها آخذة سبيلها الى الفناء ، فلحمها ذاب، وعيناها تغوران ، وأشداقها تعظمت ، والدبوس الذى لحظتها تمسه حين جاءتنى أول مرة رشقته فى الوسادة ، ولم ترض أن يزيحه أحـــد عنها ، وظلت تلبس هذا الدبوس من حين لحين كلما استطاعت لذراعها رفعا » •

« وأخيرا جاءها الموت وأنا فى حضرتها » ٠

« ففى ذلك اليوم دخلت الحجرة على عادتى ، فنظرت الى على عادتها ، وعيناها تسألان عن هذا الخطاب وشفتاها تهيأتا على جفافهما ونضوبهما لأن تتحركان للسؤال عن هذا الخطاب ، ولم يكن لى حاجة الى الجواب ، فقد كان فى وجهى الجواب » (هنـــا قد يظن القارىء ــ الخبير بالأفلام العربية ــ أن النهاية ســـتكون كنهايات هذه الأفلام ولكن » وعندئذ جاءتها قوة لا أدرى من أين فقد تحركت لتشــــيح وجهها عنى كأنما تريد أن تكون وحـدها ، وبصوت لم أحسب أنها تستطيعه ، وهى فى هذه الحال ، صرخت صرخة مدوية هتفت فيها باسم رجل ، كانت صرخة عتاب ، وما صرختها حتى استرخت أعضاؤها ، وفارقت الحياة » ٠

ليس من تعليق على هذه القصة الا سؤالان ، أولهما : لماذا كانت النهاية حزينة هكذا ٠ وهذا سؤال كان أحرى بنا أن نسأله للطبيب الذى روى القصة لأحمد زكى اذن لقال لنا ان للحيـــاة نهايات أقسى وان على الأسرة البيضاء ما هو أشد ٠

والسؤال الثانى لماذا أخفى أحمد زكى السبب الذى أضنى الفتاة ؟ هل هى مهارة قصـــصية ؟ أم هو شـــىء آخر ؟ على أنه ليس من شك فى أنها مهارة أن تعظم المستور فيبدو الموقف وكأنك سترت عظيما ٠

٢

أما قصة «يا ليته درى» فقصة حزينة ، والحزن تأملى ، تأمل معى هذه السيدة التى ذهب عنها زوجها منتحرا فى ساعة من ساعات الضـــيق بالفقر الذى آل اليه من بعد غنى كانت معه زوجته التى

تشاركه السراء والضراء ، والتى لم تعرف الفقر قبل معرفتها به، ولا فى أثناء حياتها الاولى معه ، على حين كان فى الأصـــل فى شبابه فقيرا يعرف معنى الفقر بعدما عاناه .

« والأم تأخذ تفكر فيما ورث الوالد المنتحر أولاده ، فتجـد أنه ورثهم فيما ورثهم الكفر بالحياة والريبة فى أمر أنفسهم .. والابنة المسكينة تخرج الى المكتبة تطلب قصة ، وتسأل عن ختامها ، فيقول أمين المكتبة أو أمينتها انها قصة غرام تنتهى بهناءة ، فترد عليه الابنة قائلة : رد عنى هذا السخف ، وأعطنى شيئا يتفق مع الحياة ، شيئا ينتهى كما تنتهى الأشياء بمأساة ، والولد تدخـل عليه كرها مفارح الحياة فيغتبط قليلا ، وتدخل عليه مفارحهـــا فى غير استئذان ، فينقبض كثيرا ، ويشتد عليه انقباضه يحســـبه المزاج الذى قضى على والده بدأ يلعب دوره بالوراثة فيه .. الخ ، وهكذا يطيل مفكرنا فى وصف مظاهر المأساة التى يمضى احمد زكى يعبر لنا عنها على نحـــو دقيق لا يتأتى الا لذوى البيـــان العـــالى .

ثم يحدثنا الدكتور زكى عن الفقر كيف دفع بالرجل الى الانتحار ، فقد عاد اليه خوفه القديم ، خوف الفقر ، وخوف الحياة ، وعملت الزوجة ما استطاعت ليفى المورد الضئيل بالحاجات المتضائلة ، ونظرت الى الفقر على أنه شىء طارىء الى زوال ، بينما كبت الزوج الأمر فى نفسه ، وفكر فى أقساط التأمين وشـــبحها « انه لابد أن يفى بأقساط لا سبيل الى الوفاء بها ، وانه على الموت سينال أهله التأمين كاملا ، وفعل فعلته ، واكسب أهله قدرا من المال وافيا » .

وهذا هو جوهر المأساة فى هذه القصة .. وفيه العقدة أو فيه الحل أو فيه الحل ثم العقدة ، ولست أستطيع القول ان أحمد

زكى هو صاحبه الأول فقد قرأت هذه الفكرة من قبل فى قصتين احداهما فى الأدب العربى والاخرى فى الادب الانجليزى وليس فى استطاعتى الآن أن أحقق أى الثلاثة كتب أولا ؟ ولهذا فسننتقل الى الوجه الآخر فى حل العقدة ، وهو النظر فى فلسفة أحمد زكى التى نظر بها الى هذا الحل ، وموقف أحمد زكى فى فلسفته يجريه على لسان الزوجة اذ قالت لنفسها : « كيف ساغ عنده أن وفاء حاجة الجسم غناء عن حاجة النفس ، وهو لو عاش لكافحنا سويا وكان لنا فى الكفاح على الاخلاص لذة ؟؟ » ٠

وليس هذا الا صدى لايمان أحمد زكى العالم المؤمن بأنحاجة النفس فوق حاجة الجسم ، وهو أمر لا يحتاج الى تعليق الناقد أو الى لفته نظر القارىء اليه ٠

ولكن هل هذه الفلسفة تحظى بالقبول عنـــد الناس ، وفى مجتمعات البشر ؟ يقرر لنا أحمد زكى هنا انه : لا ٠

وهو هنا يقرر الأمر فى صورة قصصية فيجعل قلم المؤلف يعقب على فكرة الزوجة التى تساءلت بها فيقول : « ولكن لمن تقول ؟ والأذن التى تريد أن نسمعها ملؤها التراب » وسواء أكان ملؤها التراب لأنها ميتة ، أو كانت من طين وعجين وهى حية ، فهذه هى الحقيقة المؤلمة التى بنى عليها أحمد زكى مأساته فى هذه القصة القصيرة ، ولكن هل هى قصيرة حقا ؟

٣

« انه قضاء الله » قصة ميلودرامية أخرى ليس فيها أحـــداث كثيرة ، ولكنها قصة طباع والطبع يعبر عنه بالموقف أو الموقفين ، وليس فى حاجة الى تنمية للشخصية من خلال مواقف متتاليـــة

تأتى به فصول قصة طويلة ، انما هو طبع وخلق ، فى أشخاص ، فى أوقات حتى صار ظاهرة · وأبطال هذه القصة ثلاثة : أب وزوجة وابنته ، والأب سكير ، والبنت ضعيفة الجسم لا تقوى على العمل، ولهذا تقوم الأم بكل الجهد فى تسهيل الكسب الذى يقوم بالحياة لهذه الأســـرة ، هكذا كان قدرها ، انه قضاء الله ، ولكنه لم يكن قضاء الله الذى انتهت اليه قصتنا ·

ذلك أن الزوج ، كان يغتصب أجرها فينفقه فى شـــراب ليلة واحدة ، زائطا صارخا معربدا بين بطانة السوء ، وهو الأجر الذى عملت بابرتها فى تحصيله خمس عشرة ساعة قضـــت أكثرها فى الشغل وأقلها فى البيت ، « وهو اذ يغتصبه منها كان لا ينتزعه الا بضرب وركل يسود عينها ، أو يجرح جلدها ، وكان يؤتيه هواه فى ضربها وركلها فيشفى هواه من ذلك فى الليل أو النهـــار » « ومن الغريب انه حين كان يفعل بها ما يفعل من الأذى كان يقف دائما عند الحد الذى تعجز عن العمل اذا ما زاد عليه ، فكأنما كان فى صحوه أو على سكرته يدرك هذا الحد الذى ان تخطاه فقد بتخطيه الثمن الذى كان يدفعه فى الشراب ، فامرأته وحدها كانت مصدر ما كان يمكن أن يأتيه من مال ·

الى هنا صار الأمر فى هذه القصة واضحا ، فهو يؤذيها ، ولكن بقدر ، ليؤذيها ثانية ، وتتكرر المواقف ···· ولكن أحمد زكى سرعان ما يأتى بالحدث الذى يجعل فى الأمر قصة ، ويكسر دائرة التكرار ، ويضع للامر خاتمة ، وان كانت مأساوية ، فالسيدة تعمل على ضوء مصباح ، ويأتيها زوجها فى يوم ، وهو ســكير كعادته ، فيطلب اليها أن تشترى له هو الآخر مصباحا ، ولم يكن الزوج يقرأ ، ولا كان فى حاجة الى مصباح ·

واشترت له المصباح فى اليوم التالى ، وزينته بحيث يحوز أعظم قدر من رضا الزوج ، وعاد صاحبنا فوجد البيت مضيئـــا جميلا ، فراعه ذلك الجمال ، وافتعل المشاجرة مع زوجته وقذفها بالمصباح فاشعل النار فى ثيابها ، ثم ناولها المصبــاح الثانى من الناحية الثانية فأحاطتها النيران من كل جانب ، وحاولت ابنتهـا أن تنقذ الموقف فلم تستطع ، وجاء الجيران ، وحملوا الزوجـــة المسكينة ملفوفة بكل ما وجدوه ، ومسرعين بقدر ما أمكنتهم الى المستشفى هناك أدرك الطبيب أنها مفارقة الحياة عن قرب ، فجاء بالنائب (نائب النيابة لا نائب الطبيب) ليأخذ أقوالها قبل أن تذهب عنها الروح ، وأومأ النائب الى الطبيب أن يخبرها أنهـا مفارقة الحياة ، فأومأت بما ينبى عن ادراكها لذلك ، وعندئذ سالها النائب من فعل بك هذا ؟ وما فرغ من سؤاله حتى اقتربت الآذان تتلقف ما قد يخرج من فمها من كلمات ، وبعد جهد خرج من فمها فى بطء شديد ما يلى : لم يفعل بى ذلك أحد · انه قضاء الله ·

هنا انتهت القصة ، ولكن أحمد زكى لم ينهها هاهنا ، وانما عقب بقوله : ثم غابت عن وعيها ، ثم فاضت روحها ، وارتفع صوت من الجميع يقول : **انها كذبة قد تجوز على قضاة ، ولكنها لن تجوز ابدا على قاضى السماء** · أهـ · احمد زكى ·

وكأنما اراد أحمد زكـــى بهذه العبارة ان يضع العبرة ، ولا يترك الامور هكذا تذهب النفس فى حزنها الى الكفر بالعدالة فى الانسانية ، مهما آمنت بهذه الصورة التى بذلت الزوجة فى حياتها وفى مماتها ! وخاصة أنها مثال لزوجات كثيرات ·

ليس من شأن الناقد هنا أن يعبر عن اهتمام احمد زكى بأمر المرأة المظلومة المضحية ، العظيمة فى كل ذلك·وان كان لايستطيع

أن يعبر الى الجانب البيانى من دون أن يشير الى هذه الناحية ، والى الوجهة الاجتماعية الاصلاحية فى القصة على العموم ٠

انما يجب أن يعنى الناقد الذى يحاول أن يلفت النظر الى المهارات أن يشير الى العبارات التى صور فيها احمد زكى المرأة، وقد أصابها الحريق فى كل جسمها ، وقد وضعت على سرير المستشفى « **فوجدوا امرأة قد ضاعت معالمها او كادت ، فملابسها تلزقت وتصلبت ، ومن الرماد الذى تخلف من هذه الملابس عند صدرها برزت ابرتان كانت لا شك رشقتهما عند موضع ثديها ساعة توقفت فى عملها ووجهها تبدل فانكشف عن عينين مغمضتين لا رمش لها ولا حاجب الا خطوطا رقيقة سوداء، وشفتاها تضخمتا فكانتا كالكرة انتفاخا ، وخداها تفحما لولا بقعات برقت كما يبرق الدهن على الشواء** » صورة ادبية رائعة البيان ، وهى مع ذلك اقرب الصور الى الصواب (دقة وشمولا) اذا طلبت الصورة الاكليذيكية لحريق من طالب طب فى امتحان السنة الرابعة !

٤

أما القصة الرابعة « فى أسمالها تغنى » فهى قصة فتاة يتيمة ، ولدت فى أحد الأزقة وقام بتوليد امها الباغت قابلتان ٠٠ رجل من رجال البوليس ، وامرأة عابرة ، فقد كانت الولادة فى الفجر ، ولم يكن فى الطريق غير هؤلاء ، ولما بلغت من عمرها الشهرين تركتها والدتها ، فكفلها أبوها الى سن الخامسة عشرة، وكان بهلوانا جوالا فذهب بها مع جماعته فى كل أرض ٠

وحين بلغت الثالثة عشرة أدرك أبوها لأول مرة أن لابنته صوتا حسنا ، فكان يريدها على الغناء فى المقاهى فى كل بلد حل

به ، وفى هذه المقاهى تتلمذت ، وفيها تدربت على الغناء ، ودللها الناس ، فأحبت تدليلهم ، ولكنه لم يفسدها ، وعملت جاهدة فى كسب رزقها الحلال ٠

فلما بلغت عامها الخامس عشر ، قصدت الى المدينة الكبيرة ، وصدحت فى شوارعها بغنائها عاما كاملا على غير جدوى ، وكانت تقف فى الطريق تغنى ، والناس ينقدونها قطع الفضة فتنظر اليهم نظرات قاسية ، ولكن وراءها رجل يسعى فيأخذ هذه النقود التى تترامى اليها من النوافذ والأدوار العالية ، (هنا لا يذكر أحمد زكى أن هذا الرجل هو ابوها) ٠

وساقت اليها الاقدار رجلا من أرباب النوادى الليلية ، فأبدى اعجابه بأغانيها وعرض عليها أن تغنى فى ناديه الفخم ، وبهرها النادى ووافقت على الغناء فيها فى أسمالها هذه ٠

ولم تبتسم للناس ، ولكنها هزت لهم رأسها بالتحية هزة قليلة ، ووضعت يديها وراء ظهرها واستندت الى عمود المسرح وأخذت تغنى ٠

وخرج الصوت قويا عارما ، فيه روح وفيه حرارة تماما كما تصدح به فى الشارع ٠

وأعجب الناس بها ، وصاحوا بها أعيدى أعيدى وظلت على حالها هذا بضعة أعوام ٠ وأخذت تسير الى الشهرة فى نفس الطريق الذى سارت فيه من قبلها كبريات المطربات ولكن الاقدار التى أحسنت اليها بما جمعت بينها وبين هذا الرجل عادت بعد ستة أشهر تسىء اليها من أجل هذا الرجل ٠

ذهبت صـــباح يوم الى داره لتراجـــع معه بعض الاغانى ، فوجدته مقتولا فأحرجها البوليس من أجل ذلك ، وانتهزت الصحف فنسجت من هذا الحادث رواية غرامية شائعة اسمتها « ابنـــة السبيل والرجل الذى عشقها » واهتدى البوليس أخيرا الى اللصين اللذين قتلاه ، ولكن الجرائد كانت قد هلهلت من أمرها ما هلهلت فلم تغنها براءتها من القتل شيئا ·

وأصـــابتها الحيرة بعد أن ذهب عنها صـــديقها الوحيد فى دنيا لم تلقها أبدا بغير القسوة وهذه هى تعود لتناصبها العـداء مرة أخرى · ولم تدر ما تصنع · وهمت أن تعود الى الشارع ، ولكن سرعان ما جاءها خطاب من مسرح كبير يعرض عليها الظهور فيه ، فوافقت ، وظهرت على المسرح فاستقبلها النـــاس بالصفير والصخب ، وكان أمامها خطتان أيسرهما صعب : اما أن تهرب كالقطيطة التى جرحت ، فوجب عليها أن تركن ناحية لتلعقجروحها، وأما أن تقاتل كقتال الهرة التى ضيقوا عليها الخناق · فلم يعـد لها بد الا أن تدفع بالمخالب والناب فاختـــارت الثانية ، وكسبت دورها الأول باسكات الصائحين ورد المشاغبين ثم أطلقت حنجرتها تندفع بكل ما فى صدرها من قوة ، فلمـــا سكنت انطلقت الأيدى تصفق حتى كادت تدمى ·

وخرجت من المسرح فى تلك الليلة ، وقد آمنت بأن الله أودع فى كيانها شعلة لا يمكن أن تنطفىء ، لأن الله موقدها ·· وأخذت تعمد الى المؤلفين ليكتبوا لها الأغانى الجديدة فكان لهذه الاغانى الجديدة عمل السحر فى تخطى ما كره الناس منها ، وكانت تحرص عند غنائها على ذكر اسم مؤلف الأغنية اشهارا له ، وتنبيهـــا عليـــه ·

« ورتبوا لها حفلا تبلغ فيه الذروة ، واجتمع الناس وامتلأ بهم المكان ، ولم يبق فى المدينة نابه الا حضر ، كلهـــم حضروا الا واحدة هى صاحبتنا ، أصابها ، وقد شاب النهار ، تخاذل فى الساقين لم تحفل به وقامت تتزين فأحســت بثقل فى الســـاقين ثم أرادت أن تمشى فعجزت ، وبينما كان مكان الحفل يصطخب بمن فيه ، كانت هى على سريرها بالمستشفى وحيدة الا من صـــاحب وصاحبة ، وانتبهت بفكرها نحو ذلك الجمع الحاشد ثم الى السماء، ولم تدر فى ذهولها ماذا تقول وقد علمت انه الشلل ·

وأخذ الشلل يزحف فى جســدها زحفا ، فلما عرفت أنهـــا الغاية المحتومة والأمل المقطوع قالت : أى ربى ، ضربت لى موعدا، وضربوا موعدا ، وموعد الرب لا بد فيه من وفاء ·

وبلغ الداء الصدر ، فأرادت أن تصدح بالغناء ، بالذى بقى من هواء ، قبل أن تفوت الفرصة ، فكانت شهقة واحدة انطفأت بها بقية من حياة كما تنطفىء شمعة ·

وهكذا انتهت هذه « المأساة القصيرة » التى روى فيها الدكتور زكى ما كان من شأن هذه المطربة الصغيرة ·

ولكن أى عبرة أرادها أحمد زكى من قصته هذه ، هل فى ذلك الموعد الربانى الذى قضاه الله فلا بد من قضائه قبل الموعد الذى ضرب الناس ، ولو كان فى هذا الموعد البشرى المجد البشرى كلـــه ؟

هل هو الحظ السىء يلاحق الفتاة فى حياتها منذ ولدت فى الشارع وحين قضت حياتها بلا مأوى حتى قضت حياتهـــا وهى أحوج ما تكون اليها ؟ هل هى قسوة القدر ؟

قد لا يكون أيا من الأمرين هو غاية احمد زكى من قصتــه ولو أخذناها على أنها حكاية يحكيها اديبنا مما قرأه أو ســمعه كما يشير عنوان الكتاب الذى وضعها فيه (بين المسموع والمقروء) • ولو كان الامر هكذا ـ والاحتمال قائم ولكنه احتمــال ضعيف ـ لكان علينا أن ننظر لنتأمل الى أى حد كانت ريشة الفنان المعبرة عن الصورة أو المعبرة فى الصورة ولهذا أرجو أن تقرأ معى وصف احمد زكى لفتاتنا وقد أخذت تسير الى الشهرة :

« وحفظت على المسرح كثيرا مما ظهرت به عليه أول مرة • فهى تحتقر الزينة ، وتلبس البسيط من الثياب ، وينشق الســتار فتراها واقفة وحدها على المسرح الهائل كالكلب المقلوب المضروب يتحدى سيده ، وتقف وقفة المعاند كأنما تتحــدى سعة المسرح وتتحدى السامعين ، ورجلاها الطويلتان قد تسمرتا بالذى وقف عليه • وشعرها قد تدلى على جبهتها الحالية ، وقد تهيأ لينقذف الى الوراء عندما يحين موضع النغم وقت انقذافه ويداها اللتان كانت تربطهما وراء ظهرها ، تحررتا لتقوم بدور هام فى غنائها • فهى تحركهما افصاحا وتعبيرا حتى تكادا تنطقان • فيفهم الرائى منها ما يفهم من الكلام » • فحينا تجرى بهما أصــابع على أوتار عود لا وجود له الا فى خيالها • وحينا تطويها كفين يخــرج من بينهما الصوت المنغوم خافتا كأنما تسريه الى اذن بعيدة محاكاة وتمثيلا » •

هذا وصف علمى تشريحى كالعادة الغــالبة على أوصاف احمد زكى • تلحظ فيها أثر عقلية العالم الذى يصف على نحــو مرتب وقد لا يهمـــه أن يبدأ بأبرز الأمور أو بما يراه أبرزها أو أشدها تأثيرا على السامع و القارىء ، وقد لا يهمه أن يبدى شيئا

واحدا ويسلط عليه الأضواء ويتعمق فيه ، ولكنه قبل ذلك معنى بالصورة الكلية التى تتكون من الاجزاء موصوفة جزءا جزءا ، فهذا الملبس ، وهذه الوقفة ، وهاتان الرجلان ، والشعر ، واليدان، وحركتهما ٠

وهذه فقرة ثانية يحدثنا أحمد زكى فيهـــا عن أغانى بطلة القصة ويطيل فيقول : « وتختار من الاغانى القوى الحار ٠ ومن أغانيها الشهيرة أغنية فى الزواج الفاشل وهى أغنية تمثل امرأة قتلت زوجها لأنه خانها ، وفى دار البوليس تستمـــع الى أجراس عرسها القديم الذى كان ، وتتخيل حياة السعادة الأولى ٠ ثم الى الريبة التى جاءت من بعد ذلك ٠ ثم الشقاء آخر الأمر » ما الغرض من الحديث عن هذه الاغنية ؟ والى أى مدى يتلون ايحاؤها فى قصة صاحبتنا ٠

بل ما بال الأغنية الثانية التى ســـمتها « رجـــل يتبعنى فى الطريق » ، وهى أغنية تغنيها عاهر تصف فيها من تلقى من رجال٠ وكيف يضيق صدرها بهم ، وما يصيبها منهم من ميعة نفس يكاد يتبعها قىء » ٠

لا يستطيـــــع الناقد الصادق مع نفسه ازاء وصف هـــاتين الأغنيتين الا أن يقول لقلمه أن يتصرف فى « البنائية » المحكمـــة للقصة بحيث يخرج منها ما لا تقتضيه دواعيها ٠

هذا اذا كان عليه أن يمضى فى البنـــــاء القصصى المسلك التقليدى ولكنه لم يمض فى هذا البناء الى غايته ، بل منذ البداية أنظر الى هذا التناقض الزمنى فيما يتعلق بالمدة التى قضتها تغنى فى ملهاها الأول هل هى مدة سنوات أم ستة شهور كما عبر أحمد زكى فى موضعين مختلفين من قصته ؟؟

ليس فى القصة عقدة ، وانما اعتمد أديبنا فى التشويق مذهبا من مذاهب التدوير ، لا يبدأ بالخاتمة ، وانما يبدأ بحدث من أحداث القصة فى وسط حياة الفتاة يوم وقفت فى الشارع فرآها رائد الملهى فأعجبه صوتها فأخذها الى حيث أبرز من فنها ما نال الاعجاب ٠

على أن قصة أحمد زكى مع كل هذا تنال من الاعجاب الانسانى الحد الذى لا تبلغه عند النقاد المتزمتين ٠

القصـــة التأملية

ليس هناك فى تعبيرات النقد ما يقول بأدب تأملى أو قصـة تأملية ، وان كان من الممكن اطلاق هذا الوصف على أجزاء أو فقرات معينة من العمل الأدبى ٠

ولكن الحال مع أحمد زكى ف قصة « دينار » يختلف فيتسع بالتأمل ليجعله المحور الكبير الذى تدور حوله «قصة دينار» وهى احدى قصص « بين المسموع والمقروء » ، وفيها يحكى الدكتور أحمد زكى قصة جراح متقدم فى السن جلس ذات يوم يتأمل فيما احتواه مكتبه من متاع ، ويتذكر من خلال هذه المحتويات أيامه الخوالى ٠

وفجأة يقع نظره على علبة صغيرة ، ويفتحها فاذا به يجد فيها دينارا ذهبا يتوسط بطانة من حرير أزرق ٠

ويأخذ صاحبنا يتذكر قصة هذا الدينار ٠٠ نعم لقد كان هذا من سنوات بعيدة جاءه به بحار عجوز جاء المستشفى يطلب الشفاء من داء ألم به فى رحلته الاخيرة ، وكان يحسب فى الجراحة التى تجرى له نهاية أجله ، وأجرى له صاحبنا الجراح العملية ، ونجحت وقام من سريره بعد أسابيع معافى ، ولكنه عاد الى الجراح فى منزله بعد ثلاثة أسابيع ، فحسب انه يطلب احسانه ، وأخذ يشكر له ما فعله من أجله ، ثم أخرج من جيبه دينار الذهب ووضعه على المنضدة حيث يجلس الجراح وقال : أرجو منك يا سيدى أن تقبل منى هذا ٠ انى أعلم أنه شىء قليل لا يزيدك ولا ينقصك ، واعلم انه من سوء الأدب أن أتقدم به اليك عوضا عما أسديته الى ، وانما

أرجو منك قبوله على انه تذكار لما أنلتني من صحة ٠ انى تركت بيتى من بلادى منذ سنوات ثلاث ، وعند وداعى زوجتى أعطتنى هذا الدينار ، ولم تعطه يدا بيد ، وانما خاطته فى كم سترتى ، وجعلتنى أعدها ألا أفك عنه هذا الخيط الا اذا أ خذت أحس الموت جوعا ٠ ان حياة البحار منا يا سيدى حياة غير آمنة فهو قديمرض فى غربته ، وهو قد يتعطل طويلا ، وقد قام هذا الدينار بينىوبين الموت ثلاثة أعوام وقد أردت فى المستشفى أن أهديه اليك اذا أنا قمت فى عافية ، وهأنذا فى عافية ، فأرجو منك ياسيدى أن تتقبله ٠

ويصور لنا الدكتور أحمد زكى موقف الطبيب حينذاك فى لقطة دقيقة للحظة دقيقة من لحظات الحياة التى تضطرب فيها نفس الانسان بين جلال المشاعر السامية فلا يدرى أيها أسمى ، ويحتار فيها الانسان بين الصواب والصواب ، أيهما يأخذ وأيهما يدع ، يصور لنا أحمد زكى هذا الموقف فى عباراته التالية من دون أن يشير الى ما أشرت اليه هنا من وصف للموقف ، ولكنهيعطينا مباشرة فى عباراته الاحساس الذى لا بد للذواقة منه اذا أراد أن يدرك أى لحظة أراد الدكتور زكى تسجيلها فى قصته القصيرة ، قال الدكتور زكى « سمع الطبيب ما سمع فاهتز له ، وحار فى الذى يصنع ، لقد كان تهيأ لأن يعطى ، فاذا اليه يساق العطاء ، وأخيرا جمع عزمه وشكر للرجل جميله وشكر عاطفته ولكنه أبى أن يأخذ الدينار ورجا منه أن يعود به الى بلاده فيهديه الى زوجته ، وعندها اغتم الرجل غما كبيرا وتجهم وجهه ، ومضى بأصابعه الى الدينار يدفعه على سطح المنضدة قريبا من حيث جلس الطبيب ، وأخذ يقول : أرجو منك يا سيدى أن تقبله ،لاعلى قيمته النقدية التى هى له ولكن على قيمته التى كانها لى طوال هذه الأعوام الثلاثة ، انى منذ تركت المستشفى لم أجد عملا ،

ومنذ تركت سريرى فيه لم أجد سريرا ألقى عليه هذا الجسد المتعب لأنام ، ولم يكن بينى وبين الموت جوعا غير ساعات ، ولكنى وفقت اليوم الى سفينة أعمل فيها فشكرا لله على هذا التوفيق وشكرا لله أعظم على أن أعطانى القوة التى أصبر بها مع الجوع على الابقاء على هذا الدينار ٠ فتقبله يا سيدى منى بالذات كأنه لى ٠ فلم يسع الطبيب الا أن يتقبله » ويمضى أحمد زكى بعد ذلك يحدثنا عما دار بخلد الطبيب بعد ما تذكر قصة هذا الدينار الذى وجده لساعته فيروى أن الطبيب أخرج ورقة وكتب فيها وصف الحادث فقال : لقد قبلت فى حياتى الطويلة كثيرا من الهدايا الثمينة أهداها الى قوم كرام ٠٠٠٠٠ وان لم يكن فى تلك الهدايا هدية أثمن من ذلك الدينار الصغير القليل ، ورفعته بأصابعى عن المنضدة وأنا أحدس كم كلف هذا الدينار ــ هذا الرجل البحار الساذج الغريب من آلام ، وتخيلته وهو يطوف الميناء يبحث عن عمل فلا يجد ، وما لقى فى أثناء ذلك من جوع ، وتصورت مالابد قد افترشه من الأرض ٠ كل هذا والدينار فى جيبه يستطيع أن يشترى به القوت والفراش ، وهو يأبى أن يضعه ليهديه الى وفاء لجميل زعم أنى صنعته فأى هدية تقول هذا ؟ وأى وفاء ، ولو مخدوعا يعدل هذا الوفاء ، وأى قلب فى قلوب الناس فى أى طبقة من طبقات الأرض يكبر هذا القلب الشديد ، ولم ينل من الأوسمة اعترافا بهذا المجهود الا أنه يجوع أحيانا ٠

وختم الدكتور احمد زكى عبارته بعلامة التعجب ٠ هل اراد الدكتور أحمد زكى ان يحدثنا فى عطف واستعطاف عن حياة البحارين وما يلاقونه ، فجعل ذلك فى صورة الحديث على لسان الطبيب الذى تذكر ما حدث ، لواحد من هؤلاء اصابه المرضى ، والاشراف على الموت ، والجوع والاشراف على الهلاك ، والبعد عن الوطن . والتعطل ، والاشراف على الضياع ؟

هل اراد ان يعبر لنا عن هذه العاطفة النبيلة فى قلب البحار كيف كانت والى اى مدى يكون نبل العواطف ؟

أم اراد ان يحدثنا عن عاطفه اخرى لاتقل نبلا هى عاطفة ذلك الجراح الذى قدر عاطفة البحار ونبل خلقه حين أهداه ما كان اعز عليه من كل شىء عند غيره ، مهما كان هذا الشىء لا مع قيمة الشىء فى ذاته ، ولكن فيما يمثله هذا الشىء عند باذله . وهو المعنى الذى عبر عنه احمد زكى بعبارات بلغت ذروة البيان الرفيع فى قوله : « ارجو منك ياسيدى ان تقبله ، لا على قيمته التى هى له ، ولكن على قيمته التى كأنها لى ».

اغلب الظن انه اراد هذه المعانى الأربعة مجتمعة والقصة على لسان الجراح ، وهى تأتيه من باب الاسترجاع ، وهو استرجاع ذاتى ، يعود فيه الى ذاكرته (Flash back) وليس فى الامر اعتماد على مصادفات ، انما هو رأى شيئا فتذكر فيه القصة ، فلما تذكرها ومرت بذهنه معانيها الخالدات اخرج الورقة وسجل فيها ما سجل من رؤيته لهذه المواقف .

وقد استبقنا التعليق بينا كنا نسرد القصة فاشرنا الى ان احمد زكى كان يصور الموقف اللحظى فى تأملات دقيقة جدا ، وذكرنا لذلك مثلا بالحوار الذى اداره عالمنا بين جراحه وبحاره ، ولكن لا بأس ان نشير هنا الى تلك العبارات التى يصف بها احمد زكى حديث البحار الى الطبيب فى بدايه لقائه به عندما ذهب يقدم اليه الدينار : « وتحدث فى بساطة وفى تؤدة ، وفى حرارة ، ووثوق اعوزه الطلاء فتاثر الطبيب من هذا اللسان الخام تاثرا كبيرا وهو الذى استمع لمئات من كلمات الحمد والعد العديد ، من خطب الثناء مزوقة مطرزة » .

لابد لنا أن نقف هنا أمام الصفات الأربعة التى وصف أحمد زكى فيها حديث البحار فى بساطة وفى تؤدة ، وفى شوق اعوزه هل جاءت هذه الصفات المثالية من قلم أحم دزكى كما تجىء المترادفات على اقلام كتابنا تتوالى تترى وراء بعضها تأكيدا للمعنى المراد أو زيادة فى ايضاح الصورة ، كلا وانما جاءت كما تجىء عبارات عالم الكيمياء يصف المادة التى امامه فيذكر شكلها وحجمها ولونها ووزنها وكثافتها وحالها من الصلابه والسيولة ٠٠ الخ (وهذا هو الفرق الحقيقى) والفرق الدقيق ، والفـرق الاول بين كتابة العالم متأثرا بعلمه ، وكتابة غـير العـــالم أو العالم غـير متأثر بعلمه ، هذا معنى التفاوت بين القلم المتدفق يعطف ليتنـاول الجوانب والاعطاف المختلفة للشىء الواحد لأنه يريد ان يصـــل الى الحقيقة من زوايا عديدة ، وبين القلم المتدفق الواحد بالكلمة ذاتها وباخواتها الشقيقات وغير الشقيقات ٠

ولو انك غيرت أو بدلت فى عبارة احمد زكى بالحذف فحذفت التؤدة أو البساطة أو الحرارة أو التدفق لما وصلت الى المعنى الذى ادته العبارة مكتملة ٠

ولكنك تستطيع أن تحذف فقرات وسطورا بأكملها من مقالات فلا يهتز المعنى المراد ولا شعرة واحدة ، ولست انت الذى تستطيع ان تحذف من مقالاتهم ولكنهم هم أيضا يســــتطيعون بل هم أولى من يفعلون ٠

ليس بعد ذلك من قول الا الثناء على التوفيق فى اختيار عنوان القصة التأملية (الذى لا أظنه يكون الا هكذا كلمة واحدة نكرة) واطـــلاقه هكذا نكرة ، ولكن من باب التنكير للتعظيم ! وما كان أعظمه من دينار ، دينارا وقصة !

التصوير البياني فى قصص الدكتور احمد زكى

يركز هذا الباب بصورة ما على جلاء الناحية التصـويرية فى ادب احمد زكى على نحو لا يستقصى ، ولكنه يضرب الامثلة ، ويؤمن المؤلف بالقول القائل ان خير ما فى الصورة هو الصورة نفسها ، ولهذا فانه سيتعرض فى هذا الباب لأبرز الصور فى قصتين من قصص الدكتور زكى هى « شعاع فى الظلام » « ونزل الستار فحجب النور ثم ، ارتفع » ، وسنقدم لكل بفكرة عن القصة عاسة ونبذة عن موضع الصورة بخالصة ، ونحن فى هذا أشبه بالمرشد السياحى اكثر منا بالناقد ، ولكن مرجع هذا بلاشـك هو الى الصورة نفسها التى هى ابلغ ما فى الصورة ٠

١

فأما قصة « شعاع فى الظلام » فقصة فتاة عمياء ، قامت على تعليمها فى تصبر وتجلد سيدة عظيمة من اولئك الذين منحهم الله القدرة على العطاء ، فعوضها عن هذا البصر المفقود خير تعويض ٠٠ هـذه هى القصة فى اختصـار شديد ، يسمح لنا ان ندلـف مباشرة الى الجوانب التصويرية التى اعطت لهذه القصة ابعادها البيانية : ــ

١ ــ ففقد البصر عند الطفلة ليس بالامر الهين على حسب ما عبرت عنه عبارة احمد زكى فى بلاغة رقيقة فى اول القصة حين يقول : « ما اشق على الرجل ان يفقد بصره وأشق من هذا ان تفقد امرأة ، وقد نراه فى طفل فنأسى له ، ولكننا نأسى اكثر اذا نحن رأيناه فى طفلة ، وفاقد البصر يحرم من كثير من خيرات هذه

الدنيا ويحرم أشد حرمان من ثمرات العقول اذا لم تتح له فرصة التعليم ، وهيقل ان تتاح لأعمى »

٢ ـ يصور لنا احمد زكى على لسان الفتاة اول شعاع من نور رأته الفتاة العمياء على يد مدرستها فيقول : « ·· ونزلت فى بيتنا ، وجاء اليوم التالى ، فأخذتنى الى حجرتها ، واعطتنى عروسا من قطن فى ثوب حرير ، ولعبت بالعروس ساعة وبينا أنا فى أثنائها ، فتحت مدرستى يدى ، وكتبت فى كفى « عروس » لعبة جديدة تلهو فيها الأصابع ، تابعتها حتى حذقتها ، فملأنى حذقى اياها فرحا ، وثقة واعجابا ، وجريت الى امى ارسم لها هذا الرسم الجديد بأصبعى فى كفى ، ولم أكن ادرى عندئذ انى اتهجى كلمة بل لم يكن يخطر فى بالى ان للكلمات وجودا ، وفى الايام التالية تعلمت بهذه الطريقة كتابة كلمات كثيرة ، مثل قلم وساعه وباب ، ومن الافعال : قعد وجلس وشرب وجاع ، ومضت اسابيع كثيرة قبل ان أعى ان هذه كتابة ، وأن للاشياء ألفاظا مرقومة ·

٣ ـ يمضى بنا أحمد زكى الى تفصيلات هامة وطريفة ، فى طريقة تعليم المكفوفين على هذا النحو ، فيذكر على لسان الفتاة « واختلطت على ذات يوم كلمتان كلمة « ك و ب » وكلمة « م ا ء » والح الاختلاط على الفتاة رغم ما حاولته مدرستى من ابانة ، عندها أخذت بيدى وخرجت الى الحديقة ، ووضعت يدى تحت صنبور ماء ، فأحسست السائل البارد يغمر يدى ، وهى تكتب فى يدى الاخرى « م ا ء » وتركز فكرى كل التركيز على يسراى ويمناى ، عندئذ انحلت عقدة فى نفسى فرحت لها فرحا شديدا ، فى تلك الساعةتكشف لى معنى اللغة لاول مرة ، وعدت الى الدار مغتبطة أحس كل شىء فى طريقى ، واحسست كأن كل شىء يتحرك

عند مسى ، لانه اخذ عندى ينبض بالحياة ، لكل شىء اسم ، ولكل اسم كلمة ، وفى كل كلمة فكرة ، ومن مجموع هذه الاسماء والكلمات والافكار تتألف لغة الكلام والكتابة شىء عظيم ، وتعلمت معنى الام والاب ، والاخ والاخت والمعلمة ، معان تشع بالنور الابيض فى حياةِ كل ما فيها سواد » ٠

٤ ــ وهذه لوحة رابعة رائعة يصور فيها أحمد زكى الفتاة ٠ وقد تقدم بها التعليم الى المرحلة التى صاغت فيها الجمل وادركت فيها اختلاف الفصول والمطر والشجر والطير والارانب وتفتحت لها أروقة الدنيا ، ودرست الطبيعة ثم المعنويات ٠ وهذه هى اللوحة التى يصور لنا فيها أحمد زكى هذا الانتقال الى مرحلة المعنويات على لسان الفتاة اذ يقول : سألتها يوما « ما معنى الحب ؟ وكنت جئت لها بزهرات بنفسج جمعها ذلك الصباح من الجنينة ، فوضعت ذراعها حول خاصرتى وقبلتنى ، ثم كتبت بأصبعها فى كفى : « انى أحبك » ٠ قلت : ما الحب ؟ ، قالت : انه هنا ، واشارت الى مكان قلبى من صدرى ، كانما احسست بضربات قلبى لاول مرة ٠

ولكن حيرنى ما تقول ، لانى لم اتعود ان افهم الأشياء الا عند مسها ٠ وشممت البنفسج ، ثم سألتها فى شىء من الكلام على اشارة أريج البنفسج هذا هو الحب أو هو بعضه ؟ قالت : لا ، عندئذ احسست دفء الشمس تقع على ، فقلت : أهذا هو الحب ؟ ٠ قالت : لا فأحسست بالخيبة ان مدرستى لاتستطيع أن ترينى الحب ٠ وذات يوم كنت انظم عقدا ولامر ما أخطأت فى ترتيب حباته ، وأخذت اطلب الطريقة الى تصحيحه ، عندئذ كتبت مدرستى على جبينى « فكرى » فعرفت من ذلك ان الذى يدور فى رأسى هو معنى الفكر ٠ فكان هذا اول اطلاعى على معنى مجرد ، وقد كنت اعرف معانى الاشياء محسوسة ٠

عندئذ خطر لى ان أعود فى ضوء هذا المعنى الجديد ، فاسأل عن معنى الحب ، وكانت الشمس قد غابت ٠

قالت « ان هذا الغمام فى السماء لاتمسه يدك ، ولكنك تحسينه فى المطر اذا نزل فى يوم صائف وعندئذ تغتبطين له ، وتغتبط معك زهور الحديقة لنزوله ، فكذلك هو الحب ، لا تستطعين مسه ، ولكنك تحسينه فى قلبك وتحسه الاشياء ، فلولا الحب يتخلل الاشياء والناس ، ما كانت سعادة ، ولولا الحب ما كنت تسرعين الى الحقل وتلعبين » ٠

كلام استعصى على فى تلك السن فهمه ، ولكنى احسست انه على انبهامه ، مد لى خيوطا تربطنى بالحياة وبالوجود ٠

٢

والقصة الثانية « نزل الستار فحجب النور ، ثم ارتفع » تدور فى نفس الظروف مع فارق الترتيب والزمن ، فهى قصة رجل اصابه العمى ، ثم ذهب عنه العمى ، واحمد زكى يحكى لنا فيها تجربة العمى من ناحيتين ، الناحية الطبية المادية ، والناحية النفسية ، لهذا فان « نزل الستار » من الادب التصويرى فى المقام الاول ، قبل ان تكون قصة رجل ذهب عنه العمى رويدا رويدا ، ثم اتاه البصر دفعة واحدة ، فرأى ، فعلم أن الصحة تاج على رءوس الاصحاء لايراه الا المرضى ٠

ولهذا فلن نطيل فى استخلاص العبر من القصة الا بالقدر الذى عبر احمد زكى فى آخر مقاله حيث قال : « فلنحمد الله على نعم لا ندركها الا عند افتقادها »

وقبل ان نذهب فى استعراض الصور البيانية التى اتحفنا بها الدكتور زكى ينبغى لنا أن نقف عند نقطتين ٠

أولاهما الاشارة الى سبب ما أحسه القارىء من ان هذا الباب الذى يدرس التصوير البيانى فى أدب الدكتور زكى قد جمع قصتين تدوران حول فقد البصر ، وليس من شك فى أنه لاغرابة فى ذلك ، فالبصر هو أول الحواس واقدرها على التصوير وادراك التصوير ، وليس من مجال اروع ولا ابدع لبيان القدرة البيانية على التصوير من هذا المجال الذى يتصل بتصوير ادق الاحساسات والمشاعر ٠

وثانيهما المقارنة بين طبيعة القصة فى الحالتين ، وكيف استطاع احمد زكى من خلال الصور ان يعبر عن الحالتين المتشابهتين مبينا أثر وجوه الاختلاف من دون ان يشير الى انها وجوه اختلاف ، وانما تستبين هذه للقارىء الذى يقرأ القصتين أو الذى يقرأ هذا الفصل فيدرك الدرجة الرقيقة من التمييز والتفريق التى حبا بها الله احمد زكى ٠

ونعود الى الصور البيانية فى قصة « نزل الستار ، فحجب النور ، ثم ارتفع » :

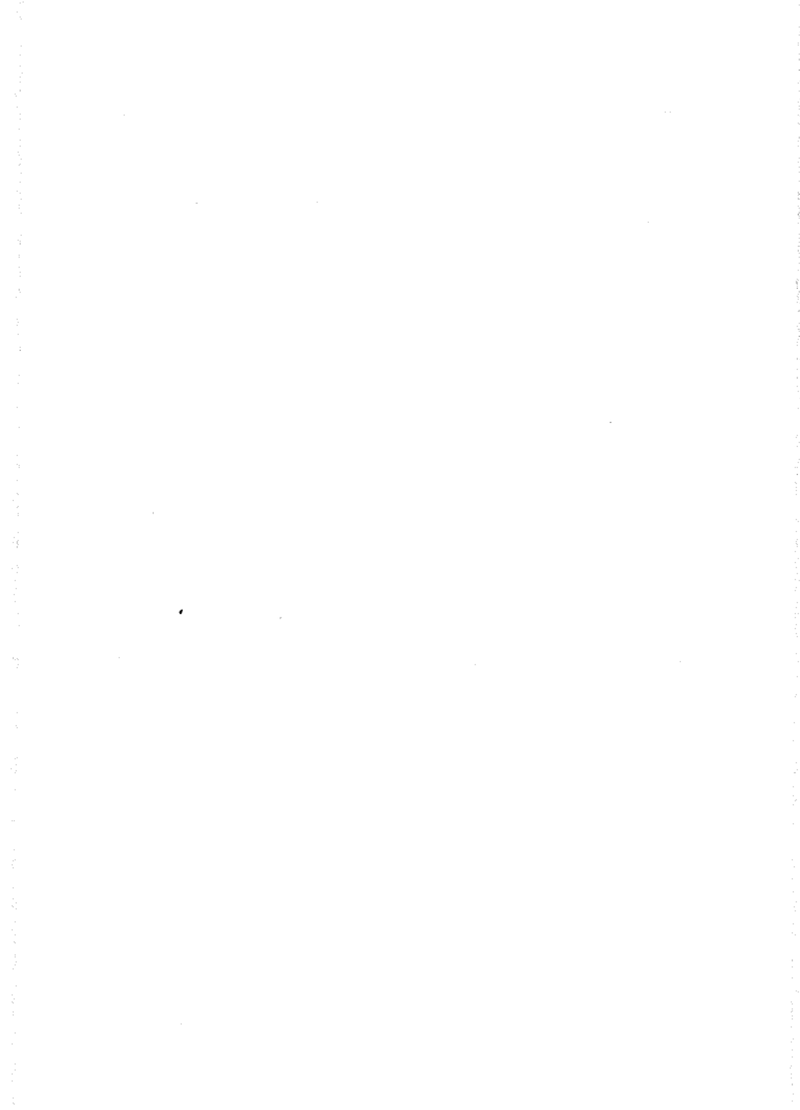
١ ـ فاحمدزكى يشرح نظرية التعويض من غير تصريح باسمها ، فيقول : « واذا عمى الانسان وحجب نوره ، استيقظت فيه الاحاسيس الاخرى استيقاظا غير منظور ، فهو يسمع اكثر مما يسمع ، ويشم اكثر مما يشم ، والخشب والمعدن يقتربان منه ، فيدرك اقترابهما بفروق خفيفة من حرارة وبرودة ، والقطن والصوف وقد كان مسهما أطول المس ، يمسهما الآن ، فيجد من مسها شيئا

جديدا ، والكلب والقط والناس يصبح لهم الى جانب الشم هالة ، كأنها هالة من مغناطيسية كهربية »

٢ ـ يصور أحمد زكى مراحل العمى فيقول « وجاءه العمى على مهل ، فأخذ منه متع الحياة واحدة بعد الاخرى : فالرياضة والالعاب ذهبت وأول ما ذهب لعب التنس ثم الكرة ، ثم السيارة ، أخذ سيرها فى يديه يتباطأ حتى صارت ابطأ من حمار ، ثم الكتب عزت قراءتها ، ثم امتنعت ، وكذلك الصحف لم يعد يقرأ منها الا عنوانها ثم ذهبت هذه » ٠

٣ ـ صورة أخرى للرجل وقد عاد اليه بصره فهو ينظر الى رجل امامه ويسأل من هذا الرجل ، وللرجل صورة ولده الاكبر « انه لا يعرفه ٠ موقف غريب ٠ يلذ ويؤلم ٠ ويسأل الابن اباه : ألا تعرفنى ؟ فيقول الأب فى نفسه : « الحق انى لا أعرفك يا بنى ووجهه أزرق كسائر الوجوه ، ولكن من تكون ؟ أنت ؟ ابنى ؟ لايمكن هذا ان ابنى طفل او شاب ، اما انت فكهل » ٠

ويعود الابن يسأل : ألا تعرفنى يا ابتى ؟ فيقول فى نفسه « نعم انه صوت الولد ٠ ولكنه ليس الآن بولد ٠ كبر خلسة ٠٠٠ ويتعارفان ٠



فهرس الاعلام

المحتويات

رقم الايداع ٨٤/٤٣٨٧
الترقيم الدولى ٠ ـ ٠٤٣١ ـ ١ ٠ ـ ٩٧٧

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

ABSTRACT

Dr. Ahmed Zaki was one of the most prominent Arabic scientists in the first half of the 20th. Century To his efforts we attribute the foundation of our national school of organic chemistry as the first Egyptian among the staff of chemistry in the Faculty of Science in the first Egyptian University as well as the first Egyptian chemist to obtain D.Sc. in chemistry from London University (1928).

Before his mission to Europe (1921 — 1928) he worked as a teacher in different Cairo secondary schools after being graduated in the high school of teachers (1914).

Dr. Zaki was born in Suez on the Suez Canal (1894) where he spent his first years of life before depature to Cairo (1900).

As Dr. Zaki had the chance to be one of the staff of Faculty of Science, he did his best for creation of junior Egyptian Chemists as well as for the encouragement of *youth scientific and social activities.*

Thereafter, Dr. Zaki was chosen to be the first National Director of Chemistry Organization of Egypt where he also could achieve an outstanding success.

As soon as his calling for the establishment of National Scientific Research Centre took place in 1946, he was appointed as the first director where he did a lot of hard creative work for a long time till he was able to introduce to his country this great effective and active organization. At very short periods of time Dr. Zaki was the «Minister of Social Affairs» (1952), Director of Cairo *University (1953), Director of Chemistry Organization (1945) and chief editor of El-helal, the oldest Arabic cultural magazine (1947 — 1950).*

After his retriement, Prof. Zaki was invited to establish in Kuwait a newly monthly illustrated review named «El-Arabi». The magazine which Prof. Zaki gave his vast experience and full time up to the last minute of his life (1975). Dr. Zaki wrote a lot about his point of view regarding the political and social affairs as much as about science, medicine and inventions in simplified way. Besides, Dr. Zaki was Former President of Egyptian Academy for Science, and Egyptian Academy for Advacement of Science and a member of Arabic Language Academy (1946).

This book deals with the life of that great arabic thinker and scientist in the first chapter. The second one is dedicated to the presentation and criticism of his philosophy in many fields whereas the third chapter introduces & discusses the Literture of Dr. Zaki which was fortunately of high quality and great quantity.

A complete pibliography for the works of Dr. Zaki has been prepared by the author who he hopes that it will have the chance to see the light.

Dr. M. Gawady
P.O. Box 177 Orman



AHMED ZAKI

HIS LIFE, PHILOSOPHY & LITERATURE

Dr. MOHAMED EL GAWADY



General Egyptian Book Organization